# حصاد التبليغ

## الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

# حصاد التبليغ

## الجزء الثاني

الشيخ جميل الربيعي

# أَهْدافُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(1).

القتال في الإسلام وسيلة؛ لدفع الظّلم، وإقامة العدل بتحكيم شرعة الله في الحياة الاجتماعيّة لا لأجل السّيطرة، والاستعلاء، والاعتداء على عباد الله، وهذه الآية أوّل آية نزلت في الإذن بالقتال، والرّدّ المسلّح على المشركين؛ «ليدفعوا عن أنفسهم، وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين، بعد أن بلغ أقصاه، وليحقّقوا لأنفسهم، ولغيرهم حريّة العقيدة، وحريّة العبادة في ظلّ دين الله، ووعدهم النّصر، والتّمكين على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم الّتي بيَّنها لهم»(2).

وأسباب الإذن بالقتال كما تصرّح الآية الكريمة هو الظّلم الّذي ينصبّ على المؤمنين من طغاة قريش، وإخراجهم من ديارهم بغير حقّ.

## أَسْبابُ الْقِتالِ:

لم يلجأ الرّسول ﷺ إلى قتال قريش إلا بعد أن استنفد كلّ الوسائل

---

(١) الحج: ٣٩-٤٠.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٦٠١/٥.

الأخرى من دعوة إلى الحقّ، وهداية إلى الصّراط المستقيم، وصبر على الأذى بكلّ أشكاله، والرّدّ بالحسنى، ومقابلة الإساءة بالإحسان... الخ، ولكنَّ قوى الكفر لا تفهم لغة العقل والمنطق، ولا ترتدع إلا بالحديد والنّار.

والإسلام شَرَّعَ القتال لأهداف سامية منها:

١- الدّفاع عن العقيدة، والنّفس، والقيم الإنسانيّة، وعن المظلومين والمستضعفين.

٢- تحطيم قوى الطّواغيت المستعبِدَة للإنسانيّة، وإنقاذها وتخليصها من قوى الضّلال والانحراف، وتعبيدها لله تعالى، يقول تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾[1].

٣- لرفع الفتنة: كثيراً ما تبدو قوى الطّاغوت والتّجبّر كبيرة في أعين النّاس، فينبهرون بها، فتخور عزائمهم، ولأجل رفع ذلك الانبهار لا بدَّ من تضعيف تلك القوى بالقتال؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾[2]، في الدّرّ المنثور في تفسير الآية بطرق عن قتادة: «﴿ **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ** ﴾[3]، فكان هذا كذا حتّى نُسِخَ، فأنزل الله، ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾ أي: شركٌ، ﴿ **وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾، قال: حتّى يُقال: لا إله إلا الله. عليها قاتل رسول الله ﷺ، وإلَيها دعا. وذُكِرَ لنا أنّ النّبيّ ﷺ كان يقولُ: **إنّ اللهَ أَمَرَني أَنْ**

(١) النّساء: ٧٥.

(٢) البقرة: ١٩٣.

(٣) البقرة: ١٩١.

أُقاتِلَ النّاسَ حتّى يَقولوا لا إلهَ إلا الله، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال: وَإِنَّ الظّالِمَ الَّذي أَبى أَنْ يَقولَ لا إلهَ إلا اللهُ يُقاتَلُ حتّى يَقولَ لا إلهَ إلا اللهُ»[١].

قال العلامة الطّباطبائيّ رَحِمَهُ اللهُ: «والإسلام إنّما استعمل السّيف، وشهر السّلاح على الظّالمين الّذين لم يقتنعوا بالآيات والبراهين استعمل القوّة في سبيل من وقف حجر عثرة في سبيل الدّعوة إلى الحقّ أجهزَ السّلاح، لدفع شرّ المعاندين لا إلى إدخالهم في حظيرة الإسلام، يقول جل شأنه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ فالقتال إنّما هو لدفع الفتنة لا لاعتناق الدّين والعقيدة.

فالإسلام لا يقاتل عبطة واختياراً، وإنّما يحرجه الأعداء، فيلتجئ إليه اضطراراً، ولا يأخذ منه إلا بالوسائل الشّريفة، فيحرم في الحرب والسّلم: التّخريب، والإحراق، والسّمّ، وقطع الماء عن الأعداء كما يحرم قتل النّساء والأطفال، وقتل الأسرى، ويوصي بالرّفق بهم، والإحسان إليهم مهما كانوا من العداء والبغضاء للمسلمين، ويحرّم الاغتيال في الحرب والسلم، ويحرّم قتل الشّيوخ والعجزة، ومن لم يبدأ بالحرب، ويحرّم الهجوم على العدو ليلاً ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[٢]، ويحرّم القتل على الظّنّة والتّهمة والعقاب قبل ارتكاب الجريمة إلى أمثال ذلك من الأعمال الّتي يأباها الشّرف والمروءة، والّتي تنبعث من الخسّة والقسوة والدناءة والوحشيّة.

كلّ تلك الأعمال الّتي أبى شرف الإسلام ارتكاب شيء منها مع الأعداء

---

(١) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: ٣١٥/٢.

(٢) الأنفال: ٥٨.

في كلّ ما كان له من المعارك، والحروب قد ارتكبتها بأفظع صورها وأهول أنواعها الدّول المتمدّنة في هذا العصر الّذي يسمّونه عصر النّور؛ نعم، أباح عصر النّور قتل النّساء والأطفال والشّيوخ والمرضى، والتّبييت ليلاً، والهجوم ليلاً بالسّلاح والقنابل على العُزّل والمدنيّين الآمنين، وأباح القتل بالجملة.

ألم يرسل الألمانُ في الحرب العالميّة الثّانية القنابل الصّاروخيّة إلى لندن، فهدّمت المباني، وقتلت النّساء والأطفال والسّكّان الآمنين؟! ألم يقتل الألمان ألوف الأسرى؟! ألم يرسل الحلفاء في الحرب الماضية ألوف الطّائرات إلى ألمانيا لتخريب مدنها؟! ألم يرمِ الأمريكان القنابل الذّريّة إلى المدن اليابانيّة؟!

وبعد اختراع وسائل الدّمار الحديثة كالصّواريخ والقنابل الذّرّيّة والهيدروجينيّة لا يعلم إلا الله ماذا يحلّ بالأرض من عذاب وخراب ومآسي وآلام إذا حدثت حرب عالميّة ثالثة، ولجأت الدّول المتحاربة إلى استعمال تلك الوسائل، أرشد اللهُ الإنسانَ إلى طريق الصّواب، وهداه الصّراط المستقيم»[1].

ونضيف إلى كلام العلامة الطّباطبائيّ: ألم ترمِ أمريكا القنابل المحرّمة دوليّاً - فضلاً عن تحريم الإسلام - على جنوب العراق في حرب الخليج الثّانية؟ وكان في تلك القنابل مادّة (اليورانيوم) الّتي يمتدّ أثرها على البيئة البشريّة، بل والطّبيعيّة لأجيال عدّة، وقد بان أثره اليوم بعد مضيّ سنوات عديدة بانتشار مرض السّرطان بين سكّان المنطقة، وظهرت حالات التّشوّه في أجنّة الحوامل، ومن قبل ذلك استعمل عميلها صدّام الأسلحة الجرثوميّة في حلبچة ومناطق أخرى من العراق، وقتل آلاف الأبرياء على مرأى ومسمع من المنظّمات الإنسانيّة، ولم ينفث أحد ببنت شفة.

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٦٤/٤-١٦٥.

٤- لرفع الحواجز أمام انتشار الدّعوة، وتطبيق شرعة الله تعالى؛ ففي الفقه الإسلاميّ على القائد أن يدعو[١] سكّان البلد الّذي يروم فتحه إلى الإسلام، ويطلب منهم أن يفسحوا المجال لنشر رسالة الله تعالى في أوساطهم، فإن امتنعوا ووقفوا في وجه الدّعوة فحينئذٍ عليه أن يقاتلهم؛ لينشر الإسلام في تلك البلاد، «وإن لم يمنعوا من الدّعوة، ولم يهدّدوا الدّاعي، ولم يؤذوا المؤمنين، لكن زاحموهم في تشكيل الحكومة الإسلاميّة الّتي هي القوة التّنفيذيّة للقوانين الإسلاميّة، يصبح القتال واجباً حينئذٍ لأجل لذلك، وإذا لم يزاحموهم حتّى في ذلك، لا يجب القتال والجهاد.

وعلى أيّ تقدير ليس القتال للإكراه في الدّين... وبهذا الذي ذكرناه يظهر الجواب عمّا ربما يورد على الإسلام في تشريعه الجهاد: بأنّ الإسلام قام بالسّيف، وأنّه ليس ديناً إلهيّاً؛ لأنّ الإلهَ الرَّحيمَ لا يأمر بسفك الدّماء، وأنّ العقائد الإسلاميّة خطرٌ على المدنيّة؛ ولذلك ربّما سمّاه بعضهم - كالمبلّغين من النّصارى - بدين

---

(١) عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن القاسم بن محمّد، عن المنقريّ، عن سفيان بن عُيَيْنة، عن الزُّهريّ، قال: «دخل رجال من قريش على عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما، فسألوه: كيف الدّعوة إلى الدّين؟ فقال: تَقولُ: بسْمِ الله الرَّحْمن الرَّحيم، أَدْعوكُمْ إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى دينه، وَجماعُهُ أَمْران: أَحَدُهُما مَعْرِفَةُ الله عزَّ وجلَّ، وَالآخَرُ الْعَمَلُ برضْوانه، وإنَّ مَعْرفَةَ الله عزَّ وجلَّ أَنْ يُعْرَفَ بالْوَحْدانيَّة، وَالرَّأْفَة، والرَّحْمَة، وَالْعزَّة، وَالْعلْمِ، والْقُدْرَة، والْعُلُوِّ على كُلِّ شَيْء، وأَنَّهُ النّافعُ الضّارُّ الْقاهرُ لكُلِّ شَيْء، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، وأَنَّ ما جاءَ به هُوَ الْحَقُّ منْ عنْد الله عزَّ وجلَّ، وَما سواهُ هُوَ الْباطلُ، فَإذا أَجابوا إلى ذلكَ، فَلَهُمْ ما لِلْمُسْلمينَ، وَعَلَيْهِم ما على الْمُسْلمينَ»؛ الكافي: ٤٢٩/٩-٤٣٠، ح/٨٢٥٨.

السّيف والدّم، وآخرون بدين الإجبار والإكراه»[1]... ليكون الدّين لله والعبوديّة لله لا للبشر، «فلا يكون هناك - حينئذ - سلطان في الأرض لغير الله، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله.. فإذا أزيلت هذه الحواجز المادّيّة ترك النّاس أفراداً يختارون عقيدتهم أحراراً من كلّ ضغط»[2].

٥- وقد حدّد القرآن الكريم الّذين يجب على المؤمنين قتالهم في ستّة أصناف:

أ- **الّذين يقاتلون المسلمين:** فالدّفاع عن النّفس أمر فطريّ وشرعيّ في ذات الإنسان؛ ولذا جاء الأمرُ صريحاً في القرآن الكريم: ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾[3].

ب- **أولياء الشّيطان:** وهم جميع الّذين ساروا في غير خطّ الله تعالى من الكفّار الّذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، يقول تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾[4].

ج- **أئمّة الكفر:** وهم رؤوس الضّلال الّذين يقودون النّاس إلى الكفر والشّرك؛ فهم «رؤساء الكفر، والضّلالة، وخصّهم؛ لأنّهم يضلّون أتباعهم، قال الحسن: أراد به جماعة الكفّار، وكلّ كافر إمام لنفسه في الكفر، ولغيره في الدّعاء

---

(١) السّيّد محمّد صادق الرّوحانيّ، فقه الصّادق عليه السلام: ١٦/١٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٨٥٦/٣

(٣) البقرة: ١٩٠.

(٤) النّساء: ٧٦.

إليه، وقال ابن عبّاس وقتادة: أراد به رؤساء قريش مثل الحارث بن هشام، وأبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الّذين نقضوا العهد، وكان حذيفة، يقول: لم يأت أهل هذه الآية بعد، وقال مجاهد: هم أهل فارس والرّوم، وقرأ عليٌّ عليه السلام هذه الآية يوم البصرة، ثمّ قال: **أَما وَالله لَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله **وَقالَ: يا عَلِيُّ، لَتُقاتِلَنَّ الْفِئَةَ النّاكِثَةَ، وَالْفِئَةَ الْباغِيَةَ، وَالْفِئَةَ الْمارِقَةَ** ﴿**إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ**﴾»[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ** عليه السلام: **يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمينَ، قاتِلوا** ﴿**أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ**﴾[٢]، **ثُمَّ قالَ: هؤُلاءِ الْقَوْمُ هُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، يَعْني أَهْلَ صِفّينَ وَالْبَصْرَةِ وَالْخَوارِجِ**»[٣].

«وسمّاهم أئمّة الكفر؛ لأنّهم السّابقون في الكفر بآيات الله يتّبعهم غيرهم ممّن يليهم، يقاتلون جميعاً لعلّهم ينتهون عن نكث الأيمان ونقض العهود»[٤].

وواضح في الآية الكريمة أنَّ الغرض من قتال أئمّة الكفر هو إيقاف نشر تيّار الكفر والضّلال المتمثّل في رؤوس الكفر الّذين تتّبعهم النّاس، «وعامّة النّاس تَبَعٌ لزعمائهم ورؤسائهم، فينبغي أن يكون الهدفُ القضاءَ على رؤسائهم وأئمّتهم؛ لأنّهم أساس الضّلال، والتّضليل، والظّلم، والفساد، فاستأصلوا شجرة الكفر من جذورها، وأحرقوها، فمواجهة الكفّار لا تجدي نفعاً ما دام أئمّتهم في الوجود»[٥].

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٧١/٢١.

(٢) التّوبة: ١٢.

(٣) تفسير فرات الكوفيّ: ١٦٣/١.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٥٩/٩.

(٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٩٨/٥.

د- **الّذين لا يؤمنون بالله، وباليوم الآخر، ولا يدينون دين الحقّ**: لا شكَّ أنَّ الإسلام يريد أن يقضي على العقائد الفاسدة والمحرّفة عن شرعة السّماء، ويهدي النّاس إلى العقيدة الحقّة، وعندما لا يتقبّلون الدّليل العقليّ ولا المنطقيّ، ولا يستجيبون لدعوة الحقّ والعدل، ويصرّون على غيّهم فقد جعل الله أمامهم أحد طريقين؛ إمّا القتال، وإمّا دفع الجزية عن يد وهم صاغرون، يقول تعالى: ﴿ **قَاتِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾[١].

هـ- **المشركون كافّة**: وهم كلّ الّذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، فعلى المسلمين أن يقاتلوهم جميعاً متّحدين كما يقاتلونهم هم جميعاً، يقول تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾[٢].

و- **البغاة**: الفئة الباغية هي الظّالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل، قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**وَيْحَ ابْنَ سُمَيَّةَ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ**»[٣].

قال الشّهيد الأوّل رحمه الله: «من خرج على المعصوم من الأئمّة عليهم السلام فهو باغٍ، واحداً كان واحد كابن ملجم - لعنه الله - أو أكثر كأهل الجمل وصفّين»[٤].

وقال السّيّد الخوئيّ قدس سره في منهاجه تحت عنوان قتال أهل البغي: «وهم

---

(١) التّوبة: ٢٩.

(٢) التّوبة: ٣٦.

(٣) الهيثميّ، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ٢٤٢/٧؛ كنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٧٢٦/١١؛ ح/٣٣٥٥٩.

(٤) الشّهيد الثّاني، الرّوضة البهيّة في شرح اللّمعة الدّمشقيّة: ٥٠٩/٢.

الخوارج على الإمام المعصوم عليه السلام الواجب إطاعته شرعاً»[١]؛ لأنَّ الباغي ظالمٌ، والظّالم ينبغي أن يوقف، ويؤدّب، ويردع عن ظلمه، يقول تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[٢].

وعند التّأمّل في هذه الموارد نجد أنَّ الإسلام إنّما أمرنا بالقتال في حالة عدم نفع الوسائل الأخرى من الدّعوة، والجدال، والإقناع، وبعبارة أخرى: من يعجز المنطق أن يقنعه، لا بدّ للسّيف أن يردعه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى للقتال في الإسلام أغراضه وأهدافه الإلهيّة الّتي تقدّم ذكر بعضها، ومن خلال هذه الآيات تبيّن أنّها هي القضاء على كيد الشّيطان بمختلف أشكاله، وإيقاف حركة أئمّة الكفر، ودعواتهم الباطلة للقضاء على الكفر، والشّرك، والظّلم، والبغي، والعدوان...

هذه هي أهم أهداف القتال في الإسلام.

## يَوْمُ الْفُرْقَانِ:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾[٣].

يومٌ من أيّام الله العظيمة، وهو أوّل يوم أعزّ اللهُ فيه الإسلامَ، وأذلّ الشّرك، وكان مفتاح النّصر، ونقطة الانطلاق الكبرى الّتي كسرت شوكة الكفر، وركّزت

---

(١) السّيّد الخوئيّ، منهاج الصّالحين: ٣٨٩/١.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) الأنفال: ٤١-٤٢.

دعائم التّوحيد... ذلك هو يوم بدر الّذي فرّق الله به بين الحقّ والباطل، وأطفأ شرارة الكفر، وأشرقت فيه شمس الإسلام.

وأهداف هذه المعركة لم تكن أهدافاً اقتصاديّةً للسّيطرة على أموال قريش، كما كانت العرب تصنع ذلك في جاهليّتها عندما تغزو بعض القبائل بعضاً - وإن حقَّ له ﷺ ذلك- وإنّما كانت هناك أهدافٌ رساليّةٌ، كان ﷺ يطمح إلى تحقيقها، وفق المخطّط الرّبّانيّ لرسالته، وأهمّ هذه الأهداف هي:

١- إنَّ قريش كانت ذات هيبة كبيرة في الجزيرة العربيّة كافّة، ماسكة بزمام الأمور، ومسيطرة على المستضعفين، وكانت تلك الهيبة مانعاً قويّاً لدخول النّاس في شريعة الله تعالى؛ فالرّسول ﷺ كان يهدف إلى كسر تلك الهيبة لقريش في نفوس العرب في مكّة والمدينة، وبقيّة القبائل الأخرى في الجزيرة العربيّة؛ ولذلك عندما كُسِرَت هيبة قريش في فتح مكّة دخل النّاس في الإسلام أفواجاً.

إذن لمّا كانت قريش هي العقبة الوحيدة الّتي كانت تقف عائقاً كبيراً في وجه انتشار الإسلام، وامتداده إلى البقاع الأخرى كان من الأمور اللازمة أن تُحَطّم كبرياؤها؛ لتمتدّ الدّعوة إلى بقيّة البقاع، وقد كان رسول الله ﷺ يبدؤهم بالقتال، ويتعرّض لقوافلهم، ويضغط على اقتصادهم من خلال إرسال السّرايا؛ للتّعرض لقوافل مكّة التّجاريّة بينها وبين الشّام واليمن، وقد سبقت معركة بدر خمسة سرايا قاد بعضاً منها بنفسه ﷺ، وبعضاً قادها بعض أصحابه؛ ليقطع عصب الحياة عنها، وليجبرها على الاعتراف بقوّة المسلمين.

٢- للَفت أنظار المستضعفين في الجزيرة العربيّة إلى أنَّ مركز القوّة اليوم هو الإسلام وليس قريشاً، وأنَّ المسلمين هم القوّة الكبرى الّتي ستسيطر على مقدّرات الجزيرة العربيّة.

هذه هي أهمّ الأهداف الجوهريّة لمعركة بدر، وأمّا غير ذلك فكان استثناء.

## أسبابُ انتصارِ المُسلمينَ:

مع أنَّ عدد المسلمين وعِدّتهم بالنّسبة إلى قريش قليلة جداً؛ فقد جهّزت قريش جيشاً جرّاراً كان قوامه بين ألف وبين تسعمائة مقاتل تتقدّمهم القِيان بالدّفوف والأناشيد الحماسيّة، وساقوا معهم سبعمائة بعير، ومائة فرس يقودها كبار عتاة قريش، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً، وليس معهم إلا فرسٌ واحدٌ وسبعون بعيراً، ومع ذلك تحقّق النّصر لأسباب عدّة منها:

١- إنَّ رسول الله ﷺ هيّأ الأجواء النّفسيّة للمعركة من خلال إرسال السّرايا الّتي أرسلها، وأمرها أن تتعرّض لقوافل قريش كمحاولة للتّحرّش بها؛ فقد أرسل مجموعة سرايا استطلاعيّة وقتاليّة إلى طرق قوافل قريش قاد بنفسه ثلاث سرايا وغزوات قبل بدر الكبرى هي: غزوة الأبواء بعد اثني عشر شهراً من الهجرة؛ ليضغط على قريش، وفيها عقد مع بني ضمرة هُدْنَةً، ومنها غزوة بواط[١]، وكانت متكوّنة من مائتي مقاتل، ومنها غزوة العشير أعطى فيها اللّواء لحمزة، ولم يظفر بالقافلة إلا أنّه وادع اليهود والمنافقين، وأخذ عليهم العهود أن لا يساعدوا قريشاً؛ كما كانت هناك غزوات أخرى[٢]... بكلّ ذلك هيّأ الأجواء النّفسيّة للمعركة ممّا جعل المسلمين يتشوّقون لها.

---

(١) «بُواط بضمّ الباء وفتح الواو مخفّفة، وعن بعض أنّه بالفتح وقد يضمّ، وفي الإمتاع والسّيرة أنّه من ناحية رضوى، وعن الزّرقاني أنّه جبلٌ من جبال جُهَينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة، وعن السّهيليّ أنَّ بواط جبلان فرعان لأصل واحد، أحدهما جلسى، والآخر غورى، ورَضْوى بفتح فسكون: جبل بالمدينة على أربعة برد من المدينة»، بحار الأنوار: ١٨٧/١٩ (الهامش).

(٢) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للنّويريّ: ١/١٧-١٠.

٢- أخذ زمام المبادرة والتّحوّل من دور الدّفاع إلى دور الهجوم، والسّيطرة على ساحة المعركة ممّا جعل العدوّ في موضع الدّفاع؛ فقد سبق قريشاً إلى المواقع المهمّة، وسيطر على الماء، وأحرز المقدار الكافي منه، وجعله في أحواض.

٣- جَمعُ المعلومات، واستطلاع الأرض، والمواقع المهمّة، والتّعرّف على قوّة العدوّ، روى المؤرّخون أنَّ النَّبيَّ ﷺ «بعث عليّاً والزّبير وسعد بن أبي وقّاص وبَسْبَس بن عمرو يتجسسون على الماء، وأشار رسول الله ﷺ إلى ظُرَيْب، فقال: **أَرْجو أَنْ تَجدوا الْخَبَرَ عِنْدَ هذا الْقَليبِ[1] الَّذي يَلي الظُّرَيْبَ**، والقليب بئر بأصل الظُّرَيب، والظُّرَيب جبل صغير، فاندفعوا تلقاء الظُّرَيب، فيجدون على تلك القليب الّتي قال رسول الله ﷺ روايا قريشٍ فيها سُقّاؤُهم فآسروهم، ولقي بعضهم بعضاً، وأفلت عامّتهم»[2].

وأسّروا بعضهم، وأتوا بالأسرى إلى النّبيّ ﷺ، «وهو قائم يصلّي، فسألهم المسلمون، فقالوا: نحن سُقّاء قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهم، ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان، وأصحاب العير، فضربوهم، فلما أذلقوهم[3] بالضّرب، قالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، وهذا العير بهذا الْقَوز[4]، فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم، فسلّم رسول الله ﷺ من صلاته، ثمّ قال: **إِنْ صَدَقوكُمْ ضَرَبْتُموهُمْ، وَإِنْ كَذَبوكُمْ تَرَكْتُموهُمْ**، فقال أصحابه: إنّهم يا رسول

---

(١) القليب: البئر قبل أن تُطوى. كتاب العين: ٥/١٧١، (قلب).

(٢) الواقديّ، كتاب المغازي: ١/٥١.

(٣) أذلقوهم: أوجعوهم ضرباً.

(٤) القوز: من الرّمل: صغير مستدير تشبّه به أرداف النّساء؛ وقال الأزهريّ: وسماعي من العرب في القَوْز أنَّه الكثيبُ المشرفُ؛ ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥/٣٩٨، (قوز).

الله، يقولون إنّ قريشاً قد جاءت، فقال: **لَقَدْ صَدَقوكُمْ، خَرَجَتْ قُرَيْشٌ تَمْنَعُ عيرَها، وَخافوكُمْ عَلَيْها،** ثمّ أقبل ﷺ على السُّقّاء، فقال: **أَيْنَ قُرَيْشٌ؟** فقالوا: خلف هذا الكثيب[١] الّذي ترى، قال: **كَمْ هُمْ؟** قالوا: كثير، قال: **كَمْ عَدَدُهُمْ؟** قالوا: لا ندري، قال: **كَمْ يَنْحَرونَ؟** قالوا: يوماً عشرة، ويوماً تسعة، فقال: **الْقَوْمُ ما بَيْنَ الأَلْف وَالتِّسْعُمائَة**»[٢].

٤- السِّرِّيّة والكتمان: فقد تكتّم ﷺ على جميع تحرّكاته بدقّة متناهية؛ فعندما التقى ﷺ بسفيان الضّمريّ دار بينهما حوار فقال ﷺ:

- **مَنِ الرَّجُلُ؟**

- بلى، من أنتم؟

- **فَأَخْبِرْنا وَنُخْبِرْكَ.**

- وذاك بذاك؟

- **نَعَمْ.**

- فسلوا عمّا شئْتُم.

- **أَخْبِرْنا عَنْ قُرَيْشٍ.**

- بلغني أنَّهم خرجوا يوم كذا وكذا من مكّة، فإن كان الّذي أخبرني صادقاً فإنّهم بجنب هذا الوادي.

- **فَأَخْبِرْنا عَنْ مُحَمَّد وَأَصْحابه.**

- خُبِّرْتُ أنَّهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الّذي خبّرني

---

(١) الكثيب: التلّ من الرّمل.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١٥/١٤.

صادقاً، فهم بجانب هذا الوادي؛ فمن أنتم؟

- **نَحْنُ مِنْ ماء**.. وأشار بيده نحو العراق.

فقال الضَّمريّ: من ماء العراق! ثمّ انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى أصحابه ولا يعلم أحدٌ من الفريقين بمنزل أصحابه[1].

٥- روح التّطلّع للشّهادة عند كثير من المقاتلين، والتّفاني والاستماتة في سبيل الله تعالى، والشّوق إلى الجنّة ممّا جعلهم يتنافسون في الخروج إلى المعركة بإصرار، فحين «ندب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ المسلمين، وقال: **هذه عيرُ قُرَيْش، فيها أَمْوالُهُمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُغَنِّمَكُموها**. فأسرع من أسرع، حتّى إن كان الرّجل ليساهم أباه في الخروج، فكان ممّن ساهم أباه سعد بن خَيْثمة، فقال سعد لأبيه: إنّه لو كان غير الجنّة آثرْتُكَ به، إنّي لأرجو الشّهادة في وجهي هذا، فقال خيثمة: آثرني وقرّ مع نسائك فأبى سعد، فقال خيثمة: إنّه لا بدّ لأحدنا من أن يقيم، فاستَهما، فخرج سهم سعد، فقُتِلَ ببدر، وأبطأ عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَشَرٌ كثيرٌ من أصحابه، وكرهوا خروجه، وكان في ذلك كلامٌ كثيرٌ واختلاف، وبعضهم تخلّف من أهل النّيّات والبصائر، لم يظنّوا أنّه يكون قتال، إنّما هو الخروجُ للغنيمة، ولو ظنّوا أنّه يكون قتال لما تخلّفوا، منهم أُسَيْد بن حُضَير، فلمّا قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، قال أُسَيْد: الحمد لله الّذي سرّك، وأظهرك على عدوّك، والّذي بعثك بالحقّ ما تخلّفْتُ عنك رغبَةً بنفسي عن نفسك، ولا ظننْتُ أنّك تلاقي عدوّاً، ولا ظننْتُ إلا أنّها العير، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **صَدَقْتَ**»[2].

---

(١) كتاب المغازي: ٥٠/١؛ ينظر: كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدّينوريّ: ١٩٤/١؛ تاريخ الطّبريّ: ٤٣٦/٢؛ الأغاني لأبي فرج الأصفهانيّ: ١٨٣/٤-١٨٤؛ البداية والنّهاية لابن الأثير: ٣٢٣/٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨٥/١٤-٨٦.

وعن عامر بن سعد عن أبيه قال: «رأيتُ أخي عُمَير بن أبي وقّاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يتوارى، فقلْتُ: مالك يا أخي؟ قال: إنّي أخاف أن يراني رسول الله ﷺ ويستصغرني فيردّني، وأنا أحبّ الخروج، لعلّ الله يرزقني الشّهادة»، قال: «فعُرِضَ على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع، فبكى عُمَيْر، فأجازه رسول الله ﷺ»، قال: «فكان سعد يقول: كنْتُ أعقد له حمائل سيفه من صِغَره، فقُتِلَ ببدر، وهو ابن ستّ عشرة سنة»[1].

نعم، كانت روح الشّوق إلى الشّهادة هي الغالبة على المؤمنين يوم بدر حتّى أنَّ أحدهم عندما سمع رسول الله ﷺ يقول: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يُقاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ في حَمْلَة، فَيُقْتَلَ صابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ، إلا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**»، فقال عُمَيْر بن الحُمام، أخو بني سَلِمة، وفي يده تَمَرات يأكلهنّ: «بخ بخ! فما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلا أن يقتلني هؤلاء»، ثمّ قذف التّمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم، حتّى قُتِلَ[2].

وأدقُّ وصفٍ لأصحاب رسول الله ﷺ ما وصفهم به عمير بن وهب الجمحيّ وكان صاحبَ قِداحٍ أرسلته قريش؛ ليستطلع لها جيش رسول الله ﷺ، فلمّا رجع، قال: «يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت النّاقع، قوم ليست لهم مَنَعَةٌ، ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خُرْساً لا يتكلمون، يتلمظّون تلمّظ[3] الأفاعي، والله ما أرى أن نقتل منهم رجلاً حتّى يُقْتَل منّا رجلٌ،

(١) كتاب المغازي: ٢١/١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤٦/١٤؛ ينظر: الاستذكار لابن عبد البرّ: ٢٩٦/١٤-٢٩٧؛ بحار الأنوار: ٣٣٩/١٩.

(٣) التّلمّظ: التّذوّق، وهو الأخذ باللّسان ما يبقى في الفم بعد الأكل.

فإذا أصابوا منكم عددهم، فما خير في العيش بعد ذلك، فروا رأيكم»[١].

ووصفهم أبو أسامة الجَشَميّ، وقد أرسلته قريش بعد عُمَير بن وهب؛ ليتأكّد لها الخبر، فسألوه: «ما رأيْتَ؟»، فقال: «والله ما رأيْتُ جَلَداً، ولا عدداً، ولا حَلْقة، ولا كُراعاً، ولكنّي والله رأيْتُ قوماً لا يريدون أن يردّوا إلى أهليهم! رأيْتُ قوماً مستميتين، ليست معهم مَنَعَةٌ، ولا ملجأ إلا سيوفهم، زُرْق العيون[٢]، كأنّهم الحصا تحت الحجف[٣]»[٤].

٦- قيادة الرّسول الأعظم ﷺ الحكيمة: حيث استطاع أن ينظّم جيشه بأسلوب مبتكر لا تعرفه العرب، وأن يسلّم قيادة الكتائب والسّرايا إلى رجال أكفّاء أشدّاء كعليّ عليه السلام، وحمزة بن عبد المطّلب، ومصعب بن عمير رضي الله عنهما، وأن يوقد في أنفسهم شعلة الأمل في النّصر، ويدفع بهم إلى المعركة بشوق رغم قلّة العدد، فقد كانوا يتعاقبون البعير الثّلاثة والأربع، وعندما رأى حالهم رفع يده داعياً الله تعالى: «**اللّهُمَّ، إنَّهُمْ حُفاةٌ فَاحْمِلْهُمْ؛ اللّهُمَّ، إنَّهُمْ عُراةٌ فاكْسُهُمْ، اللّهُمَّ، إنَّهُمْ جِياعٌ فَأَشْبِعْهُمْ**»، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا[٥].

هكذا استطاع ﷺ أن يبعث في نفوسهم الأمل بالنّصر، فبعد أن استشارهم،

---

(١) كتاب الطّبقات الكبير: ١٥/٢؛ إمتاع الأسماع للمقريزيّ: ١٠٢/١؛ بحار الأنوار: ٢٢٤/١٩.

(٢) يكنّي العرب بزرقة العين عن العدوّ الشّديد؛ ينظر: بحار الأنوار: ١٧٨/٧٥.

(٣) الحجف: التّروس.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢٣/١٤.

(٥) سنن أبي داود: ٦٢٤/١، ح/٢٧٤٧؛ السّنن الكبرى للبيهقيّ: ٣٠٥/٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٨٩/١٤-٩٠.

وشحذ عزائمهم قال: «**سيروا على بَرَكَة الله، فَإنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَني إحْدى الطّائفتَيْنِ، وَالله، لَكَأَنّي أَنْظُرُ إلى مَصارِعِ الْقَوْمِ**»، قال الرّاوي: «وأرانا رسول الله ﷺ مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فما عدا كلُّ رجل مصرعه... فعلم القوم أنّهم يلاقون القتال، وأنَّ العير تفلّت، ورجوا النّصر؛ لقول النّبيّ ﷺ»[1].

٧- الطّاعة المطلقة له من أصحابه ﷺ؛ ولذا عندما استشار رسول الله ﷺ أصحابه وهو يريد أن يمتحن عزائمهم، قام المقداد بن عمرو، فقال له: «يا رسول الله، امضِ لأمر الله، فنحنُ معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيّها: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[2]، ولكن اذهب أنت وربّك، فقاتلا إنّا معكما مُقاتلون، والّذي بعثك بالحقّ، لو سرْتَ بنا إلى برْك الغماد[3] لسرنا معك»، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا لهُ بخير، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «**أَشيروا عَلَيَّ أَيُّها النّاس**»، وإنّما يريد رسول الله ﷺ الأنصار، فقام سعد بن معاذ، فقال: «أنا أجيب عن الأنصار، كأنّك يا رسول الله تريدنا؟» قال: «**أَجَل**»، قال: «إنّك عسى أن تكون خرجْتَ عن أمر قد أوحي إليك في غيره، وإنّا قد آمنّا بك، وصدّقناك، وشهدنا أنَّ كلّ ما جئتَ به حقٌّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السّمع والطّاعة، فامضِ يا نبيَّ الله، فوالّذي بعثك بالحقّ لو استعرضْتَ هذا البحر، فخضْتَه

(١) كتاب المغازي: ٤٩/١؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي حديد: ١١٣/١٤.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) برك الغماد من وراء مكّة بخمس ليالٍ من وراء السّاحل ممّا يلي البحر، وهو على ثمان ليالٍ من مكّة إلى اليمن.

لخضناه معك ما بقي منّا رجل، وصِلْ من شئْتَ، واقطع من شئتَ، وخذ من أموالنا ما شئْتَ، وما أخذْتَ من أموالنا أحبّ إلينا مما تركْتَ، والّذي نفسه بيده ما سلكْتُ هذا الطّريق قطُّ، وما لي بها من علمٍ، وما نكره أن يلقانا عدوّنا غداً، إنّا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللّقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك»(١).

ولم يجد ﷺ من أصحابه تخاذلاً إلا من أحدهم ممّن لم يكن له دورٌ معلومٌ في تلك المعركة، قال: «يا رسول الله، إنّها والله قريشٌ وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فاتّهب لذلك أُهْبَتَه، وأعدّ لذلك عدّته»(٢).

٨- الإمداد الغيبيّ: لقد كان رسول الله ﷺ بدعائه يستمطر النّصر، ويستنزل العون الإلهيّ، وفي كلّ مكان يدعو ويهتف، حتّى سقط رداؤه عن كتفه: «**اللّهمّ، إنْ تُظْهِرْ عَلَيَّ هذه الْعصابَةَ يَظْهَرُ الشّرْكُ، وَلا يَقُم لَكَ دينٌ**»(٣).

فأنزل الله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ**

(١) كتاب المغازي: ٤٨/١-٤٩؛ ينظر: كتاب الطّبقات الكبير: ١٣/٢؛ تاريخ الطّبريّ: ٤٣٤/٢-٤٣٥؛ الأغاني: ١٨٢/٤-١٨٣.

(٢) كتاب المغازي: ٤٨/١، عيون الأثر لابن سيّد النّاس: ٣٨٥/١؛ سبل الهدى والرّشاد للصّالحيّ الشّاميّ: ٤٢/٤؛ تاريخ الإسلام للذّهبيّ: ١٠٦/٢؛ إمتاع الأسماع للمقريزيّ: ٩٣/١؛ الدّرّ المنثور: ٣٦/٧؛ في ظلال القرآن: ٧٧٣/٣.

(٣) كتاب المغازي: ٦٧/١.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۞ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1].

قال الواقديّ: «عن مُعاذ بن رِفاعة، عن أبيه، قال: بعث اللهُ السّماء، وكان الوادي دهساً[2]... فأصابنا ما لبّد الأرض، ولم يمنعنا من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا أن يرتحلوا منه، وإنّما بينهم قَوْزٌ من رمل، قالوا: وأصاب المسلمين تلك اللّيلة النّعاس، ألقي عليهم، فناموا، وما أصابهم من المطر ما يؤذيهم.

قال الزّبير بن العوّام: سُلّطَ علينا النّعاس تلك اللّيلة، حتّى إنّي كنْتُ لأتشدّد، فتجلدني الأرض، فما أطيق إلا ذلك، ورسول الله ﷺ وأصحابه على مثل تلك الحال، وقال سعد بن أبي وقّاص: رأيْتُني، وإنَّ ذقني بين يديّ، فما أشعر حتّى أقع على جنبي؛ قال رِفاعة بن رافع بن مالك: غلبني النّوم، فاحتلمْتُ حتّى اغتسلْتُ آخرّ اللّيلِ»[3].

وبهذه الأسباب نصر الله المسلمين على الكافرين، فأعزَّ دينه، وأذلَّ أعداءه...

## نَتائِجُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ:

كان يوم الفرقان يوماً عظيماً، بل أعظم أيّام الله تعالى، وكانت له نتائجٌ باهرةٌ نذكر أهمّها:

---

(١) الأنفال: ٩-١٢.

(٢) الدّهس: الكثير الرّمل.

(٣) كتاب المغازي: ٥٤/١؛ ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١١٦/١٤-١١٧.

١- أعزَّ الله به الإسلام، وأذلَّ الكفر والشّرك.

٢- قويت شوكة المسلمين، وأصبحت المدينة مركز القوى في الجزيرة العربيّة، وانكسرت شوكة قريش، وذهبت هيبتها، وأصبح الإسلام قوّة مرهوبة.

٣ - ارتفعت معنويّات المسلمين، وانبعث الأمل في نفوسهم، وصاروا يتطلّعون؛ لنشر الدَّعوة في كلّ أنحاء الجزيرة العربيّة، بل لما هو أوسع.

٤- أغنى الله المسلمين من فضله بما غنموه في المعركة من أسلحة ودروع وجِمال وخيل، وبما درّت عليهم المعركة من أموال فداء الأسرى.

# الْجِهادُ في اللّٰهِ

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

في الآية أمرٌ بالجهاد بجميع وسائله الممكنة: الجهاد بالنَّفس، والمال، واللّسان، والسّلاح... وبكلّ وسيلة مشروعة يستطيع المرء فيها أن يجعل ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾[2]، إذ «إنّ التَّعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، و مثله التَّعبير بكلمة ﴿فِينَا﴾، فالتَّعبير يشمل كلّ سعي و جهاد في سبيل الله و من أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهيّة، كلّ ذلك يصدق عليه ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ سواءً كان في سبيل كسب المعرفة! أو جهاد النَّفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصَّبر على الطّاعة، أو الصَّبر على المعصية، أو في إعانة الضُّعفاء، أو في الإقدام على أيّ عمل حسن وصالح!»[3].

---

(١) الحجّ: ٧٨.

(٢) التّوبة: ٤٠.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٢/٤١٥-٤١٦.

فالأمر إذن مطلقٌ يشمل جهاد النَّفس لتهذيبها وتزكيتها من الأدران والآثام، ويشمل جهاد أعداء الله بتوجّهاتهم كلّها الفكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة... ولا قيد فيه سوى قيد واحد هو روح الجهاد وجوهره، هذا القيد هو الإخلاص الكامل والتّجرّد الخالص لله تعالى من دون أيّة ضميمة أخرى، وهذا هو معنى الجهاد في الله، ومن دون ذلك لا قيمة للجهاد مهما عظمت نتائجه، ومهما بلغت تضحياته، فالآية تُقيِّد الجهاد بقيد دقيق مهمّ بكونه ﴿فِي ٱللَّهِ﴾، وهو معنى دقيق لا تدركه إلا نفس مرهفة تحرَّرت من أهوائها، وطهرت من آثامها، وتحكّمت بميولها، وأعتقد - والله العالم - أنَّ الجهاد في الله هو الخالص لله تعالى الَّذي لا تشوبه شائبة أبداً، ولا يدخل فيه ميل، أو هوى، بل هو تجرّد محض لله من كلّ متعلّقات الدُّنيا حتّى طلب الثّواب، والخلاص من العذاب، بل لله، وفي الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[(١)].

وهذا هو الجهاد الَّذي هو «أشرف الأعمال بعد الإسلام، وأفضل الأشياء بعد الفرائض، وهو عزّ الإسلام، وذروة سنامه، ولباس التَّقوى، وباب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه، وعماد الدّين، ومنهاج السَّعادة، وهو درع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة» كما وصفه سيّد المجاهدين الإمام عليّ عليه السلام[(٢)].

وكما أنَّ الجهاد في الآية يشمل جهاد النَّفس، وجهاد العدوّ، فإنَّ الثّاني متوقّف على الأوّل، فمن لم يجاهد نفسه لا يمكن أن يجاهد عدوّه، فقد أكَّد بعض العلماء العرفاء: «إنَّ الجهاد تارةً يُراد به جهاد العدوّ الظّاهر كما هو الظّاهر هاهنا، وتارةً يعنى به جهاد العدوّ الخفيّ، وهو النَّفس الأمّارة بالسّوء، وكلاهما بابان من

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) هذه الألفاظ في وصف الجهاد اقتبستها من أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام.

أبواب الجنّة، والثّاني منهما مراد بواسطة الأوّل إذ هو لازمة له، وذلك أنّك علمت أنّ لقاء الله سبحانه، ومشاهدة حضرة الرّبوبيّة هي ثمرة الخلقة، وغاية سعي عباد الله الأبرار، ثمّ قد ثبت بالضّرورة من دين محمّد ﷺ أنّ الجهاد أحد العبادات الخمس، وثبت أيضاً في علم السُّلوك إلى الله أنّ العبادات الشّرعيّة هي المتمّة والمعينة على تطويع النّفس الأمّارة بالسّوء للنّفس المطمئنّة، وأنّ التّطويع كيف يكون وسيلة إلى الجنّة الّتي وعد المتّقون، فيعلم من هذه المقدّمات أنّ الجهاد الشّرعيّ باب من أبواب الجنّة إذ منه يعبر المجاهد السّالك إلى الله إلى الباب الأعظم للجنّة وهو الرّياضة وقهر الشّيطان»[١].

وخير مثال لذلك ما وقع في معركة بدر، إذ حرّض رسول الله ﷺ جنوده قائلاً: «**وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بيده لا يُقاتلُهم الْيَوْمَ رَجُلٌ في حَمْلَة، فيُقْتَل صابراً مُحْتَسباً مُقْبلاً غَيْرَ مُدْبر، إلا أَدْخَلَه الله الْجَنَّة**»، فقال عُمَير بن الحُمام، أخو بني سَلمة، وفي يده تَمَرات يأكلهنّ: «بخ بخ! فما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلا أن يقتلني هؤلاء»، ثمّ قذف التّمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم، حتّى قُتل[٢].

وأدقُّ من هذا المثال ما رُوي عَنْ إسْحاقَ بْن عَمّار، قالَ: «سَمعْتُ أَبا عَبْد الله عليه السلام يَقولُ: **إنَّ رَسولَ الله ﷺ صَلّى بالنّاس الصُّبْحَ، فَنَظَرَ إلى شابٍّ في الْمَسْجد، وهوَ يَخْفقُ[٣] ويَهْوي برأسه، مُصْفَرّاً لَوْنُه، قَدْ نَحفَ جسْمُه، وَغارَتْ عَيْناهُ في رأسه، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله ﷺ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا فُلانُ؟**

(١) ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة: ٣٢/٢-٣٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤٦/١٤؛ وينظر: الاستذكار لابن عبد البرّ: ٢٩٦/١٤-٢٩٧؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٣٣٩/١٩.

(٣) خَفَقَ برأسه: «إذا أخذته سِنَةٌ من النّعاس، فمال رأسه دون سائر جسده»، المصباح المنير للفيّوميّ: ١٧٦، (خفق).

**قالَ: أَصْبَحْتُ يا رَسولَ الله مُوقناً، فَعَجبَ رَسولُ الله ﷺ منْ قَوْله، وَقالَ: إنَّ لكُلِّ يَقين حَقيقَةً، فَما حَقيقَةُ يَقينك؟**

**فقال: إنَّ يَقيني يا رَسولَ اللهَ هُوَ الَّذي أَحْزَنَني، وأَسْهَرَ لَيْلي، وأَظْمَأَ هَواجري[١]، فَعَزَفَتْ نَفْسي عَن الدُّنْيا، وما فيها حَتّى كَأنّي أَنْظُرُ إلى عَرْش رَبّي، وَقَدْ نُصبَ للْحساب، وَحُشرَ الْخَلائقُ لذلك، وأَنا فيهمْ، وَكَأنّي أَنْظُرُ إلى أَهْل الْجَنَّة يَتَنَعَّمونَ في الْجَنَّة، وَيَتَعارَفونَ، وَعَلى الأَرائك مُتَّكئونَ، وَكَأنّي أَنْظُرُ إلى أَهْل النّار، وَهُمْ فيها مُعَذَّبونَ مُصْطَرخونَ، وكَأنّي الآنَ أَسْمَعُ زَفيرَ النّار يَدورُ في مَسامعي.**

**فَقالَ رَسولُ الله ﷺ لأَصْحابه: هذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بالإيمان، ثُمَّ قالَ لَهُ: الْزَمْ ما أَنْتَ عَلَيْه.**

**فَقالَ الشّابُّ: ادْعُ اللهَ لي يا رَسولَ الله أَنْ أُرْزَقَ الشَّهادَةَ مَعَكَ.**

**فَدَعا لَهُ رَسولُ الله ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ في بَعْض غَزَوات النَّبيِّ ﷺ، فَاسْتُشْهدَ بَعْدَ تسْعَة نَفَر، وَكانَ هُوَ الْعاشر»[٢].**

فإذن المَجاهد فَي اللهَ غرَضه الوصول إلىَ الله، ورجاء لقائه، ونيل رضاه مجرّداً عن كلّ الميول النّفسيّة والدّنيويّة من سمعة، أو جاه، أو مال، أو سلطان؛ ولذلك لم يعدّ الإسلام القتال ذات قيمة إذا لم يكن خالصاً لوجهه تعالى، فالمجاهد في الله من جاهد استجابةً لأمر الله من دون أيّ غرض مهما كان، ولا يُقبل عند الله

---

(١) الهواجر: جمع الهاجرة، وهي «نصف النّهار عند ا شتداد الحرّ، أو من عند الزّوال إلى العصر؛ لأنَّ النّاس يسكنون في بيوتهم، كأنّهم قد تهاجروا من شدّة الحرّ»، مجمع البحرين للشّيخ الطّريحيّ: ٥١٦/٣، (هجر).

(٢) الكافي: ١٣٦/٣-١٣٨، ح/١٥٥٢.

إلا إذا كان خالصاً لوجه الله الكريم حتّى لو أراق دمه، وبذل مهجته، قال ابن الأثير: «كان في المسلمين رجلٌ اسمه قُزْمان، وكان رسول الله ﷺ يقول: **إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النّار**، فقاتل يوم أُحُد قتالاً شديداً، فقتل من المشركين ثمانية أو تسعة، ثمّ جُرِح، فحُمِل إلى داره، وقال له المسلمون: أبشر قُزْمان، قال: بمَ أبشر، وأنا ما قاتلتُ إلا عن أحساب قومي؟ ثمّ اشتد عليه جرحه، فأخذ سهماً، فقطع رواهشه(١)، فنزف الدّم، فمات، فأُخْبِرَ رسول الله ﷺ، فقال: **أَشْهَدُ أَنّي رَسولُ الله**»(٢).

وإنَّما قال ﷺ ذلك لأنَّه صدَّق نبوءته بأنَّ قزمان من أهل النّار ليصحّح للمسلمين ظنَّهم بأنَّ كلّ من قاتل معه بأيّ دافع من أهل الجنّة، وقد انكشفت حقيقة قتال قزمان، وأنَّه لم يكن في سبيل الله، وإنَّما لمصلحة دنيويّة، وإن كانت شريفة؛ لأنَّ قيمة العمل في الإسلام بدوافعه لا بمنافعه، ودافع قزمان ليس كذلك، وليس كلّ إنسان يوفّق إلى هذا التّكليف العظيم عند الله إلا من اجتباه الله تعالى، وأعانه على نفسه، وجعله من خاصّة أوليائه، والدَّليل على هذا قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ**﴾، فالاختيار والتَّوفيق منه تعالى إذ أخبر بأنَّه هو الَّذي يختار عباده لهذه الكلفة العظيمة، والاختيار هذا تكليف وتشريف، قال الفخر الرّازيّ:

«إنَّ التَّكليفَ تشريفٌ من الله تعالى للعبد، فلمّا خصَّكم بهذا التَّشريف، فقد خصَّكم بأعظم التَّشريفات، واختاركم لخدمته، والاشتغال بطاعته، فأيّ رتبة أعلى من هذا، وأيّ سعادة فوق هذا»(٣).

وهذا التَّكليف الشّريف الَّذي يتمّ باختيار الله تعالى لعباده إنَّما هو امتنان

---

(١) الرَّواهش: عروق باطن الذّراع أو ظاهر الكفّ؛ ينظر: المعجم الوسيط: ٣٧٧، (رهش).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التّأريخ: ١٦٢/٢.

(٣) الفخر الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ٧٤/٢٣.

عظيم على المؤمنين منه تعالى، وبهذه المنّة يحصلون على السّعادة الأبديّة...

ثمَّ إنَّ الآية الكريمة تبيّن إحدى مزايا الإسلام، وهو نفي الحرج؛ ذلك لأنَّ دين الله تعالى وشريعته سهلة سمحاء لا تعارض فطرة الإنسان، بل تساوق غرائزه، وتعطي للبدن حقَّه، وللرّوح حقّها بلا تعارض ولا ترجيح للجانب الماديّ على الرّوح أو بالعكس.

عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَحَبَّ الدّينِ إلى الله الْحَنيفيَّةُ السَّمْحَةُ**»[1].

وعن عروة الفقيميّ، قال: «كنّا ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج رجل يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلّى، فلمّا قضى الصَّلاة جعل الناس يسألونه: يا رسولَ الله، أعلينا حرج في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: **أيُّها النّاسُ، إنَّ دينَ اللهِ في يُسْرٍ**، ثلاثاً يقولها»[2].

وعن سهل بن حنيف، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تُشَدِّدوا عَلى أَنْفُسِكُمْ فَإنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ بِتَشْديدِهِمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ، وَسَتَجِدونَ بَقاياهُمْ في الصَّوامِعِ وَالدِّيارات**»[3].

وَقَد تعدَّدت أقوال المفسّرين في معنى نفي الحرج، فقيل: ما جعل الله عليكم مضيقاً لا مخرج ولا مخلص منه، وقيل: ما فعل الله تضييقاً على عقوبة فقد جعل باب التَّوبة مفتوحاً للرُّجوع إلى الله، والتّخلّص من عقابه، وقيل: معناه لم يضيّق عليكم أمر الدّين فلن يكلّفكم ما لا تطيقون، بل جعل التَّكاليف دون الوسع، وقيل: إنَّه يعني الرَّفض في أداء الفرائض كالقصر والتّيمّم، وأكل الميتة وغيرها،

(١) الهيثميّ، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ٦٠/١.

(٢) المصدر نفسه: ٦١/١-٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦٢/١.

وكلّ هذه المعاني مصاديق لنفي الحرج، وكلّها ترجع إلى معنى واحد، وهو إنَّ الله لم يكلّف الإنسان إلا بقدر وسعه واستطاعته، ولم يكلّفه بتكليف ينافي فطرته أبداً، بل كلّ تكاليف الله موافقة لفطرة الإنسان... فالشَّريعة الإسلاميّة سهلة سمحاء لا عسر فيها، ولا تضييق، ولا مشقّة... وهذه الشَّريعة جاءت امتداداً لملّة[1] إبراهيم خليل الرَّحمن الَّذي سمّاه الله تعالى أباً للمسلمين، إذ إنَّ رسالة الله حلقات متّصلة من أوّل نبيّ إلى خاتم الأنبياء، وأبوّة إبراهيم امتنان من الله تعالى على المسلمين إذ استجاب الله تعالى دعوة إبراهيم عليه السلام فيهم، ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[2].

ونتيجة هذا الارتباط الرّسالي بين إبراهيم عليه السلام ورسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وامتداد أهل بيته المعصومين عليهم السلام وشيعتهم المخلصين، وأوليائهم المتّقين جاءت شهادة رسول الله عليهم، فهم الأمّة الوسط، فالرَّسول شهيدٌ على أمَّته... ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[3].

والشَّهادة في القرآن الكريم هي إحدى حقائق هذا الدّين، وقد تكرّر ذكرها في مواضع عدّة من القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[4].

---

(١) «الملّة كالدّين وهو اسمٌ لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدّين أنَّ الملّة لا تضاف إلا إلى النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام الَّذي تسند إليه نحو: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (آل عمران: ٩٥)، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ﴾ (يوسف: ٣٨)»، مفردات ألفاظ القرآن للرّاغب الأصفهانيّ: ٦٥١، (ملّ).

(٢) البقرة: ١٢٨.

(٣) الحجّ: ٧٨.

(٤) النّساء: ٤١.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[1].

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2].

قال العلامة الطّباطبائيّ: «والشَّهادة فيها مطلقة وظاهر الجميع على إطلاقها هو الشَّهادة على أعمال الأمم، وعلى تبليغ الرُّسل أيضاً»[3].

(١) النّحل: ٨٤.

(٢) الزّمر: ٦٩.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٢٠/١.

# مُحَمَّدٌ رَسولُ اللّٰهِ

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[(١)].

في هذه الآية الكريمة إثبات لرساليّة رسول الله الأكرم ﷺ ونبوّته بعد أن حاوَل الكفّار محوها وإنكارها في صلح الحديبية، ثمّ بيان لشرف معيّة الرَّسول ﷺ، وأنَّ معيّته وصحبته في كلّ زمان تستبطن مسؤوليّة حمل الرّسالة، ونشرها، وتبليغها، وأنَّ هذا الشَّرف العظيم لا يناله إلا من اكتسب صفات معيّنة رسمتها الآية الكريمة، ومن دون اكتساب تلك الصّفات والأحوال والخصوصيّات لا يمكن أن تصدق حقيقة المعيّة؛ ولذا فالآية الكريمة تحدّد حالات المؤمنين في ثلاثة محاور مهمّة، وهي:

أ- موقفهم في مواجهة الكافرين.

ب- صورة التّعامل فيما بينهم.

ج- حالاتهم مع الله تعالى.

---

(١) الفتح: ٢٩.

## مَوْقِفُهُمْ في مُواجَهَةِ الْكافِرينَ:

أمّا موقفهم مع الكافرين في مواجهة تحدّياتهم، فيتّسم: بالشّدّة، والقوّة، والصّلابة، والغلظة عليهم؛ لئلا يمتدّ تيّار الكفر، وهذه الشّدّة على مطلق الكافرين سواء كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، قريبين أو بعيدين على حدّ سواء؛ فإنَّ هويّة المؤمن عقيدته وإيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر لا غير، ولا يجد في نفسه تعاطفاً مع أيّ شخص مهما كان قريباً منه إذا كفر بالله، وجحد رسالته، وهذا الموقف من الكافرين ضرورة رساليّة لا بدّ أن يتّصف بها المؤمنون بالله ورسوله أمام تحدّيات الكافرين، يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

أمر يستفاد منه العموم فلا هوادة، ولا مسالمة، ولا حبَّ للّذين يكفرون بالله تعالى، ويعضّد ذلك قوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ

---

(١) التّوبة: ٧٣.

(٢) التّوبة: ١٢٣.

﴿ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فالإيمان إذن يقطع الرّوابط مع الكافرين مهما قربت لحمتهم، فالعدوّ عدوّ الإيمان من أيّ أرض كان، ومن أيّ جنس كان، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلَقَدْ كُنّا مَعَ رَسول الله** صلى الله عليه وآله **نَقْتُلُ آباءَنَا وَأَبْناءَنا وَإِخْوانَنا وَأَعْمامَنا، ما يَزيدُنا ذلكَ إلا إيماناً وَتَسْليماً، وَمُضِيّاً عَلى اللَّقَمِ**[2]**، وَصَبْراً عَلى مَضَضِ الأَلَمِ، وَجِدّاً عَلى جِهادِ الْعَدُوِّ**»[3].

وقال عليه السلام أيضاً: «**فَلَقَدْ كُنّا مَعَ رَسول الله** صلى الله عليه وآله**، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدورُ عَلى الآباءِ وَالأَبْناءِ، وَالإِخْوانِ وَالْقَراباتِ، فَما نَزْدادُ عَلى كُلِّ مُصيبَةٍ وَشِدَّةٍ إلا إيماناً، وَمُضِيّاً عَلى الْحَقِّ، وَتَسْليماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلى مَضَضِ الْجِراحِ**»[4].

وهذه المواقف الشّديدة الحاسمة لم تكن في ميدان الحرب وحسب، وإنّما كانت تجري في ساحة التّعامل اليوميّ في الوسط الاجتماعيّ أيضاً مع كلّ من يحادّ الله ورسوله، ولو كان أباً أو أخاً، فلا مجاملة على حساب المبدأ والعقيدة، وفي الفتنة الّتي أثارها رأس النّفاق ابن أُبَي، والّتي كاد أن يقع فيها قتال بين

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) لقم الطّريق: الجادّة الواضحة منها، أي يمضون في طريقهم من دون أن تعترضهم شبهة.

(٣) نهج البلاغة: ١١٠، خطبة: ٥٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٩، خطبة: ١٢١.

المسلمين - خير مصداق(١) - لولا حكمة رسول الله ﷺ(٢)، ولمّا «بلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ما كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّه قد بلغني أنَّك تريد قتل أبي، فإن كنتَ لا بدَّ فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه،

(١) وخلاصة القصّة ما أورده الشّيخ الطّبرسيّ في تفسير جوامع الجامع ٥/٥٦٨-٥٦٩، قال: «ازدحم على الماء في غزاة بني المصطلق رجلٌ من المهاجرين ورجلٌ من بني عوف بن الخزرج واقتتلا، فغضب عبد الله بن أبيّ، وقال: والله، ما مَثَلنا مثلهم إلاّ كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعني: بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ رسول الله ﷺ، ثمّ قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم؟ أما والله لو أمسكتم عنهم فضل الطّعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ من حول محمّد، فسمع بذلك زيد بن أرقم - وهو حدثٌ - فقال: أنت والله الذّليل القليل المُبغَض في قومك، ومحمّدٌ ﷺ في عزّ من الرّحمن ومودّة وقوّة من المسلمين، فقال عبد الله: اسكت، فإنّما كنْتُ ألعبُ، فأخبر زيدٌ رسول الله ﷺ، فأرسل إلى عبد الله، وقال: ما هذا الَّذي بلغني عنك؟ قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلتُ شيئاً من ذلك، وإنّ زيداً لكاذبٌ، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، وقال الحاضرون: يا رسول الله، شيخنا وكبيرنا، لا تصدّق عليه كلام غلام، عسى أن يكون قد وهم، فعذّره، وفشت الملامة من الأنصار لزيد، فلمّا نزلت لحق رسول الله ﷺ زيداً من خلفه فعرك أذنه، وقال: وفت أذنك يا غلامُ إنّ الله صدّقك، وكذّب المنافقين، فلمّا بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آيٌ شدادٌ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوّى رأسه، ثمّ قال: أمرتموني أن أومن فآمنت، وأمرتموني أن أزكّي مالي فزكّيت، فما بقي إلاّ أن أسجد لمحمّد ﷺ، فنزلت: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾ ، ولم يلبث إلاّ أيّاماً قلائل حتّى اشتكى ومات».

(٢) قالوا: «وسار رسول الله ﷺ بالنّاس يومهم ذلك حتّى أمسى وليلتهم حتّى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتّى آذتهم الشّمس، ثمّ نزل بالنّاس، فلم يكن إلا أن وجدوا مسّ الأرض وقعوا نياماً، إنَّما فعل ذلك ليشغل النّاس عن الحديث الَّذي خرج من عبد الله بن أبيّ»، مجمع البيان في تفسير القرآن للشّيخ الطّبرسيّ: ١٠/٤٤٣.

فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالديه منّي، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ أن يمشي في النّاس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النّار، فقال: **بَلْ نَرَفَّقُ به، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، ما بَقِيَ مَعَنَا**»[١]، وفي رواية أخرى أنّه ﷺ قال: «**بَلْ نُحْسِنُ لَكَ صَحابَتَهُ ما دامَ مَعَنَا**»[٢].

ولم يكتفِ هذا الرَّجل الشّديد في الله بذلك رغم الرّفق الكبير الّذي أبداه رسول الله ﷺ مع أبيه، بل أراد أن يوقف أباه عند حدّه، فذهب حتّى وقف «على باب المدينة، واستلّ سيفه، فجعل النّاس يمرّون عليه، فلمّا جاء أبوه عبد الله بن أُبَيّ، قال له ابنه: وراءك، فقال: ما لك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتّى يأذن لك رسول الله ﷺ؛ فإنّه العزيز، وأنت الذّليل، فلمّا جاء رسول الله ﷺ، وكان إنّما يسير ساقة[٣]، فشكا إليه عبد الله بن أُبَيّ ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتّى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أمّا إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن»[٤].

هكذا ينبغي أن يكون المؤمن شديداً على الكافرين مهما قربوا منه،

---

(١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي: ١٠/٤٤٣؛ وينظر: وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨/١٣٢.

(٢) تفسير القمّيّ: ٣/١٠٧٣.

(٣) ساقة الجيش: مؤخّرته، وكان ﷺ يسوق أصحابه «أي يقدمهم أمامه، ويمشي خلفهم كأنّه يسوقهم تواضعاً وإرشاداً إلى ندب مشي كبير القوم وراءهم، ولا يدع أحداً يمشي خلفه، أو ليختبر حالهم، وينظر إليهم حال تصرّفهم في معاشهم، وملاحظتهم لإخوانهم، فيربّي من يستحقّ التّربية، ويكمل من يحتاج التّكميل، ويعاقب من يليق به المعاقبة، ويؤدّب من يناسبه التّأديب، وهذا شأن المولى مع رعيّته»، فيض القدير شرح الجامع الصّغير للمناوي: ٥/١٠١-١٠٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٨/١٣٢.

فالإيمان جامع بين النّاس على مختلف ألوانهم ولغاتهم وأوطانهم، والكفر مفرّق بينهم، مهما قربت لحمتهم، والمؤمن عزيز بعزّة الله لا يعرف الضّعف إلى نفسه سبيلاً، وهو أشدُّ صلابة من الجبل؛ لأنَّ الجبل يُنال منه بالفأس، والمؤمن لا ينال من دينه شيء، هذه في حالاتهم ومواقفهم من الكافرين.

## حالاتُهُمْ فيما بَيْنَهُمْ:

وأصدق وصف لذلك قوله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمنينَ في تَوادِّهمْ، وَتَراحُمِهمْ، وَتَعاطُفِهمْ مَثَلُ الْجَسَد، إذا اشْتَكى منْهُ شَيْءٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهْرِ وَالْحُمّى**»(١).

إنَّ المجتمع الإيمانيّ لا بدّ أن يتكامل بناؤه بالتّآخي، والتّواصل، والتّعاون، والتّناصر، وهذه السّمات هي الأساس الأقوى للبناء الاجتماعيّ السَّليم، وهي نتاج التّراحم، والتّعاطف، والتّحابب في الله ولله، فحبُّ المؤمن لأخيه المؤمن دين يدان به، ومن هنا جاءت تعاليم القرآن والسّنّة مؤكّدة على ذلك، بل عدَّت الحبّ في الله والبغض في الله مقياس الإيمان وميزانه، فعن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**كُلُّ مَنْ لَمْ يُحِبَّ عَلى الدّينِ، وَلَمْ يُبْغِضْ عَلى الدّينِ، فَلا دينَ لَهُ**»(٢).

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطى للهِ، فَهُوَ مِمَّنْ كَمُلَ إيمانُهُ**»(٣).

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٢٣/٣٠، ح/١٨٣٧٣.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الأصول من الكافي: ٣٣٠/٣، ح/١٨٩١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٢٢/٣، ح/١٨٧٧.

وعن فضيل بن يسار قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحبّ والبغض، أمن الإيمان هو؟ فقال: وَهَلِ الإيمانُ إلا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ؟ ثمّ تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله لأَصْحابه: أَيُّ عُرى الإيمانِ أَوْثَقُ؟ فَقالوا: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلاةُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: الزَّكاةُ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: الصِّيامُ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: الْجِهادُ، فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: لِكُلٍّ ما قُلْتُمْ فَضْلٌ، ولَيْسَ بِه، وَلكِنْ أَوْثَقُ عُرى الإيمانِ الْحُبُّ في الله، وَالْبُغْضُ في الله، وَتَوالي أَوْلياءِ الله، وَالتَّبَرّي مِنْ أَعْداءِ الله»[(٣)].

فالحبُّ يولّد الرَّحمة في قلب الإنسان، وما لم تملأ الرّحمة قلب المؤمن، وتطفح منه لا يمكن أن يُفيضها على الآخرين، ولا يمكن أن يؤثّر في المجتمع الّذي يعمل على تغييره إذا لم يحبّه ويسعى لخيره وصلاحه، ومن هذا المنطلق مَنَّ الله على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله باللّين والرّحمة للمؤمنين:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[(٤)].

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) الكافي: ٣٢٤/٣، ح/١٨٨١.

(٣) الكافي: ٣٢٥/٣، ح/١٨٨٢.

(٤) آل عمران: ١٥٩.

ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وآله رحمة للمؤمنين، وبهم رؤوف رحيم، وهذه الرَّحمة الشّاملة الَّتي أفاضها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله هي الَّتي غيَّرت المجتمع الجاهليّ، وحوَّلته إلى مجتمع إنسانيّ متراحم فيما بينه، ومن أجل هذا جاء التّأكيد يتلو التّأكيد من الأئمّة سلام الله عليهم على التّواصل، والتّراحم، والتّوادد، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**اتَّقوا اللهَ، وَكونوا إخْوَةً بَرَرَةً، مُتَحابّينَ في الله، مُتَواصلينَ، مُتَراحمينَ، تزاوروا، وتَلاقوا، وتَذاكَروا أمْرَنا، وأَحْيوهُ**»(١).

وعنه عليه السلام: «**تَواصَلوا، وتَبارَوا، وتَرَاحَموا، وَكونوا إخْوَةً بَرَرَةً كَما أَمَرَكُمُ اللهُ عزَّ وجَلَّ**»(٢).

ولا تعني الرَّحمة حسن المجاملة والملاطفة المجرّدة عن الإعانة والإيثار، وإنَّما هي الرّقّة والعطف الصّادقين، وتفضيل مصلحة الأخوة المؤمنين على المصالح الخاصّة، ولو كانت المصالح الخاصّة طاعة وعبادة لله تعالى فدرجات الطّاعة تتفاوت، فالطّاعة الذّاتيّة لها مردودات شخصيّة فقط، قال أبان بن تغلب: «كنت أطوف مع أبي عبد الله عليه السلام، فعرض لي رجل من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجة، فأشار إليَّ، فكرهت أن أدع أبا عبد الله عليه السلام وأذهب إليه، فبينا أنا أطوف إذ أشار إليَّ أيضاً، فرآه أبو عبد الله عليه السلام، فقال: **يا أَبانُ، إيّاكَ يُريدُ هذا؟** قلتُ: نعم، قال: **فَمَنْ هُوَ؟** قلتُ: رجل من أصحابنا، قال: **هُوَ عَلى مِثْلِ ما أَنْتَ عَلَيْهِ؟** قلتُ: نعم، قال: **فَاذْهَبْ إِلَيْه**، قلتُ: فأقطع الطّواف؟ قال: **نَعَمْ**، قلت: وإن كان طواف الفريضة؟ قال: **نَعَمْ**».

(١) الكافي: ٤٤٨/٣، ح/٢٠٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ح/٢٠٧٣.

قال: «فذهبتُ معه، ثمّ دخلت عليه بعدُ، فسألته، فقلت: أخبرني عن حقّ المؤمن على المؤمن، فقال: **يا أَبانٌ، دَعْهُ لا تَرِدْهُ**، قلتُ: بلى، جعلت فداك، فلم أزل أردّد عليه، فقال: **يا أَبانٌ، تُقاسِمُهُ شَطْرَ مالكَ**، ثمّ نظر إليَّ، فرأى ما دخلني، فقال: **يا أَبانٌ، أَما تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ - عزَّ وَجَلَّ - قَدْ ذَكَرَ الْمُؤْثِرينَ على أَنْفُسِهِمْ؟** قلتُ: بلى جُعِلْتُ فداك، فقال: **أَمّا إذا أَنْتَ قاسَمْتَهُ فَلَمْ تُؤْثِرْهُ بَعْدُ، إِنَّما أَنْتَ وَهُوَ سَواءٌ، إِنَّما تُؤْثِرُهُ إذا أَنْتَ أَعْطَيْتَهُ مِنَ النِّصْفِ الآخرِ**»(١).

هذه هي المحبّة الصّادقة الخالصة لله تعالى، وإلا فالشّكليّات ومقابلة الإخوان بالمجاملات العرفيّة لا قيمة لها عند الله، وهذه غيض من فيض ممّا ورد في العلاقات الإيمانيّة الّتي أكّد عليها الإسلام كتاباً وسنّةً، ومن أراد التّفصيل فليرجع إلى ما ورد في أسفار الحديث الشّريف من آداب العشرة والتّواصل الاجتماعيّ كالكتب الأربعة، ووسائل الشّيعة، وبحار الأنوار، وجامع أحاديث الشّيعة، وغيرها كثير.

## حالاتُهُمْ مَعَ اللهِ تَعالى:

فهي استمراريّة الطاعة، ودوام العبادة لله تعالى، وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة بـ ﴿**تَرَىٰهُمْ**﴾، وهو فعل مضارع يفيد الاستمرار، وعدم الانقطاع؛ وذلك لأنَّ حياة المؤمن ملك لله تعالى، فلا بدَّ أن تكون كلّ حركة وسكون له تعالى، وهذا هو مصداق قوله تعالى:

﴿ **ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ**

(١) الكافي: ٣/٤٤٠-٤٤١، ح/٢٠٦٣.

﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

وهو معنى قوله تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، فالرّكوع والسّجود علامة استمراريّة العبادة لله تعالى، وبذلك تكون حياة المرء كلّها عبادة لله تعالى، ولعلّ هذا هو مقصود الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل:

**«أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ وَقُدْسِكَ وَأَعْظَمِ صِفاتِكَ، وَأَسْمائِكَ، أَنْ تَجْعَلَ أَوْقاتي مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصولَةً، وَأَعْمالي عِنْدَكَ مَقْبولَةً، حَتّى تَكونَ أَعْمالي وَأَوْرادي كُلُّها وِرْداً واحِداً، وَحالي في خِدْمَتِكَ سَرْمَداً»**[٢].

وهكذا تنطبع شخصيّة المؤمن بسمات العبوديّة لله تعالى، وتظهر على ملامحه الخارجيّة آثارها، وتطفح على وجوههم بعد أن نُقشَت على صفحات قلوبهم، وتلك هي آثار السّجود، أي آثار العبادة، فالسُّجود أصدق مصاديق العبادة؛ ولذا خصَّه الله تعالى من باب التَّغليب... فهم ما كانوا يهدفون من ذلك إلا فضل الله وثوابه لا غير، وتحقيق الهدف الأسمى في حياة المؤمن، وهو نيل رضوان الله تعالى، وهو غاية في كلّ عمل يقوم به المؤمن.

وبعد أن تكتمل هذه الحالات الثّلاثة في شخصيّة المؤمنين بالله تعالى: شدّتهم على الكافرين، ورحمتهم للمؤمنين، وعبادتهم لربّ العالمين، تظهر إلى الوجود الأمّة المؤمنة المتآزرة على حبّ الله، والمتآخية على نصرة دينه، فالتّآزر والتّعاون أبرز ملامح المجتمع المؤمن، وما أروع التّمثيل القرآنيّ:

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٨٤٩.

﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾.

فكلّ فرد مؤمن عاقل رشيد يمثّل قوة إيمانيّة يشدّ بها أزر المؤمنين الآخرين، وهذا أشدّ ما يغيظ القوى الكافرة، وتلك حقيقة شهدت بها كلّ الكتب السّماويّة، وسحبت من أعماق التّاريخ الرّساليّ، ذلك مثلهم في التّوراة، ومثلهم في الإنجيل، فإذا تحقّق التّآزر والتّعاون بين أفراد المجتمع الإسلاميّ عند ذلك يتحقّق وعد الله تعالى: لهم المغفرة والأجر العظيم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[1].

---

(١) المائدة: ٩.

# عَلائِمُ الرَّبّانِيّينَ

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[١].

هذه الآيات الكريمة نزلت بعد معركة أحد، حيث أصابت المسلمين هزّة عنيفة، وتراجع كثير منهم، وانهزم آخرون بعد أن ظنّوا أنَّ الرَّسول ﷺ قد قُتِلَ في المعركة، روى الواقديّ في كتاب المغازي: «قالوا: أتينا عمر بن الخطّاب في رهط من المسلمين قعوداً، ومرَّ بهم أنس بن النَّضر بن ضَمْضَمٍ عمّ أنس بن مالك، فقال: ما يُقعدكم؟ قالوا: قُتِلَ رسولُ الله، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه! ثمّ جالد بسيفه حتّى قُتِلَ، فقال عمر بن الخطّاب: إنّي لأرجو أن يبعثه الله أمّةً وحده يوم القيامة، ووُجِد به سبعون ضربةً في وجهه، ما عُرِفَ حتّى عرفَتْ أختُهُ حُسْنَ بَنانه»[٢].

---

(١) آل عمران: ١٤٦-١٤٨.

(٢) الواقديّ، كتاب المغازي: ٢٨٠/١؛ وينظر: جامع البيان للطّبريّ: ١٠٢/٦؛ وتاريخ الطّبري: ٥١٧/٢؛ وكتاب الثّقات لابن حبّان: ٢٢٨/١-٢٢٩؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٧٦/١٤؛ وإمتاع الأسماع للمقريزيّ: ١٦٤/١؛ والدّرّ المنثور للسّيوطيّ: ٤٧/٤؛ وسبل الهدى والرّشاد للصّالحيّ الشّاميّ: ٣١٧/٤-٣١٨؛ وفي ظلال القرآن لسيّد قطب: ٥٦/٢.

وقد عالجت هاتان الآيتان حالات الضَّعف الَّذي أصاب المسلمين بعد إشاعة المشركين واليهود لقتل رسول الله ﷺ وبعد الأضرار الَّتي مسَّتهم في المعركة، حيث تؤكّد لهم: أنَّهم ليسوا أوّل من أصيب وأوذي في سبيل الله تعالى، وإنّما هناك قبلهم من الرّبّانيّين[1] أتباع الأنبياء والرّسل قد أوذوا من قبلهم، فصبروا

---

(١) **الرّبّيون**: اختلف في تفسيرها، فقيل: هم فقهاء صُبَر، وأنَّهم منسوبون إلى الرَّبّ، ومتمسّكون بعبادة الله؛ عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قرأ: ﴿**وكَأيِّنْ منْ نَبيٍّ قُتلَ معهُ رِبِّيونَ كثيرٌ**﴾، قال: «**ألوفٌ وألوفٌ**»، ثمّ قال: «**إي واَلله يُقْتَلونَ**»، تفسير العيّاشيّ: ٣٤٢/١، ح/٧٩٣.

وقيل: «﴿**فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ**﴾، فما فتروا، ولم ينكسر جدّهم لما أصابهم من قتل النّبيّ أو بعضهم، ﴿**وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ**﴾ عن العدوّ أو في الدّين، ﴿**وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ**﴾ وما خضعوا للعدوّ... وهذا تعريضٌ بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصّلاة والسّلام»، تفسير البيضاويّ: ٤١/٢-٤٢.

وقال الشّيخ الطّبرسيّ: «وقيل في ﴿**رِبِّيُّونَ**﴾ أقوال أحدها: أنّهم علماء فقهاء صبّر... وثانيها: أنّهم جموع كثيرة... وثالثها: أنّهم منسوبون إلى الرَّبّ، ومعناه المتمسّكون بعبادة الله، عن الأخفش، وقال غيره: إنَّهم منسوبون إلى علم الرّبّ، ورابعها: أنَّ الرّبّيون عشرة آلاف... وخامسها: أنَّ الرّبّيون الأتباع، والرّبّانيّون الولاة»، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨٥٤/٢.

وقال ابن الأثير: «وفي حديث عليّ: «**النّاسُ ثلاثَةٌ: عالمٌ ربّانيٌّ**»، هو منسوب إلى الرّبّ بزيادة الألف والنّون للمبالغة. وقيل: هو من الرّبّ بمعنى التّربية، كانوا يُرَبّون المتعلّمين بصغار العلوم قبل كبارها، والرّبّانيّ: العالم الرّاسخ في العلم والدّين، أو الَّذي يطلب بعلمه وجه الله، وقيل: العالم العامل المُعلّم»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١٨١/٢، (ربب).

وقال العينيّ: «وعن الأزهريّ: هم أرباب العلم الَّذين يعلمون ما يعلمون، وقال أبو عُبيد: سمعْتُ رجلاً عالماً بالكتب يقول: الرّبّانيّون العلماء بالحلال والحرام. وفي (الجامع) للقزّاز: الرّبّيّ، والجمع: ربّيّون: هم العباد الَّذين يصحبون الأنبياء عليهم السلام ويصبرون معهم، وهم الرّبّانيّون، نسبوا إلى عبادة الرَّبّ، سبحانه وتعالى، وقيل: هم العلماء الصّبّر»، عمدة القاري: ٦٤/٢-٦٥.

وثبتوا، فلم يصبهم الضّعف والوهن والخذلان، وكأنَّ الآية الكريمة، تقول لهم: ما بالكم أنتم تصابون بالتّخاذل والوهن، فلستم أوّل من مرَّ بتلك المحنة، وإنّما أنتم حلقة من هذا الرّتل الرّساليّ الّذي عاش الصّراع الدّامي الطّويل، «فكثيرٌ من أتباع الأنبياء السّابقين كانت لهم مواقف رائعة، وبطولات خارقة، فجاهدوا وقاتلوا وصبروا، وما لانت لهم قناة، ولا خارت لهم عزيمة، ولا ذلّوا، ولا خضعوا لما أصابهم في الجهاد»(١).

وفي الآية إشارة دقيقة إلى ضرورة التّأمّل في مسيرة الرّسالة وسلوك الرّساليّين، وما واجهوا من صعوبات، فمن الضّروريّ دراسة حياتهم الرّساليّة بوعي ودقّة كي نقتبس من حياتهم الدّروس والعبر، ونقتدي بهم، فالإنسان لا بدّ له في مسيره إلى الله من قدوة يقتدي بها، ولعلَّ هذا هو الغرض من ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

---

وخلاصة الكلام: إنّ «هؤلاء رجال قد تربّوا في مكتب النبوّة، وتعلّموا الصّبر والإخلاص والاستقامة من مهابط الوحي والرّسالة، فهم مجاهدون ومقاتلون في صفّ الأنبياء ومعهم» التّحقيق في كلمات القرآن للمصطفويّ: ٢٦/٤، (ربّ).

(١) وهبة الزّحيليّ، التفسير المنير: ٤٤٤/٢.

(٢) هود: ١٢٠.

(٣) يوسف: ١١١.

إذن الآية تعيد للمسلمين معنويّاتهم الّتي اهتزّت في المعركة عن طريق التّوجّه إلى الله والرّضا بقضائه، والاقتداء والتّأسّي بالسّابقين لهم في طريق ذات الشّوكة، «والمثل الّذي يضربه لهم هنا مثل عامّ، لا يحدّد فيه نبيّاً، ولا يحدّد فيه قوماً. إنّما يربطهم بموكب الإيمان، ويعلّمهم أدب المؤمنين، ويصوّر لهم الابتلاء كأنّه الأمر المطّرد في كلّ دعوة، وفي كلّ دين، ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء؛ ليقرّر في حسّهم قرابة المؤمنين للمؤمنين، ويقرّ في إخلادهم أنّ أمر العقيدة كلّه واحد، وأنّهم كتيبة في الجيش الإيمانيّ الكبير»[1].

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو: لماذا أصاب المسلمين هذا الوهن الشّديد الّذي أدّى إلى انهزام كثير منهم بمجرّد أن انتشرت إشاعة قتل الرّسول صلى الله عليه وآله؟

والجواب: هناك من يرتبط بالرّسالة من خلال الارتباط بقائدها الأعلى، ويبقى منشدّاً إليها ما دام النّبيّ القائد موجوداً أمامه، فإذا زال شخص النّبيّ بالقتل، أو الوفاة انقلب على وجهه وتراجع، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[2].

وهذا ما حدث بعد أن أُشيع أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قتل، فإنّ كثيراً من المسلمين قد ألقى سلاحه، وجلس جانباً حتّى قال بعضهم: «ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان»، وقال ناس من المنافقين: «لو كان نبيّاً لما قُتِلَ! ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم»[3].

---

(١) في ظلال القرآن: ٩٨/٢.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

(٣) الزّمخشريّ، الكشاف: ٤٢٣/١؛ وينظر: الكامل في التأريخ لابن الأثير: ١٥٦/٢.

وفي تصوّري أنَّ الَّذين انهزموا أو أصابهم الوهن فتراجعوا كانوا يتصوّرون أنَّ حياة الإسلام مرتبطة بحياة الرّسول ﷺ، وأنّه لا إسلام بعد رحيل رسول الله ﷺ، وهذا النَّمط من الارتباط في الحقيقة ارتباط بالشّخص لا ارتباط بالرّسالة، وكأنَّهم يرون الرّسالة في شخص النّبيّ ﷺ فقط ما دام حيّاً، وهذا النّوع من الارتباط يرفضه الإسلام رفضاً كلّيّاً؛ لأنَّه لا بدّ وأن يؤدّي إلى الانقلاب العكسيّ في حياة الإنسان، ويرتدّ عن دينه، إنَّه مرفوض، لأنَّ حياة الرّسول ﷺ ليست خالدة، وقد أخبر القرآن بموته: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1]، هذا أوّلاً.

وثانياً: إنَّ الرّسالة يجب أن تبقى وتستمرّ سواء بقي قائدها، أو رحل إلى ربّه، وأنَّ التّصوّر الَّذي يحصر حياة الرّسالة بحياة الرّسول ﷺ هو ارتباط عاطفيّ ساذج يعبّر عن حالة عدم الوعي الكلّيّ للرّسالة، فلو وعاها وامتزجت بكيانه لأصبحت تملك عليه وجوده الكلّيّ، ولما ارتدَّ عنها وتراجع بمجرّد دعاية نشرها الأعداء، وتلقَّفها ضعاف الإيمان من المسلمين الأوائل الَّذين اهتزَّت نفوسهم، وهبطت هممهم، وخارت عزائمهم، فألقوا سلاحهم.

إنَّ هؤلاء ارتبطوا بشخص الرَّسول ﷺ لا بشخصيّته الَّتي ذابت في رسالة الله، فتجسَّدت الرّسالة فيها، وأصبحت مظهراً تامّاً كاملاً لجوهرها الحقيقيّ في الأرض، وحقيقةً ثابتةً متحرّكة على طول الزّمن، ممثّلة لروحها، نابضة بالحيويّة والحركة والتّفاعل، مؤثرة وراسخة - في حالة حضورها وغيابها - في نفوس المؤمنين فيها، والمتأسّين بها، والمستنّين بسنّتها، ولا شكَّ أنَّ المرتبط بشخصيّة رسول الله ﷺ بهذا الفهم، والوعي لها بتلك الصّورة لا يمكن أن يتراجع، أو

---

(١) الزّمر: ٣٠.

ينهزم أمام أشدّ المحن والمصائب، وأمّا المرتبط بشخص رسول الله ﷺ كشخص بموته تموت كل مآثره وآثاره، فهذا لا يمكن أن يستقيم ويثبت، بل يتراجع وينقلب على عقبيه بمجرد رحيل رسول الله ﷺ عن هذه الدَّنيا بموت أو قتل، وهذا ما أكّدته الآية صريحاً واضحاً: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾(١).

تلك هي حالة الارتباط بالرّسول ﷺ دون الرّسالة، وبعبارة أخرى: بالشَّخص لا بالشّخصيّة، وهذه حالة سلبيّة لا بدَّ وأن تؤدّي إلى هذه النَّتيجة الوخيمة؛ لأنَّه ارتباطٌ عاطفيٌّ ساذجٌ لم يستقرّ في الوجدان، أو فكريّ جامد توقَّف عند حدود العقل، ولم يدخل هذا الإيمان إلى القلب، ولم تمتزج الفكرة بالعاطفة، فأصبح كمن يمشي على رِجْلٍ واحدة، ﴿ **قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢).

إنَّ الارتباط الَّذي شرّعه الله لحملة رسالته هو الانشداد إلى روح الرّسالة من خلال التّلقّي بوعي، وتسليم، وانقياد مطلق لحاملها، والمبلغ بها، والمرشد إلى بارئها، والدّليل على أهدافها، بكونه مُعَرّفاً بها، وشارحاً لأحكامها، ومجسّداً لمبادئها، وصادعاً بأمر ربّه، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ**

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) الحجرات: ١٤.

﴿عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[(١)]، فإذا مات أو قتل فَرَبُّ الرّسالة موجود، والرّسالة حيّة باقية، ولذلك لا يمكن أن يتراجع المؤمن أو يهتزّ إذا غاب القائد من الوجود الدّنيويّ، بل يبقى مرتبطاً بتعاليمه وأحكامه وعقائده، وهذا النَّمط كان موجوداً في المسلمين في معركة أحد إلا أنَّه كان قليلاً، وهذا العدد القليل هو الَّذي أعاد للمعركة حيويتها وحماسها، وأرجع المسلمين الَّذين انهزموا...

هذا النَّمط الرّساليّ قد ثبت في المعركة من خلال وعيه للرّسالة، وارتباطه بها، لا من خلال ارتباطه بالجسد الدّنيويّ للرَّسول ﷺ، بل بروحه الَّتي هي روح الرّسالة، وبعبارة أوضح: اتَّخذ الرّسالة قاعدة ينطلق منها، ويضحّي في سبيلها سواء مات الرَّسول أو قُتِلَ أو بقي حياً، وهذا ما حدث عند الثّابتين من المؤمنين في المعركة الَّذين يمثّل لسان حالهم أنس بن النّضر حين رأى انهزام الكثيرين عندما سمعوا قول المنافقين: «لو كان نبيّاً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم»، فقال أنس بن النّضر: «يا قوم، إن كان قتل محمد، فإنَّ ربّ محمّد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه»، ثمّ قال: «اللّهمّ، إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء، وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء»، ثمّ شدَّ بسيفه، فقاتل حتّى قُتِلَ[(٢)].

«وهكذا نجد القاعدة الإسلاميّة - الّتي تربط الإنسان المؤمن بالرّسالة، ولا تربطه بالشَّخص إلا من خلال الرّسالة، فلا تموت الرّسالة بموته - ممثّلة في بعض

---

(١) النَّجم: ٣-٥.

(٢) الكشّاف: ٤٢٣/١؛ وينظر: البداية والنّهاية لابن كثير: ٢٦/٤؛ والدّرّ المنثور: ٤٧/٤.

النّماذج المؤمنة في ذلك الوقت»(١).

ولعلّه إلى هذا المعنى أشار الإمام الكاظم عليه السلام بقوله: «**مَنْ أَخَذَ دينَه منْ كتاب الله وَسُنَّة نَبيِّه - صَلَواتُ الله عَلَيْه وآله - زالَت الْجبالُ قَبْلَ أَنْ يزول، وَمَنْ أَخَذَ دينَه منْ أَفْواه الرِّجال رَدَّتْه الرِّجالُ**»(٢).

وقال عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَمْرَنا منَ الْقُرْآن، لَمْ يَتَنَكَّب الْفتَنَ**»(٣).

إذن الارتباط الَّذي يريده الإسلام هو **الارتباط بالشَّخص من خلال الرّسالة، لا الارتباط بالرّسالة من خلال الشّخص**؛ فإنَّ الشَّخص يموت والرّسالة باقية... وعلى أساس هذه القاعدة بقيت الرّسالة حيّة في نفوس حامليها فقد مات قادتها، وزالوا من الوجود بأشخاصهم إلا أنَّ شخصيّاتهم المتمثّلة في أقوالهم، وأفعالهم، ومناهجهم، وأخلاقهم باقية حيّة نابضة بالحيويّة والحماس في ضمائر حامليها ونفوسهم.

ولا يفهم من هذا الكلام أنّي أرفض الارتباط بشخص الرَّسول صلى الله عليه وآله أو أشخاص أوصيائه عليهم السلام -والعياذ بالله- وإنّما أقصد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الشّاهد، والمبشّر، والمرشد، والمنذر، والمبيّن لأحكام الله تعالى من عنده تعالى، وهو باقٍ ببقائها حيّة نابضة في ضمائر المؤمنين، ومتمثّلة في حياتهم العمليّة، حاكمة في سلوكهم اليوميّ، وهذا هو أحياء أمرهم الَّذي دعوا المؤمنين إليه، فقد روى عبد السّلام بن صالح الهرويّ، قال: «سمعْتُ أبا الحسن الرّضا عليه السلام يقول: **رَحمَ اللهُ**

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٤٠٣/٣.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٤/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٥/١.

**عَبْداً أَحْيا أَمْرَنا**، فقلت له: فكيف يحيي أمركم؟ قال: **يَتَعَلَّمُ عُلومَنا، ويُعَلِّمُها النّاسَ فَإِنَّ النّاسَ لَوْ عَلِموا مَحاسِنَ كَلامنا لاتَّبَعونا**»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**رَحِمَ اللهُ عَبْداً حَبَّبَنا إلى النّاس، ولَمْ يُبَغِّضْنا إِلَيْهِمْ، أَما وَاللهِ لَوْ يَرْوونَ مَحاسِنَ كَلامنا لَكانوا أَعَزَّ، وَما اسْتَطاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ**»(٢).

وما أروع قول أنس بن النّضر وهو يوبّخ المنهزمين عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا قوم، إن كان قتل محمد، فإنَّ ربّ محمّد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه»(٣)، فالغاية هي رفع كلمة الله تعالى، وتعبيد النّاس بها؛ لتكون حاكمة لهم، وموجّهة لحياتهم.

إذن يتبيّن لنا أنَّ الضّعف والوهن الّذي أصاب المسلمين سببه هو نوعيّة الارتباط، فلو كانوا مرتبطين بروح الرّسالة وأهدافها ارتباطاً واعياً لما اهتزّوا وفرّوا حين سمعوا نداء الكفّار: «قُتِلَ محمّد»، مع أنَّهم يعلمون أنَّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله معهم، يواصل القتال بثبات منقطع النّظير، وأن الله تعالى جعله وصيّاً هو وأحد عشر من أولاده وأحفاده، ليضمن استمرار الرّسالة إلى يوم القيامة من خلال ارتباط المؤمنين بشخصيّة إمام زمانهم، الّذي يمثّل الرّسالة قولاً، وفعلاً، ويحفظها من التَّحريف، ويحفظ الأمّة من الانحراف.

ونستوحي من ذلك أنَّ الله إنَّما جعل لكل نبيّ أوصياء؛ ليبقوا صمّام أمان لاستمراريّة الرّسالة في أصالتها ونقائها، وليتلقّى النّاسُ الإسلامَ منهم سليماً.

---

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٨٠.

(٢) الكافي: ١٥/٥٢٤، ح/١٥١٠٩.

(٣) الكشّاف: ١/٤٢٣.

نعود إلى الآية الكريمة، لنستخلص من علائم الرّبّانيّين، وهم الجماعة الكاملة في العلم والعمل، ونحاول أن نستخرج من خلال مواقف المؤمنين الدُّروس والعبر؛ لمواجهة القوى الّتي تتحدّى حركة الإسلام:

١- إنَّ الآية الكريمة وغيرها من الآيات تؤكّد استمراريّة الصّراع بين الحقّ والباطل، وأنَّ هذا الصّراع مستمرٌّ دائمٌ لا يتوقّف ما دام هناك دعاة حقّ ودعاة باطل، وخير دليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟**﴾(١)، فالآية الكريمة جاءت بصيغة المضارع، ومعلوم أنّه يفيد الاستمراريّة، فلا يمكن أن يحدث سلامٌ بين الشّرك والإيمان، وبين الحقّ والباطل في يوم ما أبداً، ولذلك لا بدّ لهذا الصّراع من تضحيات، ولا بد لهذه التّضحيات من صبر على المعاناة، ومواصلة للجهاد في طريق ذات الشّوكة.

٢- حين يشتدّ الصّراع، وتكثر التّضحيات، وتعنف الضّربات، وتتعالى قوى الكفر، فإنَّ الرّبّانيّين لا يمكن أن يصابوا بالوهن والضَّعف، وخور العزائم، ولا تهتزّ قناعتهم بقضيّتهم الكبرى، بل تزداد عزيمتهم ومضاؤهم في مواصلة الجهاد؛ لأنَّ ما أصابهم كان في سبيل الله، وفي عين الله، ولأجل إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، ثمّ إنَّ هذا الجهد الجهيد مدّخرٌ لهم عند ربهم ما دام عملهم هذا في سبيل الله، فهم منتصرون غَلَبوا أو غُلبوا، قَتلوا أو قُتلوا؛ لأنَّ مفهوم النَّصر في الإسلام لا يعني الغَلبة على العدوّ فقط، وإنَّما النَّصر في منطق الإسلام أن تؤدّي عملك وواجبك كما أمرك الله تعالى به، وكلّ ما يتحمّله المؤمن من جهد، وجهاد، وتعذيب، ومحن وابتلاءات فهو خير له، ففي حديث عن رسول الله ﷺ: «**عَجَباً لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ**

(١) البقرة: ٢١٧.

**منْ شيعة محمّد وعليٍّ عليهما السلام أنْ ينصر في الدنّيا على أعْدائه، فقدْ جمع له خيْر الدّارين، وإنْ ما امْتحن في الدنّيا ذخر له في الآخرة ما [لا] يكون لمحْنته في الدنّيا قدْرٌ عنْد إضافتها إلى نعيم الآخرة»**(١).

ورُوي عن العالم عليه السلام أنّه قال: «**الْمؤْمن يعْترض كلّ خيْر، لوْ قرّض بالْمقاريض كان خيْراً له، وإنْ ملك ما بيْن الْمشْرق والْمغْرب كان خيْراً له**»، ورُوي: «**منْ أُعْطي الدّين، فقدْ أُعْطي الدنّيا**»(٢).

عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**عجبْتُ للْمرْء الْمسْلم لا يقْضي الله - عزّ وجلّ - له قضاءً إلا كان خيْراً له؛ وإنْ قُرّض بالْمقاريض كان خيْراً له، وإنْ ملك مشارق الأرْض ومغاربها كان خيْراً له**»(٣).

وعن أبي يحيى الحنّاط، عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: «شكوتُ إلى أبي عبد الله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع - وكان مسقاماً - فقال لي: **يا عبْد الله، لوْ يعْلم الْمؤْمن ما له من الأجْر في الْمصائب، لتمنّى أنّه قُرّض بالْمقاريض**»(٤).

قال خبّاب: «أتيتُ النّبيّ صلى الله عليه وآله، وهو متوسّد ببردة، وهو في ظلّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلْتُ: ألا تدعو الله؟، فقعد وهو محمرٌّ وجهه، فقال: **قدْ كان منْ كان قبْلكمْ ليمْشط بأمْشاط الْحديد ما دون عظامه منْ لحْم أوْ عصب، ما يصْرفه ذلك عنْ دينه، ويوضع الْمنْشار على مفْرق رأْسه، فيشقّ**

---

(١) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٥٧٧، ح/٣٣٩.

(٢) الفقه المنسوب إلى الإمام الرّضا عليه السلام: ٣٦٠.

(٣) الكافي: ١٦١/٣، ح/١٥٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ٦٣٩/٣-٦٤٠، ح/٢٣٦٦.

**باثْنين ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عَنْ دينه، ولَيُتِمَنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حتّى يَسيرَ الرّاكبُ مِنْ صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ ما يَخافُ إلا اللهَ عَزَّ وَجلَّ... والذِّئبَ على غَنَمه**، وفي رواية: **ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجلونَ**»(١).

ومن خلال هذه الأحاديث نفهم أنَّ الصّراع بين الحقّ والباطل لا بدّ لـه من صبر واستقامة وثبات رغم عنف المواجهة، وكلّ ما يلاقيه المؤمن فهو في عين الله، لا يضيع عند الله من أجره شيءٌ، وتأسيساً على ذلك فمهما واجه المؤمن من عقبات وصعاب ومصائب... لا يمكن أن يزلزله عن دينه أو يخرجه عن طاعة ربّه تعالى، ولا يكون كذلك إلا إذا كان ربّانيّاً يتعلّم لله، ويعلّم لله، وينبعث لله، ويعمل لله، ويصبر في سبيل الله.

٣- تبيّن الآية الكريمة آداب الرّبّانيّين مع الله تعالى، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا** ﴾، فهم يقدّمون الاعتراف بالذّنب والإسراف في الأمر، ويبدون تقصيرهم في حقّ الله، وعجزهم عن القيام بأيّ عمل لولا رحمته، قبل أن يطلبوا النَّصر من الله تعالى، وهذه هي غاية العبوديّة لله تعالى، وكأنّه إشارة منهم إلى أنَّ سبب استيلاء العدوّ لذنب ارتكبوه، أو تقصير في حقّ الله وقعوا فيه.

ومن هذه الآداب نعرف أنَّ الاعتراف بالرّبوبيّة لله عن يقين خالص، والتَّنزيه له أوّلاً، ثمّ طلب المغفرة، ورجاء قبول التّوبة قبل التَّثبيت ونزول النّصر ثانياً، فلا ينزل الله النَّصر على عباده إلا عندما يخلص العبيد له تعالى، ويطهّرون أنفسهم من الأدران، ويتوجَّهون إليه بنيّة خالصة، وبشعور وإحساس أصيل أن لا مؤثّر في

---

(١) ابن كثير، السّيرة النّبويّة: ٤٩٦/١.

الوجود إلا الله تعالى.

٤- ثمّ تبيّن الآية الكريمة أنَّ الجزاء العظيم لهؤلاء الرّبّانيّين الَّذين أسلموا أمرهم إلى الله تعالى، وأخلصوا إليه في أعمالهم جاء نتيجة صبرهم ورضاهم بقدر الله تعالى أن آتاهم ثواب الدُّنيا، وهو النَّصر، والغلبة، والرّفعة في الدُّنيا بعد أن صدقت نيّتهم، وصفت سرائرهم، وأسلموا لله في جميع أمورهم، وفوق ذلك، وأعلى منه حسن ثواب الآخرة ورضوانه تعالى، وهذا هو غاية الجزاء العظيم.

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دلالة أنَّ العبد يفوز بحبّ الله، وتغمره الرَّحمة عندما يثبت في الشَّدائد، ويرضى بما يصيبه، ولا يستسلم للواقع المرّ نتيجة الضَّربات الصَّعبة والمواقف الحرجة، وإنّما يثبت ويصمد، ويتمرّد على ذلك الواقع، ويتوجّه بكلّه إلى الله تعالى.

وخلاصة الكلام: إنَّ المؤمن الرّبّانيّ عندما يواجه التّحدّيات في حياته الرّساليّة لا يمكن أن يصاب بالضَّعف والوهن، وإنّما يبقى صابراً مستقيماً على ما أمره الله تعالى به سواء أقبلت الدُّنيا عليه، أو أدبرت، وسواء تفرّق النّاس عنه، أو اجتمعوا معه، فهو في حالة واحدة، ثمّ إنّه يعترف بأنَّ ما أصابه إنَّما هو بتقصير وإسراف منه، وأنَّ الهزيمة لا يمكن أن تصيب الرّسالة، وإنّما تصيب حملتها عندما يقصّرون في أداء واجباتهم، والمؤمن الرّبّانيّ لا يتوجّه إلى غير الله، ولا يطلب العون من سواه، وإنّما يستمدّ العون والمدد منه تعالى على كلّ حال.

# خُطُواتٌ في طَرِيقِ الْكَدْحِ إِلى اللهِ تَعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[1].

خطاب عامٌّ شاملٌ موجّه لجميع بني آدم؛ فهم جميعاً خلق الله وعبيده، خاضعين إليه لربوبيّته المطلقة، وعبوديّتهم[2] الشّاملة لكلّ إنسان من دون استثناء، وبذلك له تعالى حقّ الطّاعة على خلقه جميعاً من بني البشر، «فالله سبحانه وتعالى مطلق لا حدود له، ويستوعب بصفاته الثّبوتيّة كلّ المُثُل العليا للإنسان الخليفة على الأرض: من إدراك، وعلم، وقدرة، وقوّة، وعدل، وغنى.

وهذا يعني أنّ الطريق إليه لا حدَّ له، فالسَّير نحوه يفرض التّحرّك - باستمرار وتدرّج - النّسبيّ نحو المطلق بدون توقّف، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾، ويعطي لهذا التّحرّك مُثله العليا المنتزعة من الإدراك، والعلم، والقدرة، والعدل، وغيرها من صفات ذلك المطلق الّذي تكدح المسيرة نحوه. فالسَّير نحو مطلقٍ، كلّه علم، وكلّه قدرة، وكلّه عدل، وكلّه غنًى يعني: أن تكون المسيرة

---

(1) الانشقاق: ٦.

(2) ورد منسوباً للإمام الصّادق عليه السلام: «الْعُبوديَّةُ جَوْهَرٌ كُنْهُها الرُّبوبيَّةُ، فَما فُقِدَ مِنَ الْعُبوديَّةِ وُجِدَ في الرُّبوبيَّة، وَما خَفِيَ عَنِ الرُّبوبيَّةِ أُصيبَ في الْعُبوديَّةِ... وَتَفْسيرُ الْعُبوديَّةِ بَذْلُ الْكُلِّ، وَسَبَبُ ذلكَ مَنْعُ النَّفْسِ عَمّا تَهْوى، وَحَمْلُها عَلى ما تَكْرَه، وَمِفْتاحُ ذلكَ تَرْكُ الرّاحَةِ وَحُبُّ الْعُزْلَة، وَطَريقَةُ الافْتِقارِ إِلى اللهِ تَعالى قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ»، مصباح الشّريعة: ٧-٨

الإنسانيّة كفاحاً متواصلاً باستمرار، ضدّ كلّ جهل، وعجز، وظلم، وفقر.

وما دامت هذه هي أهداف المسيرة المرتبطة بهذا المطلق، فهي إذن ليست تكريساً للإله، وإنَّما هي جهادٌ مستمرٌّ من أجل الإنسان وكرامة الإنسان وتحقيق تلك المُثل العليا له، ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)]»[(٢)].

فليس المقصود إذن في الخطاب إنساناً معيّناً كما ذهب بعض المفسرين، بل تشمل كلّ مكلّف، ثمّ إنَّ الإنسان في هذه الحياة سائر في طريق التَّكامل، لهدف سامٍ هو الوصول إلى معرفة الله، والتّقرّب إليه بعبادته؛ لأنَّ الانسان لم يُخلق عبثاً، ولن يترك سدًى، ولكي يحقّق الأهداف المخلوق من أجلها عليه أن يمتثل لما أُمِرَ به، وينتهي عمّا نُهِيَ عنه، وفي مسيرته يخضع للرّقابة الإلهيّة، ويُسَجَّلَ في صحيفة أعماله كلّ ما قام به من خير، أو شرّ، وعلى ذلك تتوقّف سعادته أو شقاؤه، وعليه يترتّب ثوابه أو عقابه، ثمّ إنَّ الآية الكريمة عبَّرت عن سير الإنسان إلى الله في هذه الحياة (بالكدح) -وهو بذل ما في النَّفس من طاقات في العمل بجهد يؤثّر فيها لما فيه من عناء ومشقّة- يدلّ على أنَّ الوصول إلى الله يحتاج إلى جهود متواصلة، وسعي حثيث بلا كلل ولا ملل في مجاهدة النَّفس، والشَّيطان، والواقع الفاسد، وشقّ أمواج الفتن بسفن النّجاة، وتمزيق الظُّلمات بنور المعرفة.

وقد أشار علماء المعرفة بالله إلى خطوات هذا الطَّريق، وإلى مراقي هذا السّلّم، ورسموا له منهجاً عمليّاً ضمن خطوات نذكر منها ما أشار إليه العلامة السّيّد محمّد حسين الطَّباطبائيّ ﵀ على ما في تقرير تلميذه السّيّد محمّد الحسين

---

(١) العنكبوت: ٦.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصَّدر، الفتاوى الواضحة: ٧٥٦-٧٥٧.

الطَّهرانيّ رحمه الله في رسالة لبّ اللّباب[1]:

**١- ترك العادات والأعراف والتّقاليد الاجتماعيّة المخالفة للشّريعة الإلهيّة:** بل حتّى المباحة منها ممّا لا تعود على الإنسان بفائدة، وهذه هي حقيقة الإعراض عن اللّغو من مجالس لهويّة، وأحاديث فارغة لَغْويّة، وأعمال عبثيّة... وغير ذلك، حتّى لو خالف تصرّفه هذا آراء النّاس، وعاداتهم، وتقاليدهم، وما تعارفوا عليه من أشياء لا تعود بنفع على المجتمع[2]، فالمؤمن الكادح إلى الله مُصلح، ومغيّر، ومؤثّر في أشدّ المناطق حساسيّة، وغير متأثّرٍ سلبيّاً، لذا لا بدَّ وأن

(١) ينظر: رسالة لبّ اللّباب في سير وسلوك أولي الألباب: ٩٩-١٥٣.

(٢) وهذا لا يعني اعتزالهم والابتعاد عنهم، وإنّما يمكن مخالطتهم في الأمور المباحة، ومجاملتهم فيما لا يوقع الإنسان في محذور شرعيّ، ولعلَّ هذا التّصرّف ما أشارت له بعض الرّوايات، نذكر منها: قال أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**خالطوا النّاسَ بما يَعْرفونَ، ودَعوهُمْ ممّا يُنْكرونَ، ولا تَحْملوهُمْ على أَنْفُسكُمْ وعَلَيْنا، إنَّ أَمْرَنا صَعبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لا يَحْتَمِلُهُ إلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، أَوْ نَبيٌّ مُرْسَلٌ، أَوْ عَبْدٌ قَد امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ للإيمان**» كتاب الخصال للشّيخ الصّدوق: ٦٢٤/٢؛ وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**كونوا في النّاسِ كَالنَّحْلَة في الطَّيْر، لَيْسَ شَيْءٌ منَ الطَّيْر إلا وَهُوَ يَسْتَضْعفُها، ولَوْ يَعْلَمونَ ما في أَجْوافها منَ الْبَرَكَة لَمْ يَفْعَلوا ذلكَ بها، خالطوا النّاسَ بأَلْسنَتكُمْ وأَجْسادكُمْ، وزايلوهُمْ بقُلوبكُمْ وأَعْمالكُمْ، لكُلِّ امْرئ ما اكْتَسَبَ، وَهُوَ يَوْمَ الْقيامَة مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» الأمالي للشّيخ المفيد: ١٣١؛ وقال عليه السلام: «**خالطوا النّاسَ مُخالَطَةً إنْ مُتُّمْ معها بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وإنْ عشْتُمْ حَنّوا إلَيْكُمْ**»، نهج البلاغة: ٤٨٨، قصار الحكم: ٦؛ وعلّق على الحديث هذا المرحوم الفقيه الشّيخ محمّد جواد مغنية، فقال: «فرق بعيد بين النّفاق، وحسن المعاشرة، فالنّفاق أن تضمر البُغض، وتظهر الحبّ، أمّا حسن المعاشرة فهي أن تحسن ولا تسيء، وتحبّ ولا تكره، وتعين ولا تخذل.. وبهذا تكون محبوباً عند النّاس يبكون عليك إن متَّ، ويحنّون عليك إن غبْتَ، قال سبحانه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة: ٨٣»، في ظلال نهج البلاغة: ٢٢٣/٤.

يعمل لتغيير العادات، والأعراف، والتّقاليد، والأفكار الجاهليّة وفق ما نصَّت عليه شريعة الله تعالى، فلا يخوض حيث يخوض النّاس، ولا يكون إِمَّعَةً[1] تابعاً لأهوائهم ورغباتهم؛ لأنَّه هو حامل نور الله، إذا حلَّ في أرض أضاءها بنشر عقائد الإسلام، ومفاهيمه، وأحكامه، بعد أن يجسّدها بسلوكه، فإذا تحدَّث كان حديثه صادقاً هادفاً مغيّراً، وإذا صمت تفكَّر؛ ليضع الخطة السّليمة؛ لتغيير هذه الأعراف والتَّقاليد، فلا يدخل مع النّاس دخول تابع، وإنَّما دخول مُغَيِّر مصلح، ومن هنا لا بدّ أن يواجه المؤمن هذه الأعراف والتَّقاليد، بحكمة، ودراية، ومداراة، وحزم، وعزم بطرح البديل المناسب لما يروم تغييره، فالمؤمنون ﴿**يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[2].

إنَّ كثيراً من الأعراف والتقاليد الَّتي اعتادها النّاس في دنياهم إن لم تكن مخالفة للشَّرع المقدّس فهي ضياع للعمر بلا طائل؛ ولذا على المؤمن أن يبذل جهده لتغييرها بصورة تدريجيّة، وإن طال الزّمن.

٢- **العزم والتَّصميم**: العزيمة هي التَّصميم القاطع بوعي إيمانيّ جادّ هادف - لا ينتابه شكٌّ ولا تردّد- على الالتزام بما أمر الله تعالى، والانتهاء عما نهى عنه، ويتمّ ذلك بانعقاد القلب عليه من أمر، قاصداً مواصلة العمل به، متوكّلاً على الله

---

(١) «الإِمّعة بكسر الهمزة، وتشديد الميم: الَّذي لا رأي له، فهو يتابع كلّ أحد على رأيه... وقيل: هو الَّذي يقول لكلّ أحد أنا معك، ومنه حديث ابن مسعود: لا يكوننَّ أحدكم إمّعة، قيل: وما الإمّعة؟ قال: الَّذي يقول: أنا مع النّاس»، بحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٢/٢٢.

(٢) المائدة: ٥٤.

تعالى بصبر وجدّ يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[(١)].

وقد أكَّد هذا المعنى لمفهوم العزّم بيان كثير من العلماء نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: قول الشَّريف المرتضى: «العزم: توطين النَّفس، والقطع على أنَّه سيفعل الفعل، أو لا يفعله لا محالة، وقيل: العزم إرادة جازمة حصلت بعد التّردّد فيه»[(٢)].

وقال شارح أصول الكافي: «العزم: تأكد ميل النَّفس إلى فعل من الأفعال، والقطع عليه، وهو سبب قريب له تابع للإرادة التّابعة للشَّوق التّابع للتّصوّر»[(٣)].

وقد أوضح الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ أهمّيّة العزم ودوره في السَّير والسُّلوك والكدح إلى الله، قائلاً: «فالعزم هو الشّرط الأوّل للسُّلوك، ودونه لا يمكن طيّ طريق، ولا بلوغ كمال، وقد كان الشَّيخ الجليل الشّاه آبادي (روحي فداه) يصف "العزم" بأنَّه لبّ الإنسانيّة، ويمكن القول: إنَّ إحدى أهمّ الأهداف المطلوبة من التَّقوى، والتّورّع عن الشّهوات، ومخالفة الأهواء النَّفسانيّة، وممارسة الرّياضات الشَّرعيّة، والعبادات، والمناسك الإلهيّة، إنَّما هو تقوية العزم، وإخضاع القوى "الملكيّة" لملكوت النّفس»[(٤)].

إذن لا بدَّ لسالك طريق الله من إرادة قويّة، وعزيمة ماضية، وبصيرة نيّرة، وهمّة عالية، ونيّة خالصة، ورؤية واضحة، وأهداف محدَّدة؛ ليستطيع مواصلة السَّير، وإلا فلا يمكن أن يصل إلى الهدف المنشود؛ لأنَّ السّائر في طريق الحقّ

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) رسائل الشَّريف المرتضى: ٢٧٨/٢.

(٣) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٢٥/٣.

(٤) الإمام الخمينيّ، آداب الصَّلاة: ٨٩-٩٠.

تواجهه عقبات كَأداء صعبة، فإن لم يكن عازماً مصمّماً رائداً لا يستطيع مواصلة المسير؛ لأنَّ الكدح إلى الله صعب مستصعب بذاته[١]، فلا بدَّ له من الجدّ والصَّبر، ومن دونهما يرجع القهقرى، ومن هنا كانت العزيمة والتَّصميم هو السّلاح الجبّار الَّذي تسلّح به كلّ رسل الله وأنبيائه ودعاته لمواصلة السَّير إلى الله، وبه اجتازوا عقبات المسير على طول خط الرّسالات؛ ولذلك قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ **فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[٢].

وقد قال بعض المفسّرين: «إنَّ كلَّ الرّسل أولو عزم، ولم يبعث الله رسولاً إلا كان ذا عزم، وحزم، ورأي، وكمال، وعقل»[٣].

فمن أراد أن يبلغ ذرى الكمال لا بدّ وأن يشمّر أذياله، ويعزم عزم رجال العقيدة والرّسالة على تحمّل أعباء المسؤوليّة، وما يكتنفها من صعاب، ومعاناة وعقبات كأداء، وإلا فلا يبلغ مناه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَشُدّوا عُقَدَ المآزر، واطْوِوا فُضولَ الْخَواصر، ولا تَجْتَمعُ عَزيمَةٌ ووَليمَةٌ**[٤]»[٥].

وعقد المآزر كنايَةَ عن الجدّ والتَّشمير، أي إنَّه عليه السلام يؤكّد لابدّيّة التّصميم،

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لا يَحْتَمِلُهُ إلا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ للإيمان، ولا يَعي حَديثَنا إلا صُدورٌ أَمينَةٌ وأَحْلامٌ رَزينَةٌ**» نهج البلاغة: ٣٠٩، خطبة: ١٨٩؛ وقال أبو جعفر عليه السلام: «**إنَّ حَديثَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لا يُؤْمِنُ به إلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، أَوْ نَبيٌّ مُرْسَلٌ، أَوْ عَبْدٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ للإيمانِ، فَما عَرَفَتْ قُلوبُكُمْ فَخُذوهُ، وما أَنْكَرَتْ فَرُدّوهُ إلَينا**»، الأصول السّتّة عشر: ٢١٥، ح/٢١١.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: ٣٥/٢٨.

(٤) أي لا يجتمع طلب المعالي مع الرُّكون إلى اللّذائذ.

(٥) نهج البلاغة: ٣٨٦، خطبة: ٢٣٩.

لطوي كلّ ما يؤخر السَّير، ويعوقه، ولو كان ثوباً يلتفّ على السّاق فيعرقل الحركة.

إذن لا بدَّ من الجدّ والاجتهاد، والسَّعي المتواصل، وتحمّل المعاناة، فلا يجتمع طلب المعالي مع الكسل، والتَّواني، واللَّهو، والتّسويف، والرُّكون إلى اللَّذائذ، فالعزيمة الماضية، والتَّصميم القاطع يدخل عنصراً فعّالاً في كلّ جوانب حياة الإنسان العمليّة، فمن كان واهي العزيمة متردّداً لا يستطيع أن ينجز عملاً، ولا يبلغ مرتبة سامية أبداً، ولن يصل إلى غايته مطلقاً؛ ولذا جعل الله شعار التّوحيد «لا إله اله الا الله» «**عزيمة الإيمان**» أي لا إيمان من دونه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، شَهادَةً مُمْتَحَناً إخْلاصُها... فَإنَّها عَزِيمَةُ الإيمانِ**[١]، **وَفاتِحَةُ الإِحْسانِ، ومَرْضاةُ الرَّحْمنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطانِ**»[٢].

وللعزم والتَّصميم دورٌ فعّالٌ في مواجهة الشَّدائد، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: «**يا بُنَيَّ... اطْرَحْ عَنْكَ وارداتِ الْهُمومِ بِعَزائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقينِ**»[٣].

وقال عليه السلام: «**وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أولِي قُوَّة في عَزائمِهِمْ**»[٤].

وهي دواء من الغفلة والرّكود كما قال عليه السلام: «**فتداوَ مِنْ داءِ الْفَتْرةِ في قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ**»[٥].

---

(١) «**عَزِيمَةُ الإيمان**»: «أي عقيدتها، وممّا يجب للمؤمن أن يعقد قلبه عليها، أو أنّها معزومة الإيمان بمعنى أنّها ممّا ينبغي أن يجدّ فيها، ويجتهد»، منهاج البراعة، حبيب الله الخوئيّ: ٢/٢٨٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨، خطبة: ٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤٢٧، كتاب: ٣١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٢٠، خطبة: ١٩٢.

(٥) المصدر نفسه: ٣٧١، خطبة: ٢٢٢.

وهي الثَّبات والشّدّة فيما عُقدت له النّيّة عليه، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(١).

إنَّ في الإنسان طاقات جبّارة، وهذه طاقة لا تنحصر في القوّة البدنيّة، بل إنَّ الطّاقة البدنيّة متوقّفة على ما تختزنه النَّفس من طاقات روحيّة ومعنويّة تتولّد من الإرادة الصُّلبة، والعزيمة الماضية، والنّيّة الصّالحة، جاء في الحديث عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**ما ضَعُفَ بَدَنٌ عَمّا قَوِيَتْ عَلَيْه النِّيَّةُ**»(٢).

وصلابة العزيمة لا تأتي إلا من رسوخ الإيمان، وثبات اليقين، والاستقامة في طريق ذات الشَّوكة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يوقِنْ قَلْبُهُ لَمْ يُطِعْهُ عَمَلُهُ**»(٣)، وقال عليه السلام: «**كُنْ موقناً تَكُنْ قَوِيّاً**».

ولعلَّ هذا المعنى هو المراد بقوله عليه السلام: «**عَلى قَدْرِ الرَّأيِ تَكونُ الْعَزيمَةُ**»(٤).

وخلاصة القول: إنَّ العزيمة الماضية، والإرادة القويّة للسّائر في طريق الله سلاح لا يستغنى عنه بأيّة حال من الأحوال، بل هو من بديهيّات الأمور لمن أراد الصُّعود إلى مدارج الكمال، ومن دونه يبقى الإنسان في مستنقع النَّقص.

**٣- الرّفق والمداراة:** لا بدَّ لسالك الطَّريق إلى الله تعالى من التّدرّج في مراحل سيره والرّفق بنفسه، وعدم تحميلها ما لا تطيق دفعةً واحدةً لأنَّ للنَّفس

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤/٤٠٠، ح/٥٨٥٩.

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦١-٦٢، ح/٧٠١-٧٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ٦٤، ح/٨٠٠.

حالات مختلفة بين إقبال وإدبار؛ ففي حالات الإقبال قد يدفع الشّوق الإنسان إلى تحميل نفسه أكثر ممّا تطيق، ثمَّ بعد ذلك سرعان ما تخبو نار الشَّوق ويتراجع، ويعجز، ويتوقّف عن مواصلة كدحه؛ ولذا ورد في الحديث الشَّريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: يا عَليُّ، إنَّ هذا الدّينَ مَتينٌ، فَأَوْغلْ**[١] **فيه برفْق، ولا تُبَغِّضْ إلى نَفْسكَ عبادَةَ رَبِّك، فَإنَّ الْمُنْبَتَّ** - يعني المُفْرط - **لا ظَهْراً أَبْقى، ولا أَرْضاً قَطَعَ، فَاعْمَلْ عَمَلَ مَنْ يَرْجو أَنْ يَموتَ هَرِماً، وَاحْذَرْ حَذَرَ مَنْ يَتَخَوَّفُ أَنْ يَموتَ غَداً**»[٢].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: إنَّ هذا الدّينَ مَتينٌ، فَأَوْغلوا فيه برفْق، وَلا تُكَرِّهوا عبادَةَ الله إلى عباد الله، فَتَكونوا كَالرّاكبِ الْمُنْبَتِّ الَّذي لا سَفَراً قَطَعَ، ولا ظَهْراً أَبْقى**»[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**لا تُكَرِّهوا إلى أَنْفُسكُمْ الْعبادَةَ**»[٤].

ولعلَّ الحكمة في ذلك: أنَّ العبادة غذاءٌ روحيٌّ يحتاج إلى ميل، وشوق، ونظام كالغذاء البدنيّ، فعندما يريد الإنسان أن يتناول غذاءً فلا بدَّ من اختيار الغذاء المناسب لمزاجه ورغبته أوّلاً، وأن يكون له ميلٌ وشهيّة للطَّعام، ويأكل قدر حاجته، أمّا إذا لم يكن الطعام موافقاً لمزاجه، ولا له رغبة به، وأكل أكثر من

---

(١) «الإيغال: السَّير الشّديد، والإمعان في السَّير والوغول الدّخول في الشَّيء، يعني سيروا في الدّين برفق، وأبلغوا الغاية القصوى منه بالرّفق لا على التّهافت والخُرق، ولا تحملوا على أنفسكم، ولا تكلّفوها ما لا تطيق فتعجز، وتترك الدّين والعمل»، كتاب الوافي للفيض الكاشانيّ: ٣٥٩/٤.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢٢٤/٣، ح/١٦٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٢/٣، ح/١٦٨٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢٣/٣، ح/١٦٨٣.

حاجته، فستكون النَّتيجة عكسيّة، هذا في الجانب البدنيَّ، وأمّا في النّاحية الرّوحيّة فإنَّ النّظام، والتّنظيم، والتّدرّج والرّفق أهمّ سواء في الإعداد الذّاتيّ، أو في توجيه وتربية الآخرين لإعدادهم روحيّاً؛ فعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَرَّ بي أَبي، وأَنا بالطَّواف، وأَنا حَدَثٌ، وَقَد اجْتَهَدْتُ في الْعبادَة فرَآني، وأَنا أَتَصابُّ عرَقاً، فَقَالَ لي: يا جَعْفَرُ، يا بُنَيَّ، إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْداً أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَرَضيَ عَنْهُ بالْيَسير**»(١).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: «**اجْتَهَدْتُ في الْعبادَة وأَنا شابٌّ، فَقالَ لي أَبي: يا بُنَيَّ، دونَ ما أَراكَ تَصْنَعُ، فَإنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إذا أَحَبَّ عَبْداً رَضيَ عَنْهُ بالْيَسير**»(٢).

وهكذا يتّضح لنا أنَّ الرّفق بالنّفس وبالغير في السَّير والسُّلوك إلى الله منهجٌ تربويٌّ رسمته الشّريعة المقدّسة؛ لتضع الإنسان على جادّة الصّواب؛ لكي يفوز بسعادة الدُّنيا والآخرة، فلا يجوز أن يخالف هذا المنهج التّربويّ؛ لأنَّ ذلك يوقعه في مفارقات سلوكيّة مخالفة لما أراده الله تعالى لعباده، فيخسر جهده في الدُّنيا وثوابه في الآخرة، وهذه نتيجة عمل كلّ عامل بدواعٍ عاطفيّة بغير رَوِيَّة، وبصيرة، ووعي إيمانيّ سليم.

وقد أوضح الإمام الصّادق عليه السلام ذلك بمَثَلٍ ضربه لأحد مبعوثيه إلى بعض أصحابه عندما رآه منفعلاً تجاه من أرسله إليهم؛ لأنَّه وجد فيهم تقصيراً حسب تصوّره، فبعد أن بيَّن له أنَّ للإيمان درجات متفاوتة، وأنَّ لكل إنسان درجته، ولا يحقّ لصاحب الدّرجة العليا أن يُحَمّل درجته على من دونه، ثمّ قال له:

(١) الكافي: ٢٢٣/٣-٢٢٤، ح/١٦٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٤/٣، ح/١٦٨٦.

«وسأضْرب لكَ مثلاً: إنَّ رجلاً كانَ لهُ جارٌ، وكانَ نصْرانيّاً، فدعاهُ إلى الإسْلام، وزيَّنه لهُ فأجابهُ، فأتاهُ سحْراً، فقرعَ عليْه الْباب، فقالَ له: منْ هذا؟ قالَ: أنا فُلانٌ، قالَ: وما حاجتُكَ؟ فقال: توضّأْ، والْبسْ ثوْبيْك، ومُرَّ بنا إلى الصَّلاة»، قالَ: «فتوضَّأ، ولَبس ثوْبيْه، وخرجَ معهُ»، قالَ: «فصلَّيا ما شاء الله، ثُمَّ صلَّيا الْفجْرَ، ثُمَّ مكثا حتّى أصْبحا، فقامَ الَّذي كانَ نصْرانيّاً يريدُ منْزلهُ، فقالَ لهُ الرَّجلُ: أيْنَ تذْهبُ؟ النَّهارُ قصيرٌ، والَّذي بيْنكَ وبيْنَ الظُّهْر قليلٌ»، قالَ: «فجلسَ معهُ إلى أنْ صلّى الظُّهْرَ، ثُمَّ قالَ: وما بيْنَ الظُّهْر والْعصْر قليلٌ، فاحْتبسهُ حتّى صلّى الْعصْرَ»، قالَ: «ثُمَّ قامَ، وأرادَ أنْ ينْصرفَ إلى منْزله، فقالَ لهُ: إنَّ هذا آخرُ النَّهار، وأقلُّ منْ أوَّله، فاحْتبسهُ حتّى صلّى الْمغْرب، ثُمَّ أرادَ أنْ ينْصرفَ إلى منْزله، فقالَ لهُ: إنَّما بقيتْ صلاةٌ واحدةٌ»، قالَ: «فمكثَ حتّى صلّى الْعشاءَ الآخرةَ، ثُمَّ تفرَّقا، فلمّا كانَ سحْراً غدا عليْه، فضربَ عليْه الْبابَ، فقالَ: منْ هذا؟ قالَ: أنا فُلانٌ، قالَ: وما حاجتُكَ؟ قالَ: توضَّأْ، والْبسْ ثوْبيْكَ، واخْرُجْ بنا فصلِّ، قالَ: اطْلبْ لهذا الدّين منْ هُوَ أفْرغُ منّي، وأنا إنْسانٌ مسْكينٌ، وعليَّ عيالٌ».

فقالَ أبو عبْد الله عليه السلام: «أدْخلهُ في شيْءٍ أخْرجه منْهُ»، أوْ قالَ: «أدْخلهُ منْ مثْل ذه، وأخْرجهُ منْ مثْل هذا»[1].

٤- **الثَّبات والمداومة**: والمقصود هو أن يداوم الإنسان على العمل باستمرار، ولا يقطعه، ولو كان قليلاً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ النَّفْسَ ملولةٌ، وإنَّ

---

(١) الكافي: ٣/١١٢-١١٣، ح/١٥٣١.

**أَحَدَكُمْ لا يَدْري ما قَدْرُ الْمُدَّة، فَلْيَنْظُرْ منَ الْعبادَة ما يُطيق، ثُمَّ لِيُداومْ عَلَيْه، فَإنَّ أَحَبَّ الأَعْمال إلى الله ما ديم عَلَيْه، وَإنْ قَلَّ»**[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «**خُذوا منَ الْعمَل ما تُطيقون، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَمَلُّ حَتّى تَمَلّوا، وَأَحَبُّ الْعَمَلِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ما داوَمَ عَلَيْه صاحبُهُ، وَإنْ قَلَّ**»[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**قَليلٌ تَدومُ عَلَيْه أَرْجى منْ كَثيرٍ مَمْلول**»[٣].

فالعمل الصَّحيح المستمرّ برغبة وشوق خير من عمل كثير يثقل على النَّفس، ويُصيبها بالملل، وينتهي بها إلى الانقطاع والتّوقّف، فالعمل القليل مع الاستمرار والمداومة هو ضرب من الرّفق والمداراة، وقد قيل لكثير من العُبّاد: «أَرْبِعْ على نفسك... أي ارفق بنفسك وكفَّ»[٤].

٥- **مراقبة خطوات السَّير**: وهي حالة رصد ذاتيّ من الإنسان لنفسه بنفسه بخطّة واعية يرصد فيها خلجات نفسه، ونبضاتها، وانفعالاتها ودوافعها، وأساليبها العمليّة، وما يتوارد عليها من تصوّرات، وخواطر، وأفكار، ورؤى، ووساوس، وأوهام، وهذا المنهج المعبَّر عنه بالمراقبة عند السّائرين بخطّ التّكامل الإيمانيّ من العرفاء السّالكين والكادحين في طريق ذات الشَّوكة لا بدَّ له من اليقظة، والفطنة، والدّقّة والحذر في السَّير، وملاحظة الخطوات، أهي على الطَّريق أم مالت عنه ولو قليلاً؟

---

(١) الطّبرانيّ، المعجم الأوسط: ٨/٤٠، ح/٧٨٩٦؛ وكنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٣/٣٠، ح/٥٣١٢.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤٢/٤٢٤، ح/٢٥٦٣٢.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣٤، قصار الحكم: ٢٦٩.

(٤) الجوهريّ، الصّحاح: ٣/١٢١٢، (ربع).

وهذه المراقبة تشمل التّفكّر، والتّذكّر، والمشاعر، والأحاسيس، وحركات الجوارح والجوانح؛ ولذا يجب على السّائرين إلى الله «أن يكونوا دائماً دارسين لأحوالهم وأوضاعهم، وأن ينظروا إلى أنفسهم هل هم على الخطّ؟ وإلا فكثيراً ما شذَّ مؤمنٌ بسبب ظروف طارئة، أو بسبب فكرة منحرفة من الجادّة كان يخفيها عن الآخرين، أو كان هو لا يعرضها للدَّرس، فلمّا تحكَّمت منه برزت بحيث يصعب العلاج. ولا شكَّ أنَّ العاصم هو الله سبحانه ﴿ **فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ** ﴾[1]»[2].

٦- **المحاسبة:** قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ في كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنْ عَمِلَ خَيْراً اسْتَزادَ اللهَ مِنْهُ، وَإِنْ عَمِلَ شَيْئاً شَرّاً اسْتَغْفَرَ اللهَ وَتابَ إِلَيْهِ**»[3].

وقد تواترت الرّوايات والأحاديث الشَّريفة بوجوب المحاسبة قبل فوات الأوان، نذكر منها ما يسعه المجال: في الحديث النَّبويِّ: «**لا يَكونُ الْعَبْدُ مُؤْمِناً حَتّى يُحاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحاسَبَةِ الشَّريكِ شَريكَهُ وَالسَّيِّدِ عَبْدَهُ**»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**حاسِبوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبوا، وَزِنوها قَبْلَ أَنْ توزَنوا، وَتَجَهَّزوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ**»[5].

---

(١) النَّجم: ٣٢.

(٢) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٢/٣٣٦.

(٣) الشّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٦-٢٧؛ ومحاسبة النَّفس للسّيّد ابن طاووس: ٣٣.

(٤) محاسبة النّفس: ٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ٣٣.

وعلَّق على هذا الحديث المرجع الدّيني الراحل الشّيخ محمّد أمين زين الدّين قُدِّسَ سِرُّهُ قائلاً: «ليست الكلمات المذكورة مواعظ قيلت لمجرد التّذكير والتّنبيه القصير الأمد، ولكنّها مناهج واجبة الاتّباع، تلقى للعمل الدّائم الواجب مدى الحياة»(١).

فالمحاسبة إذن منهجٌ تربويٌّ إسلاميٌّ، وتَقويم لحركة الإنسان لنفسه بنفسه في كدحه إلى الله، وبعبارة أوضح: المحاسبة أن يضع الإنسان أعماله، وأفكاره في ميزان الشّرع المقدّس ليعرف أيّ الكفَّتين أرجح، كفّة الطّاعات، أم كفّة المعاصي؟ وهذا المعنى ورد في بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام كقوله: «**حاسبوا أَنْفُسَكُمْ بِأَعْمالها، طالبوها بِأَداء الْمَفْروضِ عَلَيْها، وَالأَخْذ منْ فَنائها لِبَقائها، وَتَزَوَّدوا وَتَأَهَّبوا قَبْلَ أَنْ تُبْعَثوا**»(٢).

والفرق بين المراقبة والمحاسبة: أنَّ المراقبةَ ملاحظةُ خطّ السَّير في أثناء الحركة، ورصد المفارقات السّلوكيّة، وقد قيل: إنَّ «المراقبة والترقّب معنى قول الله تعالى: ﴿**وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾(٣)»(٤)، وأمّا المحاسبة فهي جَرد نتائج العمل ودراستها، وتمييز سليمها من سقيمها؛ لأجل العمل على تبديل السّيّئات بالحسنات بالإيمان، والتّوبة، والإنابة، واليقظة، والعمل الصّالح، ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا**

(١) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، كلمة التّقوى: ٢/٣٣٠.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٦، ح/٤٧٤٠.

(٣) الحشر: ١٨.

(٤) عليّ بن زيد البيهقيّ، معارج نهج البلاغة: ٧٩٩/٢.

**رَّحِيمًا** ﴾[(١)].

٧- **المؤاخذة:** إنَّ الكادح في طريق الله تعالى عندما يشاهد من نفسه خيانة، أو تقصيراً، أو تهاوناً، أو تبريراً للمفارقات السّلوكيّة...الخ يجب عليه أن يضعها في قفص الاتّهام، ويحاكمها محاكمة الخصم لخصمه؛ ليوقفها عند حدّها، فيقول: أيّتها النَّفس الغافلة عن ذكر ربّها، المتمرّدة على إطاعة أحكامه بمخالفة شريعته، الجاهلة لدورها في الكون والحياة، أنسيتِ سرَّ وجودك، وعلة إيجادك!؟ أم نسيت ضعفك أمام أدنى الأخطار والأعراض والأمراض؟ أنسيتِ فقرك لأبسط الأشياء كالماء، والهواء، والنّار، التي لولاها ما عشت لحظات؟ أنسيتِ قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ** ﴾[(٢)]؟ أنسيتِ سكرات الموت، وظلمة القبر، ووحشة اللّحد، وعسر الموقف بين يدي الواحد القهّار؟! أنسيتِ عذاب النّار، ونعيم الجنّة!؟ لماذا كلّ هذا العصيان، والتّمرّد على أحكام لأجل شهوات رخيصة زائلة، وأهواء حقيرة؟ ارجعي إلى ربّك؛ لتكوني راضية مرضيّة، وهكذا يلقّن الإنسان نفسه دروس التَّزكية والتّهذيب الذّاتي بالتَّرهيب والتَّرغيب؛ ليوقظها من غفلتها، ويوقفها عند حدّها، ويمنعها عن مجاوزة حدود الله تعالى، وهذا هو الواعظ الدّاخليّ للنَّفس الأمّارة بالسّوء، وهو من أفضل الطرق وأسلمها لتهذيب النَّفس وتزكيتها، بل من دونه لا ينفع وعظ واعظ، ولا زجر زاجر أبداً، ولو سمعه من أنبياء الله ورسله، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ واعظٌ مِنْ قَلْبِه، وَزاجِرٌ مِنْ نَفْسِه، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَرِينٌ مُرْشِدٌ اسْتَمْكَنَ عَدُوَّهُ مِنْ عُنُقِه**»[(٣)].

---

(١) الفرقان: ٧٠.

(٢) الملك: ٣٠.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤/٤٠٢، ح/٥٨٦٦.

وعن أبي حمزة الثّماليّ، قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام، يقول: **ابْنَ آدَم، إنَّكَ لا تَزالُ بخَيْرٍ ما كانَ لَكَ واعظٌ منْ نَفْسك، وَما كانَت الْمُحاسَبَةُ منْ هَمَّتك، وَما كانَ الْخَوْفُ لَكَ شعاراً، وَالْحُزْنُ لَكَ دثاراً، ابْنَ آدَمَ إنَّكَ ميِّتٌ، وَمَبْعوثٌ وَمَوْقوفٌ بَيْنَ يَدَيّ الله، فَأَعدَّ جَواباً**»[1].

وبناءً على ذلك أكد علماء العلوم النّفسيّة: «إنَّ الموعظة لا تنجح فيمن لا زاجر له، ولا واعظ من نفسه، وما وهب الله تعالى لعبده هبة أنفع له من زاجر من نفسه»[2].

والواعظ النَّفسيّ والزّاجر الدّاخليّ، هو النَّفس «الأمّارة بالسّوء»، أو ما نسمّيه الضَّمير الّذي إذا تيقّظ بعث الحياة الرّوحيّة والأخلاقيّة في النَّفس، وردعها عن كلّ رذيلة تقترب منها؛ وأمّا إذا تلوّث الضّمير، وغطَّته أدران الذُّنوب والمعاصي فإنَّه يصبح مستنقعاً لكلّ رذيلة، ومرتعاً لإبليس وجنوده يسرح ويمرح فيه، وبالتّالي كما قال أحد العرفاء: «الضَّمير آخر قلعة يقتحمها إبليس»؛ ولهذا فيمكن أن نسميه «المحكمة الدّاخليّة» إذا استقامت استقام كلّ وجود الإنسان والعكس بالعكس؛ فهذه هي «"محكمة الوجدان" الموجودة في داخل روح الإنسان، والَّتي تنشط، وتسرّ عند إقدامها لإنجاز عمل صالح، وبهذه الطَّريقة تنال الثّواب، وعند ارتكاب الأعمال السّيّئة والرَّذيلة فإنّها سوف تؤثّر على الوجدان وتؤنّبه وتعذبه إلى حدّ ربّما يقتضي الإقدام على الانتحار للتّخلّص ممّا يمرّ فيه من عذاب الضَّمير، أي في الحقيقة أنّ الضَّمير أصدر في الرّوح حكم الإعدام، وتمّ تنفيذ ذلك بنفسه، إنّ دوي النَّفس اللّوّامة في وجود الإنسان واسع جدّاً، وهي قابلة للتّمعّن والمطالعة في كلّ

---

(١) موسوعة ابن إدريس الحليّ: ١٥٢/١٤، ح/٢١، من كتاب (مستطرفات السّرائر).

(٢) الدّيلميّ، إرشاد القلوب: ١٣٩/١.

الأحوال... إنّ لمحكمة الضمير مقاماً و منزلة عظيمة، ولهذا يقسم الله بها، يستعظم قدرها، وهي بحقّ عظيمة القدر، لأنّها أحد العوامل المهمّة لخلاص الإنسان بشرط أن تكون واعية ويقظة وغير عاجزة بسبب الذُّنوب و الآثام»(١).

٨- **المسارعة إلى الخيرات:** يعني عندما يعزم الإنسان على القيام بعمل أيقن بصحّته، وشرعيّته، وفائدته لا بدَّ أن يسارع في إنجاز ذلك العمل، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تَجْعَلوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، ويَقينَكُمْ شَكّاً، إِذا عَلِمْتُمْ فاعْمَلوا، وإِذا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِموا**»(٢).

وقد أكَّد القرآن الكريم على هذه الحقيقة، من خلال مدح المسارعين لفعل الخيرات والثَّناء عليهم، يقول تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾(٣).

وفي آية أخرى: ﴿**أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾(٤).

فالمسارعة إلى الخيرات هي المبادرة إلى فعل الطّاعات بلا تلكّؤ، ولا تردّد، ولا تهاون، فالمؤمن بمجرَّد أن يدرك أنَّ الأمر يَعْنيه أو أنَّه مكلّف به يسرع إليه، ولا ينتظر أحداً يكفيه عنه، وهذا هو ديدن أنبياء الله ورسله وأوليائه المخلصين، وهذا الاندفاع ينبع من كونه متعبّداً لله في عمله، يشعر بمسؤوليّته الدَّعويّة نحو خالقه، ويتحرّك بدافع التَّعبّد والتّقرب إلى الله سبحانه وتعالى، «فمتى ما عرف

---

(١) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٩/١٨١-١٨٢.

(٢) نهج البلاغة: ٥٣٣، قصار الحكم: ٢٦٥.

(٣) الأنبياء: ٩٠.

(٤) المؤمنون: ٦١.

الدّاعية أنَّه متعبِّد بعمله الدَّعوتيّ اندفع اندفاع المتعبِّد بصورة تلقائيّة وذاتيّة.. وكانت حركيّته دائبة، وتحرّكه مستمرّاً»[١].

والمسارعة إلى ما يقرّب الإنسان إلى الله يحتاج إلى توفيق من الله تعالى؛ ولذا نجد أنَّ الإمام السّجّاد عليه السلام رغم أنَّه ما تأخّر عن مكرمة، ولا توانى في عبادة، بل كانت حياته كلّها عبادة وكرامات يتوسّل بالله عزَّ وجلَّ أن يوفّقه لذلك، فيقول مناجياً ربّه: «... **إلهي، اجْعَلْني مِنَ المُصْطَفَيْن الأخْيار، وَأَلْحقْني بالصّالحين الأَبْرار السّابقينَ إلى الْمَكْرُمات الْمُسارعينَ إلى الْخَيْرات العاملينَ للْباقيات الصّالحات السّاعينَ إلى رَفيعِ الدَّرَجات، إنَّكَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، وَبالإجابَةِ جَديرٌ، برَحْمَتكَ يا أَرْحَمَ الرّاحمين**»[٢].

ويبدو من بعض الأحاديث الشَّريفة أنَّ المسارعة إلى طاعة الله، والتّقرّب إليه تعالى بفعل الخيرات مرتبة رفيعة من الرّتب الإيمانيّة، وشأن من شؤون العارفين بالله وخواصّه سبحانه وتعالى من ذوي الهمم العالية، والبصيرة النّافذة، والإرادة الصُّلبة، والهدفيّة المقدّسة الَّتي لا تشوبها دوافع مصلحيّة أو مادّيّة، أو أهواء نفسيّة معنويّة أو مادّيّة، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**إنَّ للهِ تَعالى خَواصّاً مِنْ خَلْقِه يُسْكِنُهُمُ الرَّفيقَ الأَعْلى منْ جنانه؛ لأَنَّهُمْ كانوا أَعْقَلَ أَهْلِ الدُّنْيا**»، قيل: «يا رسول الله، كيف كانوا أعقل أهل الدُّنيا؟» قال: «**كانَتْ هِمَّتُهُم الْمُسارَعَةَ إلى رَبِّهِمْ فيما يُرْضيه، فَهانَت الدُّنْيا عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَرْغَبوا في فُضولِها، صَبَروا قَليلاً، فَاسْتَراحوا طَويلاً**»[٣].

---

(١) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٢٠٠.

(٢) من مناجاة المطيعين، المناجاة الخامسة عشرة.

(٣) إرشاد القلوب: ٤٨/١.

**٩- التّأدّب مع الله**: الأدب لغةً، قال ابن منظور: «الأدب: الّذي يتأدّب به الأديبُ من النّاس؛ سمّي أدباً لأنّه يأدِبُ النّاس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب الدّعاء، ومنه قيل للصّنيع يدعى إليه النّاس: مدعاة ومأدبة»[١].

أمّا اصطلاحاً، فقد «قال المُناويّ: الأدب رياضة النّفوس ومحاسن الأخلاق، ويقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل. وقيل: هو عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ. وهو فيما يتعلّق بالسّلوك: حُسن الأحوال في القيام والقعود، وحُسن الأخلاق والصّفات الحميدة، والفرق بينه وبين التّعليم: أنّ الأدب يتعلّق بالمروءات والتّعليم بالشّرعيّات، أي أنّ الأوّل عرفيّ، والثّاني شرعيّ، والأوّل دنيويّ، والثّاني دينيّ.

وقال بعضهم: الأدب مجالسة الخلق على بساط الصّدق، ومطابقة الحقائق، وقيل: الأدب عند أهل الشّرع: الورع، وعند أهل الحكمة: صيانة النّفس، وقال أهل التّحقيق: الأدب الخروج من صدق الاختبار، والتّضرّع على بساط الافتقار...

وعلى هذا فالأدب: استعمال ما يُحْمَدُ قولاً وفعلاً، وبتعبير آخر: الأخذ بمكارم الأخلاق، أو الوقوف مع المستحسنات. فإذا تعلّق الأمر باللّغة كان الأدب معناه معرفة ما يُحْتَرَزُ به من جميع أنواع الخطأ»[٢].

وعلى كلّ حال إنَّ الأدب المقصود: هو الهيأة الحسنة في الأمور المشروعة المستحسنة عند العقلاء والشّارع المقدّس، فالأدب هنا فيما أقرَّه الشَّرع والعقل، ولا أدب في ما خالفهما كالظُّلم، والخيانة، والكذب، والمكر، والخداع، قال العلامة الطّباطبائيّ رَحِمَهُ اللهُ: «الأدب – على ما يتحصّل من معناه – هو الهيأة الحسنة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٢٠٦/١، (أدب).

(٢) موسوعة نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ١٤١/٢-١٤٢.

الَّتي ينبغي أن يقع عليه الفعل المشروع، إمّا في الدّين أو عند العقلاء في مجتمعهم كآداب الدُّعاء، وآداب ملاقاة الأصدقاء، وإن شئتَ قلت: ظرافة الفعل. ولا يكون إلا في الأمور المشروعة غير الممنوعة، فلا أدب في الظُّلم، والخيانة، والكذب، ولا أدب في الأعمال الشَّنيعة والقبيحة، ولا يتحقّق أيضاً إلا في الأفعال الاختياريّة الَّتي لها هيئات مختلفة فوق الواحدة حتّى يكون بعضها متلبّساً بالأدب دون بعض كأدب الأكل مثلاً في الإسلام، وهو أن يُبدأ فيه باسم الله، ويُختم بحمد الله، ويؤكل دون الشّبع إلى غير ذلك، وأدب الجلوس في الصَّلاة، وهو التّورّك على طمأنينة، ووضع الكفَّين على الوركين فوق الرّكبتين، والنّظر إلى حجره، ونحو ذلك»[1].

ولأجل التّحلّي بالأدب الإلهيّ لا بدّ من الاستنان بسنن أنبيائه ورسله عليهم السلام وأولياء الله العارفين، وعباده المخلصين بالتّأسّي بهم، والسَّير على نهجهم؛ لترويض النَّفس على أداء ما أُمرت به، والاجتناب عمّا نُهيَت عنه، والعمل بجدّ على التّخلّق بأخلاق الله، «والإنسان الَّذي يرجح في كفّة الميزان هو الَّذي تحفّ بشخصه أعلى القيم وأمثلها، وذلك بالحصول على أمثل الصّفات وأعلاها الَّتي هي تجعله فريداً وحيداً، وأن يتَّصف بالصّفات الَّتي تقرّبه من الله «**تَخَلَّقوا بأَخْلاق الله**»[2]، وكلَّما كان الإنسانُ قريباً من الله فانياً في ذات الله كانت إنسانيّته أكمل، ومنزلته أعلى

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٥٦/٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٢٩/٦١، وقيل: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلَّق بأخلاقي، وأنّ من أخلاقي أنّي أنا الصّبور»، إحياء علوم الدّين للغزاليّ: ٦١/٤؛ وقال الغزاليّ: «قيل: تخلَّقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصّفات الَّتي هي من صفات الإلهيّة من العلم، والبرّ، والإحسان، واللُّطف، وإفاضة الخير، والرّحمة على الخلق، والنّصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحقّ، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشّريعة، فكلّ ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصّفات» إحياء علوم الدّين: ٣٠٦/٤.

وأرفع»[١].

وتختلف الآداب من مجتمع إلى آخر بحسب معتقداته، وأفكاره وأعرافه وتقاليده، فلرُبَّ أدبٍ حسنٍ عند مجتمع قبيح عند مجتمع آخر، ولكنّ المتّفق عليه بين جميع المجتمعات هو الحُسْن والجمال والذّوق السَّليم، وأمّا الاختلاف فيه فهو «بحسب المقاصد الخاصّة في المجتمعات المختلفة أنتج ذلك ضرورة اختلاف الآداب الاجتماعيّة الإنسانيّة، فالأدب في كلّ مجتمع كالمرآة يحاكي خصوصيّات أخلاق ذلك المجتمع العامّة الَّتي رتَّبها فيهم مقاصدهم في الحياة»[٢].

١٠- **الصَّمت**: وهو عبارة عن حفظ اللّسان عن التّكلّم بكلام في غير محلّه، أو زائد عن حدّه، ولا يعني السّكوت المطبق الدّائم، فللسّكوت محلّه، وللصّمت مجاله، فليس كلّ صمت محموداً، ولا كلّ كلام مذموماً، فقد يكون الصَّمت في بعض الأحيان واجباً، وفي بعضها محرّماً، والكلام كذلك، ولكن «الكلام خير من السّكوت في كثير من الموارد، بل يجب الكلام، ويحرم السّكوت عند إظهار أصول الدّين وفروعه، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ويستحبّ في المواعظ والنّصائح، وإرشاد النّاس إلى مصالحهم، وترويج العلوم الدّينيّة والشّفاعة للمؤمنين، وقضاء حوائجهم، وأمثال ذلك، فتلك الأخبار مخصوصة بغير تلك الموارد، أو بأحوال عامّة الخلق، فإنَّ غالب كلامهم إنّما هو فيما لا يعنيهم، أو هو مقصور على المباحات»[٣].

إنَّ لكلّ من الصمت والكلام شروطاً يجب أن تتوفّر فيهما، ليكون تامّاً

---

(١) السّيّد عبد الله السّبيتيّ، المباهلة: ٧٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٥٧/٦.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩٨/٧١.

مقبولاً، فلا التّكلّم على إطلاقه تامّ، ولا الصّمت على إطلاقه سليمٌ - إلا لمن عصم الله -، وإنَّما لكلّ منهما ما يناسبه، فإذا توفّرت الشّروط السّليمة في كلّ منهما، فالكلام أفضل كما جاء عن الإمام السّجاد عليه السلام حين سُئلَ عن الكلام والسّكوت أيهما أفضل؟ فقال عليه السلام: «**لكلّ واحد منْهما آفاتٌ، فإذا سلما من الآفات، فالْكلامُ أَفْضَلُ من السُّكوت**»، قيل: «وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟» قال: «**لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ما بعثَ الأنْبياءَ والأوْصياءَ بالسُّكوت، إنّما يبْعثُهمْ بالْكلام، ولا اسْتحقَّت الْجنَّةُ بالسُّكوت، ولا اسْتوجبَ ولايَةَ الله بالسُّكوت، ولا تُوقِّيَت النّارُ بالسُّكوت، ولا تُجنِّبَ سخطُ الله بالسُّكوت، إنَّما ذلكَ كُلُّه بالْكلام، وما كُنْتُ لأَعْدلَ الْقمرَ بالشَّمْس، إنَّكَ تَصفُ فضْلَ السُّكوت بالْكلام، ولَسْتَ تَصفُ فضْلَ الْكلام بالسُّكوت**»[(١)].

إذن ليس العبرة في الكلام، أو في السّكوت، وإنّما العبرة فيما يصدر منهما من خير أو شر، فعن الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: السُّكوتُ خَيْرٌ منْ إملاء الشَّرِّ، وإمْلاءُ الْخَيْر خَيْرٌ منْ السُّكوت، وقالَ صلى الله عليه وآله: السُّكوتُ ذَهَبٌ والْكلامُ فضَّةٌ**»[(٢)].

وإنّما مدح الصَّمت إذا كان في محلّه، وبهذا أصبح الصَّمت شعار المحبّين، وفيه رضا الرّب وهو من أخلاق الأنبياء، وشعار الأصفياء.

وقد أكَّدت الأحاديث الشَّريفة على حسن الصَّمت، نذكر تبرّكاً تلك الأحاديث لما فيها من دلالة عظيمة:

---

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، الاحتجاج: ٣٥٩/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩٤/٧١.

قال أبو حسن الرّضا عليه السلام: «**مِنْ عَلامات الْفِقْه: الْحِلْمُ، وَالْعِلْمُ، وَالصَّمْتُ؛ إنَّ الصَّمْتَ بابٌ مِنْ أَبْوابِ الْحِكْمَة؛ إنَّ الصَّمْتَ يَكْسِبُ الْمَحبَّةَ؛ إنَّه دَليلٌ عَلى كُلِّ خَيْر**»(١).

عن أبي عليّ الجوّانيّ، قال: «شهدْتُ أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول لمولًى له - يُقال له سالم - ووضع يده على شفتيه، وقال: **يا سالِمُ، احْفَظْ لِسانَكَ تَسْلَمْ، وَلا تَحْمِلِ النّاسَ عَلى رِقابِنا**»(٢).

وعن عثمان بن عيسى قال: «حضرْتُ أبا الحسن - صلوات الله عليه - وقال له رجل: أوصني، فقال له: **احْفَظْ لِسانَكَ تَعِزُّ، وَلا تُمَكِّنِ النّاسَ مِنْ قِيادِكَ فَتَذِلَّ رَقَبَتَكَ**»(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَمْسِكْ لِسانَكَ؛ فَإنَّها صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِها عَلى نَفْسِكَ**»، ثمّ قال: «**وَلا يَعْرِفُ عَبْدٌ حَقيقَةَ الإيمان حَتّى يَخْزُنَ مِنْ لِسانه**»(٤).

وعن أبي بصير، قال: «سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول :**كانَ أَبو ذَرٍّ** رحمه الله **يَقولُ: يا مُبْتَغِيَ الْعِلْمِ، إنَّ هذا اللِّسانَ مِفْتاحُ خَيْرٍ، وَمِفْتاحُ شَرٍّ، فَاخْتِمْ عَلى لِسانِكَ كَما تَخْتِمُ عَلى ذَهَبِكَ وَوَرَقِكَ**»(٥).

وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «**إنَّ لِسانَ ابْنِ آدَمَ يُشْرِفُ عَلى جَميعِ**

---

(١) الكافي: ٢٩٣/٣، ح/١٨٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٤/٣، ح/١٨٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ح/١٨٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩٦/٣، ح/١٨٢٦.

(٥) المصدر نفسه: ٢٩٧/٣، ح/١٨٢٩.

**جَوارحه كُلَّ صَباحٍ، فَيَقولُ: كَيْفَ أَصْبَحْتُمْ؟ فَيَقولونَ: بخَيْر إنْ تَرَكْتَنا، وَيَقولونَ: اللهَ اللهَ فينا، ويَناشدونَه، ويَقولونَ: إنَّما نُثاب ونُعاقَب بكَ»**(١).

وجاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: «يا رسول الله، أوصني»، فقال: «**احْفَظْ لسانَكَ**»، قال: «يا رسول الله، أوصني» قال: «**احْفَظْ لسانَكَ**»، قال: «يا رسول الله، أَوْصني»، قال: «**احْفَظْ لسانَكَ، وَيْحكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النّاسَ عَلى مَناخرهمْ في النّار إلا حَصائدُ أَلْسنَتهمْ؟**»(٢).

قال رسول الله ﷺ: «**يُعَذِّبُ اللهُ اللِّسانَ بعَذاب لا يُعَذِّبُ به شَيْئاً منَ الْجَوارحِ، فَيَقولُ: أَيْ رَبِّ، عَذَّبْتَني بعَذاب لَمْ تُعَذِّبْ به شَيْئاً؟ فَيُقالُ لَهُ: خَرَجَتْ منْكَ كَلمَةٌ، فَبَلَغَتْ مَشارقَ الأَرْض وَمَغاربَها، فَسُفكَ بها الدَّمُ الْحَرامُ، وَانْتُهبَ بها الْمالُ الْحَرامُ، وَانْتُهكَ بها الْفَرْجُ الْحَرامُ، وَعزَّتي وَجَلالي، لأُعَذِّبَنَّكَ بعَذاب لا أُعَذِّبُ به شَيْئاً منْ جَوارحكَ**»(٣).

وهناك خطوات أخرى ذكرها علماء المعرفة لا مجال لذكرها هنا، ولسنا من فرسانها حتّى نتحدّث فيها، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) الكافي: ٢٩٨/٣، ح/١٨٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٩/٣، ح/١٨٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٠/٣، ح/١٨٣٥.

# الْمُؤْمِنونَ حَقّاً

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

هنا بيانٌ رائعٌ دقيقٌ لحقيقة المؤمن، وأوصاف الإيمان الَّتي تحدّد هويّته الفكريّة العقائديّة، والأخلاقيّة الرّوحيّة في كدحه إلى الله تعالى، وما يتمخّض عن ذلك من سلوكيّة مستقيمة مع النَّفس، ومع المجتمع الَّذي يعايشه، وما يتعاطى معه أخذاً وعطاءً، نقضاً وإبراماً.

ابتدأ النَّصّ الشَّريف بـ(إنّما)، وهي أقوى أدوات الحصر على الإطلاق، ولعلَّه يريد بها أنَّ الكاملين في الإيمان والعلم والعمل هم الَّذين تتوفّر فيهم هذه الصّفات الخمسة، الثّلاث الأُول عبارة عن الإحساس بالمسؤوليّة، وتكامل في الإيمان، والتّوكّل على الله، والاثنتان الأخريان هما الارتباط بالله، والارتباط بخلق الله سبحانه[2].

وكأنَّ الآية تقول: إنّما المؤمنون الكاملون في الإيمان الواعون له المخلصون فيه قولاً وعملاً هم من ترسَّخت فيهم هذه الصّفات الخمسة، وأصبحت فيهم روحاً

---

(١) الأنفال: ٢-٤.

(٢) ينظر الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ: ٣٣١/٥.

إيمانيّة، وعادة رساليّة، وسلوكاً ربانيّاً، ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾[١].

وكأنَّ النَّصّ يشير إلى حقيقة مهمّة، وهي: أنَّ الإيمان الكامل الخالص لا يتحقّق بصورة تامّة فكريّاً، وسلوكيّاً، وأخلاقيّاً إلا بتحقّق هذه الصّفات، فـ«من لم يَجلْ قلبُه إذا ذُكرَ الله، ولم تزده تلاوة آيات الله إيماناً مع إيمانه، ولم يتوكّل على الله، ولم يقم الصَّلاة، ولم ينفق، لم يكن موصوفاً بصفة الإيمان»[٢].

## الصِّفاتُ الْخَمْسَةُ:

تدرّجت الآية الكريمة بذكر الصّفات الخمسة انطلاقاً من وجدان[٣] الإنسان، وضميره، وتفاعله مع الوحي الإلهيّ، وماذا يترك في نفسه من مشاعر جيّاشة، وما يفرزه من معطيات وآثار عميقة تهزّ النَّفس من داخلها، وتهيمن على مشاعرها، وتترك بصماتها على صفحات القلب من خوف، ووجل، وخشية نتيجة التَّفاعل الواعي في الحاضر والمستقبل كحالة الَّذين إذا ﴿سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) ابن عاشور، تفسير التَّحرير والتَّنوير: ١٤/٩.

(٣) وجدان المرء: «هو نفسه وقواه الباطنيّة، وهو مجموع الأحاسيس والانفعالات والعواطف والاتّجاهات والميولات الَّتي يتفاعل معها أو يتأثّر بها من حبّ وكراهة وتعاطف أو ألم وميل ونفور إلى آخره من أحاسيس إنسانيّة مختلفة»، من موسوعة ويكيبيديا على الشَّبكة العنكبوتيّة.

ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[١].

فهذا التّفاعل إذن مع الوحي الإلهيّ جاء متدرّجاً سماعاً، فهماً، وعياً، امتثالاً مطلقاً لأمر الله تلك هي نتيجة المعرفة بالمراد الإلهيّ في تزكية النّفوس، وتطهيرها من أدران الذُّنوب، ومساوئ الأخلاق، فالتَّفاعل هنا لم يأتِ صدفةً، وإنَّما جاء نتيجة علم ومعرفة ترسَّخت في العقل، وانسابت إلى القلب، فأنتجت عواطف ناضجة، وأفكاراً سليمة، وأفعالاً صالحة، أمّا هذه الصّفات الخمسة فهي:

١- الوجل عند ذكر الله تعالى: لغةً: «الوجل، والخوف، والفزع واحد»[٢].

وقد فرَّق بعض علماء اللّغة بين الخوف والوجل: «أنّ الخوف خلاف الطَّمأنينة، وجل الرّجل يوجل وجلاً، إذا قلق، ولم يطمئنّ، ويقال: أنا من هذا على وجل، ومن ذلك على طمأنينة، ولا يقال: على خوف في هذا الموضع»[٣].

فالمعرفة بالله تعالى تجعل المؤمن يشعر بعظمة القدرة الإلهيّة الَّتي لا تحيط بها العقول، ولا تستوعبها القلوب، وأنَّى للمحدود المنتهي أن يدرك حدود المطلق الَّذي لا يحدّه زمان ولا مكان، فالخوف هنا والوجل يأتي نتيجة الشُّعور والإحساس بعظمة القادر، فالتّأمّل بالقدرة يجذب المتأمّل إلى القادر، ويوصله إلى العجز عن إدراك كنه عظمته، وبالتّالي ينتهي به إلى التَّسليم والتَّفويض الإيمانيّ، وهذا شامل لكلّ مخلوق عاقل حتّى على مستوى الكاملين، وهذا أكمل الكاملين، وأقرب المقرّبين، وأعظم العارفين، حبيب ربّ العالمين الرّسول الخاتم ﷺ قال:

(١) المائدة: ٨٣

(٢) الشَّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٧٦/٥.

(٣) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة: ٢٠٢.

«وَما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ»(١).

فالوجل هنا جاء نَتيجة المعرفة بالله، والعجز عن الوصول إلى إدراك كنهه، والعجز عن أداء حقّه، والإنسان الَّذي يعجز عن إدراك حقيقة مخلوق مثله كيف يدرك حقيقة الخالق؛ ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ اثنتي عشرة مرّة في ذكر مخلوقات الله تعالى، لتقول الآيات جميعاً: إنّكم عاجزون عن إدراك المخلوقات، فكيف تدركون الخالق، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾... ﴿مَا سَقَرُ﴾... ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾... ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾... ﴿مَا سِجِّينٌ﴾... ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾... ﴿مَا ٱلطَّارِقُ﴾... ﴿مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾... ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾... ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾... ﴿مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾... ﴿مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾(٢).

إذن فلا عجب إذا وجلت قلوب العارفين، واهتزّت مشاعر المحبّين، وسالت دموع المعتبرين المخلصين أمام عظمة الله، وجلاله، وجماله الّتي لا تحيط بحقيقتها عقول بني آدم إلا بمقدار ما أعطاها من قلوب سليمة، وعقول رزينة، وكلّ إناء يسع بمقدار ظرفه، وهنا أشار العارف الإلهيّ آية الله العظمى السّيّد محمّد حسين فضل الله قُدِّسَ سِرُّهُ إلى حقيقة إسلاميّة تربويّة غفل عنها أكثر المفسّرين، وهي أنَّ هذا الوجل لا يلغي إرادة الإنسان، ولا يسحقها إنّما يربّيها، ويصعّدها درجات في

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٣/٧١؛ أفاد العلامة الشّيخ البهائيّ في شرح الحديث الثّاني من كتابه الأربعين: «المراد بمعرفة الله تعالى الاطّلاع على نعوته وصفاته الجلاليّة والجماليّة بقدر الطّاقة البشريّة، وأمّا الاطّلاع على حقيقة الذّات المقدّسة فممّا لا مطمح فيه للملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم»، الأربعون حديثاً: ٨٠

(٢) الحاقة: ٣؛ المدثّر: ٢٧؛ المرسلات: ١٤؛ الانفطار: ١٧؛ المطفّفين: ٨؛ المطفّفين: ١٩؛ الطّارق: ٢؛ البلد: ١٢؛ القدر: ٢؛ القارعة: ٣؛ القارعة: ١٠-١١؛ الهمزة: ٥.

مدرج الكمال، ويحفظها من المزالق الشّيطانيّة، قال ﵀: «ولكنّ هذا الوجل لا يمثّل حالة انسحاق يلغي في الإنسان الإرادة، بل يمثّل حالة المسؤوليّة الّتي تحرّك إرادته في الجانب المشرق من الحياة، عندما توحي له بأنّ حركته ليست محكومة لمزاجه أو مزاج الآخرين، بل هي خاضعةٌ للقوّة المهيمنة الّتي تخطّط لإرادته كما تخطّط لفكره، وبذلك كان الخوف من الله حافظاً لإنسانيّته من الانحراف تحت تأثير الضّغوط، ورادعاً له من الخضوع للشّهوات، والنّزوات المنحرفة، وموجّهاً له للسّير في الخطّ المستقيم»(١).

وقد أشار بعض المفسّرين إضافة إلى إدراك عظمة الله تعالى أسباباً أخرى، وهي إدراك المسؤوليّة أمام الله، والوجل من احتمال عدم القدرة في أدائها، فالخوف هنا يأتي نتيجة الشّعور بالقصور، أو الوقوع في التّقصير؛ ولذا يزداد خوفهم، وهذا الشّعور جاء نتيجة الخوف من العقاب الإلهيّ في الدّنيا والآخرة، ولعلّ هذا الخوف والوجل يأتي من الإحساس بنعم الله تعالى المادّيّة والمعنويّة، وتَذَكُّرِها، والشّعور الفطريّ لدى كلّ حيّ عاقل بوجوب شكر المحسن، فعندما يتذكّر نعمة الخلق، والإيجاد، والإبقاء، والرّزق، والإحياء...الخ، فهل يستطيع أن يشكر كل هذه النّعم؟ إذن الشّعور بعدم القدرة على شكر المنعم يفرز خوفاً، وخشيةً، ومهابة.

وبقي أن نشير إلى معنى ذكر الله، فليس المقصود به الذّكر اللّسانيّ أو القلبيّ فقط، وإنّما الذّكر العمليّ الّذي يتمخّض عن معرفة عميقة لله تعالى في جميع صفاته الجلاليّة، أو الجماليّة، أو أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، فإذن المراد بذكر الله أعمّ من الذّكر اللّسانيّ، أو القلبيّ، أو العمليّ، إنّما هو: ذكر صفاته الجلاليّة،

---

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ١٧/٨.

والجماليّة، وقدرته المطلقة النّافذة، ورحمته الواسعة الرّحمانيّة والرَّحيميّة، وحسابه السَّريع الشَّديد، وعقابه الأليم، وذكر علمه المحيط بكلّ شيء... وقبل ذلك كلّه ذكر وحدانيّته المطلقة، وصمديّته المهيمنة، وقدرته القاهرة، وعدله في حسابه، وبالتّالي ذكر عقابه وعذابه كلّ مفردة من هذه المفردات حَرِيّة أن تثير الوجل، فكيف لو أحاط الإنسان بها، وذكرها جميعاً؟

٢- التّلاوة الّتي تزيد الإيمان: الإيمان ليس مجرّد عقيدة نظريّة تعيش في طوايا العقل الإنسانيّ، ولا مجرّد ادّعاء ليقين بحقيقة ما، ولا مجرّد دعوة باللّسان، وإقرار بالجنان، وعمل بالأركان، بل كلّ هذا إذا ترسّخ في العقل، وانساب إلى القلب، وهيمن على الجوارح، مَلَكَ كلّ قدرات الإنسان الظّاهريّة والباطنيّة، وتحوّل إلى إحساس بهيمنة الله، وتذكّر بنعمه الظّاهرة والباطنة حتّى يصبح لا يرى شيئاً إلا ويرى معشوقه، وقبلته قَبْله، وبعده ، وفيه، «ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله فيه أو قبله أو معه»[1].

وتلاوة القرآن من أعظم وسائل ترسيخ هذا الإيمان في كيان الإنسان؛ ولذا جاءت الآية صريحة واضحة لا تحتاج إلى تفسير ولا تأويل: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، فالتّلاوة عن وعي، وتدبّر، وتأمّل، وتفكّر إذا لاقت نفساً زكيّةً طاهرةً من أوضار الذّنوب والمعاصي لا شكَّ ولا ريب - رغم النّقاش بين المتكلّمين هل الإيمان يزداد وينقص - أنَّه يزداد وينقص بحسب الحالات الفكريّة، والنّفسيّة، والعمليّة، وإضافةً إلى الآية المتقدّمة هناك آيات أخرى أكَّدت زيادة الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ

---

(١) الملا هادي السّبزواريّ، شرح الأسماء: ٥١٦.

﴿زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(١).

وهنا لفتة رائعة وإشارة جميلة لبيان تأثير نزول القرآن، وتلاوته على المؤمنين، وهي: لماذا بعض النّاس يزداد إيماناً، وبعض يزداد رجساً كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، فالذين آمنوا بما أنَّ أرضيّة نفوسهم طاهرة من أوضار المعاصي، والذّنوب، ومساوئ الأخلاق، فإنَّها صالحة؛ لتلقّي الفيض الإلهيّ كالأرض المحروثة النّقيّة من الأملاح، والجذور الضّارّة، فستحتضن البذور، وتتلقّى الماء، وتنتج الأزهار، والأثمار كذلك النُّفوس الطّاهرة عندما تتلقّى الوحي الإلهيّ تزهر فيها المعرفة، والعلم، والنّور، والبصيرة، وتنبعث فيها الإرادة الصُّلبة؛ ولذلك قال ﷺ: «**إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَني اللهُ به من الْهُدى وَالْعلْم كمَثَلِ غَيْث أَصاب أَرْضاً، وكانَ منْها طائفةٌ طَيِّبَةٌ، فَقَبلَت الْماء، فَأَنْبَتَت الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثير، وكَانَ منْها أَجادبُ أَمْسَكَت الْماءَ، فَنفعَ اللهُ بها النّاسَ، وشَربوا منْها، وسَقَوا، وزَرَعوا، وأَصابَ طائفةً منْها أُخْرى، إنَّما هيَ قيعانٌ لا تُمْسكُ ماءً، ولا تُنْبتُ كَلأً، فَذلكَ مَثَل مَنْ فَقهَ في دين الله، ونَفَعَهُ ما بَعَثَني اللهُ به، فَعَلمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يرْفَعْ بذلكَ رَأْساً ولَمْ يَقْبَلْ هُدى الله الَّذي أُرْسلْتُ به**»(٢).

## هَلِ الإيمانُ يَزْدادُ وَيَنْقُصُ؟

تدلّ الآية المتقدّمة ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ على أنَّ

(١) التّوبة: ١٢٤.

(٢) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٠٢.

المؤمنين حين يتلقّون آيات الله يزداد إيمانهم بالله، ورسوله، واليوم الآخر، وفي سورة التّوبة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[١].

وهذا من أسرار آيات الله في مدى فاعليّتها في النُّفوس، فالنُّفوس الزّكيّة والقلوب السَّليمة تنشرح وتنفتح على الأنوار الإلهيّة، وتشرق فيها أنوار الإيمان، والعمل الصّالح، وبالعكس النُّفوس الدّرنة الملوّثة المريضة تزداد رجساً إلى رجسها، كالأرض السَّبخة الَّتي إذا نزل عليها الماء الزّلال زادها عفونة وخشونة، فالآيات الكريمة عندما تحلّ في القلوب الطّاهرة تحلّ بها السَّكينة، وهي حالة فوق الطَّمأنينة، بل «روح إلهيّ، أو تستلزم روحاً إلهيّاً من أمر الله تعالى يوجب سكينة القلب، واستقرار النَّفس، وربط الجأش»[٢].

هذا هو المعنى الحقيقيّ لجوهر السَّكينة وروحها، ولا ينافي معناها الظّاهري، وإنَّها «من السُّكون خلاف الحركة، وتستعمل في سكون القلب، وهو استقرار الإنسان، وعدم اضطراب باطنه في تصميم إرادته على ما هو حال الإنسان الحكيم، من الحكمة باصطلاح فنّ الأخلاق»[٣].

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ

---

(١) التَّوبة: ١٢٤-١٢٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٩١/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٩/٢.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[(١)].

فقوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ دليل قاطع على أنَّ الإيمان يزداد ويتضاعف في قلوب المؤمنين الَّذين سكنت قلوبهم لذكر الله تعالى.

وقد اختلف العلماء المتكلّمون في زيادة الإيمان ونقصانه، وشرَّقوا، وغربوا، ودخلوا في نقاشات لا طائل معها، بل راحوا يؤوّلون ظاهر الآيات الدّالّة على زيادة الإيمان بزيادة الكمال، أقول: وهل التّكامل إلا الزّيادة المتدرّجة حين يضع الإنسان نفسه على مدرج الإيمان ليرتقي مرقاة مرقاة.

قالوا: «وأمّا ما ورد في الكتاب العزيز والسّنّة المطهّرة ممّا يشعر بقبوله الزّيادة والنّقصان، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[(٤)]، وكذا ما ورد من أمثال ذلك في القرآن العزيز، فمحمول على زيادة الكمال، وهو أمر خارج عن أصل الحقيقة الّذي هو محلّ النّزاع»[(٥)].

---

(١) الفتح: ٤.

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) الفتح: ٤.

(٤) المائدة: ٩٣.

(٥) الشّهيد الثّاني، حقائق الإيمان: ٩٧.

وكما اختلفوا في أصل الموضوع اختلفوا في معناه، فقيل: «إنَّه بمعنى زيادة ثمرته من الطّاعات، وإشراق نوره، وضيائه في القلب، فإنَّه يزيد بالطّاعات، وينقص بالمعاصي»[1].

وهناك تفسيرات أخرى، وإن عدَّ الشَّهيد الثّاني هذا التّوجيه وجيهاً إلا أنَّه أشكل أنَّه لم يقع في أصل النّزاع.

وقد ذكر بعض علماء العامّة في معنى زيادة الإيمان وجوهاً عدّة، فقال:

«الأوّل: أنَّ المراد الزّيادة بحسب الدّوام، والثّبات، وكثرة الأزمان والسّاعات...

الثّاني: أنَّ المراد الزّيادة بحسب زيادة المؤمن... والنّاس متفاوتون في ملاحظة التَّفاصيل كثرة وقلّة، فيتفاوت إيمانهم زيادةً ونقصاناً، ولا يختصّ ذلك بعصر النّبيّ ﷺ على ما يتوهّم...

الثّالث: أنَّ المراد زيادة ثمرته، وإشراق نوره في القلب، فإنَّه يزيد بالطّاعات، وينقص بالمعاصي، وهذا ممّا لا خفاء فيه.

وهذه الوجوه جيّدة في التَّأويل لو ثبت لهم أنَّ التَّصديق في نفسه لا يقبل التّفاوت والكلام فيه»[2].

وقد عرض صاحب البحار ما تقدَّم وبعد كلّ هذا العرض، والأخذ انتهي إلى ما نصَّ عليه كتاب الله تعالى، فقال: «والحقُّ أنَّ الإيمان يقبل الزّيادة والنّقصان سواء كانت الأعمال أجزاءه، أو شرائطه، أو آثاره الدّالّة عليه، فإنَّ التَّصديق القلبيّ بأيِّ معنى فسّر لا ريب أنَّه يزيد، وكلّما زاد زادت آثاره على الأعضاء والجوارح،

---

(١) حقائق الإيمان: ٩٩.

(٢) التّفتازانيّ، شرح المقاصد: ٢١٤/٥.

فهي كثرة، وقلّة تدلّ على مراتب الإيمان زيادةً ونقصاناً، وكلّ منهما يتفرّع على الآخر، فإنَّ كلّ مرتبة من مراتب الإيمان تصير سبباً لقدر من الأعمال يناسبها، فإذا أتى بها قوي الإيمان القلبيّ، وحصلت مرتبة أعلى تقتضي عملاً أكثر، وهكذا»[١].

أقول: لمّا كان المؤمنون على درجات متفاوتة بالإيمان تختلف من مؤمن إلى آخر، وورد أنَّ من المؤمنين من له درجة واحدة، ومنهم من له درجتان، وهكذا إلى العشرة كما جاء في حديث عبد العزيز القراطيسيّ، قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **يا عَبْدَ الْعَزِيز، إنَّ الإيمانَ عَشْرُ دَرَجات، بِمَنْزِلَة السُّلَّم يَصْعَدُ مِنْهُ مِرْقاةً بَعْدَ مِرْقاة، فَلا يَقولَنَّ صاحِبُ الاثْنَيْن لِصاحِبِ الْواحِد: لَسْتَ عَلى شَيْء، حَتّى يَنْتَهي إلى الْعاشِر، فَلا تُسْقِطْ مَنْ هُوَ دونَك، فَيُسْقِطُكَ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ، وَإذا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكَ بِدَرَجَة فَارْفَعْهُ إلَيْكَ بِرِفْق، وَلا تَحْمِلَنَّ عَلَيْه ما لا يُطيقُ، فَتَكْسِرَهُ؛ فَإنَّ مَنْ كَسَرَ مُؤْمِناً فَعَلَيْه جَبْرُهُ**»[٢].

أقول: إذا لم يزدد الإيمان فكيف يطلب الإمام عليه السلام من صاحبه أن يرفع من هو أقلُّ منه درجة؟!

إذن يمكن القول: أنَّ زيادة الإيمان هي عمليّة التّكامل الفكريّ، والرّوحيّ، والأخلاقيّ على المستويين النّظريّ والعمليّ، فكلّما ازداد الإنسان معرفة خالصة لله، وأتبعها بالعمل الخالص، أشرق ذلك نوراً على قلبه، فزيادة الإيمان هي الارتفاع من درجة إيمانيّة إلى درجة أعلى بالعلم، والمعرفة، والعمل المنبعث عن دافع مجرّد عن كلّ مصلحة، أو نفع غير طلب وجه الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار: ٢١٠/٦٩.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١١٥/٣، ح/١٥٣٣.

٣- ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: المؤمنون بالله تعالى عندما يتحرّكون يتكئون على قوّتين: قوّة ماديّة طبيعيّة وفق سنّة الأسباب الطّبيعيّة الّتي أودعها الله تعالى في عباده، وأراد منهم أن يستثمروا هذه الطّاقة بالقوّة الّتي منحهم إيّاها من دون استقلال، بل بالاعتماد على الله، واستمداد العون منه في تخيير الأعمال، فالمتوكّل إذن هو الّذي يجري في حركة الأسباب الّتي وضعها الله تعالى في سنَّته، الّتي لا تقبل التَّحويل، والتَّبديل، ومنها ينطلق بقوّة الله تعالى متحدّياً العواقب كلّها لا يوقفه شيء ما دام مستنداً إلى قوّة الله تعالى، عن الحسن بن الجهم، قال: «سألتُ الرّضا عليه السلام، فقلت له: جُعِلْتُ فداك، ما حدّ التّوكّل؟ فقال لي: **أَنْ لا تَخافَ مَعَ اللهِ أَحَداً**»[(1)].

ورُوِيَ عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**مَنْ أَرادَ أَنْ يَكونَ أَقْوى النّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ**»، وسُئِلَ عن حدّ التّوكّل: ما هو؟ قال: «**لا تَخافُ سِواهُ**»[(2)].

وعن عليّ بن سُوَيد، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: «**سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾**[(3)]، **فقال: التَّوَكُّلُ عَلى اللهِ دَرَجاتٌ: مِنْها أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلى اللهِ في أُمورِكَ كُلِّها، فَما فَعَلَ بِكَ كُنْتَ عَنْهُ راضياً، تَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَأْلوكَ**[(4)] **خَيْراً وَفَضْلاً، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَ في ذلِكَ لَهُ، فَتَوَكَّلْ عَلى**

(١) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١١٢/٢، ح/٥٤٧.

(٢) الفقه المنسوب إلى الإمام الرّضا عليه السلام: ٣٥٨.

(٣) الطّلاق: ٣.

(٤) قال المازندرانيّ: «الألو: التّقصير، وإذا عدّي إلى مفعولين يضمّن معنى المنع، أي لا يمنعك خيراً وفضلاً مقصراً في حقلك»، شرح أصول الكافي: ٢١٠/٨.

**الله بتَفْويضِ ذلكَ إِلَيْه، وَثِقْ به فيها، وَفي غَيْرِها**»[١].

فالتّوكّل إذن حركة لا سكون، وصمود لا خمود، وهو معنى إيجابيّ، لا موقف سلبيّ، يتضمّن تفكيراً، وتخطيطاً، وتنفيذاً اعتماداً على الله في إنجاح الحركة ومواصلة المسيرة، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢].

ولا شكَّ أنَّ العزم والتَّصميم على المضيّ في السّير عمليّة يسبقها تفكير، وتخطيط للاستمرار في المسير، قال العلامة الطّباطبائيّ: «والتّوكّل عليه اعتماده، والاطمئنان إليه في أمر، وتوكيله تعالى، والتّوكّل عليه في الأمور ليس بعناية أنَّه خالق كلّ شيء، ومالكه، ومدبّره، بل بعناية أنَّه أذِنَ في نسبة الأمور إلى مصادرها، والأفعال إلى فواعلها، وملكها إيّاها بنحو من التَّمليك، وهي فاقدة للأصالة والاستقلال في التَّأثير، والله سبحانه هو السَّبب الوحيد المستقلّ القاهر لكلّ سبب، الغالب عليه، فمن الرّشد إذا أراد الإنسان أمراً، وتوصَّل إليه بالأسباب العاديّة الّتي بين يديه أن يرى الله سبحانه هو السَّبب الوحيد المستقلّ بتدبير الأمر، وينفي الاستقلال والأصالة عن نفسه، وعن الأسباب الّتي استعملها في طريق الوصول إليه، فيتوكّل عليه سبحانه، فليس التّوكّل هو قطع الإنسان، أو نفيه نسبة الأمور إلى نفسه، أو إلى الأسباب، بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه، وعن الأسباب، وإرجاع الاستقلال والأصالة إليه تعالى مع إبقاء أصل النّسبة غير المستقلّة الّتي إلى نفسه وإلى الأسباب»[٣].

---

(١) الكافي: ١٦٨/٣، ح/١٥٩٥.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢١٦/١١-٢١٧.

٤- إقامة الصَّلاة: وهي السِّمة الرّابعة الَّتي يكرّس فيها الإنسان علاقاته بالله تعالى، بإيمان، ووعي، وتطبيق، وإقامة الصَّلاة ليس المقصود بها الإقامة الظّاهريّة وحسب، وإنَّما التَّفاعل الرّوحيّ بالوقوف بخضوع، وخشوع، وتفاعل يستوعب كلّ كيان الإنسان الظّاهريّ والباطنيّ، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[1]، ثمَّ إنَّ إقامة الصَّلاة معنى جامع يشمل الحركات الظّاهريّة، والآثار الَّتي تتركها في نفس المصلّي من تعديل أركانها، وشروطها، وواجباتها، وما تتركه من آثار: صفاء في النَّفس، وسلامة في القلب، واستقامة بالسُّلوك، واستمراراً في الأداء وفق الشُّروط الَّتي حدَّدها الشَّرع بلا تهاون أو استخفاف حتّى تكون مظهراً روحيّاً له سماته وعلاماته، ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾[2].

٥- الإنفاق في سبيل الله: وهذه الصّفة رغم ارتباطها بما قبلها في أغلب ما ورد في النُّصوص القرآنيّة إلا أنَّها رغم بعدها الاقتصاديّ إلا أنَّ آثارها الرّوحيّة الَّتي فيها يتجاوز المؤمن حبّ المال، ويقلع من نفسه شحّ النَّفس في الحرص على المال، هو الأثر الأهمّ في ذلك، وبهذا يصبح الإنفاق عمليّة تزكية وتنزيه للنّفس ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]؛ لأنَّ الزّكاة تزكية للنَّفس في الأصل قبل أن تكون نماء للرّزق.

وبهذه الصّفات الخمسة تكتمل الصّورة الإيمانيّة الرّائعة للشَّخصيّة الإيمانيّة الَّتي يتجلّى فيها الإيمان الحقيقيّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، لا يشوب إيمانهم

---

(١) المؤمنون: ١-٢.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) التَّوبة: ١٠٣.

ريب، ولا شكٌّ، ولا تردّد، ولا رياء... وقد استوعب كلّ جوانب حياتهم جوارحاً وجوانحاً، ظاهراً وباطناً حتّى أصبحوا مظهراً رساليّاً إلهيّاً إذا رآهم الرّائي تذكَّر بالله، وذكره، وازداد إيماناً، فاستحقّوا الدَّرجات العلى عند الله تعالى الَّتي لا يعلم حقيقتها إلا معطيها جلَّ وعلا، ولهم مغفرة كاملة تامّة تؤهّلهم لأن يسكنوا دار رحمة الله تعالى، وينعمون بـ«**ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1].

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٨١، ح/٣١٠.

# عِبادُ الرَّحْمنِ

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1].

الآيات المتقدّمة ترسم صورة جليّة، ودقيقة؛ لخصائص الشَّخصيّة الإلهيّة، المتمثّلة في عباد الرَّحمن، وهم الَّذين تجرَّدوا عن كلّ دافع وتَخَلَّوا عن كلّ

(١) الفرقان: ٦٣-٧٦.

الهموم سوى همّ واحدٍ انفرد بهم، وتأصَّل في عقولهم، وانساب في قلوبهم، فزكت به نفوسهم، وسمت به أرواحهم، «**هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلى حَقيقَةِ الْبَصيرَةِ، وَباشَروا روحَ الْيَقينِ، وَاسْتَلانوا ما اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفونَ، وَأَنِسوا بِما اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجاهِلونَ، وَصَحِبوا الدُّنْيا بِأَبْدانٍ أَرْواحُها مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلى**»[١]، لا يبغون عن رضا الله تعالى بدلاً، بل هو غاية في كلّ عمل عندهم لامتثال أوامره، والاجتناب عن نواهيه، والتّخلّق بما أراد لترويج شريعة الله تعالى، وتطبيق أحكامه.

وفي هذه الآيات الكريمة تجلَّت جميع الأبعاد الرّساليّة المكوّنة لمعالم الشَّخصيّة العابدة لله تعالى، والمتحرّرة من جميع الضُّغوط الدّاخليّة والخارجيّة.

وأوّل ما يلفت النّظر هو ابتداء وصفهم بالعبوديّة للرَّحمن، وهي من أسمى مراتب الكمال البشريّ، فلا يمكن أن تتحقّق إنسانيّة الإنسان بأبعادها كلّها إذا لم يكن عبداً لله تعالى؛ ولهذا قال الرّسول الأعظم ﷺ: «**لا تَرْفَعوني فَوْقَ حَقّي؛ فَإِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى اتَّخَذَني عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَني نَبِيّاً**»[٢].

وواضح أنَّ الرُّسل جميعاً لم يصلوا إلى مرتبة الرّسالة إلا بعد بلوغهم مرحلة العبوديّة، وبكلمة أخصر: إنَّ كلّ الخصائص الإيمانيّة أُطر لجوهر اسمه العبوديّة لله تعالى، وهي أسمى درجات التّحرّر الدّاخليّ والخارجيّ؛ إذ إنَّها تتكوّن من قطبين: قطب رفض (**لا إله**)، وقطب إثبات (**إلا الله**)، ومن خلال هذين القطبين النَّفي والإثبات في الكيان البشريّ تتفجّر جميع الطّاقات الإنسانيّة،

---

(١) نهج البلاغة: ٥١٢، قصار الحكم: ١٣٧.

(٢) الشَّيخ الصَّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٣٧٠/٢، ح/٨٢٥.

وتترسّخ جميع الخصال البشريّة؛ فإنَّ من «أجلّ المقامات الممكنة للإنسانيّة مقام العبوديّة الحقّة الواقعيّة الّذي أتى به الأنبياء عليهم السلام لأممهم لا سيّما خاتمهم صلى الله عليه وآله الّذي شرحه وبسطه بما أمكنه من الشّرح والتّفصيل، فقد ربط الإنسان بربّه وخالقه ومعبوده ربطاً منظّماً محكماً متقناً»[1].

وخلاصة الكلام يمكن أن نفهم حقيقة العبوديّة من وصيّة الإمام الصّادق عليه السلام لعنوان البصريّ: «**فَإِنْ أَرَدْتَ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلاً فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ الْعُبودِيَّة، وَاطْلُبِ الْعِلْمَ بِاسْتِعْمالِه، وَاسْتَفْهِمِ اللهَ يُفْهِمْكَ**»، قال عنوان: «قُلْتُ: يا أبا عبد الله، ما حقيقة العبوديّة؟»، قال عليه السلام: «**ثَلاثَةُ أَشْياء: أَنْ لا يَرى الْعَبْدُ لِنَفْسِه فيما خَوَّلَهُ اللهُ مُلْكاً، لأنَّ الْعَبيدَ لا يَكونُ لَهُمْ مُلْكٌ، يَرَوْنَ الْمالَ مالَ اللهِ يَضَعونَهُ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بِه، وَلا يُدَبِّرُ الْعَبْدُ لِنَفْسِه تَدْبيراً، وَجُمْلَةُ اشْتِغالِه فيما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى بِه، وَنَهاهُ عَنْهُ، فَإِذا لَمْ يَرَ الْعَبْدُ لِنَفْسِه فيما خَوَّلَهُ اللهُ تَعالى مُلْكاً، هانَ عَلَيْهِ الإِنْفاقُ فيما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى أَنْ يُنْفِقَ فيه، وَإِذا فَوَّضَ الْعَبْدُ تَدْبيرَ نَفْسِه عَلى مُدَبِّرِه هانَ عَلَيْهِ مَصائِبُ الدُّنْيا، وَإِذا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ بِما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى وَنَهاهُ لا يَتَفَرَّغُ مِنْهُما إِلى الْمِراءِ وَالْمُباهاةِ مَعَ النّاسِ، فَإِذا أَكْرَمَ اللهُ الْعَبْدَ بِهذِهِ الثَّلاثَةِ هانَ عَلَيْهِ الدُّنْيا، وَإِبْليسُ، وَالْخَلْقُ، وَلا يَطْلُبُ الدُّنْيا تَكاثُراً، وَتَفاخُراً، وَلا يَطْلُبُ ما عِنْدَ النّاسِ عِزّاً وَعُلُوّاً، وَلا يَدَعُ أَيّامَهُ باطِلاً، فَهذا أَوَّلُ دَرَجَةِ الْمُتَّقينَ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ**

---

(١) السّيّد السّبزواريّ، مهذّب الأحكام في بيان الحلال والحرام: ١٤٢/٧.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]»[2].

تلك هي السّمة الإنسانيّة لشخصيّة عباد الرَّحمن (**العبوديّة**) لله تعالى، ومنها تشعّ الخصال الأخرى، الَّتي سطّرتها الآيات بدقّة، وشملت جميع الأبعاد الاجتماعيّة، والعقائديّة، والاقتصاديّة، والأخلاقيّة... فالآيات جامعة لجملة مهمّة من صفات عباد الرَّحمن، وهي:

١- التَّواضع والسَّكينة والوقار في السَّير على الأرض، والحركة بين النّاس، منزّهين عن التّكبّر، والتّبختر، والخيلاء، والتّكلّف، قال الإمام الصّادق عليه السلام في تفسير الآية: «**هُوَ الرَّجُلُ يَمْشي بِسَجِيَّتِه الَّتي جُبِلَ عَلَيْها لا يَتَكَلَّفُ وَلا يَتَبَخْتَرُ**»[3]، ظاهره يعكس صورة باطنه من الاطمئنان والهدوء الإيمانيّ الَّذي يُذكّر النّاظر بالله تعالى، فإنَّ المؤمن الَّذي تجسَّدت فيه روح الإيمان، وانعكست: بصيرة، ورفقاً، ووداعةً، وسكينةً، ووقاراً يجلب أنظار الآخرين، ويكون داعيةً لله تعالى، وإن لم يتكلّم.

وهنا لا بدَّ أن نشير أنَّ هناك من يتصنّع التّواضع بِلَيّ الرَّقبة، والنَّظر إلى الأرض، والتّماوت في الحركة والمنطق، ويتصوّر ذلك هو السَّير الهون، فتظهر صورة سمجة قبيحة؛ لأنَّ الظّاهر لا يعكس صورة الباطن، فالباطن يحمل التّبختر، والتّصنّع، والتّكبّر، والظاهر عكس ذلك، بينما الحقيقة النّفسيّة تؤكّد أنَّ «النَّفس السّويّة المطمئنّة الجادّة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي

---

(١) القصص: ٨٣

(٢) علي الطّبرسيّ، مشكاة الأنوار: ٢/٣٢١-٣٢٢، ح/١٩٠٥.

(٣) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧/٢٧٩؛ والبخترة: مِشية المتكبّر المعجب بنفسه، ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٤/٤٨، (بختر).

مشية سويّة مطمئنّة جادّة قاصدة، فيها وقار وسكينة، وفيها جدٌّ وقوّةٌ، وليس معنى ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أنَّهم يمشون متماوتين، منكّسي الرُّؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفهم بعض النّاس ممّن يريدون إظهار التَّقوى والصّلاح! وهذا رسول الله ﷺ كان إذا مشى تكفّأ تكفّياً، وكان أسرع النّاس مشيةً، وأحسنها وأسكنها»[١].

وقد وصفه الوصّافون له، ومنهم الإمام عليّ عليه السلام: «**يَخْطو تَكَفُّؤاً، ويَمْشي هَوْناً، ذَريعَ الْمِشْيَة**[٢]**، إذا مَشى كَأَنَّما يَنْحَطُّ في صَبَب**[٣]»[٤].

٢- والصّفة الثّانية: الصَّبر والتّحمّل وسعة الصَّدر، ومقابلة السَّفاهة بالحلم، والجهل بالحكمة، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ قال صاحب تفسير مجمع البيان في تفسير الآية: «﴿سَلَٰمٗا﴾ أي سداداً من القول، لا يقابلونهم بمثل قولهم من الفحش عن مجاهد، وقيل ﴿سَلَٰمٗا﴾ أي قولاً يَسْلمون فيه من الإثم،

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١٨٢/٦.

(٢) ذريع: أي بعيد ما بين الخطوتين.

(٣) قال ابن الأثير: «في صفته عليه الصّلاة والسّلام: «إذا مشى تقلَّع»، أراد قوّة مشيه، كأنَّه يرفع رجليه من الأرض رفعاً قويّاً، لا كمن يمشي اختيالاً، ويُقارب خطاه، فإنَّ ذلك من مشي النّساء، ويوصفن به... وهو كما جاء في حديث آخر: «كأنّما ينحطّ من صَبَب»، والانحدار من الصَّبَب والتّقلّع: من الأرض قريبٌ بعضُه من بعض، أراد أنَّه كان يستعمل التّثبّت، ولا يبين منه في هذه الحالة استعجالٌ ومبادرة شديدةٌ»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١٠١/٤، (قلع).

وقال الشّيخ الطّريحيّ: «وفي وصفه عليه السلام: «كان إذا مشى يتقلّع»، المعنى كان يرفع رجليه من الأرض رفعاً بيّناً بقوّة، لا يمشي مشي احتشام واختيال، وقوله: «كأنَّما يمشي في صبب» كالمبيّن له، فإنَّ الانحدار والتّكفّؤ إلى قدام، والتّقلّع من الأرض يقارب بعضها بعضاً»، مجمع البحرين: ٣٨٣/٤، (قلع)؛ وقال: «والصَّبَب - بفتحتين -: ما انحدر من الأرض»، المصدر نفسه: ٩٦/٢، (صبب).

(٤) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٨١

أو سلموا عليهم، دليله قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وقال قتادة: لا يجاهلون أهل الجهل، وقال ابن عبّاس: لا يجهلون مع من يجهل»[2].

٣- تلك سيرتهم مع النّاس علماء حلماء دعاة أتقياء، يدعون بسلوكهم قبل كلامهم، هذا هو نهارهم، وأمّا ليلهم إذا جنَّ وأرخى سدوله، هرعوا إلى محاريبهم ركّعاً، سجّداً يبتغون من الله فضلاً كبيراً.

كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال: «**أَمّا اللَّيْلَ فَصافّونَ أَقْدامَهُمْ، تالينَ لأَجْزاءِ الْقُرْآنِ يرتِّلونَهُ تَرْتيلاً، يُحَزِّنونَ به أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثيرونَ به دَواءَ دائهِمْ، فَإذا مَرّوا بآيَةٍ فيها تَشْويقٌ رَكَنوا إلَيْها طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفوسُهُمْ إلَيْها شَوْقاً، وَظَنّوا أَنَّها نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإذا مَرّوا بآيَةٍ فيها تَخْويفٌ، أَصْغَوْا إلَيْها مَسامِعَ قُلوبِهِمْ، وَظَنّوا أَنَّ زَفيرَ جَهَنَّمَ، وَشَهيقَها في أُصولِ آذانِهِمْ، فَهُمْ حانونَ عَلى أَوْساطِهِمْ، مُفْتَرِشونَ لِجِباهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرافِ أَقْدامِهِمْ، يَطْلُبونَ إلى اللهِ في فَكاكِ رِقابِهِمْ**»[3] من عذاب جهنّم الَّذي هو الغرام، والهلاك، والشَّقاء الَّذي دونه كلّ شقاء، والفوز بنعيم جنّة الخلد الَّتي عرضها السّماوات والأرض.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسانَ كلّما رسخ اعتقاده بالله، واليوم الآخر، وارتفعت درجة يقينه بثواب الله وعقابه، وجنّته وناره، فسيعيشها واقعاً حياتيّاً مفهوماً ومصداقاً، كما وصف الإمام عليّ عليه السلام: «**فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآها،**

---

(١) القصص: ٥٥.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧/٢٧٩.

(٣) نهج البلاغة: ٣٣٢-٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

فَهُمْ فيها مُنَعَّمونَ، وَهُمْ وَالنّار كَمَنْ قَدْ رَآها فَهُمْ فيها مُعَذَّبونَ»[١].

وهكذا وجدنا عباد الرَّحمن يتوسَّلون إلى الله تعالى بقلوب خاشعة، وألْسنة خاضعة متضرعة مناجية ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

٥- القصد والاعتدال والتّوازن: وهذه هي الصّفة الَّتي يمكن أن نطلق عليها (الوسطيّة) وهي تمثّل حدّ الاعتدال والتّوازن في كلّ شيء سواء على المستوى المادّيّ أو المعنويّ؛ لأنَّ التّوسّطَ سبيلُ النَّجاة، والشّمالَ واليمينَ مضلّةٌ وانحرافٌ، وخروجٌ عن الجادّة، وهذه الصّفة، وإن جاءت هنا في الإنفاق ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾إلا أنَّها تشمل جميع جوانب الحياة، وكما يقول علماء الأخلاق: «كلّ فضيلة محاطة برذيلتين»، فالإنفاق: هو الحدّ الوسط بين الإسراف والتَّقتير، وهكذا بقيّة الصّفات، وكأنَّ الآيةَ الكريمةَ تريد أن تضعنا على الجادّة الوسطى؛ لتحمينا عن الوقوع في الإفراط، أو التَّفريط.

٦- التّوحيد الخالص الَّذي لا تشوبه شائبة شرك خفيّ أو ظاهرٍ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فهم موحّدون لله تعالى اعتقاداً وعملاً، ولا يمكن أن تشوب دعواتهم شائبة تلوّث حركَتهم إلى الله تعالى؛ فالتَّوحيد: هو العمود الفقريّ في التَّفكير الإسلاميّ، وإذا لم يخلص قلب الإنسان وعمله من جميع الشّوائب لا يمكن أن يستقرّ له اعتقاد آخر؛ فمن ترسَّخ اعتقادُه بوحدانيّة الله، وسلمت عقيدتُه من كلّ ما يشوبها امتدَّ هذا الاعتقاد على بقيّة الأصول الاعتقاديّة الأخرى نوراً، وبصيرة، واستقامة، وكدحاً إلى الله في حياته الرّوحيّة، والفكريّة،

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

والأخلاقيّة؛ فتوحيد الله هو الأساس الرَّصين الَّذي يقوم عليه كلُّ البناء التَّحتيّ للشّخصيّة الرّساليّة؛ ولهذا ينبغي لعباد الرَّحمن أن ينظروا بين الحين والآخر إلى سير أعمالهم ودوافعها، ومدى ارتباطها بعقيدتهم؛ لأنَّ الأعمالَ إذا لم تنطلق من روحٍ توحيديّة خالصة يمكن أن تشوبها شائبة شرك.

والتّوحيد الخالِص أمر عزيز المنال لا تناله إلا نفوس تشبَّعت بالمعرفة، وزكت من أدران الذُّنوب، وتطهّرت من مساوئ الأخلاق، وتعلّمت وعملت لله الواحد الدّيّان، ولعزّة هذا الأمر قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[١]، «فالمراد بالشّرك في الآية بعض مراتبه الَّذي يجامع بعض مراتب الإيمان، وهو المسمّى باصطلاح فنّ الأخلاق: بالشّرك الخفيّ»[٢].

٧- التّحرّج عن قتل النَّفس البريئة، بل لا يمكن للمؤمن أن يقدم على سفك دم بغير حقّه، ولو أعطي الدُّنيا بأسرها؛ لأنَّ قتل نفس واحدة هي اعتداء على حرمات الله وهي بمثابة تدمير العالم؛ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٣].

٨- العفّة النَّفسيّة، فهم لا يقتربون من أمّ الفواحش(الزّنا) فضلاً عن الوقوع فيه، وحيث يقف الإنسان بين الطَّهارة والتّلوّث لا بدَّ وأن يدفعه إيمانُه إلى اختيار سبيل الطّهارة والعفّة.

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٧٦/١١.

(٣) المائدة: ٣٢.

ثمَّ عَقَّبَ النَّصُّ الكريم بعد ذكر هذه الصّفات معلّقاً على الآثام الكبيرة الثّلاث، وهي: «الإشراك بالله، وقتل النَّفس المحترمة، والزّنا» بأنَّ فاعلَها يلاقي عقوبة مخالفاته لشريعة الله مضاعفةً: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾، واختلف المفسّرون في تفسير مضاعفة العذاب، أهو مضاعفة إجزاء أم مضاعفة استحقاق؟ قال صاحب مجمع البيان: «يريد سبحانه مضاعفة إجزاء العذاب، لا مضاعفة الاستحقاق؛ لأنَّه تعالى لا يجوز أن يعاقب بأكثر من الاستحقاق؛ لأنَّ ذلك ظلمٌ، وهو منفيٌّ عنه، وقيل: معناه أنَّه يستحقّ على كلّ معصية منها عقوبة؛ فيضاعف عليه العقاب، وقيل: المضاعفة عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة»[1]، والله العالم.

ثمَّ تستثني الآية الكريمة بعد ذلك التّائبين، المؤمنين، العاملين للصّالحات، وتوعدهم بالغفران، وتبديل سيّئاتهم حسنات، أما كيف تُبدّل السّيّئات بالحسنات فلم يفصح النَّصُّ عن الكيفيّة، وعن المقصود؛ ولذا اختلف المفسّرون على أقوال، نذكر منها:

قيل: إنَّ الإنسان عندما يتوب إلى الله تعالى يزداد إيمانه، وإخلاصه لله تعالى، وتتغيّر حالته النَّفسيّة، والرّوحيّة، وهذه تحوّل سلوكه العملي، وتوجّهه الفكريّ، فيسلك سبيل الإصلاح بعدما كان سالكاً سبيل الإفساد؛ فيقاوم الظُّلم والظّالمين بعدما كان سائراً في صفوفهم، وينشر الحق، والخير، والجمال، بعدما كان يعمل على نشر الظّلم، والظّلام.

وقيل: إنَّ السّيّئات نفسها تمحى، وتعوّض عنها بحسنات بعد التَّوبة،

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٨١/٧.

واستدلّ على ذلك برواية أبي ذر الغفاريّ قال: «قال رسول الله ﷺ: **يُؤْتى بالرَّجل يَوْمَ الْقيامَة؛ فَيُقال: اعْرضوا علَيْه صغارَ ذُنوبه، ونَحّوا عَنْهُ كبارَها؛ فَيُقال: عملْتَ يوْمَ كَذا كَذا، وكَذا كَذا، وهو مُقرٌّ لا يُنْكر، وَهُوَ مُشْفقٌ من الْكَبائر؛ فَيُقال: أَعْطوهُ مَكانَ كُلِّ سيِّئة عَمِلَها حسنَةً؛ فَيَقول: إنَّ لي ذُنوباً ما أَراها هاهُنا**، قال: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ ضَحكَ حَتّى بَدَتْ نَواجذُهُ»[1].

ولا عجب من ذلك فإنَّ الله غفورٌ يغفر السّيّئات، ورحيمٌ يفيض على عبده التّائب العائد إلى ساحته بالخيرات؛ فإنَّ رحمتَه أوسعُ من غضبه، وفيضَه على عباده لا حدود له.

ثمّ توضّح الآية الثّانية المقام الرَّفيع للتّائب توبةً نصوحةً عائداً بها إلى ساحة الطّاعة لله، حبّاً له، وطلباً لرضاه، لا فرار للتّخلّص من قبيح الأعمال، فالتَّوبةُ إلى الله تعالى طلبٌ لرضاه لا خوفٌ من عقابه، وهي تعني الانقطاع الكلّيّ إلى الله تعالى، ولا يشكُّ أحدٌ أنَّ الإنسانَ حين ينقطع كلّياً إلى الله بغض النَّظر عن الثَّواب والعقاب، وإنَّما حبٌّ وشكر وطاعة؛ فهذا مقام شريف من ناله نال خير الدُّنيا والآخرة، وهو بالتّالي يفوز بغفران الذُّنوب، ورضا الرّبّ الرَّحيم، ويدخل جنّات النَّعيم، وهذا غير من يتوب فقط بقصد نيل الثّواب، والتّخلّص من العقاب، فهذه درجة، وتلك درجة سامية لا ينالها إلا ذو حظ عظيم.

٩- والصّفة التّاسعة أنَّهم لا يشهدون الزّور: واختلفوا في تفسير شهادة الزَّور؛ فقيل: إنَّهم لا يحضرون مجالس اللّهو، والعبث، وهي مجالس الغناء، والفحشاء، وبأنواعه كلّها، وقيل: الزّور هو الشّرك، وقيل: إنَّهم لا يشهدون شهادة

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٨١/٧.

الزّور؛ لأنّها معصية تواعد النّبيّ صلى الله عليه وآله عليها قائلاً: «**إنَّ شاهدَ الزّورِ لا يزولُ قَدَماهُ حتّى يوجَبَ لَهُ النّارُ**»(١).

وقد رُوِيَ: صلّى النّبيّ صلى الله عليه وآله الصُّبح، فلمّا انصرف قام قائماً، فقال: «**عُدِلَتْ شَهادَةُ الزّورِ بالإِشْراكِ باللهِ**» ثلاث مرّات، ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿**فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ**﴾(٢)»(٣).

١٠- الصّفة العاشرة: إنّهم لا يحضرون مجالس اللّغو؛ فهم يترفّعون عن العبث، واللّهو الباطل، وينزّهون أنفسهم عن مجاورة العابثين ومخالطتهم، الّذين لا يحترمون أعمارهم، وأوقاتهم؛ فكلّ ما لا يعود على الإنسان بالنّفع الماديّ أو المعنويّ، فهو لغوٌ لا يقبله العاقل لنفسه أبداً، وقد حذّر أئمّة الهدى عليهم السلام من حضور مثل هذه المجالس لتأثيرها السّلبيّ على الإنسان، فقد روي عن أبي أيّوب الخرّاز: «نزلنا المدينة فأتينا أبا عبد الله عليه السلام، فقال لنا: **أَيْنَ نَزَلْتُمْ**؟ فقلنا: على فلان صاحب القِيان، فقال: **كونوا كراماً**، فوَ الله ما علمنا ما أراد به، وظنّنا أنّه يقول: تفضّلوا عليه، فعدنا إليه، فقلنا: إنّا لا ندري ما أردت بقولك: **كونوا كراماً**، فقال: **أَما سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – في كِتابِهِ**: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا**﴾»(٤).

١١- التّلقّي الواعي والانفتاح على وحي السّماء، أي إنّهم يستمعون إلى ما

---

(١) الحميريّ، قرب الإسناد: ٨٥ ح/٢٧٨.

(٢) الحجّ: ٣٠.

(٣) سنن ابن ماجة: ٧٩٤/٢، ح/٢٣٧٢.

(٤) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٨٣/١٢-٧٨٤، ح/١٢٣٩٣.

يلقى عليهم من وحي الرّسالة الإلهيّة، ويفتحون بصائرهم وأبصارهم، ولا يعرضون عنه بحالٍ أبداً؛ فيفتحون قلوبهم وعيونهم وأسماعهم، ولا يشكّون بشيء منه.

ومن سمات عباد الرَّحمن أنَّهم يستمعون القول، ويتّبعون أحسنه، بل ويتفاعلون معه، ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾(١)، إشارة إلى التّلقّي الفاعل المؤثّر في النَّفس، وفي المحيط الاجتماعيّ، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك بقوله: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْداً سَمِعَ مَقَالَتِي؛ فَوَعَاها، وَحَفِظَها، وَبَلَّغَها مَنْ لَمْ يَسْمَعْها**»(٢).

١١- حبّ الدَّوام والاستمرار الصّالح في الحياة الدّنيا: من صفات الإنسان الفطريّة حبّ البقاء، ولمّا كان البقاء مستحيلاً في الحياة الدُّنيا، فكل من عليها فان؛ فإنَّ الإنسان يحبُّ أن يكون له استمرارٌ يمدّه بالدُّعاء والغفران، وهذا ما يتمثّل بالذّرّيّة الصّالحة؛ ولهذا نجد نبيّ الله زكريّا عليه السلام يتوسّل بالله تعالى أن يهب له وليّاً يرثه؛ ليحمل الرّسالة بعده، فيقول:

﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** ﴾(٣).

وعلى هذه السُّنّة يسير عباد الله الصّالحون بأمل أن يرزقهم الله ذرّيّة صالحة تكون لهم قرّة أعين في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) المائدة: ٨٣

(٢) الكافي: ٢/٣٣٦، ح/١٠٥٨.

(٣) مريم: ٥-٦.

# سِماتُ العُقَلاءِ

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۞ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۞ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۞ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾(١).

في النَّصّ المقدّس بيان دقيق لسمات العقلاء، وهي صفات عمليّة تلامس الواقع النَّفسيّ، والعقليّ للفرد؛ لتمتدّ منه إلى الواقع الاجتماعيّ، فتؤثّر فيه تأثيراً إيجابيّاً مُغيّراً، وتحرّكه لما فيه سعادته، وترسم له الأسلوب الأمثل للرّقيّ في معارج الكمال، هذا الأسلوب هو اتّخاذ المنهج العلميّ وسيلة للنّجاة من المخاطر المحدقة بالإنسان في كدحه إلى الله، لأنَّ العلم بالله ورسله واليوم الآخر يفتح البصر والبصيرة، ويضع الإنسان على جادّة الصَّواب، ويأخذ بيده لما فيه سعادته في الدُّنيا والآخرة، وعلى ذلك يقوم البناء التّحتيّ للشّخصيّة الرّساليّة، فالشَّخصيّة الَّتي لا

---

(١) الرَّعد: ١٩-٢٥.

تقف على أرضيّة صلبة من الإيمان والعلم والمعرفة، شخصيّة مهزوزة قلقة متذبذبة تتقاذفها الأهواء، وتهوي بها في وادٍ سحيق، إنَّه العلم بالله تعالى، وبما أنزل من العقائد، والأحكام، والأخلاق، الَّتي تجسَّدت في سيرة الصّالحين من عباده.

يبدأ النَّصُّ باستفهام استنكاريّ؛ لتمييز العالم العارف البصير بما أنزل الله تعالى عن الجاهل الأعمى المتخبّط في ظلام الجهالات، والضَّلالات المرتكس في مستنقع الجاهليّة الجهلاء، فليس العالم العارف بالله تعالى، البصير بأحكامه، الحامل لرسالته كالأعمى الَّذي لا يعرف أحكام الله تعالى، وهنا إشارة جميلة دقيقة بوجوب طلب العلم كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، قال عليّ بن عيسى: «وفي هذا حثٌّ على طلب العلم، وإلزام له؛ لأنَّه إذا كانت حال الجاهل كحال الأعمى، وحال العالم كحال البصير، وأمكن هذا الأعمى أن يستفيد بصراً، فما الَّذي يقعده عن طلب العلم الَّذي يخرجه عن حال العمى بالجهل إلى حال البصير»[1].

وهكذا يتّضح من خلال النَّصّ أنَّ الإسلام ينطلق في تغيير الإنسان فرداً كان، أو مجتمعاً من منطلق علميّ؛ لأنَّ العلم يزيل الجهل، والتّخلّف، ويهدي إلى الرُّشد، ويعرف الإنسان سرَّ وجوده، وعلّة إيجاده، ويوضّح له دوره في الحياة، ومسؤوليّته فيها، ولا نقصد بالعلم هذا علم المصطلحات، والعلوم الطّبيعيّة، وإنَّما هو العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأحكامه، ومعارفه، وبعد أن يقرّر القرآن هذه الحقيقة يحدّد بدقّة سمات العقلاء، والرّاشدين من خلال إبراز صفاتهم العمليّة الَّتي تبرز في سلوكهم، ويتحدّد في نقاط.

(١) الشَّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/٤٤٣.

**١- الوفاء بالعهد:**

العهد لغةً: «كلّ ما عُوهِدَ اللهُ عليه، وكلُّ ما بين العبادِ من المواثيقِ، فهو عَهْدٌ»[١]، فكلّ ما يلزم الإنسان به نفسه من أعمال أو عقائد، أو إلزامات أخرى مع الله، أو مع نفسه، أو مع النّاس فهو عهد، وله معانٍ كثير، فهو يشمل الميثاق الَّذي أخذه الله على عباده بالرّبوبيّة لله، وعبوديّة الإنسان له من خلال العقائد السَّليمة، والأحكام الصَّحيحة، والمواثيق المقطوعة، ويشمل ما يتمّ بين العباد من مواثيق، ووصايا، وذمم وهكذا.

وعلى كلّ حال الوفاء بالعهد هو «حفظ الشّيء ومراعاته حالاً بعد حال»[٢]، والوفاء به إتمامه على الوجه الأكمل، والتّمسّك بما يلزم به، «والفرق بين العهد، والميثاق هو أنَّ الثّاني أخصُّ من الأوّل؛ لأنَّه العهد المؤكّد بأنحاء التّأكيدات والتّوثيقات، سواءً أكان بين الله تعالى وبين خلقه، أم بين خلقه بعضهم مع بعض»[٣].

وقد أكَّد القرآن الكريم في آيات كثيرة على الوفاء بالعهود، والمواثيق، ولم يجز نقضها إلا حينما ينقض المعاهد عهده، وميثاقه، ويصبح خطراً على الإسلام والمسلمين، ثمَّ إنَّ الوفاء بالعهد من ألزم اللّوازم، وأسمى الخصائص، وأعلى الصّفات، وهو صفة إلهيّة لا يتحلّى بها إلا العارفون بالله، المتمسّكون بدينهم، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٤].

والعهد هنا هو: ميثاق الله الَّذي قطعه على عباده منذ خلقهم، وأخذ منهم

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٣/٣١١، (عهد).

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٤٨٥، (عهد).

(٣) السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ، مواهب الرّحمن في تفسير القرآن: ١/٢٢٧.

(٤) التوبة: ١١١.

عهدهم أنَّ يعرفوه؛ ليوحّدوه، ويعبدوه، ويتّقوه، وهذا هو الميثاق الفطريّ الَّذي خَمَّره الله في كيان الإنسان: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾(١).

والوفاء بالعهد أمرٌ قطعيٌّ، ومسؤوليّة شرعيّة وأخلاقيّة لا يجوز للإنسان أن يحيد عنها، فلا ينقض العهد بأيّ حال من الأحوال ما لم ينقض الطَّرف الآخر عهده، يقول تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾(٢).

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾(٣).

﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾(٤).

ومدح الله تعالى عباد الصّادقين الَّذين يوفون بعهدهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(٥).

بل رُوِيَ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أَمانَةَ لَه، ولا دينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ»(٦).

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) النّحل: ٩١.

(٣) الإسراء: ٣٤.

(٤) الأحزاب: ١٥.

(٥) الأحزاب: ٢٣.

(٦) مسند الإمام أحمد: ٣٧٦/١٩، ح/١٢٣٨٣.

والوفاء بالعهد بين العبد وربه عملية متبادلة فكلما وفى العبد بالعهد الذي قطعه على نفسه لله لابد أن يوفي الله له بعهده فَيَمنَّ عليه بالخير، والصلاح، والنصر، والعطاء غير المحدود ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾(١)

وفي المقابل ذمُّ الَّذين ينقضون عهودهم وحَقَّرَهم، وعدَّ نقض العهد خيانة كبرى، وهي من أبرز صفات المنافقين: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وواضح من مدلول الآية الكريمة أنَّ نقض العهد ناتجٌ من ضعف الإيمان بالله تعالى أو انعدامه؛ ولذا أوعد النّاقضين لعهودهم بالخسارة الكبرى لأولئك الفاسقين ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٣).

هؤلاء الَّذين لا يلزمهم عهد، ولا ميثاق هم المنافقون الَّذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤).

ومن هنا تتّضح العاقبة السّيّئة للّذين ينقضون عهودهم أو يبيعونها ويستبدلونها مقابل أثمان قليلة، فهم لا نصيب لهم في دار رحمة الله تعالى، بل هم في منتهى الذُّلّ والاحتقار الإلهيّ، فلا يكلّمهم الله، ولا ينظر إليهم لخسّتهم، وحقارتهم، وقذارتهم الَّتي أسقطتهم في بؤرة الخيانة؛ ولذلك استحقّوا العذاب

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) البقرة: ٢٧.

(٣) البقرة: ١٠٠.

(٤) آل عمران: ٧٧.

الأليم، ومن خلال ذلك كلّه يتّضح لنا أهمّيّة العهود، والمواثيق في حياة الإنسان فرداً، أو مجتمعاً، أو دولةً، فعلى جميع الأصعدة العلاقاتيّة يكون دور الوفاء بالعهود أساسيّاً، فكلّ ما يقع في حياة الإنسان من ترابط، وتبادل على المستوى الاجتماعيّ، والسّياسيّ، والاقتصاديّ يتمّ ضمن عقود، وعهود، ومن دونه لا يمكن للحياة أن تستقيم مسيرتها.

ولذا نصَّ القرآن الكريم على أنَّ من سمات أولي الألباب الوفاء بالعهد سواء كان مع الله، أو بين العباد أنفسهم، وخلاصة الكلام: «والعهد عبارة عن الالتزام بشيء، فيجب الوفاء به عقلاً وشرعاً، بلا فرق فيه بين عهود الله تعالى مع خلقه، أو عهود بعضهم مع بعض، كما لا فرق بين العهود الخاصّة بين بني إسرائيل، والعهود العامّة بين جميع النّاس، والمراد بالعهود في المقام ما عاهده الله تعالى على عباده بواسطة أنبيائه من الإيمان به، وعبادته، والتَّصديق برسله، والعمل بما أنزله عزَّ وجلَّ من مكارم الأخلاق وغيرها»(١).

وبناءً على ما تقدّم من بيان لأهمّيّة الوفاء بالعهد، ودوره في تنظيم الحياة الإنسانيّة في مختلف الصُّعد السّياسيّة والاجتماعيّة يصبح «العهد من أسمى العقود، وأرفع الارتباطات، الّتي تقوّي عنصر الالتزام الأدبيّ والمعنويّ عند الإنسان، بحيث لا يقتصر التزامه في تعهّداته ومواثيقه على الأسباب الظّاهرة، بل يتعدّاه إلى حسن المراقبة الدّاخليّة، ورسوخ الملكة، وتشكّل الباطن على هيأة الوفاء بالعهود والمواثيق، وهذا من دعائم الارتباط الاجتماعيّ وركائز حفظ النّظام، وصون الحقوق»(٢).

---

(١) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٧١/٦.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، اليمين والعهد والنّذر: ١٢٥.

وبناءً على ذلك أكّد الشّارع المقدّس على وجوب الوفاء بالعهود والعقود، كما حكم بعدم جواز نقضها والتّساهل فيها في جميع الظُّروف والملابسات مهما كانت، وأروع صورة لهذا التّأكيد ما جاء في عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر حين كتب له: «**وَإنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دونَ ما أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرائِضِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْءٌ، النّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِماعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوائِهِم، وَتَشَتُّتِ آرائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفاءِ بِالْعُهودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكونَ فِيما بَيْنَهُمْ دونَ الْمُسْلِمينَ، لِما اسْتَوْبَلوا**[1] **مِنْ عَواقِبِ الْغَدْرِ، فَلا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ**[2]**، وَلا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ؛ فَإِنَّهُ لا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلا جاهِلٌ شَقِيٌّ.**

**وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضاهُ بَيْنَ الْعِبادِ بِرَحْمَتِهِ وَحَريماً يَسْكُنونَ إِلى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضونَ إِلى جِوارِهِ، فَلا إِدْغالَ، وَلا مُدالَسَةَ، وَلا خِداعَ فِيهِ**»[3].

## الْعُهودُ وَالْمَواثيقُ في سيرَةِ الرَّسولِ الأَعْظَمِ صلى الله عليه وآله:

المتتبّع لسيرة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله يجده على امتداد حركته المباركة كان يعقد المواثيق، والعهود، ويكتب الكتب في كثير من المواقف، واللّقاءات مع من

---

(١) استوبلوا: وجدوه وبيلاً ثقيلاً.

(٢) خاس بعهده: خانه ونقضه.

(٣) نهج البلاغة: ٤٦٢-٤٦٣، كتاب: ٥٣.

حلَّ بينهم، ومارس حركته في أوساطهم، أو من اختلف معهم وحاربهم، أو من وفدوا عليه من أطراف الجزيرة العربيّة، وكانت مواثيقه وعهوده تتميّز بالدّقّة والإلزام، وحساب كلّ متوقع، وكان ﷺ شديد الالتزام بما واثق عليه، ولم يحدّثنا التّأريخ أنَّه نقض عهداً عقده مع أحد أبداً رغم نَقْض اليهود والمشركين والمنافقين عهودهم في كلّ مرة كما وصف القرآن الكريم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾[1].

وقد كان التزام النّبيّ ﷺ حدّيّاً بدرجة تثير العجب والتّساؤل، كما في التزامه بالعهد الَّذي عقده مع سهيل بن عمرو مبعوث قريش ومفاوضها، «فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جَنْدل بن سهيل بن عمرو يرسُف في قيوده، وقد انفلت، وخرج من أسفل مكّة، حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فلمّا رأى سهيل أبا جندل قام إليه، فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، وقال: يا محمّد، قد تمَّت القضيّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، وهذا أوّل من أقاضيك عليه أن تردَّه إلينا؛ ثمّ جعل يجرّه ليردَّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؛ ليفتنوني عن ديني؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: **يا أَبا جَنْدَل، احْتَسبْ، فَإنَّ اللهَ جاعلٌ لكَ، ولِمَنْ معَكَ منَ الْمُسْتَضْعَفينَ فَرَجاً ومَخْرَجاً، إنّا قَدْ عاقَدْنا بَيْننا وبَيْنَ الْقَوْمِ عَقْداً وَصُلْحاً، وأَعْطَيْناهم عَلى ذلكَ عَهْداً، وإنّا لا نَغْدرُ**»[2].

---

(١) البقرة: ١٠٠.

(٢) النّويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٧/٢٣١-٢٣٢.

وحادثة أخرى وقعت بعد هدنة الحديبية حيث شرطت قريش على النّبيّ ﷺ أن يُرجع إليها المسلمين الَّذين يفرّون من مكّة إلى المدينة، ومن أولئك أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثّقفيّ، حيث انفلت من المشركين، فأتى رسول الله ﷺ مسلماً مهاجراً، ولمّا علمت قريش بوصول أبي بصير إلى المدينة أرسلت رجلين، أحدهما «اسمه جحش بن جابر، وكان ذا جَلَد ورأي في أنفس المشركين، وجعل لهما الأخنس في طلب أبي بصير جُعلاً، فقدما على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **يا أَبا بَصير، إنّا قَدْ أَعْطَيْنا هؤلاء الْقَوْمَ ما قَدْ عَلِمْتَ، وَلا يَصْلُحُ لَنا في ديننا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللهَ جاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً، فَانْطَلِقْ إلى قَوْمِكَ**، فقال: يا رسول الله، أتردُّني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال ﷺ: **انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللهَ سَيَجْعَلُ لَكَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً**، ودفعه إليهما.

فخرجا به، حتّى إذا كانا بذي الحُلَيفة سلَّ جحش سيفه، ثمّ هزّه، وقال: لأضربنَّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى اللّيل، فقال له أبو بصير: أَوَ صارمٌ سيفُك هذا؟ قال: نعم؛ قال: ناولنيه أنظر إليه، فناوله إيّاه، فلمّا قبض عليه ضربه به حتى برد... وطلب الآخر، فجمز(١) مذعوراً مستخفياً، حتّى دخل المسجد إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ حين رآه: **لَقَدْ رَأى هذا ذُعْراً**؛ فأقبل واستغاث برسول الله ﷺ، فقال: **وَيْحَكَ! ما لَكَ؟** فقال: قتل صاحبُكم صاحبي، وجاء أبو بصير يتلوه، فسلّم على رسول الله ﷺ، وقال: وفَتْ ذمّتك يا رسول الله، وأدّى الله عنك، دفعتني إليهما، فتعرّفت أنَّهم سيعذّبونني، ويفتنونني عن ديني، فقتلت المُنقذيّ،

---

(١) جمز: عدا وأسرع.

وأفلتني هذا، فقال رسول الله ﷺ: **وَيْل أُمِّه، مِسْعَر حَرْبٍ**[١] **لَوْ كانَ مَعَهُ رِجالٌ**»[٢].

ورغم ذلك لم يقبل رسول الله ﷺ ببقائه في المدينة، وأمره بالخروج، «فخرج أبو بصير، حتّى نزل بناحية ذي المَرْوة على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشّام، وبلغ المسلمين الَّذين كانوا [احتُبسوا] بمكّة ذلك، فخرجوا إلى أبي بصير، منهم أبو جندل، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً، فضيَّقوا على قريش، يعترضون العير تكون لهم، فأرسلتْ قريش إلى النّبيّ ﷺ، يناشدونه الله والرّحم لمّا أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن، فآواهم رسول الله ﷺ»[٣].

وهكذا يتّضح لنا دقّة التزام النّبيّ ﷺ بعهوده ومواثيقه مع ألدّ أعدائه في أشدّ الحالات، وتلك هي أخلاقيّة الإسلام.

٢- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ هنا تأكيد على وجوب استمرارية الصّلات والرّوابط الإنسانيّة السّليمة الصّالحة، بكلّ أبعادها الوسيعة، فكلّ ما يصلح الإنسان، ويقوده نحو الهداية والصّلاح من العلاقات الفكريّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة، وكلّ ما أمر الله به أن يوصل، ولا شكَّ أنَّ الله تعالى لا يأمر بصلة إلا وللإنسانيّة فيها عائدة خير ورشاد، ويبدو والله العالم أنَّ الآية تفيد الإطلاق لكلّ أصناف الصّلات، الصّلة مع الله بتوحيده، وعبادته، وتسبيحه، وتنزيهه، والشّعور برقابته، ومعيّته؛ لأنَّ العالم كلّه هو محضر الرّبّ الكريم، فلا ينبغي للإنسان أن

---

(١) مسعر الحرب: موقدها، يقال: رجل مسعر حرب إذا كان يؤرثها، أي تحمى به الحرب؛ يتعجّب النّبيّ ﷺ من شجاعته وجرأته وإقدامه.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٧/٢٤٥-٢٤٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التّأريخ: ٢/٢٠٦.

يتجاهل هذا المحضر، أو يغفل عنه، بل يجب أن يستحضره في كلّ لحظة فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله وبعده وفيه، ويستشعر رقابته ليوحي لنفسه بالخوف، والخشية، والهيبة، والتّعظيم، وهذه الصّلة هي الأساسيّة في جميع الصّلات، منها تبدأ، وإليها تعود، وبها تستقيم.

ثمّ الصّلة مع رسل الله، وأنبيائه، وعباده الصّالحين من الشّهداء والصّدّيقين، وهذه الصّلة تربط الإنسان المؤمن بركب الرّسالة الصّاعد، وتلحقه بقافلة التّوحيد الإبراهيميّ، ويتحقّق ذلك بالتّواصل الرّوحيّ والفكريّ معهم من خلال التّأمّل بما عانوه من أجل الرّسالة، وبما اتّسموا به من خلق رفيع، وما سلكوه من أساليب في نشر دعوة السّماء، ومحاولة الاقتداء والتّأسّي بهم، ولا يمكن لمؤمن عامل لله أن يستغني عن ذلك بحال من الأحوال، حتّى أكمَل البشريّة وأعظهما سيد الرّسل والأنبياء وخاتمهم محمّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أمره الله أن يقتدي بهم ما دام هو استمراراً لرسالاتهم، وتكميلاً لأحكامهم، يقول تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ** ﴾[1].

رُوِيَ عن ابن عبّاس في تفسير الآية: «يعني هدى الله داود، وأمر النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أن يقتدي به»[2]، ولكنّ الآية أشمل من الاقتداء بداود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، قال العلامة الطّباطبائيّ: «فقوله: ﴿ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ** ﴾ تأديبٌ إلهيٌّ إجماليٌّ له صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ بأدب التّوحيد المنبسط على أعمال الأنبياء عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ المنزّهة من الشّرك»[3].

(١) الأنعام: ٨٩-٩٠.

(٢) موسوعة الشّهيد الأوّل (ذكرى الشّيعة في أحكام الشّريعة): ٧/٣٨٠.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، سنن النّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ: ٤١.

ولا شكَّ أنَّ وعي هذه الصّلة مع مواكب النّور من الأنبياء والمرسلين تضع السّالك على الصّراط المستقيم، وتثبّته، وتمنحه قوّة المواصلة، وتَحَمّل الأعباء، وسلامة المسير، وطهارة المقصد والهدف.

ثمَّ بعد أن تتأصَّل الصّلة بالله ورسله، فإنَّها ستفرز أنواعاً أخرى من الصّلات الرّساليّة كولاية أولياء الله المطهّرين، وولاية المؤمنين، والصّلات الاجتماعيّة كصلة الأرحام، والإحسان إلى المسيئين، والعفو عن المذنبين، والرَّحمة بالفقراء والمساكين، والدَّفع بالأحسن للمناوئين والمعادين... وهكذا تكون الآية شاملة لكلّ أنواع العلاقات في مختلف الصُّعد الفكريّة، والعقائديّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة...

عن صفوان الجمّال قال: «وقع بين أبي عبد الله عليه السلام وبين عبد الله بن الحسن كلامٌ حتّى وقعت الضّوضاء بينهم، واجتمع النّاس، فافترقا عشيّتهما بذلك، وغدوت في حاجة، فإذا أنا بأبي عبد الله عليه السلام على باب عبد الله بن الحسن، وهو يقول: يا جارية، قولي لأبي محمّدٍ يخرج»، قال: «فخرج، فقال: **يا أَبا عَبْد الله، ما بَكَّرَ بكَ؟** فقال: إنّي تلوت آيةً من كتاب الله عزّ وجلّ البارحة فأقلقتني[1]، قال: **وَما هِيَ؟**

---

(١) قال المحدّث المجلسيّ: «الظّاهر أنَّ هذا كان لتنبيه عبد الله، وتذكيره بالآية؛ ليرجع ويتوب، وإلا فلم يكن ما فعله عليه السلام بالنّسبة إليه قطعاً للرّحم، بل كان عين الشّفقة عليه؛ لينزجر عمّا أراده من الفسق، بل الكفر؛ لأنَّه كان يطلب البيعة منه عليه السلام لولده الميشوم... أو شيء آخر مثل ذلك، وأيّ أمر كان إذا تضمّن مخالفته ومنازعته عليه السلام كان على حدّ الشّرك بالله، وأيضاً مثله (صلوات الله عليه) لا يغفل عن هذه الأمور حتّى يتذكّر بتلاوة القرآن، فظهر أنَّ ذلك على وجه المصلحة؛ ليتذكّر عبد الله عقوبة الله، ويترك مخالفة إمامه شفقة عليه، ولعلَّ التّورية في قوله: أقلقتني، القلق لعبد الله، لا لنفسه لكن فيه دلالة على حسن رعاية الرّحم، وإن كان بهذه المثابة، وكان فاسقاً ضالاً فتدبّر»، مرآة العقول: ٣٨٣/٨.

قال: قول الله جلَّ وعزَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾[1]، فقالَ: صَدَقْتَ لَكَأَنّي لَمْ أَقْرَأْ هذِهِ الآيَةَ مِنْ كتابِ اللهِ قَطُّ، فاعتنقا، وبكيا»[2].

٣- ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، وهذا بيان للحالة الشّعوريّة في العلاقة مع الله المبنيّة على أساس الخشية، والخوف، والفرق بين الخشية والخوف عموم وخصوص من وجه، قال المحقّق الخواجه نصير الدّين الطّوسيّ قُدِّسَ سِرُّه: «إنَّ الخشية والخوف -وإن كانا في اللّغة بمعنى واحد- إلا أنَّ بين خوف الله وخشيته في عرف أرباب القلوب فرقاً، وهو: أنَّ الخوف تألّم النَّفس من العقاب المتوقّع بسبب ارتكاب المنهيّات، والتّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق -وإن كانت مراتبه متفاوتة جداً- والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل، والخشية حالة تحصل عند الشّعور بعظمة الحقّ، وهيبته، وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطّلع على حال الكبرياء، وذاق لذّة القرب، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فالخشية خوفٌ خاصٌّ، وقد يطلقون عليها الخوف أيضاً»[3].

فالمؤمنون بمقدار ما يخشون ربَّهم يخافون سوء الحساب، وهذه سمة بارزة من سمات الأبرار، فرغم عصمتهم وطهارتهم من كلّ الأدناس والأرجاس يخافون سوء الحساب: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾[4].

---

(١) الرّعد: ٢١.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٣٩٨-٣٩٩، ح/١٩٩٦.

(٣) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ١/١٢٣-١٢٤.

(٤) الإنسان: ١٠.

وفي رواية حمّاد بن عثمان بيان جليٌّ لتفسير ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، قال: «دخل رجلٌ على أبي عبد الله عليه السلام، فشكا إليه رجلاً من أصحابه، فلم يلبث أن جاء المشكوُّ، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: **ما لفُلانٍ يَشْكوكَ**؟ فقال له: يشكوني أنّي استقضيت[1] منه حقّي»، قال: «فجلس أبو عبد الله عليه السلام مغضباً، ثمّ قال: **كأنَّكَ إذا استَقْضَيْتَ حقَّكَ لَمْ تُسِئْ، أرَأَيْتَ ما حَكى اللهُ عزَّ وجَلَّ في كتابه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أتَرى أنَّهُمْ خافوا اللهَ أنْ يَجورَ علَيْهِمْ، لا واللهِ ما خافوا إلا الاسْتِقْضاءَ، فسمّاهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ سوءَ الحسابِ، فمَنِ اسْتَقْضى فقَدْ أساءَ**»[2].

وهكذا فإنَّ أولياء الله يخافون ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ حتّى في استيفاء حقوقهم، فعليهم أن يُيَسّروا الطَّلب، ويتساهلوا في المطلوب؛ ولهذا أكَّد الفقهاء كراهة التَّشديد والاستقصاء في الطَّلب سواء أكان بيعاً أو شراء أو قرضاً، قال ابن إدريس: «ويكره له أن يطلب الغاية، فيما يبيع ويشتري من الرّبح، ولا يطلب الاستقصاء في جميع أموره، وأحواله، ومعاملاته»[3]، وساق الرّواية المتقدّمة عن حمّاد بن عثمان.

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ الَّذي تقدّم من سمات أولي الألباب من الوفاء بالعهد، ووصل ما أمر الله به أن يوصل، بل جميع المكارم والخصال من الصّفات الكريمة، والأعمال الصّالحة، والأخلاق الفاضلة، والاستقامة في مواجهة المشاكل في مسيرة الكدح إلى الله، سواء في جهاد النَّفس، أو جهاد أعداء الله،

(١) أي طلبت منه حقّي، وفي بعض النّسخ بالصّاد المهملة في الموضعين، أي بلغت الغاية في المطالبة.

(٢) الكافي: ٩/٦٠٢-٦٠٣، ح/٨٤٨٧.

(٣) موسوعة ابن إدريس الحلّيّ (السّرائر): ١٠/٣٣٠.

ومحاربة الظُّلم والفساد، والدَّعوة إلى الهداية والرّشاد، وعدم الغرور والإعجاب في تحصيل المكارم والنّعم الإلهيّة لا يمكن تحصيلها، والتّخلّق بها إلا إذا تحلّى الإنسان بالصَّبر بكلّ أنواعه سواء كان الصَّبر على طاعة، أو الصَّبر عن معصية الله، أو الصَّبر على المصائب والنَّوائب على أن يكون هذا الصّبر والتّحمّل لأجل نيل رضا الله، وابتغاء وجهه الكريم لا لأجل دوافع ذاتيّة أو نفعيّة مصلحيّة كحبّ السُّمعة والشّهرة بالتّحلّي بالفضائل والمكارم كمن يصبر؛ ليقال إنّه صبور مستقيم قويٌّ على تحمّل الشّدائد، أو يصبر؛ لئلا يعاب من سوء الجزع، أو يصبر؛ ليدفع شماتة الأعداء، أو يصبر؛ لأنَّ الجزع لا يدفع البلاء ولا نفع فيه، كلّ هذا النّوع من الصَّبر لا قيمة إلهيّة فيه، وإنَّما الصَّبر الَّذي أشارت إليه الآية الكريمة هو الصَّبر لوجه الله، وفي سبيل الله، بل والصَّبر بالله، وهو أعلى درجات الصَّبر وأكمله، ولعلَّه هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1]؛ ولأنَّ الله يحبّ الصّابرين، والصّابر من يتحمّل المشاقّ كي يتقرّب إلى الله، وأعلى من ذلك أن يصبر لأنَّ في الصَّبر مرضاةَ الله تعالى، وهذا هو (صبر الشّاكرين) كما رُويَ عن يونس بن ظبيان، قال: «كُنْتُ عند مولاي أبي عبد الله عليه السلام، إذ دخل علينا المعلّى بن خنيس في رجب، فتذاكروا الدّعاء فيه، فقال المعلّى: يا سيّدي، علّمني دعاء يجمع كلّ ما أودعته الشّيعة في كتبها، فقال عليه السلام: قُل يا مُعَلّى: **اللّهمَّ، إنّي أَسْأَلُكَ صَبْرَ الشّاكرينَ لَكَ، وَعَمَلَ الخائفينَ منْكَ، ويَقينَ الْعابدينَ لَكَ**... الدّعاء، ثمّ قال: **يا مُعَلّى، والله لَقَدْ جَمَعَ لَكَ هذا الدُّعاءَ ما كانَ مِنْ لَدُنْ إبْراهيمَ الْخَليلِ**

---

(١) النَّحل: ١٢٧.

عليه السلام إلى محمَّد صلى الله عليه وآله»(١).

وقيل: «إنَّ ذكر الوجه هنا عبارة عن الإخلاص، وترك الرّياء»(٢)، والتّجرّد الخالص لله دون سواه، و«كلمة الوجه في هذه الموارد تعني العظمة، كما نقول للرّأي الصّائب والمهمّ: "هذا وجه الرّأي"، باعتبار أنَّ الوجه يمثّل الشّكل الظّاهر والمهمّ للشّيء، كما في وجه الإنسان الَّذي يعتبر أهمّ جزء من جسده، وفيه يقع السّمع والبصر والنّطق»(٣).

٥- ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإنّما جاءت إقامة الصَّلاة هنا إمّا تأكيداً للوفاء بالعهد الَّذي قطعه الإنسان لله على نفسه، وليستمدّ العون بها من الله؛ ليقوّيه على نفسه في مواصلة السَّير إليه، وليجدّد العهد من خلالها بالله خشوعاً وخضوعاً وضراعةً لله في محراب قدسه، وليطهّر نفسه من أدران الذُّنوب، ومساوئ الأخلاق، ولا شكَّ أنَّ للصَّلاة كلَّ هذه الآثار المباركة وغيرها.

٦- ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، ومن سمات أولي الألباب ومعالمهم الإنفاقُ في سبيل الله، وهو عامل آخر يتجاوز الإنسان فيه حبَّ الذّات امتثالاً لأمر الله تعالى، مهاجراً من الخلق إلى الخالق، ويعيش في رحاب رحمته من خلال إعانة خلقه بنعمه الَّتي استخلفه الله فيها، وبذلك لم يخضع لحرص، ولا جشع، ولا استئثار، بل بذلٌ لما في يديه سرّاً وعلناً متقرّباً إلى الله تعالى، وهكذا يربّي الله عباده بعبادته في جميع الفروض والواجبات، سواء كانت عبادات جسديّة، أو ماليّة، أو كليهما، أو عبادات أخلاقيّة يجسّد فيها الخلق الإسلاميّ الرّفيع.

---

(١) السّيّد ابن طاووس، إقبال الأعمال: ١٤٢.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٤٤/٦.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٩١/٧.

٧- ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، وهنا صفة أخرى طابعها عمل أخلاقيّ تربويٌّ له مردودات نفسيّة واجتماعيّة، فإذا فسَّرنا الآية الكريمة بدفع المعصية بفعل الطّاعة، أي إذا وقع الإنسان في مخالفة شرعيّة درأها بطاعة مستغفراً نادماً منيباً إلى ربّه كما ورد عن النّبيّ ﷺ أنّه قال لأبي ذرّ: «**إِذا عَمِلْتَ سَيِّئَةً، فَأَتْبِعْها حَسَنَةً تَمْحُها**»[١].

فهذا عملٌ تربويٌّ إصلاحيٌّ يتراجع الإنسان من خلاله من القبح إلى الجمال، ومن الباطل إلى الحقّ، ولهذا الفعل دور مهمٌّ في إصلاح النَّفس، وتقويمها على جادّة الصَّواب، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾[٢].

وإذا فسَّرنا الآية الكريمة على أنَّها حثٌّ على مقابلة الإساءة بالإحسان كما في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٣] كانت عملاً اجتماعيّاً أخلاقيّاً له دور وتأثير في إصلاح الآخرين، وكلا الأمرين متلازمٌ، فإصلاح ذات البين يؤثّر في إصلاح الآخرين، فمن لا يصلح ذاته ويتدارك ما فاته لا يمكن أن يصلح الآخرين، ويحسن إليهم.

## الْعاقِبَةُ الْحَسَنَةُ:

وهكذا تأتي البشارة من ربّ العزّة والجلال لمن يتحلّى بتلك السّمات الكريمة، وتتجسّد في سلوكه قولاً وفعلاً، سرّاً وجهراً، فعاقبته من الله حياة لا موت

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٨٦/٣٥، ح/٢١٤٨٧.

(٢) الفرقان: ٧٠.

(٣) المؤمنون: ٩٦.

فيها، وسعادة لا شقاء فيها، ولذّة لا انقطاع لها، إنَّها جنّات عدن في دار رحمة الله حيث النَّعيم الَّذي لا انقطاع معه، والخلود الَّذي لا فناء له، ولم يكتف النَّصُّ بذلك بل أتمّ السّرور بإلحاق ذويه الصّالحين من الآباء والأبناء والأزواج الَّذين صَدَّقوا بما دعوهم إليهم، والذين ساروا بنهج التَّوحيد، ولم يكونوا من الخَلَف الَّذين أضاعوا الصَّلاة، واتَّبعوا الشَّهوات، وليكتمل السّرور والبهجة في سعادة لا تعرف الدُّنيا لها مثيلاً، وهي سلام الملائكة المقرَّبين، ومباركتهم لهم بهذه العاقبة الحسنة، «جنّات عدن للإقامة والقرار، في هذه الجنّات يأتلف شملهم مع الصّالحين من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم، وهؤلاء يدخلون الجنّة بصلاحهم واستحقاقهم، ولكنّهم يكرمون بتجمّع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذّة أخرى تضاعف لذّة الشّعور بالجنان، وفي جوّ التّجمّع والتّلاقي يشترك الملائكة في التّأهيل والتّكريم، في حركة رائحة غادية: ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.. ويدعنا السّياق نرى المشهد حاضراً، وكأنّما نشهده ونسمع الملائكة أطوافاً أطوافاً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.. فهو مهرجان حافل باللّقاء والسّلام والحركة الدّائبة والإكرام»[1].

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٩١/٥-٩٢.

# وَسارِعوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[1].

## مَعاني الْمُفْرَداتِ:

المسارعة: هي المبادرة، والاشتداد في السّرعة، سواء كان في الخير أو في الشّرّ، إلا أنَّها في الخير ممدوحة، وفي الشّرّ مذمومة، «والفرق بين السّرعة والعجلة أنَّ السّرعة هي التّقدّم فيما يجوز أن يتقدّم فيه، وهي محمودة. وضدّها الإبطاء، وهو مذموم، والعجلة: هي التّقدّم فيما لا ينبغي أن يتقدّم فيه، وهي مذمومة، وضدّها الأناة، وهي محمودة»[2].

المغفرة: من الغفر، وهو «إلباس ما يصونه عن الدَّنس... والمغفرة من الله هو

---

(١) آل عمران: ١٣٣-١٣٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٥٦٦/٢.

أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب، قال: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾[١]، و﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢]، ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[٣]»[٤].

**الكاظمين**: قال الرّاغب في المفردات: «الكظم مخرج النَّفس، يقال أخذ بكظمه، والكُظُوم احتباس النَّفس، ويعبَّر به عن السُّكوت كقولهم فلان لا يتنفّس إذا وُصِفَ بالمبالغة في السُّكوت، وكُظِمَ فلان حُبِسَ نفسُه، قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٥]، وكظم الغيظ حبسه، قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[٦]، ومنه كَظَمَ البعيرُ إذا ترك الاجترار، وكظم السّقاء شدَّه بعد ملئه مانعاً لنفسه»[٧].

**الغيظ**: وهو «هيجان الطّبع للانتقام بمشاهدة كثرة ما لا يرتضيه، بخلاف الغضب، فهو إرادة الانتقام أو المجازاة؛ ولذلك يقال غضب الله، ولا يقال اغتاظ»[٨].

**الفاحشة**: كلّ «ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[٩]، وشاع استعماله في الزّنا.

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) آل عمران: ١٣٣، الحديد: ٢١.

(٣) آل عمران: ١٣٥.

(٤) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٥٠٠، (غفر).

(٥) القلم: ٤٨.

(٦) آل عمران: ١٣٤.

(٧) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٩٦، (كظم).

(٨) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٢٠.

(٩) مفردات ألفاظ القرآن: ٥١٦، (فحش).

**الإصرار:** «أصله الشّدّ من الصّرّة، والصّرّ شدّة البرد»[(١)]، فالإصرار هو الإقامة والاستمرار على الإثم والذَّنب، وعدم الارتداع لو ردع، فهو يورث في النَّفس هيأة لا ينفع معه ذكر مقام الرّبّ تعالى، وهو الاستهانة بأمر الله تعالى، وعدم المبالاة بهتك حرماته، والاستكبار عليه تعالى، ولا تبقى معه عبوديّة.

في هذه الآيات الثّلاثة على قصر ألفاظها، وعمق معانيها وسعتها بما تتضمّن من الأوامر والتَّوجيهات للمؤمنين داعية لفعل الخير، وزاجرة عن فعل الشّرّ.

وإنَّها عالجت ما أصاب المؤمنين من ضعف ووهن وتراجع بعد واقعة أحد الَّتي انتكس فيها الجيش الإسلاميّ في أوّل الأمر، ثمّ تداركهم الله برحمته، وفيها أيضاً الإرشاد والهداية لحفظ المؤمنين من الوقوع في ورطات لا يحسن عقباها، كما حدَّدت خصال الخير - الَّتي تنبغي لمن يريد السَّير والكدح إلى الله - الَّتي يجب أن يتّصف بها، سواء كانت علاقته مع نفسه أو مع الآخرين أو مع الله تعالى، وفيها بشارة عظيمة لجميع أهل الذُّنوب والعصيان برحمة الله يتداركون ما فاتهم، ومنها نستوحي ضرورة ترك التَّسويف والتَّواني في الخير؛ لأنَّه يفوت على الإنسان حظوظ الدُّنيا والآخرة، ويسلّم الإنسان للتَّثبيط والتَّراجع والخضوع لوسوسة الشَّيطان.

إذن الآيات الكريمة تخلق في نفس من يعيها وعياً رساليّاً: حركة بعث وانبعاث، ومبادرة سريعة إلى إصلاح الكيان النَّفسيّ فكريّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً، وجميل ما استوحاه المفسّر الكبير العلامة السّيّد محمّد حسين فضل الله رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته إذ قال: «إنّ عظمة الشّخصيّة الإنسانيّة هي في امتزاج الجوانب

---

(١) التّبيان في تفسير القرآن: ٢/٥٩٦.

الإنسانيّة، والعمليّة، والرّوحيّة ببعضها البعض، لتمثّل التّوازن في حركة الشَّخصيّة وفاعليّتها في الحياة، بعيداً عن فكرة الجانب الواحد الَّذي قد يرى فيه بعض النّاس مظهراً حيّاً من مظاهر التَّقييم، كما نلاحظ في النّماذج الَّتي تتميّز بالرّوحيّة في العبادة إلى مستوى الفناء والذّوبان في محبّة الله، ولكنّها تتميّز - في الجانب السّلبيّ - بالقسوة في المعاملة والعلاقة، أو بالبخل في جانب العطاء، أو بالانفتاح على المعاصي مع الإصرار، أو بالانحرافات الاجتماعيّة في نطاق الكلمة والفعل والأسلوب... فإنَّ ذلك الارتباك في طبيعة هذه الصّفات يدلّ على وجود خلل في عمق الصّفة الواحدة المتميّزة وابتعادها عن الأجواء الرّحبة الطّاهرة، ذلك كلّه في نطاق الأوضاع الإسلاميّة السَّليمة»[1].

واستوحى سماحته صفات الشَّخصيّة الإسلاميّة، وهي: «سعة الأفق، ورحابة الصَّدر، وعمق العاطفة الإنسانيّة، وعظمة الشُّعور بالمسؤوليّة، وقوّة الإرادة، وامتداد الصّلة الرّوحيّة في علاقتهم بالله، وابتعادهم عن الإصرار على المعصية، وانسجامهم مع الخط العمليّ للطّاعة»[2].

ونعود للآيات الكريمة؛ لنستوحي ما فيها من دروس وعبر، وحثّ على التّخلّق بمعالي الأخلاق...

في الآية الأولى أمر لمن يريد أن يسلك طريق الوصول إلى ساحة القرب الإلهيّ، ويفوز بمقام الرّضا الرّبّانيّ أن يسارع إلى نيل المغفرة من الله تعالى، وهي من أعظم المنن الإلهيّة على الإنسان، إذ يقبل توبته، ويرحم ندامته، ويطهّره من

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٣٨٦/٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٥/٣.

الأدناس الَّتي لوَّثته، ويعيده إلى ساحة القبول والرّضوان، ويدخله دار رحمته خالداً فيها، وهذه الأمور من أعظم آمال أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، ومن أعظم أمنياتهم.

وإن أردتَ مصداق ذلك فتأمّل جيّداً في موقف خليل الرَّحمن عليه السلام، وهو يواجه تحدّيات قومه ومعارضته بأشدّ ما يتصوّر من التّحدّي والإصرار، فيردّ عليهم أنَّه بموقفه هذا الَّذي أعلن فيه عداءه لآلهتهم وأوثانهم إنَّه يطمع بغفران الله تعالى يوم الدّين: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾[1].

والموقف نفسه واجهه السَّحرة الَّذين آمنوا بموسى وهارون بعد أن أبطل الله سحرهم، وأيقظ عقولهم في معركة برزت فيها أروع صور التّحدّي، وأفظع صور التَّهديد حين قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

ماذا كان ردّهم على هذا التّحدّي، وهذا التَّهديد لطاغوت يفعل ما يقول؟ لقد كان الرَّدُّ مذهلاً حقّاً، يقف العقل أمامه في حيرة: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

تلك هي المغفرة من الله الّتي يتطلّع إليها المؤمنون على مختلف درجات معرفتهم، وإيمانهم بالله ورسوله، واليوم الآخر، فما أحرى بالمؤمنين أن يسعوا إليها، ويسارعوا للفوز بها، فهي المأْمن من عذاب الله تعالى، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ

(١) الشّعراء: ٨٢

(٢) الشّعراء: ٤٩.

(٣) الشّعراء: ٥٠-٥١.

﴿لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١).

فالاستغفار هو الأمان الباقي في الأرض بعد رحيل الأمان الأوّل رسول الله ﷺ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كانَ في الأَرْضِ أَمانان منْ عَذاب الله سبْحانَه، وَقَدْ رفِعَ أَحَدُهما، فَدونَكُمُ الآخَرَ، فَتَمَسَّكوا بِه، أَمّا الأَمانُ الَّذي رفِعَ فَهوَ رَسولُ الله ﷺ، وَأَمّا الأَمانُ الْباقي فَالاسْتغْفارُ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**(٢)»(٣).

والاستغفار تفكيرٌ، وقولٌ، وعملٌ، أمّا كونه تفكيراً فإنَّ الإنسان حين يحاسب نفسه، ويَسْتَعيد حساباته في كدحه إلى الله يقف على مفارقاته السّلوكيّة، أو تصوّراته الوهميّة، أو مخالفاته الشَّرعيّة، وحينئذٍ يرجع إلى نفسه، فتصيبه النَّدامة والحسرة على ما فرَّط في جنب الله، وتلك هي الخطوة الأولى في طريق العودة إلى الله تعالى، ثمّ ينتقل من هذه المرحلة إلى مرحلة القول، فيستغفر ربّه نادماً على ما فعل، راجياً رحمة الله تعالى، ليتجاوز عن مخالفاته، وبهذا الشُّعور والإحساس الإيجابيّ يبعث الله في نفسه الحيويّة، والحركة، والأمل، فينقلب الإحساس والشّعور إلى عمل يغيّر كيان الإنسان في كلّ جوانب حياته الفكريّة والسّلوكيّة، ولعلَّ هذا ما صوَّره أمير المؤمنين عليه السلام بدقّة متناهية حين سمع رجلاً قال بحضرته: «أستغفر الله»، فقال عليه السلام: «**ثَكلَتْكَ أُمُّك، أَتَدْري ما الاسْتغْفارُ؟ إنَّ الاسْتغْفارَ دَرَجَةُ الْعلِّيِّينَ، وَهوَ اسْمٌ واقِعٌ عَلى ستَّة مَعانٍ، أَوَّلُها النَّدَمُ عَلى ما مَضى،**

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) الأنفال: ٣٣.

(٣) نهج البلاغة: ٤٩٩، قصار الحكم: ٨٣.

**وَالثّاني الْعَزْمُ عَلَى تَرْك الْعَوْد إلَيْه أَبَداً، وَالثّالثُ أَنْ تُؤَدّي إلى الْمَخْلوقينَ حُقوقَهُمْ حَتّى تَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبعَةٌ، وَالرَّابعُ أَنْ تَعْمدَ إلى كُلِّ فَريضَة عَلَيْكَ ضَيَّعْتَها فَتُؤَدّي حَقَّها، وَالْخَامسُ أَنْ تَعْمدَ إلى اللَّحْمِ الَّذي نَبَتَ عَلى السُّحْت فَتُذيبَهُ بالأَحْزَان، حَتّى يَلْصقَ الْجلْدُ بالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُما لَحْمٌ جَديدٌ، وَالسّادسُ أَنْ تُذيقَ الْجسْمَ أَلَمَ الطّاعَة كَما أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ الْمَعْصيَة، فَعنْدَ ذلكَ تَقولُ أَسْتَغْفرُ الله»**(١).

وإذا تأمّلنا جيّداً في هذا النَّصّ الَّذي يحدّد شروط الاستغفار الحقيقيّ بما له من دور فعّال في إعادة صياغة الشَّخصية الإلهيّة؛ لتكون مؤهّلة لنيل درجة العلّيين، ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ**﴾، قال اللّغويّون: هي درجة فيها «علوّ على علوّ مضاعف؛ ولهذا جمع بالواو والنّون تفخيماً لشأنه، وتشبيهاً بما يعقل في عظم الشَّأن، وهي مراتب عالية محفوفة بالجلالة... [وهي بالتّالي:] اسمٌ لأعلى الأمكنة»(٢).

وقد جاءت هذه الدَّرجة في القرآن بقوله تعالى: ﴿**كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ**﴾(٣).

وهكذا ننتهي إلى حقيقة درجة العلّيين، «ولأهمّيّة وعظمة شأن "علّيين".. تأتي الآية التّالية لتقول: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ**﴾، إنَّه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التّصوّر والخيال والقياس والظّنّ، بل وحتّى أنَّ النّبيّ ﷺ وعلى ما له من

---

(١) نهج البلاغة: ٥٥٥، قصار الحكم: ٤٠٥.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦٩١/١٠.

(٣) المطفّفين: ١٨-٢١.

علوّ شأن ومرتبة مرموقة، فلا يستطيع من تصوّر حجم أبعاد عظمته»(١).

إذن لا يمكن للإنسان أن ينال درجة العلّيين إلا بالاستغفار، فما أعظم الاستغفار إذا عرفه الإنسان، ووعى حقيقته، ومارسه عملاً، وعاشه وسيلةً يُطَهّر بها نفسه، ويتقرّب بها إلى ربّه؛ ليكون متهيّئاً لدخول جنّة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، إنَّها دعوة إلى الحياة الخالدة الأبديّة الّتي لا يشوبها كدر، ولا يلحقها فناء، ولا تنقطع لذّاتها، وهي (دار الأمان)، وجزاء المطيع، ومآل الفائز، وغاية السّابقين، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، وهي ثمن النَّفس الإنسانيّة، فلا ينبغي أن يبيع الإنسان نفسه إلا بها، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(٢)، ولهذا قال سيّد الموحّدين عليّ عليه السلام:

**«أَلا إِنَّهُ لَيْسَ لأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إلا الْجَنَّةَ، فَلا تَبيعوها إلا بها».**

**«إِنَّ مَنْ باعَ نَفْسَهُ بغَيْرِ الْجَنَّة، فَقَدْ عَظُمَتْ عَلَيْه الْمحْنَةُ».**

**«مَنْ باعَ نَفْسَهُ بغَيْرِ نعيمِ الْجَنَّة، فَقَدْ ظَلَمَها»**(٣).

وأمّا كون عرضها السَّماوات والأرضَ، فقد اختلف المفسّرون اختلافاً واسعاً، فمنهم من حمله على التَّعبير المجازيّ، ومنهم من حمله على التَّعبير الحقيقيّ، أو على عدم التَّناهي لأبعادها، فهي دار رحمة الله، ورحمة الله لا تحدّها حدود زمانيّة ولا مكانيّة، قال السّيّد السَّبزواريّ رحمه الله: «ويمكن أن لا يكون التَّعبير كنائيّاً، بل كان على الحقيقة، إمّا بناءً على عدم تناهي الأبعاد، كما عن جمع من

---

(١) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٣/٢٠.

(٢) التَّوبة: ١١١.

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٢، ح/٤٦٢٣-٤٦٢٤-٤٦٢٨.

الفلاسفة، فالأمر واضح، وإمّا بناءً على التّناهي كما عن بعض، فلا ريب في أنَّه على فرض صحّته إنَّما هو في الدُّنيا، وأمّا في الآخرة فهي غير متناهية من جميع الجهات، زماناً ومكاناً، وسعةً ونعمةً، وغير ذلك»(١).

وعلى كلّ حال فمهما أوتي الإنسانُ من قدرة فكريّة، وعمق إيمانيّ، وسعة في الأفق، ومعرفة بحقائق الكون والحياة، فلا يستطيع أن يتصوَّر عظمة دار رحمة الله سعةً، ومكاناً، ونعمةً، ولذّةً... فقدرات الإنسان محصورة بالأبعاد الملكيّة الدُّنيويّة، وأمّا معرفته بالأبعاد الملكوتيّة فمحدودة بحدود قدراته العقليّة، وتصوّراته الوهميّة؛ ولهذا ورد في الحديث القدسيّ: «**أَعْدَدْتُ لعبادي الصّالحين ما لا عَيْنٌ رأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمعَتْ، وَلا خَطَرَ على قَلْب بَشَر**»(٢).

«وهذا هو شأن النّعمة الَّتي أعدّت من غير المتناهي من كلّ جهة إلى المنعم عليه المتناهي من كلّ جهة، وهذه هي الحياة الكاملة الأبديّة الَّتي لا ينبغي للإنسان إلا السَّعي في دركها»(٣).

وما لنا بذلك من علم إلا بما نزل في كتاب الله من ذكر مجمل رمزيّ للجنّة الَّتي وعد الله بها عباده المتَّقين، وقد اختلفت في تفسيرها أقوال العلماء المفسّرين، وبما وصلهم من بيان ذلك في السّنّة الشَّريفة، وقد جاء في الوحي الإلهيّ أسماء درجات مختلفة لا يعلم حقيقتها إلا الله والرّاسخون في العلم، منها:

١- **جنّات عدن**: وقد وردت بأسلوب الجمع، ولعلَّها - والله أعلم - هي درجات متفاوتة في دار رحمة الله، وقيل: هي «جنّات إقامة وخلد، وقيل: هي بطنان

---

(١) السّيّد عبد الأعلى السَّبزواريّ، مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣١٠/٦.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤٨٩/١٣، ح/٨١٤٣.

(٣) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣١١/٦.

الجنة، أي: وسطها... وقيل: هي مدينة في الجنّة، وفيها الرّسل، والأنبياء، والشّهداء، وأئمّة الهدى، والنّاس حولهم، والجنان حولها...»[١]، والعلم عند الله، وعلى كلّ حال، فهي دار رحمة الله أبهم حقيقتها عن عباده؛ ليبقى العارفون العالمون العاملون لله تعالى يكدحون في سيرهم إليه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٢].

وقد أوضح رسول الله ﷺ حقيقة عدم قدرة الإنسان على إدراك كنهها بقوله ﷺ: «**عَدْنٌ دارُ الله الَّتي لَمْ تَرَها عَيْنٌ، ولَمْ تَخْطُرْ على قَلْبِ بَشَرٍ، لا يَسْكُنُها غَيْرُ ثَلاثَةٍ: النَّبيّينَ، والصِّدّيقينَ، والشُّهداءِ، يَقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: طوبى لِمَنْ دَخَلَكِ**»[٣].

وهذا أمر فوق تصوّراتنا المحدودة حدود قدراتنا وطاقتنا المتنازلة باستمرار، وأوهامنا الهائمة في جهالتنا، وأمانينا السّابحة في رحاب شهواتنا، فأنّى لنا أن ندرك سعة رحمة ربّنا الّتي أعدَّها للمتّقين، ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٤].

٢- **جنّات النّعيم**: وهي دار النّعم الكثيرة الّتي يطيب العيش فيها، وهي للّذين آمنوا وعملوا الصّالحات، متجرّدين لله، مخلصين له الدّين، يقول تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٧٧.

(٢) الانشقاق: ٦.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٧٧.

(٤) السّجدة: ١٧.

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١].

فجنّات النّعيم إذن لفئة خاصّة من المؤمنين العاملين للصّالحات الّذين جعل الله «نور الهداية الإلهيّة هذا، الَّذي ينبعث من نور إيمانهم يضيء كلّ آفاق حياتهم، وقد اتَّضحت لهم الحقائق في ظلّ هذا النّور بحيث لا تؤثّر على أفكارهم صرخات المذاهب المادّيّة وضوضاؤها، ولا الوساوس الشَّيطانيّة وبريق الذّنوب، أو الذّهب والقوّة، ولا يخطون خطوة في طريق الانحراف عن الصَّواب والحقّ»[٢].

**٣- جنّات الفردوس**: الفردوس لغةً: البستان، وقيل: هو الوادي الخصيب، وقيل: الرّوضة، وقيل: خضرة الأعناب، وقيل: حقيقته أنَّه البستان الَّذي يجمع ما يكون في البساتين، وقيل: حديقة في الجنّة، والفردوس أصله روميّ عُرّبَ، والعرب تسمّي الموضع الّذي فيه كَرْم: فردوساً، والفردوس مذكّر، وإنّما أنّث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٣]؛ لأنَّه تعالى عنى به الجنّة[٤].

وقال صاحب مجمع البيان: «الفردوس: البستان الَّذي يجتمع فيه التَّمر، والزّهر، وسائر ما يمتع ويلذّ»[٥].

وقد ذكرها تعالى مرَّتين في الكتاب الكريم، كما في الآية المتقدّمة، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[٦]، وجاء في

---

(١) يونس: ٩-١٠.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٨٥/٦.

(٣) المؤمنون: ١١.

(٤) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٦٣/٦، (فردس).

(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٦٨/٦.

(٦) الكهف: ١٠٧.

تفسير مجمع البيان: «أي كان في حكم الله وعلمه لهم بساتين الفردوس، وهو أطيب موضع في الجنّة، وأوسطها، وأفضلها، وأرفعها»[(١)].

وروى عبادة بن الصّامت عن النّبيّ ﷺ قال: «**الْجَنَّةُ مائةُ درجَة، ما بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّماء وَالأَرْض، الْفرْدَوْس أَعْلاها درجَةً، منْها تَفجرُ أَنْهارُ الْجَنَّة الأَرْبَعَة، فَإذا سَأَلْتُمُ اللهَ تَعالى، فَاسْأَلوهُ الْفرْدَوْسَ**»[(٢)].

وعلى كلّ حال فإنَّ الله تعالى حين يصف جنانه هذا الوصف البديع؛ ليؤكّد لهم أنّهم مهما تمتّعوا بلذائذ الدُّنيا فهي لذّات مؤقّتة بوقت قصير محدود جدّاً، وتتبعها، بل وتصحبها منغّصات ومعاناة، فما من لذّة من لذّات الدُّنيا إلا وتركت آثاراً سلبيّة على بدن الإنسان أو روحه، وأمّا لذّات الآخرة فخالدة لا تنقطع، لا تبعة فيها، ولا معاناة، ولا نهاية، وفوق ذلك: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾.

هكذا يؤصّل القرآن في نفس الإنسان الإيمان بحياة أخرى خالدة لا تنقطع باقية لا تفنى، مع سعادة لا شقاء فيها ولا عناء؛ كلّ ذلك ليزهّده بالدُّنيا ولذّاتها ويرغّبه بتلك الحياة الأخرى، ﴿**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾، فإذا خرج الإنسان بروحه وفكره من جاذبيّة الدّنيا سما إلى عالم الملكوت، وتجرَّد من عالم الملك، أو على الأقلّ تحرّر من بعض جواذبه، فعن عبد الله بن القاسم، قال: «سمعْتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: **إذا تَخلّى الْمُؤْمنُ منَ الدُّنْيا سَما، ووَجَدَ حَلاوةَ حُبِّ الله، وكانَ عنْدَ أَهْلِ الدُّنْيا كَأَنَّهُ قَدْ خولطَ**[(٣)]**، وإنَّما خالَطَ الْقَوْمَ حَلاوةُ حُبِّ الله، فَلَمْ يَشْتَغلوا بغَيْره**»، قال: «وسمعته يقول: **إنَّ الْقَلْبَ إذا صَفا ضاقَتْ به الأَرْضُ**

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/٧٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) خولط: أي اختلّ عقله.

**حتّى يَسْموَ»**[١].

٤- **جنّة الخلد:** وقد وردت هذه اللّفظة مرّة واحدة في القرآن الكريم، وهي دار الخلود في رحمة الله تعالى، ينعمون بما آتاهم الله من فضله، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً بعد المعاناة والمرارات الّتي تحمّلوها في سبيل الله، وجميل ما قاله الشّاعر[٢]: [من البسيط]

كفى المحبّين في الدُّنيا عذابهم ... تالله لا عَذَّبْتَهُم بعدها سقرُ

بل جنّة الخلد مأواهم مزخرفة ... ينعمون بها حقّاً بما صبروا

فكيف لا، وهم حبّوا وقد كتموا ... مع العفاف؟ بهذا يشهد الخبرُ

وإليها أشار رسول الله ﷺ بقوله: «**مَنْ أَرادَ أَنْ يَحْيا حَياتي، وَيَموتَ ميتَتي، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ الَّتي وَعَدَني رَبّي، قَضيبٌ مِنْ قُضْبانِها غَرَسَهُ بِيَدِه، وَهِيَ جَنَّةُ الْخُلْد فَلْيَتولَّ عَلِيّاً وَذُرِّيَّتَهُ مِنْ بَعْدِه، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُخْرِجوهُ مِنْ بابِ هُدًى، وَلَنْ يُدْخِلوهُ في بابِ ضَلال**»[٣].

وقد وردت في أوصافها روايات كثيرة لسنا بصدد ذكرها نسأل الله تعالى أن يمنّ على المؤمنين وعلينا بها.

٥- **جنّة المأوى:** المأوى المكان الّذي يرجع إليه النّاس، وينضمّون فيه، وأمّا ﴿**جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ**﴾ «فمعناها الجنّة الّتي يُسكن فيها»[٤]، وتعدّدت المعاني فيها، فقيل: هي جنّة الخلد للمتّقين، والأمر سهل فهي دار رحمة الله بدرجة من درجاتها

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣٣٧/٣، ح/١٩٠٢.

(٢) البكريّ الدّمياطيّ، إعانة الطّالبين: ١٠٨/٢.

(٣) محمّد بن حسن الصّفّار، بصائر الدّرجات: ١١٤-١١٥، ح/٢١٩.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٠٤/١٧.

المتفاوتة.

كلّ هذه الجنان أعدَّها تعالى للمتّقين، فمن هم هؤلاء المتّقون الَّذين سيفوزون بكلّ تلك النّعم الَّتي لا يحيط بها تصوّر الإنسان، بل ولا تخطر على قلب بشر؟ قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۞ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾(٢).

وأجمع آية حدَّدت سمات المتّقين هي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٣).

وبالتّالي إنَّ المتَّقين هم أولياء الله الخلّص الَّذي استخلصهم لنفسه ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٤)، والتَّقوى هنا هي الطّاعة المطلقة لله تعالى الخالصة المخلصة من جميع الشَّوائب المكدّرة لصفاء العمل لله، والذّكر الدّائم له، والشّكر العمليّ، وهي الَّتي أشار إليها تعالى بقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(٥).

---

(١) النَّحل: ٣٠.

(٢) الدّخان: ٥١-٥٢.

(٣) البقرة: ١٧٧.

(٤) الأنفال: ٣٤.

(٥) آل عمران: ١٠٢.

وقد أوجز الإمام الصّادق عليه السلام في جواب أبي بصير عن سؤاله في تفسير الآية ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، فقال عليه السلام: «يُطاعُ فَلا يُعْصى، ويُذْكَرُ فَلا يُنْسى، ويُشْكَرُ فَلا يُكْفَرُ»[1].

فمن لوازم التَّقوى إذن مواصلة ذكر الله بلا انقطاع قولاً، وعملاً، وسلوكاً، وشعوراً، واستحضاراً لهيمنته تعالى، كلّ ذلك يعمّق في النَّفس خشية الله، ويشعرها برقابته جلَّ جلاله، ويدفعها للسَّعي في نيل مرضاته، والفوز بجنّاته.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2].

## صِفاتُ الْمُتَّقينَ في هذِهِ الآياتِ:

بعد أن حثَّت الآيات الكريمة على المسارعة والمسابقة إلى مغفرة الله تعالى، وإلى جنَّة عرضها السَّماوات والأرض، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وفي آية أخرى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]، حدَّدت الخطوات العمليّة والصّفات النَّفسيّة للمتّقين الَّذين

(١) الشّيخ الصَّدوق، معاني الأخبار: ٢٤٠.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) الحديد: ٢١.

سيفوزون بتلك الجنان، وهي عبارة عن أعمال تتجسَّد في سلوكهم يقومون بها باختيارهم وبطوع أنفسهم، وهي:

أوّلاً: الإنفاق في سبيل الله لا عن طلب سمعة، ولا رياء، ولا تتبعها منّة ولا أذى، وإنَّما لله، وفي الله، وفي سبيل الله، وقد ورد الحثُّ على الإنفاق في آيات كثيرة، وأحاديث وافرة خارجة عن سعة هذه الأوراق ولها حديث آخر.

ثانيها: كظم الغيظ، وقد تقدَّم معناها، وهي صفة نفسيّة كريمة تنبئ عن قدرة الإنسان على ضبط نفسه، والتّحكّم في انفعالاته، سلباً وإيجاباً، فلا يخرجه غضب عن حدود الله، ولا يدخله رضى في معصية الله تعالى، ولا يتوفّر الإنسان على هذه الصّفة إلا إذا عَمّق إيمانه بالله، واستشعر قدرته عليه، وروَّض نفسه على ضبط أعصابه، وأخذ الحدّ الوسط في مواجهة التّحدّيات الَّتي تواجهه في مسيره إلى الله تعالى، ولا بدَّ أن نشير أنَّ كظم الغيظ لا بدَّ أن يكون عن قدرة في إمضاء غضبه لا عن خوف وعجز.

ولكظم الغيظ مردودات إيجابيّة في بناء الشَّخصيّة الإسلاميّة؛ إذ إنَّ كلّ حالة يضبط فيها الإنسان انفعالاته تعود عليه بقدرة أخرى تترسّخ في أعماق نفسه؛ لأنَّها حفظ للطّاقات الإلهيّة الَّتي أودعها الله في عباده، الَّتي أراد تعالى من عباده أن يصرفوها فيما أمرهم به، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلى إنْفاذه مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ أَمْناً وَإيماناً إلى يَوْمِ الْقيامَةِ**»[1].

وفي رواية أخرى: «**وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَعفَا عَنْ أَخيهِ الْمُسْلِمِ، وَحَلُمَ عَنِ الْمُسْلِمِ أَعْطاهُ اللهُ أَجْرَ شَهيدٍ**»[2].

---

(١) الشّيخ عليّ الطّبرسيّ، مشكاة الأنوار: ٢/٧٧، ح/١٢٦٢.

(٢) الدَّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٤١٥.

وعلى كلّ حال فكظم الغيظ من أسمى الصّفات، وأعمّها نفعاً، وهي سبيل لحفظ طاقات الإنسان في مواجهة الانفعال غير المتّزن، والأمن والأمان من الوقوع في المخاطر، وبالتّالي تعبّر عن حزم وبصيرة وانضباط، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**كَظْمُ الْغَيْظ عَنِ الْعَدُوِّ في دَوْلاتهِمْ تَقيَّةً حَزْمٌ لمَنْ أَخَذَ به، وَتَحَرُّزٌ منَ التَّعَرُّض للْبَلاء في الدُّنْيا، وَمُعانَدَةُ الأَعْداء في دَوْلاتهمْ وَمُماظَّتُهُمْ في غَيْر تَقيَّة تَرْكُ أَمْر الله، فَجاملوا النّاسَ**[1] **يَسْمَنْ ذلكَ لَكُمْ عنْدَهُمْ، وَلا تُعادوهُمْ، فَتَحْملوهُمْ عَلى رقابكُمْ فَتَذلّوا**»[2].

ثالثها: العفو عن النّاس: وهي صفة إلهيّة كريمة وصف الله بها نفسه بأنّه عفوٌّ غفور، وعفوٌّ قدير، تخلّق بها الأنبياء والمرسلون وعباد الله الصّالحون.

والعفو هو التّجاوز عن زلات الآخرين وعثراتهم، وغفران ذنوبهم وآثامهم مع القدرة على معاقبتهم والانتقام منهم، وقد وصفها الإمام الصّادق عليه السلام بأنَّ «**الْعَفْوَ عنْدَ الْقُدْرَة منْ سُنَنِ الْمُرْسَلينَ، وَأَسْرار الْمُتَّقينَ**»[3].

وهي خير خلائق الدُّنيا والآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَلا أُخْبرُكُمْ بخَيْر خَلائق الدُّنْيا وَالآخرَة؟: الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَك، وَتَصلُ مَنْ قَطَعَك، وَالإحْسانُ إلى مَنْ أَساءَ إلَيْك، وَإعْطاءُ مَنْ حَرَمَك**»[4].

وللعفو دلالات على عظمة الشّخصيّة، فهي تدلّ على سموّ النَّفس، وكرم

---

(١) المجاملة: المعاملة بالجميل؛ والضَّيم: الظّلم؛ والمماظّة – بالمعجمة –: شدّة المنازعة والمخاصمة مع طول اللّزوم.

(٢) الكافي: ٢٨٤/٣، ح/١٨٠١.

(٣) مصباح الشّريعة: ١٥٨.

(٤) الكافي: ٢٧٧/٣، ح/١٧٨٨.

الأخلاق، وسعة الأفق، وقوّة الإرادة، والتحرر من نزوات النَّفس، وإغلال عبوديّة الذّات، ولها آثار إيجابيّة على العافي والمعفوّ عنه، أمّا الَّذي يعفو فتمنحه لذّة نفسيّة عالية؛ ولذا قيل: «لذّة العفو أطيب من لذّة التّشفّي والانتقام؛ لأنَّ لذّة العفو يشفعها حميد العاقبة، ولذّة الانتقام يلحقها ألم النَّدم»(١).

ومن آثار العفو أنّه يكسب صاحبه عزّاً ومجداً اجتماعيّاً، وذكراً طيّباً يبقى مثلاً، وأسوةً للأجيال من بعده، وهذا ما أكَّده أهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ، فَإِنَّ الْعَفْوَ لا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلا عِزّاً، فَتَعافَوا يُعِزُّكُمُ اللهُ**»(٢).

وقال الإمام الرّضا عليه السلام: «**ما الْتَقَتْ فِئَتانِ [قتالاً] قَطُّ إِلا نَصَرَ اللهُ أَعْظَمَهُما عَفْواً**»(٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ثَلاثٌ لا يَزِيدُ اللهُ بِهِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ إِلا عِزّاً: الصَّفْحُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَإِعْطاءُ مَنْ حَرَمَهُ، وَالصِّلَةُ لِمَنْ قَطَعَهُ**»(٤).

وأكَّد أمير المؤمنين عليه السلام بأنَّها توجب المجد، والحمد، وترفع الدّرجات، هذا عند النّاس، وأمّا ما عند الله تعالى، فهو الفوز العظيم برحمته، وعفوه، وغفرانه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ أَقالَ عَثْرَةَ أَخِيهِ أَقالَ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»(٥).

وفي حديث آخر: «**فَاعْفُوا يَعْفُ اللهُ عَنْكُمْ**»(٦).

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨٣/١٨.

(٢) الكافي: ٢٧٩/٣، ح/١٧٩٢.

(٣) الشَّيخ المفيد، الأمالي: ٢١٠؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٥٧٦/٦، ح/٣٤٥٥.

(٤) الكافي: ٢٨١/٣-٢٨٢، ح/١٧٩٧.

(٥) عبد الله بن عديّ، الكامل: ١٤٤/٩.

(٦) المتّقي الهنديّ، كنز العمّال: ٣٧٦/٣، ح/٧٠٢٢.

وأمّا آثارها على المعفوّ عنه، فتختلف باختلاف النُّفوس، ودرجة تزكيتها وتهذيبها، فمن كانت نفسه زكيّة مهذّبة طاهرة من ذمائم الأخلاق، وأدران الذُّنوب زاده العفو طيباً، وكرماً، وشعوراً بفضل الآخرين، والعكس صحيح، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِه عَلَى الصِّلَة، وَعِنْدَ صُدوده على اللُّطْف وَالْمُقارَبَة، وَعِنْدَ جُموده عَلَى الْبَذْل، وَعِنْدَ تَباعُده عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شدَّته عَلى اللِّين، وَعِنْدَ جُرْمه عَلى الْعُذْر حَتّى كَأَنَّك لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذو نِعْمَة عَلَيْك، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ في غَيْرِ مَوْضِعه، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْله**»(١).

ورابعها: الإنابة وعدم الإصرار: كلّ إنسان معرّض للخطأ والزّلل، والوقوع في الخطأ إلا من عصم الله تعالى، ولهذا ليس الغريب أن يرتكب الإنسان خطأ، وإنَّما الأغرب أن يصرّ على الذّنب، ويرتكبه مرّات ومرّات، ومن هنا تشير الآية الكريمة أنَّ المتَّقين الَّذين يقعون في مفارقات سلوكيّة أو أخلاقيّة يعتريهم النَّدم والحزن، فيرجعون إلى أنفسهم، فيوبّخونها، بل ويعاقبونها ويستغفرون الله، ويتوبون إليه، ويعودون إلى رشدهم مستغفرين منيبين خاشعين لله، راجين غفرانه ورحمته وقبول توبتهم، وبهذا كان جزاؤهم المغفرة والجنّة، ونعم أجر المتّقين، «والله تعالى متفضّل بذلك، لأنَّ إسقاط العقاب عند التّوبة، تفضّل منه، وأمّا استحقاق الثَّواب بالتَّوبة، فواجب لا محالة عقلاً؛ لأنَّه لو لم يكن مستحقّاً بالتّوبة، لقبح تكليفه التّوبة، لما فيها من المشقّة»(٢).

---

(١) نهج البلاغة: ٤٢٦، كتاب: ٣١.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨٤٠/٢.

# الأُخُوَّةُ في اللهِ

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1].

الإسلام في جميع مبادئه العقائديّة، وأحكامه الاجتماعيّة، وآدابه الأخلاقيّة يهدف إلى صياغة أمّة متآلفة متآزرة متعاونة متحابّة متراصّة كأنَّها البنيان المرصوص، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، وناهية عن المنكر:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

ولأجل تحقيق هذا الهدف وضع مبدأ ومنهاجاً للأخوة الإيمانيّة، وعدّها هي الرّابط الأقوى الَّذي يشدّ أبناء الأمّة بعضهم إلى بعض؛ ليكونوا كتلة واحدة: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»[3].

ومبدأ الأخوّة رابطة وعلاقة تقوم على أساس عقائديّ دينيّ واجتماعيّ، وهي ليست نظريّة بحتة، وإنّما هي روابط عمليّة رساليّة اختطّها الرَّسول الأكرم ﷺ لتوثيق العلاقة بين المهاجرين والأنصار، وهذا العمل من الرَّسول ﷺ له مغزى عميق في توثيق العلاقة، وهذه الرّابطة أعطت أعظم الثّمار على طول خطّ

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣٩٩/٣٢، ح/١٩٦٢٤.

التّأريخ الإسلاميّ...

فكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ الَّتي تعدّ من أقوى أدوات الحصر تدلّ على أنّ الأخوّة الحقيقيّة والرّابطة الوثيقة بين المؤمنين هي الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والوعي للوازمه الفكريّة والفقهيّة والسّلوكيّة الأخلاقيّة، فإذا ما أمن الانسان أنَّ له ربّاً هو خالقه ورازقه وحافظه ومحاسبه، وأنَّه مسؤول أمامه عن كلّ ما أمره به، ونهاه عنه؛ وأنَّه معه في كلّ جزئيّات سلوكيّاته الفرديّة والاجتماعيّة، ورسم له منهجا عمليّاً، وأسلوباً أخلاقيّاً، فسوف يشعر أنَّ لحياته هدفاً ومسؤوليّة، وأنَّه لم يخلق عبثاً، ولن يترك سدًى هذا الشّعور إذا كان عن إيمان، ووعي، والتزام، فسوف يحرّكه إلى تربية نفسه وتهذيبها وتقويمها ليكون عبداً صالحاً مؤهّلاً لإصلاح الواقع الفكريّ، والاجتماعيّ، والسّياسيّ، وتغييره لبناء الجماعة المؤمنة المتآلفة المتآزرة المتواصلة؛ لنشر رسالة الله بين عباده، وتوجيه العقول والقلوب؛ لتحريرها من ضواغط الأهواء والشّهوات، وهيمنة الطّواغيت بتعريفها بالله وتعبيدها له تعالى؛ لأنَّ «**اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ ما خَلَقَ الْعِبادَ إلا لِيَعْرِفوهُ، فَإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوا بِعِبادَتِهِ عَنْ عِبادَةِ مَنْ سِواهُ**»[1].

وهكذا نعرف أنَّ الإيمان بالله ينوّر العقول، ويحيي القلوب بالتّوحيد الَّذي يؤلف بينها بالحبّ والرَّحمة والمودّة فيما بينها، والخوف من الله من خلال الشُّعور بالتَّقصير في أداء حقوق الأخوّة الإيمانيّة الَّتي لا يستطيع المؤمن توفية حقّها إلا بتوفيق الله ومنّته جلَّ وعلا، ولذلك عدَّ القرآن الكريم هذه المنّة من النّعم العظيمة على المؤمنين والمسلمين، يقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥٦.

إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[١].

فالأخوّة في الإسلام «من الشّعارات الأساسيّة و"المتجذّرة" في الإسلام، فهي شعار عميق، بليغ، مؤثّر، وذو معنى غزير... فعلى هذا الأصل الإسلاميّ المهمّ يحسّ المسلمون من أيّة قبيلة كانوا وأيّ نجر وذوي أيّة ألسنة وأعمار يحسّون فيما بينهم بالأخوّة، وإن عاش بعضهم في الشّرق والآخر في الغرب...»[٢].

وقد أكّدت السُّنّة الشّريفة هذا المفهوم الاجتماعيّ، وجعلته أصلاً من أصول التّرابط الإنسانيّ في بناء الأمّة الواحدة على مختلف ألوانها وأوطانها ولغاتها وقوميّاتها، ونسفت كلّ الحواجز الّتي تقف عثرة في طريق التّواصل بين المؤمنين نذكر من هذه الأحاديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«الْمُسْلمُ أَخو الْمُسْلم، لا يَظْلمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَعيبُهُ، ولا يَتطاوَلُ عَلَيْه في الْبُنْيان فَيَسْتُرَ عَنْهُ الرّيحَ إلا بإذْنه، ولا يُؤْذيه بقتار[٣] قدْره»**[٤].

٢- وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«الْمُسْلمُ أَخو الْمُسْلم لا يَظْلمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَخونُهُ، وَيَحقُّ عَلى الْمُسْلمينَ الاجْتهادُ في التَّواصُل، وَالتَّعاوُنُ عَلى التَّعاطُف، وَالْمُؤاساةُ لأَهْلِ الْحاجَة، وَتَعاطُفُ بَعْضهمْ عَلى بَعْضٍ حَتّى**

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٩٧/١٦.

(٣) القتار: الدّخان من المطبوخ، ورائحة اللّحم والشّواء.

(٤) الزّمخشريّ، الكشّاف: ٣٦٦/٤.

تَكونوا - كَما أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ - مُتَراحمين، مُغْتَمّين لما غابَ عَنْكُمْ منْ أَمْرهِمْ، على ما مَضى عَلَيْه مَعْشَرُ الأَنْصار على عَهْد رَسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»[1].

٣- وقال عليه السلام: «الْمُسْلمُ أَخو الْمُسْلم، هُوَ عَيْنُه ومرْآتُهُ وَدَليلُهُ، لا يَخونُهُ، وَلا يَخْدَعُهُ، وَلا يَظْلمه، وَلا يَكْذبُهُ، وَلا يَغْتابُهُ»[2].

٤- وعَنْ جابر بن يزيد الْجُعْفيّ، قالَ: «تَنَفَّسْتُ بَيْنَ يَدَيْ أَبي جَعْفَر عليه السلام، ثمّ قلْتُ: يا ابن رسول الله، أَهْتَمُّ منْ غَيْر مُصيبَة تُصيبُني، أَوْ أَمْر يَنْزلُ بي حَتّى يَعْرفَ ذلكَ أَهْلي في وَجْهي، ويَعْرفُهُ صَديقي، قالَ: نَعَمْ يا جابر، قُلْتُ: وَممَّ ذلكَ يا ابْنَ رَسول الله؟ قال: وَما تَصْنَعُ بذلكَ؟ قُلْتُ: أُحبُّ أَنْ أُعْلَمَهُ، فَقالَ: يا جابرُ، إنَّ اللهَ خَلَقَ الْمُؤْمنينَ منْ طينَة الْجنان، وَأَجْرى فيهمْ منْ ريح روحه، فَلذلكَ الْمُؤْمنُ أَخو الْمُؤْمن لأَبيه وأُمِّه، فَإذا أَصابَ تلْكَ الأَرْواحَ في بَلَد منَ الْبُلْدان شَيْءٌ حَزَنَتْ عَلَيْه الأَرْواحُ؛ لأَنَّها منْهُ[3]»[4].

ولا بدّ من استيفاء البحث في عناوين عدّة:

١- ما هي الأسس الَّتي تقوم عليها نظريّة الأخوّة الإيمانيّة في الإسلام؟

٢- ما هي العوامل الَّتي تمتنُّ رابطة الأخوّة؟

٣- ما هي حقوق الأخوّة؟

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٤٤٦-٤٤٧، ح/٢٠٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٤٢٦، ح/٢٠٤٦.

(٣) لا يقال: على هذا يلزم أن يكون المؤمن محزوناً دائماً؛ لأنّا نقول: يحتمل أن يكون للتّأثير شرائط أخرى تفقد في بعض الأحيان كأن يكون ارتباط هذا الرّوح ببعض الأرواح أكثر من بعض.

(٤) البرقيّ، المحاسن: ١/٢٢٦، ح/٤٠٥.

## أُسُسُ نَظَرِيَّةِ الأُخُوَّةِ الإيمانِيَّةِ في الإِسْلامِ:

أمّا الأسس الَّتي تقوم عليها نظرية الأخوّة في الإسلام، فهي:

أ- وحدة العقيدة النّابعة من الأساس الفطريّ التّكوينيّ[١]، ولا شكَّ أنَّها الأساس المتين لأخوّة الإيمان، وهي أقوى وأعمق الرَّوابط الَّتي تشدّ المؤمنين بعضهم إلى بعض، حتّى مثلهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجسد الواحد بقوله: «**مَثَلُ الْمُؤْمنينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَد، إذا اشْتَكى مِنْهُ شَيْءٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمّى**»[٢].

وَعَنْ أَبي بَصيرٍ، قالَ: «سَمِعْتُ أَبا عَبْدِ الله عليه السلام يَقولُ: **الْمُؤْمِنُ أَخو الْمُؤْمِنِ كَالْجَسَدِ الْواحِدِ إنِ اشْتَكى شَيْئاً مِنْهُ وَجَدَ أَلَمَ ذلِكَ في سائِرِ جَسَدِهِ، وَأَرْواحُهُما مِنْ روحٍ واحِدَةٍ، وَإِنَّ روحَ الْمُؤْمِنِ لَأَشَدُّ اتِّصالاً بِروحِ الله مِنِ اتِّصالِ شُعاعِ الشَّمْسِ بِها**»[٣].

وفي هذا الرّابط تذوب كلّ الفوارق أو الحواجز القوميّة، أو الاقتصاديّة، أو الاجتماعيّة، حتّى يصبح المؤمن أخا المؤمن لأبيه وأمّه، قال عبد المؤمن الأنصاريّ: «دخلت على [الإمام] أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، وعنده محمّد بن عبد الله الجعفريّ، فتبسّمتُ إليه، فقال عليه السلام: **أَتُحِبُّهُ؟** قلتُ: نعم، وما أحببْتُه إلا لكم[٤]، فقال عليه السلام: **هُوَ أَخوكَ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُ الْمُؤْمِنِ لِأَبيهِ وَأُمِّهِ،**

---

(١) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣٢٣/٣٠، ح/١٨٣٧٣.

(٣) الكافي: ٤٢٥/٣-٤٢٦، ح/٢٠٤٥.

(٤) يعني أحبّه؛ لأنّه موالٍ لكم، ومرتبط بكم، ومطيع لأوامركم.

**مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَن اتَّهَمَ أَخاهُ، مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَنْ غَشَّ أَخاه، مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَنْ لَمْ يَنْصَحْ أَخَاهُ، مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَن اسْتَأْثَرَ على أَخيه، مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَن احْتَجَبَ عَنْ أَخيه، مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَن اغْتاب أَخاهُ»**[١].

ومن هنا يكَون التّآخي في الله أمراً عباديّاً يسلكه الإنسان المؤمن امتثالاً لأمر الشّارع المقدّس، فهو منهج عمليٌّ عباديٌّ يتقرّب به العبد إلى الله تعالى بمواصلة إخوانه، وحبّهم، ومعاونتهم، ونصيحتهم، ونصرتهم، وتقويمهم، وهدايتهم إلى الصّراط المستقيم، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**تُبْتَنى الأُخُوَّةُ في الله عَلى التَّناصُحِ في الله، وَالتَّباذُلِ في الله، وَالتَّعاوُنِ عَلى طاعَةِ الله، وَالتَّناهي عَنْ مَعاصي اللهِ، وَالتَّناصُرِ في الله، وَإِخْلاصِ الْمَحَبَّة**»[٢].

«ونحن نفهم من هذه النُّصوص الإسلاميّة، وغيرها اهتمام الإسلام بالوحدة، إنَّ المؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا كان يحبُّ لأخيه المؤمن ما يحبُّ لنفسه، وإنَّ المسلمين جميعاً كتلة واحدة لا تتجزّأ، وهم كالجسد الواحد لإنسان واحد، فخالقهم واحد، ودينهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وهم لأب واحد، ولأمّ واحدة؛ فما هذا الاختلاف والتَّشاجر والتَّناحر. نعم، الإسلام حذَّر المسلمين جميعاً من الاختلاف والتَّنازع، وطعن البعض في البعض الآخر، وجعل ذلك سبباً للفشل والخذلان وعدم العزّ في الدُّنيا والعقاب في الآخرة، فيقول تعالى: ﴿**وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[٣]، وذهاب الرّيح هنا هو ذهاب النَّصر الَّذي يؤيّد به المسلمين حالة قتالهم ومجابهتهم العدوّ، فعدم نصرهم مسبباً

---

(١) ابن فهد الحلّيّ، عدّة الدّاعي: ٢١٩.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٢، ح/٩٦٩١.

(٣) الأنفال: ٤٦.

عن تنازعهم واختلافهم»[١].

ب- الرّوح الفطريّة في استئناس الإنسان بأبناء جنسه، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لمالك الأشتر: «**وَلا تَكونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفانِ: إِمّا أَخٌ لَكَ في الدّينِ أَوْ نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْقِ...**»[٢].

إذن الأسس الّتي يبتنى عليها مفهوم الأخوّة اثنان، أحدهما دينيٌّ عقائديٌّ والثّاني إنسانيٌّ، وهذه الأخوّة تبتني على أساس أنَّ الأسرة البشريّة الصّالحة واحدة، ترتبط فكريّاً ونسبيّاً، ولذلك ربط الإسلام بين مبدأ الضّمان الاجتماعيّ، «ومبدأ الأخوّة العامّة بين المسلمين؛ ليدلّل على أنَّها ليست ضريبة التّفوّق في الدَّخل فحسب، وإنَّما هي التَّعبير عن الأخوّة العامّة سيراً منه على طريقته في إعطاء الأحكام إطاراً خلقيّاً يتّفق مع مفاهيمه وقيمه، فحقُّ الإنسان في كفالة الآخر له مستمدّ في مفهوم الإسلام من أخوّته له، واندراجه معه في الأسرة البشريّة الصّالحة»[٣].

## حُقوقُ الأُخُوَّةِ:

لمّا كانت الأخوّة مبدأً دينيّاً مقدّساً نصَّ عليه الكتاب الكريم والسّنّة المشرّفة، وممّا لا شكَّ أنَّه لا بدَّ لكلّ مبدأ أن يُحَمّل معتنقيه مسؤوليّة العمل به، ومبدأ الأخوّة ليس مفهوماً نظريّاً مجرّداً، وإنّما هو مفهوم اجتماعيٌّ إنسانيٌّ عمليٌّ يترتّب عليه مسؤوليّات ضخمة، والحقيقة أنّنا حين نتأمّل في الأحاديث الشَّريفة

(١) السّيّد عبد الحسين شرف الدّين، النَّصُّ والاجتهاد: ٥٥٥، (الهامش).

(٢) نهج البلاغة: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

(٣) السّيّد محمّد باقر الصّدر، اقتصادنا: ٧٧٦.

الَّتي وردت في التَّأكيد على أداء حقوق الأخوّة نقف في حيرة من أمرنا بين هذه التّأكيدات الجازمة وبين ما نحن فيه من ضعف إيمانيّ، وحُجب نفسيّة، وآمال وهميّة نعيش الخوف والأسى لعدم قدرتنا على أداء اليسير منها؛ ولا عجب من ذلك فإنَّ أئمّة الهدى عليهم السلام كانوا عندما يُسْألون عن حقوق الأخوّة الإيمانيّة كانوا يشفقون علينا من عدم القدرة على أدائها، فهذا معلّى بن خُنَيْس يسأل الإمام الصّادق عليه السلام قائلاً: «قُلْتُ لَهُ: ما حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلى الْمُسْلِمِ؟ قال: **لَهُ سَبْعُ حُقوقٍ واجبات ما مِنْهُنَّ حَقٌّ إلا وَهُوَ عَلَيْه واجبٌ، إنْ ضَيَّعَ مِنْها شَيْئاً خَرَجَ مِنْ وَلايَةِ الله وَطاعته، وَلَمْ يَكُنْ لله فيه مِنْ نَصيبٍ.** قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فداكَ، وَما هيَ؟ قالَ: **يا مُعَلّى، إنّي عَلَيْكَ شفيقٌ، أَخافُ أَنْ تُضَيِّعَ وَلا تَحْفَظَ، وَتَعْلَمَ وَلا تَعْمَلَ**»، قالَ: «قُلْتُ لَهُ: لا قُوَّةَ إلا بالله، قال: **أَيْسَرُ حَقٍّ مِنْها أَنْ تُحبَّ لَهُ ما تُحبُّ لِنَفْسكَ، وَتَكْرَهَ لَهُ ما تَكْرَهُ لِنَفْسكَ.**

**وَالْحَقُّ الثّاني: أَنْ تَجْتَنبَ سَخَطَهُ، وَتَتَّبعَ مَرْضاتَهُ، وَتُطيعَ أَمْرَهُ.**

**وَالْحَقُّ الثّالثُ: أَنْ تُعينَهُ بِنَفْسكَ، وَمالكَ، وَلسانكَ، وَيَدكَ، وَرجْلكَ.**

**وَالْحَقُّ الرّابعُ: أَنْ تَكونَ عَيْنَهُ وَدَليلَهُ وَمرْآتَهُ.**

**وَالْحَقُّ الْخامسُ: أَن لا تَشْبَعَ وَيَجُوعَ، وَلا تَرْوى وَيَظْمأُ، وَلا تَلْبَسَ وَيَعْرى.**

**وَالْحَقُّ السّادسُ: أَنْ يَكونَ لَكَ خادمٌ، وَلَيْسَ لأَخيكَ خادمٌ، فَواجبٌ أَنْ تَبْعَثَ خادمَكَ، فَيَغْسلَ ثيابَهُ، وَيَصْنَعَ طَعامَهُ، وَيُمَهِّدَ فراشَهُ.**

**وَالْحَقُّ السّابعُ: أَنْ تُبرَّ قَسَمَهُ، وَتُجيبَ دَعْوَتَهُ، وَتَعودَ مَريضَهُ، وَتَشْهَدَ جَنازَتَهُ، وَإذا عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ حاجَةً، تُبادرُهُ إِلى قَضائها، وَلا تُلْجئهُ أَنْ**

**يَسْأَلَكَها، ولكنْ تُبادرُه مُبادَرَةً، فَإذا فعَلْتَ ذلك، وَصَلْتَ ولايَتكَ بِولايَتِه، وولايَتَهُ بِولايَتِك»**[١].

ونحن نذكر بعض هذه الحقوق والمسؤوليّات الَّتي تتعلّق في التّواصل، والتّعاون، والتّآلف، والتَّناصح، والتّحابب، والتَّناصر، والتّعاشر بالحسنى الَّتي تجعل الإنسان يَشعر أنَّ أخاه في الإيمان كنفسه في الأصل العقائديّ والنَّفسيّ «**أَحْبِبْ لأَخيكَ الْمُسْلِمِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»[٢]، وهذا الشُّعور يجب أن يتجسّد في أمور عدَّة منها:

١- **النَّصيحة:** من الأساسيّات المبدئيّة والحقوقيّة في المنظومة الفكريّة والاجتماعيّة الإسلاميّة هي التَّناصح بين إخوة الايمان، والنَّصيحة هي: «أن يعامله بما فيه مصلحته قولاً وفعلاً، سرّاً وعلانيةً»[٣]، فليس للمؤمن حقٌّ في أن يبخل أو يتهاون عن تقديم النَّصيحة والمشورة لأخيه إذا عرف أنَّه بحاجة إليها؛ لأنَّها بحكم الواجب عليه، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**يَجِبُ لِلْمُؤْمِنِ عَلى الْمُؤْمِنِ النَّصيحَةُ لَهُ في الْمَشْهَدِ وَالْمَغيبِ**»[٤].

بل عدَّت بعض الأحاديث الشَّريفة أنَّ عدم إبداء النَّصيحة خيانة له، فعنه عليه السلام أيضاً أنَّه قال: «**مَنْ رَأى أَخاهُ عَلى أَمْرٍ يَكْرَهُه، فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْه، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْه، فَقَدْ خانَهُ**»[٥].

---

(١) الكافي: ٤٣٣/٣-٤٣٤، ح/٢٠٥٧.

(٢) الحسين بن سعيد الكوفيّ، المؤمن: ٤٢، ح/٩٥.

(٣) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ٦٨١/٥.

(٤) الكافي: ٥٣٠/٣، ح/٢٢١٠.

(٥) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٣٤٣، ح/٤٠٩؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٦١/٧، ح/٣٧٢١.

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**وَمَنِ اسْتَشارَهُ أَخوهُ، فَأَشارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدِهِ فَقَدْ خانَهُ**»(١).

وفي رواية أخرى: «**وَمَنْ أَشارَ عَلى أَخيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ في غَيْرِهِ فَقَدْ خانَهُ**»(٢).

ولهذا جاءت أحاديث كثيرة تؤكّد على وجوب التَّناصح بين المؤمنين نذكر منها:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَامْحَضْ أَخاكَ النَّصيحَةَ، حَسَنَةً كانَتْ أَمْ قَبيحَةً**»(٣).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**عَلَيْكَ بِالنُّصْحِ للهِ في خَلْقِهِ، فَلَنْ تَلْقاهُ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْهُ**»(٤).

وعنه عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَعْظَمَ النّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْشاهُمْ في أَرْضِهِ بِالنَّصيحَةِ لِخَلْقِهِ**»(٥).

إذن من خلال هذه الأحاديث يتبيّن لنا أهمّيّة النَّصيحة، ودورها في الإصلاح الفرديّ والاجتماعيّ، وأنَّها مسؤوليّة اجتماعيّة لتغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم، وبالتّالي أنَّ النَّصيحة مهمّة الأنبياء والمرسلين كما جاء في القرآن الكريم:

---

(١) الحاكم النّيسابوريّ، المستدرك: ١٨٣/١، ح/٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٤/١، ح/٣٥٠.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٦، كتاب: ٣١.

(٤) الكافي: ٤١٨/٣، ح/٢٠٣٠.

(٥) المصدر نفسه: ٥٣٠/٣-٥٣١، ح/٢٢١٣.

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾(٢).

**٢- الحبُّ في الله تعالى:** أي أن يحبّه لله وفي الله، لا من أجل مصلحة أو حاجة، وهذه الرّابطة من أعظم الرّوابط الاجتماعيّة الّتي حثَّ عليها الإسلام كثيراً، وقد عبَّر القرآن الكريم بالرَّحمة: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ** ﴾(٣).

فالتَّراحم بين المؤمنين لا يتمّ بصيغته الإلهيّة إذا لم ينبعث عن حبّ خالص لله، وفي الله، وفي سبيل الله، وإلا سيكون تراحماً مصلحيّاً لا يلامس شغاف القلوب، ومن هنا جعلت السُّنّة المشرّفة الحبّ في الله بين المؤمنين من أعظم عرى الإيمان وشعبه، ومن أوثقها، وعلامة كماله، بل عدَّه الإيمان كلّه، فعن فُضَيْل بن يسار قال: «سألْتُ أبا عبد الله عليه السلام عن الحبّ والبغض: أمن الإيمان هو؟ فقال: **وَهَلِ الإيمانُ إلا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ؟**

ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ **حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ** ﴾(٤)»(٥).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله: وُدُّ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ**

---

(١) الأعراف: ٦٢.

(٢) الأعراف: ٦٨.

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) الحجرات: ٧.

(٥) الكافي: ٣/٣٢٤، ح/١٨٨١.

**في الله منْ أَعْظَم شُعَب الإيمان، أَلا ومَنْ أَحَبَّ في الله، وأَبْغَض في الله، وأَعْطى في الله، ومنَع في الله، فَهو منْ أَصْفياء الله»**(١).

وعنه عليه السلام قال: «**قال رَسولُ الله صلى الله عليه وآله لأَصْحابه: أَيُّ عُرى الإيمان أَوْثَق؟ فَقالوا: اللهُ ورَسولُه أَعْلَم، وقَال بَعْضهم: الصَّلاة، وقال بعْضُهم: الزَّكاة، وقَال بعْضُهم: الصِّيام، وقَال بعْضُهم: الْحَجُّ والْعُمْرة، وقال بعْضُهم: الْجهاد، فَقال رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: لكلٍّ ما قُلْتُمْ فَضْلٌ ولَيْس به، ولَكنْ أَوْثَق عُرى الإيمان الْحُبُّ في الله، والْبُغْض في الله، وتَوالي أَوْلياء الله، والتَّبرّي منْ أَعْداء الله»**(٢).

**٣- الإيثار:** في اللّغة هو تفضيل مصلحة الآخرين على مصلحة الذّات، قال ابن منظور: «آثَرَه عليه: فضّله، وفي التّنزيل: ﴿**لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا**﴾(٣)، وأَثَر أَن يفعل كذا أَثَراً، وأَثَر وآثَر، كلّه: فَضّل وقَدّم، وآثَرْتُ فلاناً على نفسي: من الإيثار. [قال] الأَصمعيّ: آثَرْتُك إيثاراً أَي فَضَّلْتُك، وفلان أَثيرٌ عند فلان، وذو أُثْرَة إذا كان خاصّاً»(٤).

واصطلاحاً هو أن يفضّل مصلحة أخيه على مصلحته الخاصّة مع حاجته إليها، فيتنازل له عنها، ويؤثره بها على نفسه، وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ**

---

(١) الكافي: ٣/٣٢٣، ح/١٨٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٣٢٥، ح/١٨٨٢.

(٣) يوسف: ٩١.

(٤) ابن منظور، لسان العرب: ٤/٧، (أثر).

﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

وفي التّأريخ الإسلاميّ صور رائعة من الإيثار قد لا تجد لها نظيراً في تاريخ البشريّة أجمع، ومن أروعها ما رُويَ عن ابن عبّاس، قال: «قال رسول الله ﷺ يوم بني النّضير للأنصار: **إنْ شئْتُمْ قَسَمْتُمْ للْمُهاجرينَ منْ أَمْوالكُمْ وَديارِكُمْ، وتُشاركونَهُمْ في هذه الْغَنيمَة، وَإنْ شئْتُمْ كانَتْ لَكُمْ دياركُمْ وَأَمْوالُكُمْ، وَلَمْ يُقْسَمْ لَكُمْ شَيْءٌ منَ الْغَنيمَة**، فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها، فنزلت ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ...﴾ الآية»، «وقيل: نزلت في سبعة عطشوا في يوم أحد فجئ بماء يكفي لأحدهم، فقال واحد منهم: ناول فلاناً حتّى طيف على سبعتهم، وماتوا ولم يشرب أحد منهم، فأثنى الله سبحانه عليهم»[2].

والآية الكريمة لا تنحصر في أسباب النُّزول هذه، وإنَّما هي تنطبق على كلّ من آثر مصلحة أخيه على مصلحته تقرّباً إلى الله؛ لأنَّ «الوارد لا يخصّص المورد»، فقد سُئلَ أبو عبد الله ﵇: «ما أدنى حقّ المؤمن على أخيه؟» قال: «**أَنْ لا يَسْتَأْثرَ عَلَيْه بما هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْه منْهُ**»[3].

وأخيراً إنَّ الإيثار خصلة إنسانيّة عالية لا تتّصف بها إلا نفوس تجرَّدت من دوافعها الأنانيّة، وارتفعت من كثافة المادّة إلى شفّافيّة الرّوح، طالبةً بذلك وجه الله.

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٩/٣٩٠-٣٩١.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٨

٤- **المواساة:** وهي «المشاركة والمساهمة في المعاش والرّزق»[١].

وبعبارة أدقّ هي: «عبارة عن إعطاء النُّصرة بالنَّفس والمال وغيرهما في كلّ ما يحتاج إلى النُّصرة فيه، يقال: آسيته بمالي مؤاساةً، أي جعلتُهُ شريكي فيه على سويّة»[٢].

وهي من الحقوق الاجتماعيّة بين المؤمنين، فإنَّ المؤمن لا يمكن أن يعيش لنفسه منفرداً بما يملك لا يشاركه فيها أحد، وإنَّما لا بدَّ أن يشارك إخوانه بمواساتهم من خلال تفقّده لأحوالهم المادّيّة والمعنويّة، ويمدّ لهم يد العون والمساعدة بما يستطيع من عنده، أو من عند غيره تقرّباً إلى الله تعالى، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**تَقَرَّبوا إلى الله تَعالى بِمُواساة إِخْوانِكُمْ**»[٣].

ولمّا كانت أمر المواساة ثقيلاً على النّفوس لما فيه من بذل المال وتجاوز المصالح الخاصّة أعطته السُّنّة المشرّفة مكانةً عليا على جميع الأعمال الأخرى مع ما فيه من تزكية للنّفوس، وتطهير لها من البخل والشّحّ، وتجاوز للمصالح الخاصّة، وتقريب لقلوب المؤمنين بعضها من البعض الآخر؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله لوصيّه وخليفته الإمام عليّ عليه السلام: «**يا عَلِيُّ، سَيِّدُ الأَعْمال ثَلاثُ خِصال: إِنْصافُكَ النّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمُواساةُ الأَخِ في اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذِكْرُ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى عَلى كُلِّ حالٍ**»[٤].

---

(١) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١/٥٠، (أسا).

(٢) كتاب الوافي: ٤/٤٧٤.

(٣) كتاب الخصال: ٨.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٥.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**إنَّ منْ أَشدِّ ما افْتَرضَ اللهُ على خَلْقه ثَلاثاً: إنْصافُ الْمَرْء منْ نَفْسه حَتّى لا يَرْضى لأَخيه منْ نَفْسه إلا بما يَرْضى لنَفْسه منْهُ، ومُؤاساةُ الأَخ في الْمال، وَذكْرُ الله عَلى كُلِّ حال، لَيْس سُبْحانَ الله، والْحَمْدُ لله، وَلكنْ عنْدَ ما حَرَّمَ اللهُ عَلَيْه، فَيَدعَه**»(١).

**٥- السَّعي في قضاء حوائجه:** لا شكَّ أن كلَّ إنسان لا يمكن أن يحقّق لنفسه الاكتفاء الذّاتيّ بنفسه، ويستغني عن بني جنسه مستقلاً بنفسه أبداً، حتّى الطّغاة يعتمدون في طغيانهم على أمثالهم من ذوي النُّفوس الضَّعيفة، ولولاهم لما كانوا، والحقيقة الّتي لا تنكر أنَّ الإنسان مهما كان لا بدَّ له من معونة النّاس، وقد أكَّد هذه الحقيقة الإمام الصّادق عليه السلام بقوله: «**إنَّهُ لا بُدَّ لَكُمْ منَ النّاس، إنَّ أَحَداً لا يَسْتَغْني عَن النّاس حَياتَهُ، وَالنّاسُ لا بُدَّ لبَعْضهمْ منْ بَعْض**»(٢).

وعندما نتتبّع الرّوايات والأحاديث الشَّريفة نجد التّأكيد والحثّ المستمرّ على قضاء حوائج المؤمنين، وأنّها من أفضل القربات، وأنَّ الله أوعد التّاركين لها بأشدّ العقوبات، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**أَيُّما مُؤْمن مَنَعَ مُؤْمناً شَيْئاً ممّا يَحْتاجُ إلَيْه، وَهُوَ يَقْدرُ عَلَيْه منْ عنْده، أَوْ منْ عنْد غَيْره أَقامَهُ اللهُ يَوْمَ الْقيامَة مُسْوَدّاً وَجْهُهُ، مُزْرَقَّةً عَيْناهُ(٣)، مَغْلولَةً يَداهُ إلى عُنُقه، فَيُقالُ: هذا**

---

(١) الكافي: ٤٣٥/٣، ح/٢٠٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ٦٧٩/٤، ح/٣٥٩٨.

(٣) «مُزْرَقّة عيناه: بضمّ الميم، وسكون الزّاي، وتشديد القاف من باب الافعلال، من الزُّرقة، وكأنّه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه: ١٠٢)»، مرآة العقول للمحدّث المجلسيّ: ٥١/١١.

**الْخائنُ الَّذي خانَ اللهَ وَرَسولَهُ، ثُمَّ يُؤْمَرُ به إلى النّار»**(١).

وواضح في هذا الحديث شدّة اللَّهجةَ وَغلظتها لمَن امتنع عن مدّ يد العون لأخيه، فأَمرٌ عاقبته بهذه النّتيجة البائسة يؤمر به إلى النّار، وبهذه الصّور البشعة، مسوّداً وجهه، مزّرقة عيناه، ومغلولة يداه إلى عنقه، وينادى عليه بهذا النّداء المُفْضح، لهو جريمة كبرى، وأمرٌ بهذه المثابة لا ينبغي للمؤمن أن يتغافل عنه فضلاً من أن ينساه، أو يتناساه، أو يزهد في معرفته.

وهناك روايات أخرى شدَّدت على المتهاون عن قضاء حوائج إخوانه، منها عن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ حَبسَ حَقَّ الْمُؤْمن أَقَامَه اللهُ – عزَّ وَجَلَّ – يوْمَ الْقيامَة خَمْسَمائة عامٍ عَلى رجْلَيْه حَتّى يَسيلَ عَرَقُهُ أَوْ دَمُهُ، وَيُنادي مُنادٍ منْ عنْد الله، هذا الظّالمُ الَّذي حَبسَ عَنِ الله حَقَّهُ**»، قالَ: «**فَيُوَبَّخُ أَرْبَعينَ يوْماً، ثُمَّ يُؤْمَرُ به إلى النّار**»(٢).

وهناك طائفة من الأحاديث مخوِّفة ومنذرة بشَّرت بعقاب أليم، وهناك طائفة أخرى بشَّرت بثواب جزيل، وعدَّته رحمةً إلهيّةً أفاضها الله على عباده، منها ما رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْن جَعْفَر، قالَ: «سَمعْتُ أَبا الْحَسَن عليه السلام يَقولُ: **مَنْ أَتاهُ أَخوهُ الْمُؤْمنُ في حاجَة، فَإنَّما هي رَحْمَةٌ منَ الله – عَزَّ وَجلَّ – ساقَهَا إلَيْه؛ فَإنْ قَبلَ ذلكَ فَقَدْ وَصَلَهُ بولايَتنا، وَهُوَ مَوْصولٌ بولايَة الله عزَّ وجلَّ، وَإنْ رَدَّهُ عَنْ حاجَته وَهُوَ يَقْدرُ عَلى قَضائها، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْه شُجاعاً منْ نار يَنْهَشُهُ في قَبْره إلى يَوْمِ الْقيامَة، مَغْفورٌ لَهُ أَوْ مُعَذَّبٌ، فَإنْ عَذَرَهُ الطّالبُ**

(١) الكافي: ١٠٤/٤، ح/٢٧٩٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٥/٤، ح/٢٧٩٧.

**كانَ أَسْوأَ حالاً**[١]»[٢].

وطائفة أخرى عدَّت قضاء حاجة المؤمن أفضل من كثير من العبادات المفروضة فضلاً عن المستحبّة منها قال أَبو عَبْد الله عليه السلام: «**لَقَضاءُ حاجَة امْرِئٍ مُؤْمنٍ أَحَبُّ إِلى الله منْ عِشْرِينَ حَجَّةً، كُلُّ حَجَّةٍ يُنْفقُ فيها صاحِبُها مائَةَ أَلْفٍ**»[٣].

وفي رواية اخرى عَنْ أَبان بْن تَغْلبَ، قالَ: «سَمعْتُ أَبا عَبْد الله عليه السلام يَقولُ: **مَنْ طافَ بالْبَيْت أُسْبوعاً، كَتَبَ اللهُ - عَزَّ وجَلَّ - لَهُ ستَّةَ آلاف حَسنَة، ومَحا عَنْهُ ستَّةَ آلاف سيِّئَة، ورفَعَ لَهُ ستَّةَ آلاف درجَة**».

قالَ: «وزادَ فيه إِسْحاقُ بْنُ عَمّار: **وقَضى لَهُ ستَّةَ آلاف حاجَة**»، قالَ: «ثُمَّ قالَ: **وقَضاءُ حاجَة الْمُؤْمنِ أَفْضَلُ منْ طَواف وطَواف**، حَتّى عَدَّ عَشْراً»[٤].

وعدَّها أمير المؤمنين عليه السلام من مكارم الأخلاق، فقال عليه السلام: «**عَجبْتُ لرَجُلٍ يَأْتيه أَخوهُ الْمُسْلمُ في حاجَة، فَيَمْتَنعُ عَنْ قَضائها، ولا يَرى نَفْسَهُ للْخَيْرِ أَهْلاً، فَهَبْ أَنَّهُ لا ثَوابَ يُرْجى، ولا عقابَ يُتَّقى، أَفَتَزْهَدونَ في**

---

(١) جاء في هامش كتاب الكافي بطبعته القديمة ١٩٦/٢: «"فإن عذره الطّالب" في المصباح عذَرته فيما صنع عذراً من باب ضرَب: رفعت عنه اللّوم، فهو معذور، أي غير ملوم وأعذرته بالألف لغة. وقوله: "كان أسوأ حالاً" إنَّما كان المعذور أسوأ حالاً لأنَّ العاذر لحسن خلقه وكرمه أحقّ بقضاء الحاجة ممّن لا يعذر، فردّ قضاء حاجته أشنع، والنّدم عليه أعظم، والحسرة عليه أدوم، ووجه آخر وهو أنَّه إذا عذره لا يشكو ولا يغتابه، فبقي حقّه عليه سالماً إلى يوم الحساب».

(٢) الكافي: ١٠٦/٤، ح/٢٧٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٤/٣-٤٩٥، ح/٢١٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ٤٩٦/٣، ح/٢١٤٩.

مَكارِمِ الأَخْلاقِ»[١].

والرّوايات كثيرة متواترة وهو دلالة على أهمّيّة هذا الحقّ نكتفي بهذا القدر.

## الْخِلافُ لا يُفْسِدُ الْعِلاقَةَ:

من الأمور الَّتي عالجتها النُّصوص الإسلاميّة أنَّ روابط الأخوة لا يقطعها الاختلاف في الرّأي، فإنَّ الخلاف لا يفسد للودّ علاقة؛ فإنَّ الخلاف في الرّأي لا يفسد العلاقة بين الأخ وأخيه إذا كانت الأخوّة مبتنية على أسس سليمة، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: «**وَلا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخيكَ اتِّكالاً عَلى ما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ**»[٢].

حتّى في حالة الخلاف والعتاب ينبغي أن يكون العتاب بالإحسان، وما أجمل ما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عاتِبْ أَخاكَ بِالإِحْسانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعامِ عَلَيْهِ**»[٣].

وعندما يجد الإنسان من صاحبه جفاء وخشونة، ويريد أن يقطعه، فينبغي أن يبقى خطّ الرَّجعة مفتوحاً لعلّه يرجع إليها في يوم ما، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: «**إِنْ أَرَدْتَ قَطيعَةَ أَخيكَ، فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْها إِنْ بَدا لَهُ ذلِكَ يَوْماً ما**»[٤].

أمّا العواملُ الَّتي تمتّن روابط الأخوّة، فقد اتَّضحت من خلال بيان الحقوق، مع وجود عوامل أخرى لا يسعني الآن بيانها.

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٤٨، ح/١٠٢٩٨.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٧، كتاب: ٣١.

(٣) المصدر نفسه: ٥١٤، قصار الحكم: ١٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ٤٢٧، كتاب: ٣١.

# الإنْفاقُ

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1].

الإنفاق لغةً هو: «هو إخراج الشّيء عن ملك مالكه إلى ملك غيره؛ لأنَّه لو أخرجه إلى هلاك لم يسمَّ إنفاقاً»[2].

واصطلاحاً هو: صرف المال وبذله وإعطاؤه؛ لأجل غاية معيّنة يروم المنفق تحقيقها، وقد يكون في سبيل هدف سامٍ شريف واضح، وقد يكون خلاف ذلك.

والّذي نريد أن نتحدّث عنه هو إنفاق الأموال في سبيل الله تعالى، كمّا حدَّده التَّشريع الإسلاميّ في الكتاب الكريم، والسُّنّة الشّريفة، وبيان أثره على نفس المنفق وعلى المجتمع الّذي ينفق فيه.

ثمّ إنَّ الإنفاق هو الحدُّ الوسط بين بين التَّبذير والتّقتير كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[3]، ويقع ضمن أحد الاحكام الخمسة، فقد يكون واجباً، أو مستحبّاً، أو حراماً، أو مكروهاً، أو مباحاً.

لقد جعل التّشريع الإسلاميّ الإنفاق من الأمور الأساسيّة الّتي يجب أن يلتزم

---

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ١٥١/٢.

(٣) الفرقان: ٦٧.

بها المسلم المستطيع ضمن تكليفه الشَّرعيّ، وعدَّ أداء الواجبات الماليّة من الفرائض التّعبّديّة الّتي تُقَرِّبُ العبد إلى الله تعالى كأداء الزّكاة، والخمس، والصَّدقات، والكفّارات، ورَدّ المظالم؛ ووضع لها أحكاماً، وآداباً، وألزم النّاس بها.

ولبيان أهمّيّة الإنفاق وأثره في الحياة الإنسانيّة فرداً ومجتمعاً ودولة لا بدّ من بيان نقطتين أساسيّتين:

١- غريزة حبّ التّملّك.

٢- مفهوم الثَّروة في الإسلام.

أمّا النُّقطة الأولى: لا شكَّ أنَّ حبَّ التّملّك في الإنسان غريزةٌ ذاتيّةٌ لا يخلو منها إنسان، بل إنَّه مجبولٌ عليها فطريّاً، يقول تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]، فالآية الكريمة كاشفة عن مدى عمق حبّ التّملّك في النَّفس، وحرصها عليه، وإلحاحها في جمعه، فكلمة ﴿جَمًّا﴾ موحية بالكثرة والشّدّة مع الحرص الشَّديد والشّره ومنع الحقوق[2]، وعدم التّوقّف عند حدّ معيّن في طلب المال، قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغى وَراءَهُما ثالِثاً»[3].

وهذا نابعٌ من غريزة حبّ التّملّك الّتي هي فرع غريزة حبّ الذّات، والّتي لا نعرف غريزة أقوى منها في النَّفس الإنسانيّة، فعلى الغالب مهما ملك الإنسان من الأموال والخزائن والعقارات يبقى يطلب المزيد ومن دون توقّف، فرغبة الإنسان

---

(١) الفجر: ٢٠.

(٢) ينظر: زبدة التّفاسير لفتح الله الكاشانيّ: ٤٢٦/٧.

(٣) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٤٣٤/١، ح/١١٧٧؛ وينظر: المعجم الكبير للطّبرانيّ: ١٨٤/٥، ح/٥٠٣٢.

في التّملّك ليس لها حدود، ونفسه كجهنّم كلّما ألقي فيها، ﴿**وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾[١]؛ فعن حمزة بن حُمران، قال: «شكا رجل إلى أبي عبد الله عليه السلام أنَّه يطلب فيصيب ولا يقنع، وتنازعه نفسه إلى ما هو أكثر منه، وقال: علّمني شيئاً أنتفع به، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **إنْ كانَ ما يَكْفيكَ يُغْنيكَ، فَأَدْنى ما فيها يُغْنيكَ، وإِنْ كانَ ما يَكْفيكَ لا يُغْنيكَ، فَكُلُّ ما فيها لا يُغْنيكَ**»[٢].

وهذه الغريزة تتزايد مع امتداد عمر الإنسان فقد رُويَ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ، وَيَشُبُّ مِنْهُ اثْنانِ: الْحِرْصُ عَلى الْمالِ، والْحِرْصُ عَلى الْعُمْرِ**»[٣].

وفي حديث آخر: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ، وَيَشُبُّ مِنْهُ اثْنَتانِ: الأَمَلُ، وَحُبُّ الْمالِ**»[٤].

## الثَّرْوَةُ في الإِسْلامِ:

عدَّ الإسلامُ الثَّروةَ الماليّةَ عنصراً أساسيّاً وفعّالاً ومؤثّراً في حركة الإنسان في الحياة، ومن دون تنظيمها وفق قواعد ثابتة تتعسّر معيشة الإنسان، وتبرز الطّبقيّة بأبشع أشكالها، فتظهر التّخمة والطّغيان في جانب، والجوع والفقر والبؤس في جانب آخر.

---

(١) ق: ٣٠.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٣٦٠، ح/١٩٢٩.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٧٣.

(٤) تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ١/٤٣٤، ح/١١٧٩.

إنَّ الثَّروة الماليّة إذا نُظّمت تنظيماً عادلاً جمعاً وتوزيعاً، فهي خير عون للإنسان لنيل خصال الخير كالإيمان، والتَّقوى، والزُّهد، والعفّة... الخ؛ جاء في الحديث الشّريف عن رسول الله ﷺ: «**نعْمَ الْعَوْنُ عَلى تَقْوى الله الْغنى**»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**نعْمَ الْعَوْنُ، الدُّنْيا عَلى الآخرَة**»(٢).

وقال عليه السلام: «**لَيْسَ منّا منْ تَرَكَ دُنْياه لآخرَته، وَلا آخرَتَه لدُنْياه**»(٣).

ورُويَ عن العالم (الإمام الكاظم) عليه السلام أنّه قال: «**اعْمَلْ لدُنْياكَ كَأَنَّكَ تَعيشُ أَبَداً، وَاعْمَلْ لآخرَتكَ كَأَنَّكَ تَموتُ غَداً**»(٤).

هكذا حثَّ الإسلام على العمل والكسب الحلال، وأعطى الكادّ على عياله أجر المجاهد في سبيل الله(٥)، وهذا المعنى له دلالته العظيمة في الإسلام للتّنمية الاقتصاديّة في الوقت الّذي قرَّب الفقر من الكفر، حتّى قال رسول الله ﷺ: «**كادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكونَ كُفْراً**»(٦).

وأكّد الإسلام على تنمية الثَّروة الماليّة وإنفاقها في وجوهها الشّرعيّة؛ فعن عبد الله بن أبي يعفور، قال: «قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: والله، إنّا لنطلب الدنيا، ونحبّ أن نؤتاها، فقال: **تُحبُّ أَنْ تَصْنَعَ بها ماذا؟** قال: أعود بها على نفسي وعيالي وأصلُ بها، وأتصدّق بها، وأحجّ، وأعتمر، فقال عليه السلام: **لَيْسَ هذا طَلَبَ**

(١) الكافي: ٥٢٢/٩، ح/٨٣٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ٥٢٦/٩، ح/٩٣٦٤.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٥٦/٣، ح/٣٥٦٨.

(٤) المصدر نفسه: ح/٣٥٦٩.

(٥) راجع بحث (**العمل في الإسلام عبادة**) في هذا الكتاب.

(٦) الكافي: ٧٤٨/٣، ح/٢٥٤٩.

**الدُّنْيا، هذا طَلَبُ الآخرَةِ**»[١].

«فالثّروة في رأيِ الإسلام وتنميتها هدف من الأهداف المهمّة، ولكنّه هدف طريق لا هدف غاية، فليست الثَّروة هي الهدف الأصيل الَّذي تضعه السّماء للإنسان الإسلاميّ على وجه الأرض، وإنّما هي وسيلة يؤدّي بها الإنسان الإسلاميّ دور الخلافة، ويستخدمها في سبيل تنمية جميع الطاقات البشريّة، والتّسامي بإنسانيّة الإنسان في مجالاتها المعنويّة والمادّيّة؛ فتنمية الثَّروة والإنتاج لتحقيق الهدف الأساسي من خلافة الإنسان في الأرض هي نِعْمَ العون على الآخرة، ولا خير في من لا يسعى إليها، وليس مِنَ المسلمين - بوصفهم حَمَلَة رسالة في الحياة - مَنْ تركها وأهملها؛ وأمّا تنمية الثَّروة والإنتاج لأجل الثَّروة بذاتها، وبوصفها المجال الأساسيّ الَّذي يمارس الإنسان فيه حياته، ويغرق فيه، فهي رأس كلّ خطيئة، وهي الَّتي تبعد الإنسان عن ربّه، ويجب الزُّهد فيها»[٢].

ومفهوم تنمية الثَّروة جاءت صريحة في النّصوص الشّرعيّة في السُّنّة الشّريفة بعنوان «استصلاح الأموال ونمائها»، وعدَّته من المروءة الَّتي هي: «صفة نفسيّة تحمل الإنسان على الأخذ بحميد الأخلاق وترك رديئها»[٣]، ومن هذه النُّصوص:

عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**تَعاهُدُ الرَّجُلِ ضَيْعَتَهُ مِنَ الْمُروءَةِ**»[٤].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: مِنَ الْمُروءَةِ اسْتِصْلاحُ**

(١) الكافي: ٥٢٦/٩، ح/٨٣٦٥.

(٢) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، اقتصادنا: ٧٤٦.

(٣) الدّكتور أحمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفريّ: ٣٨١.

(٤) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٥٨.

**الْمال»**(١).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**عَلَيْك بِإِصْلاحِ الْمالِ؛ فَإِنَّ فيهِ مَنْبَهَةً لِلْكَريمِ، وَاسْتِغْناءً عَنِ اللَّئيمِ**»(٢).

وسأل أمير المؤمنين صلوات الله عليه ولده الحسن المجتبى عليه السلام: «**يا بُنَيَّ، ما الْمُروءَةُ؟**» فقال: «**الْعَفافُ وَإِصْلاحُ الْمالِ**»(٣).

والإنسان في الإسلام بوصفه خليفة الله تعالى في أرضه لم يكن مالكاً أصيلاً، وإنّما هو مُستخلَف من الله على ما في يده؛ لأنَّ المال مال الله جعله وديعة في أيدي عباده، وأمرهم أن ينفقوا منه حسب موازين الشّرع المقدّس سواء كان الإنفاق على أنفسهم أو على الآخرين، يقول تعالى:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾(٤).

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾(٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٦).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**أَتَرى اللهَ أَعْطى مَنْ أَعْطى مِنْ كَرامَتِهِ**

(١) كتاب الخصال: ١٠.

(٢) الكافي: ٥٦٦/٩، ح/٨٤٣٥.

(٣) معاني الأخبار: ٢٥٨.

(٤) الحديد: ٧.

(٥) النّور: ٣٣.

(٦) البقرة: ٢٥٤.

عَلَيْه، وَمَنَعَ مَنْ مَنَعَ مِنْ هَوَان به عَلَيْه؟ لا، وَلَكِنَّ الْمَالَ مَالُ الله يَضَعُهُ عِنْدَ الرَّجُلِ وَدَائع، وَجَوَّزَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلوا قَصْداً، وَيَشْرَبوا قَصْداً، وَيَلْبَسوا قَصْداً، وَيَنْكحوا قَصْداً، وَيَرْكَبوا قَصْداً، وَيَعودوا بما سوى ذلكَ عَلى فُقَرَاء الْمُؤْمنين، وَيَلُمّوا به شعثَهُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذلكَ كانَ ما يَأْكُلُ حَلالاً، وَيَشْرَبُ حَلالاً، وَيَرْكَبُ وَيَنْكحُ حَلالاً، وَمَنْ عَدا ذلكَ كانَ عَلَيْه حَراماً»، ثمّ قال: «﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[١]، أَتَرى الله ائْتَمَنَ رَجُلاً عَلى مال خَوَّلَ لَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ فَرَساً بِعَشْرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ، وَيَجْزِيه فَرَسٌ بعشْرينَ دِرْهَماً؟! وَيَشْتَري جاريَةً بِأَلْفِ دينار، وَيَجْزيه جاريَةٌ بعشْرينَ ديناراً؟! وَقالَ: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾»[٢].

ولهذا المفهوم: «الْمالُ مالُ الله» أثرٌ إيجابيٌّ على نفوس المنفقين والآخذين، فلا يشعر المنفق بالمنّة، ولا يشعر الآخذ بالذّلّة، «فإذا أعطى الواجد من ماله شيئاً فإنّما من مال الله أعطى، وإذا أسلف حسنة فإنّما هي قرض لله يضاعفه له أضعافاً كثيرة، وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسبباً؛ لينال المعطي الواهب أضعاف ما قدَّمت يداه»[٣].

## الْحَثُّ عَلى الإِنْفاقِ:

لقد تواصل الحثُّ على الإنفاق في الكتاب والسّنّة، بل اقترن الإنفاق بأكثر

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) العيّاشيّ، التّفسير: ١٤٢/٢، ح/١٥٦٥.

(٣) السّيّد حسن القبّانچيّ، شرح رسالة الحقوق: ٣٤٩/١.

المقامات المعنويّة في الإسلام كالإيمان، والصَّلاة، والجهاد، والصَّبر، والقنوت، والاستغفار، يقول تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾(١).

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٢).

وجاء الحثُّ بصيغة الأمر الوجوبيّ كقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(٤).

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٥).

وهدَّد تعالى الَّذين يكنزون الذّهب والفضّة، ولا ينفقونها في سبيل الله أشدَّ الوعيد يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٦).

(١) آل عمران: ١٧.

(٢) البقرة: ٣.

(٣) البقرة: ١٩٥.

(٤) البقرة: ٢٦٧.

(٥) الحديد: ١٠.

(٦) التّوبة: ٣٤.

وفي طائفة أخرى من الآيات جاء التَّرغيب بصيغة مثيرة ودافعة للبذل والعطاء حيث إنَّها تؤكّد للمنفقين أنَّ ما ينفقونه هو طاعة لله، إنّما يوفّرونه لأنفسهم، عند من لا تضيع عنده الودائع، وإنَّه تعالى سيعوّضهم له بأضعاف ما أنفقوا، يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٣).

ومن مجموع الآيات الكريمة المتقدّمة يتبيّن لنا أهمّيّة الإنفاق، وأنَّه أساس من الأسس الَّتي يبتني عليها الاقتصاد الإسلاميّ؛ والتّخلّف عنه والتّقصير فيه يؤدّي إلى خلخلة أوضاع المجتمع البشريّ، ويفقد التّوازن الاجتماعيّ، وتبرز الطّبقيّة بأبشع أشكالها ممّا يؤدّي إلى استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

ولتعميق حبّ الإنفاق في نفوس المؤمنين سمّى الله تعالى الإنفاق قرضاً، ونسبه إليه تعالى كرامة له، ولمن ينفقه، فيا لها من كرامة! ويا له من أدب شفّاف يصقل النَّفس، ويطهّرها، إنَّه الأدب الإلهيّ، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَميدُ،

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) التّوبة: ١٢١.

(٣) البقرة: ٢٧٢.

وإنَّما أرادَ أنْ يبْلوكُمْ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١]»[٢].

يقول تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤].

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٥].

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٦].

## مُصْطَلَحاتٌ أَرْبَعٌ:

ورد في النّصوص القرآنيّة مصطلحات أربع تتعلّق في أغلب تعابيرها بالمال في الإسلام، وهذه المصطلحات هي: الإسراف، والتَّبذير، والتَّقتير، والإنفاق... ويقع الإسراف والتَّبذير في طرف التَّفريط، بينما يقع التَّقتير في طرف الإفراط، وكلاهما مذموم قبيح منهيٌّ عنه، والإنفاق هو الاعتدال والوسط؛ ولذا وصف الله

---

(١) هود: ٧.

(٢) نهج البلاغة: ٢٩٨، خطبة: ١٨٣.

(٣) التّغابن: ١٧.

(٤) البقرة: ٢٤٥.

(٥) الحديد: ١١.

(٦) الحديد: ١٨.

عباده الصّالحين بأنّهم الّذين ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[1]، والقوام هو الإنفاق المعتدل الّذي لا يدخل الإنسان في حدّ الإسراف والتّبذير، ولا يوقعه في الشُّحّ والتّقتير، بل يوقفه موقف الاعتدال والتّوسّط المعقول «بين الإسراف والإقتار، لا إسرافاً يدخلون به في حد التّبذير، ولا تضييقاً يصيرون به في حد المانع لما يجب، وهذا هو المحمود، والقَوام من العيش: ما أقامك وأغناك، وقيل: القَوام بالفتح، وهو العدل والاستقامة، وبالكسر ما يقوم به الأمر، ويستقرّ عن تغلّب، وقال أبو عبد الله عليه السلام: **القَوامُ هُوَ الْوَسَطُ**»[2].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «**القَوامُ هُوَ الْمَعْرُوفُ، ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾**[3]**، عَلَى قَدْرِ عِيالِهِ وَمَؤونَتِهِمُ الَّتي هِيَ صَلاحٌ لَهُ وَلَهُمْ، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾**[4]»[5].

وقد حذَّر الإسلامُ من الإسراف، والتَّبذير، والتَّقتير، وأمر بالإنفاق، فالإسراف هو: «تجاوز الحدّ في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾[6]، ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾[7]، ويقال تارة اعتباراً بالقدْر، وتارة بالكيفيّة؛ ولهذا قال سفيان: ما

(١) الفرقان: ٦٧.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧/ ٢٨٠.

(٣) البقرة: ٢٣٦.

(٤) الطّلاق: ٧.

(٥) الكافي: ٧/ ٣٤٩، ح/ ٦٢٢٧.

(٦) الفرقان: ٦٧.

(٧) النّساء: ٦٦.

أنفقتَ في غير طاعة الله فهو سرف، وإن كان قليلاً»[١].

والإسراف في الإسلام إعطاء المال بغير حقّ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلا وَإِنَّ إِعْطاءَ الْمالِ في غَيْرِ حَقِّه تَبْذيرٌ وإِسْرافٌ**»[٢].

وفي حديث آخر: «**مَنْ أَعْطى في غَيْرِ حَقٍّ فَقَدْ أَسْرَفَ، وَمَنْ مَنَعَ عَنْ حَقٍّ فَقَدْ قَتَّرَ**»[٣].

ولشناعة الإسراف كانت عاقبة المسرفين من أسوأ العواقب؛ لأنَّهم تجاوزوا الحدود في جميع أمورهم، فصاروا من أصحاب النّار، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ**﴾[٤].

فالإسراف إذن هو الخروج عن الحدود الشّرعيّة، والمخالفة للأوامر الإلهيّة سواء كان ذلك في الأموال، أو غيرها، وإن كان في المال أشهر.

وأمّا التَّبذير، فهو «التَّفريق، وأصله إلقاء البَذْر وطرحه، فاستعير لكل مُضَيّع لماله، فتبذير البذر تضييع في الظّاهر لمن لم يعرف مآل ما يلقيه»[٥].

قال تعالى: ﴿**وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا**﴾[٦].

---

(١) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٣٢١، (سرف).

(٢) نهج البلاغة: ٢١٥، خطبة: ١٢٦.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧/٢٨٠.

(٤) غافر: ٤٣.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٢.

(٦) الإسراء: ٢٦-٢٧.

وفي مجمع البيان: «التَّبذير: التَّفريق بالإسراف، وأصله أن يفرّق كما يفرّق البذر، إلا أنَّه يختصّ بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على وجه الإصلاح لا يسمّى تبذيراً، وإن كثر»[١].

فالتَّبذير والإسراف إذن معنى واحد، وكلاهما مذموم ممنوع عنه، وقد وردت كثير من الرّوايات في ذمّهما، نذكر منها ما ورد في غرر الحكم ودرر الكلم عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال:

**«كُلُّ ما زادَ عَلى الاقْتصاد إسْرافٌ».**

**«الإسْرافُ مَذْمومٌ في كُلِّ شَيْءٍ إلا في أَفْعال الْبرِّ».**

**«ذَرِ السَّرَفَ؛ فَإنَّ الْمُسْرِفَ لا يُحْمَدُ جودُهُ، وَلا يُرْحَمُ فَقْرُهُ».**

**«فَدَعِ الإسْرافَ مُقْتَصداً، واذْكُرْ في الْيَوْمِ غَداً، وَامْسِكْ مِنَ الْمالِ بِقَدرِ ضَرورَتِكَ، وقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حاجَتِكَ».**

**«لَيْسَ في سَرَفٍ شَرَفٌ».**

**«الْحازِمُ مَنْ تَجَنَّبَ التَّبْذير، وَعافَ السَّرَفَ».**

**«عَلَيْكَ بِتَرْكِ التَّبْذيرِ وَالإسْرافِ، وَالتَّخَلُّقِ بِالْعَدْلِ، وَالإنْصافِ».**

**«مَنِ افْتَخَرَ بِالتَّبْذيرِ احْتَقَرَ بِالإفْلاسِ».**

**«مِنْ أَشْرَفِ الشَّرَفِ الْكَفُّ عَنِ التَّبْذيرِ وَالسَّرَفِ»**[٢].

وأمّا التَّقتيرَ: فهو ما يناقض الإسرافَ والتَّبذيرَ، أو يقابله في الطّرف المخالف، وهو نوع من الشُّحّ النّفسيّ في الإنفاق، وبعبارة أوضح: هو إمساك المال

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/٦٣٣.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٥٩-٣٦٠، ح/٨١١٦-٨١٢٠-٨١٢٥-٨١٢٨-٨١٣٠-٨١٣٨-٨١٣٨-٨١٤١-٨١٤٣.

بشدّة والاستغراق فيه بحيث يصبح غاية وهدفاً في حياة الإنسان، ويستقطب كلّ مشاعره ووجوده حتّى يعجز عن القدرة على الإنفاق منه إلا القليل القليل.

وقد نهى الإسلام عن هذه الثّلاثة، فمن اتّصف بواحدة منها فقد خالف الشَّرع، وظلم نفسه بحرمانها من نعم الله عليه، فالإسراف والتَّبذير هدر وضياع للمال في ما لا طائل معه، ولا مَحْمَدَةَ فيه، والتَّقتير إمساك وحفظ للمال بدرجة يصبح الإنسان عبداً مملوكاً له لا مالكاً، وهذا هو عين الفقر والحرمان بأشنع أشكاله، بل هو الشُّحُّ بعينه، والشُّح هو: (بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة، قال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[١]، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾[٢]، يقال رجل شحيحٌ، وقوم أشحّة، قال: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾[٣])[٤].

ولا يفلح الإنسان إذا لم يتحرّر من شحّ نفسه كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾[٥].

وقال النّبيّ ﷺ: «**لا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإيمانُ في قَلْبِ عَبْدٍ أَبَداً**»[٦].

وفي رواية أخرى عن مَسْعَدَةَ بْنِ صَدَقَةَ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبيه عليهما السلام، قالَ: «**قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ما مَحَقَ الإِسْلامَ مَحْقَ الشُّحِّ شَيْءٌ، ثُمَّ قالَ: إِنَّ لِهَذا الشُّحِّ**

(١) النّساء: ١٢٨.

(٢) الحشر: ٩، التّغابن: ١٦.

(٣) الأحزاب: ١٩.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٥٦، (شح).

(٥) الحشر: ٩، التّغابن: ١٦.

(٦) كتاب الخصال: ٧٦/١.

**دَبيباً كَدَبيب النَّمْل، وَشَعَباً كَشُعَب الشِّرْك**»، وفي نسخة أُخْرى: «**الشَّوْك**»[١].

ولأنَّ الشُّحّ من أشدّ المهلكات، قال رسول الله ﷺ: «... **واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّه أهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وحَمَلَهُمْ على أَنْ سَفَكوا دماءَهُمْ، واسْتَحَلّوا مَحارِمَهُمْ**»[٢].

وقيل: «الشُّحّ الضّبط على المعتقدات والإرادة، وفي الهمم والأموال ونحو ذلك، فما أُفْرِط منه على الدّين فهو محمود، وما أفرط منه في غيره ففيه بعض المذمّة، وهو الَّذي قال الله فيه: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾، وما صار إلى حيّز منع الحقوق الشّرعيّة [أو] الَّتي تقتضيها المروءة فهو البخل وهي رذيلة، وإذا آل البخل إلى هذه الأخلاق المذمومة، والشّيم اللّئيمة لم يبقَ معه خير مرجوّ ولا صلاح مأمول»[٣].

وقال الفخر الرّازيّ: «واعلم أنَّ الفرق بين الشُّحّ والبخل هو أنَّ البخل نفس المنع، والشُّحّ هو الحالة النّفسانيّة الَّتي تقتضي ذلك المنع، فلمّا كان الشُّحّ من صفات النّفس لا جرم قال تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾»[٤].

وأما الإنفاق: فهو المطلوب في الإسلام، والمحمود عند الله؛ لما له من آثار إيجابيّة على الفرد، أو على المجتمع؛ فهو بذل المال فيما أمر الله تعالى أو ندب

---

(١) الكافي: ٣١٧/٧، ح/٦١٧٥.

(٢) البخاريّ، الأدب المفرد: ١٧٤، ح/٤٨٨.

(٣) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: ٤٠٦/٥.

(٤) الفخر الرّازي، التّفسير الكبير: ٢٨٨/٢٩-٢٨٩.

إليه سواء كان على النَّفس أو على الغير، شريطة أن يكون في سبيل الله تعالى خالصاً مخلصاً عن أيّ غاية نفسيّة من سمعة أو جاه أو رياء؛ ولذا نجد أنَّ أغلب الآيات الآمرة بالإنفاق اشترطت أن يكون في سبيل الله تعالى؛ لأنَّ قيمة العمل في الإسلام (بدوافعه لا بمنافعه)، فما لم يكن الإنفاق في سبيل الله، فلا قيمة ولا اعتبار له مهما كان مقداره عظيماً...

وقد صوَّر القرآن الكريم الَّذي ينفق ماله رياء أو سمعة بصورة صخرة عليها قليل من التُّراب، فلمّا نزل عليه الماء جرفه، وترك الصخرة مجردة صمّاء لا فائدة ولا نفع فيها لصاحبها لا يحصلون منها على شيء، و«لا يقدر أحد على ردّ ذلك التُّراب عليه، كذلك إذا دفع المنّان صدقة، وقرن بها المنّ فقد أوقعها على وجه لا طريق له إلى استدراكه وتلافيه؛ لوقوعها على الوجه الَّذي لا يستحقّ عليه الثَّواب»[1].

وهو تمثيل رائعٌ لمن ينفق أمواله رياء، ثمّ يرجو ثواب الله، فكما لا يمكن أن يبقى التّراب القليل فوق الصَّخر في حالة جريان ماء المطر، كذلك لا يبقى ثواب إنفاق لغير الله تعالى فيه نصيب، بل يعود المنفق صفر اليدين ممّا أنفق، فلا ماله حفظ، ولا ثوابه حصل، قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٦٥٠.

﴿صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(١).

هذه صورة، وصورة أخرى رسمها القرآن الكريم للّذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا الله تعالى بصدق، وإخلاص، ويقين، وبصيرة فيما يصنعون، فمثلهم كمثل روضة وارفة فوق مرتفع من أرض طيّبة أصابها ماء غزير، فضاعفت العطاء، كذلك يتضاعف أجر المنفق الخالص النّيّة لله تعالى كما قال تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

تلك صورة، وهذه صورة، وشتّان ما بين الصّورتين من حرمان وخسران في جانب، وجمال رائع وعطاء وفير في الجانب الآخر.

## حِكْمَةُ الإِنْفاقِ:

الحكمة من الإنفاق لا تحصر بالجانب الاقتصاديّ والماليّ وحسب، بل حكمته أشمل من ذلك بكثير فهناك حكمة تربويّة لنفس المنفق، وهناك حكمة اجتماعيّة، وأخرى حكمة اقتصاديّة.

أمّا الحكمة النّفسيّة، فممّا لا شكَّ فيه أنَّ للإنفاق أثراً تربويّاً فعّالاً في نفس المنفق؛ وذلك لأنَّ نفس الإنسان كما أسلفنا تحبُّ المال حبّاً جمّاً، وإنفاق المال يتنافى مع غريزة التّملّك، فعندما يخرج الإنسان أمواله، وينفقها في سبيل الله، فإنَّه

---

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) البقرة: ٢٦٥.

يخالف رغباته وأهواءه، ويلاقي مقاومة نفسيّة، وصراعاً داخليّاً، وتلك المخالفة والمعاكسة تنعكس على النَّفس صفاءً، وبصيرةً، وعزماً، ونوراً، وبذلك يصبح الإنفاق تطهيراً للقلب، وتزكية للنَّفس، وهذا ما صرَّح القرآن الكريم به بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

«فهي تطهّرهم من الرَّذائل الأخلاقيّة، ومن حبّ الدُّنيا وعبادتها، ومن البخل وغيره من مساوئ الأخلاق، وتزرع مكانها نوعاً من الحبّ والسَّخاء، ورعاية حقوق الآخرين في نفوسهم... وعلى هذا فإنَّ حكم الزَّكاة مطهّر للفرد وللمجتمع من جهة، وينمّي بذور الفضيلة في النَّفوس من جهة أخرى»[2].

وهكذا لم يُرد الإسلام من الإنفاق أن يملأ الجيب، ويشبع البطن، ويكسو الجسد فقط، إنَّما أراد أن يهذّب النَّفس، ويزكّيها، ويرفعها إلى السُّموّ المعنويّ؛ ولهذا صار أداء الزَّكاة عمليّة «**تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ ونَمَاءً في الرِّزْقِ**»[3] كما قالت الصّديقة الطّاهرة الزَّهراء البتول عليها السلام، وبهذا أصبح الإنفاق «من أهمّ الأصول التَّعليمية والتّربويّة في سياسة الإسلام الاجتماعيّة، ومذهبه الاقتصاديّ. إنَّه أصل جذريٌّ هامٌّ مستوعب لجوانب الحياة الإنسانيّة، هدّام لقواعد التّكاثر والإتراف، بنّاءٌ لحياة زاخرة بالقيم، مليئة بالإنسانيّة والفضيلة، متماسكة بالنُّضج، والقوام للجماهير»[4].

---

(١) التّوبة: ١٠٣.

(٢) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٨٥/٦-١٨٦.

(٣) الشّيخ الطّبرسيّ، الاحتجاج: ١١٤/١.

(٤) محمّد رضا الحكيميّ وآخرون، الحياة: ٤٤١/٥.

ومن الآثار التّربويّة الَّتي يتركها الإنفاق في النَّفس الإنسانيّة إنَّه يخرج حبَّ الدُّنيا من قلب الإنسان، ومن خرج حبُّ الدُّنيا من قلبه أحبَّ لقاء الله تعالى، جاء رجل إلى رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال: «يا رسول الله، ما لي لا أحبّ الموت؟» قال: «**هَلْ لَكَ مالٌ؟**» قال: «نعم، يا رسول الله»، قال: «**قَدِّمِ الْمالَ؛ فَإِنَّ قَلْبَ الرَّجُلِ مَعَ مالِه؛ إنْ قَدَّمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ، وإِنْ خَلَّفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ**»(١).

والإنفاق يطهّر النَّفس من أقبح الخصال، وهي الطّمع، والجشع، والحرص، والبخل، والشُّحّ، وطول الأمل؛ فالَّذي ينفق من ماله في سبيل الله تعالى يقلع من نفسه تلك الخصال الَّتي تنزل بالإنسان إلى أحطّ الدَّرجات؛ فإن طهرت نفس الإنسان من هذه الخصال حلَّت مكانها خصال الخير من الجود، والسَّماح، والكرم، والرَّحمة، والرَّأفة بالخلق، والحبّ لهم، وهكذا يتّضح أنَّ الإنفاق عاملٌ مهمٌّ في صقل نفسيّة الفرد، ومعراج لتكامله وصعوده إلى مدارج الكمال، وتتصاعد فيه روح الالتزام بالأوامر الإلهيّة، وترفع فيه روح التّوكّل والتّوجّه إلى الله تعالى.

وأمّا الحكمة الاجتماعيّة؛ فإنَّ الإنفاق يعمّق روح التّآخي بين مختلف الشّرائح الاجتماعيّة، ويوثّق الرّوابط والصّلات والتّعاطف بين أبناء المجتمع الواحد، ويسود بين أفراده التّراحم والتّعاطف والتّعاون والمحبّة والمواساة، وبذلك يكون المجتمع مصداقاً لحديث الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يَحقُّ عَلى الْمُسْلِمينَ الاجْتِهادُ في التَّواصُلِ، وَالتَّعاوُنُ عَلى التَّعاطُفِ، وَالْمُؤاساةُ لأَهْلِ الْحاجَةِ، وَتَعاطُفُ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ حَتّى تَكُونوا - كَما أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُحَمَآءُ**

(١) الفتّال النّيسابوريّ، روضة الواعظين: ٣٧٨/٢، ح/١٣٨٠.

**بَيْنَهُمْ ﴾**[١] - **مُتَراحمينَ مُغْتَمّينَ لما غابَ عَنْكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلى ما مَضى عَلَيْه مَعْشَرُ الأَنْصار عَلى عَهْد رَسُول الله** ﷺ»[٢].

وهذا هو المَجتمع المثَاليّ الَّذي يَسوده التَّعاون، والتّعاطف، والتّراحم والتّواصل، والمؤاساة بين أفراده...

ومن الحكم الاجتماعيّة الأساسيّة أنَّ الإنفاق ينفي الفقر عن أبناء المجتمع، ويوجد فيه التّكافل، والتّضامن، والتّوازن، والتّكامل، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**وَلَوْ أَنَّ النّاسَ أَدَّوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ ما بَقِيَ مُسْلِمٌ فَقيراً مُحْتاجاً، وَلاسْتَغْنى بما فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، وَإِنَّ النّاسَ ما افْتَقَروا، وَلا احْتاجوا، وَلا جاعوا، وَلا عَروا إِلا بِذُنوبِ الأَغْنِياء**»[٣].

«فالإسلام يتصدّى لتأمين معيشة النّاس وخبزهم ومائهم وسكناهم، وتعديل صلاتهم الماليّة، ويراقب هذه الصّلات بدقّة وحسم، حتّى لا يتفشّى الظُّلم في النّاس بإطلاق أيدي الطَّواغيت الاقتصاديّين في القضايا الماليّة والبرمجة الاقتصاديّة»[٤].

وإنَّما انتشر الفقر في بلاد المسلمين لتسلّط الجشعين والطّامعين على مقدّراتهم على جميع الأصعدة؛ فترى طبقة متخمة من جانب، ومن جانب آخر ترى الفقر المدقع البشع، وبهذا «يعلن الاقتصاد الإسلاميّ بوضوح: أنَّ الفقر

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الكافي: ٤٤٩/٣، ح/٢٠٧٥.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٧/٢، ح/١٥٧٩.

(٤) الحياة: ٢٤/٣.

والحرمان ليس نابعاً من الطَّبيعة نفسها، وإنَّما هو نتيجة سوء التّوزيع والانحراف عن العلاقات الصّالحة الَّتي يجب أن تربط الأغنياء بالفقراء، فيقول - على ما جاء في الحديث -: «**ما جاعَ فَقيرٌ إلا بما مُتِّعَ به غَنيٌّ**»[1]»[2].

إنَّ الإسلام في معظم أنظمته يريد أن «يُزاح الغنى المفرط والمعيشة التّرفيّة والسّرفيّة، وكذلك المسكنة والفقر من ساحة الحياة البشريّة»[3]؛ ولأجل ذلك حثَّ النّاس على العمل الجادّ؛ ليوجد التّوازن الاجتماعيّ والعدل والقسط، وأكَّد بإلحاح على وجوب إلحاق الفقراء والمحرومين بمستوى معيشيّ محترم، وأكَّد على إنفاق الأموال بصورة مستمرة؛ لئلا تتكدّس بأيدي القلّة، وتصبح محتكرة بأيدي الجشعين؛ لكي تتداول بين النّاس بصورة عامّة، ولم يسمح لأحد أن يحتكر الأموال لنفسه، ويحجبها عن الآخرين؛ فـ«لم يجئ دين الإسلام، لأن يعيش في مجتمعه أناس ينغمسون في ألوان التّرف والنعيم، ويستهلكون لألعاب صبيانهم أموالاً طائلة، وإلى جنبهم أناسيُّ لا يجدون لطفلهم المشرف على الموت دواءً زهيداً! فإن كان هذا، فأين القسط الَّذي جاء الأنبياء ليقوم به النّاس»[4]؟!

وأمّا الحكمة الاقتصاديّة؛ فإنَّ الإنفاق يمنع من تكديس الأموال وتجميدها في دائرة ضيّقة، ويوسّع تداولها بين أفراد المجتمع الواحد، بل إلى عموم المجتمعات البشريّة، فبالإنفاق توزّع الثّروة، وتتحرّك في الدّائرة الأوسع، وبذلك يُقضى على الاحتكار والاكتناز من المجتمع البشريّ.

---

(١) نهج البلاغة: ٥٤١، قصار الحكم: ٣١٩.

(٢) اقتصادنا: ٣٧٦.

(٣) الحياة: ٣١/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٦/٣.

«اللَّهمَّ، أَغْنِنا بِحَلالِك عَنْ حَرامِكَ، وَبِطاعَتِك عَنْ مَعْصِيَتِك، وَبِفَضْلِك عَمَّنْ سِواكَ».

# لَيْلَةُ الْقَدْرِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[1].

من مميّزات الإسلام في منهجه العباديّ التّربويّ أنّه اهتمّ بالوقت بصورة عامّة، وجعل الإنسان مسؤولاً عن المدّة الزّمنيّة الّتي يعيشها في هذه الدّنيا مكلّفاً سالماً عن معوقات التّكليف، ولعلَّ هذا ما أشار إليه الحديث الشّريف في قوله ﷺ: «**لا تزولُ قدما عَبْد يَوْمَ القيامَة حَتّى يسْأَلَ عَنْ أَرْبَع: عَنْ عُمرِه فيما أفناهُ، و[عَنْ] شَبابِه فيما أَبْلاهُ..**»[2].

وجعل أوقاتاً مخصوصة للعبادة منها يوميّة كالصّلاة، ومنها أسبوعيّة كصلاة الجمعة، ومنها سنويّة كالحجّ والصّيام؛ كلّ ذلك لأجل أن يضع الإنسان على جادّة التّغيير؛ لتتكامل شخصيّته من خلال إيمانه بالله تعالى، واستشعاره بمسؤوليّته أمامه عزَّ وجلَّ، والتزامه بأحكامه، وانتهائه عن نواهيه.

ومن تلك الأوقات المهمّة والعظيمة في حياة البشريّة الّتي تمثّل أعظم انعطاف حدث في حياة الإنسانيّة على طول خط التّأريخ هي «**ليلة القدر**»، وحيث إنَّ قيمة هذه اللّيلة نابعةٌ من عظمة الحدث الّذي وقع فيها، ألا وهو إنزال

---

(١) القدر: ١-٥.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٢٥٣/١؛ وينظر: كنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٣٧٩/١٤.

القرآن الكريم على قلب رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وبذلك نزل النّور الإلهيّ من السَّماء؛ لينير الأرض، ويخرج سكّانها من الظّلمات إلى النّور، بوضعهم على الصّراط المستقيم منهج الشَّريعة الغرّاء.

## الْفَرْقُ بَيْنَ الإِنْزالِ وَالتَّنْزيلِ:

التَّنزيل يعني التّدرّج في نزول آيات الله تعالى بحسب الحاجة والأحداث والأسباب، «فإنَّ الظّاهر من الأخبار أنَّ السّور لم تنزل دفعة واحدة، بل القرآن كلّه إنّما نزل نجوماً بحسب الأحكام المتجدّدة والوقائع المتعدّدة»(١)، وقيل: نجوماً أي متدرّجاً، «نزل نجوماً متفرّقة على النّبيّ في ثلاث وعشرين سنة، فسمّي القرآن نجماً لتفرّقه في النّزول؛ والعرب يسمّي التّفريق تنجيماً، والمفرّق منجّماً»(٢).

ورُوِيَ عن ابن عباس أنَّه قال: «نزل القرآن جملة واحدة إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ نزل نجوماً بعد إلى النّبيّ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ»(٣).

والإنزال يعني دفعة واحدة، هذا على القول بنزوله مرّتين مرّة إجمالاً، ومرّة تفصيلاً كما في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٤).

قال السّيّد نور الدّين الجزائريّ: «قال بعض المفسرين: الإنزال: دفعيّ، والتَّنزيل: للتّدريج، قلتُ: ويدلّك عليه قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا

---

(١) المحقّق يوسف البحرانيّ، الحدائق النّاضرة: ١٥/٢٤.

(٢) الحائريّ الطّهرانيّ، تفسير مقتنيات الدّرر: ٣٠٩/١٠.

(٣) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ٤١/١٢، ح/١٢٤٢٦.

(٤) هود: ١.

﴿ لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾[١] حيث خصّ القرآن بالتَّنزيل؛ لنزوله منجّماً؛ والكتابين بالإنزال لنزولهما دفقةً»[٢].

## لِماذا سُمِّيَتْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ؟

الظّاهر أنَّ معنى القدر يعني التَّقدير والتَّدبير، وسمّيت بليلة القدر؛ لأنَّها اللَّيلة الَّتي يحكم الله فيها، ويقضي بما يكون في السَّنة بأجمعها من كلّ أمر، وقيل: ليلة القدر أي ليلة الشَّرف وعظم الشّأن؛ ولأنَّ للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً؛ وقيل: لأنَّه أنزل فيها كتاباً ذا قدر، على رسول ذي قدر، لأجل أمّة ذات قدر، على يدي ملك ذي قدر[٣]... وغير ذلك.

وأمّا قوله تعالى في سورة الدّخان: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾[٤]، فالآية تبيّن أنَّ هذه اللّيلة يقدّر فيها الله تعالى حوادث السَّنة من اللَّيلة إلى مثلها من قابل من رزق، وسعادة، وشقاء، وحياة، وموت، وكلّ ما يخص الإنسان؛ فعَنْ حُمْرانَ أَنَّهُ سَأَلَ أَبا جَعْفَر عليه السلام عَنْ قَوْل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾، قالَ: «**نعَمْ، لَيْلَةُ الْقَدْر، وَهيَ في كَلِّ سَنَة في شَهْر رَمَضانَ في الْعَشْر الأَواخر، فَلَمْ يُنْزَل الْقُرْآنُ إلا في لَيْلَة الْقَدْر، قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾**»، قالَ: «**يُقَدَّرُ في لَيْلَة الْقَدْر كُلُّ**

---

(١) آل عمران: ٣.

(٢) نور الدّين الجزائريّ، فروق اللّغات: ٥٧.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ: ١٣٠/٢٠-١٣١؛ وتفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسيّ: ٧٠١/٨؛ وزبدة التّفاسير لفتح الله الكاشانيّ: ٤٧٦/٧-٤٧٧.

(٤) الدّخان: ٣-٤.

**شَيْءِ يَكونُ في تِلْكَ السَّنَةِ إلى مِثْلِها مِنْ قابِل: خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطاعَةٍ وَمَعْصيَةٍ، وَمَوْلودٍ وَأَجَلٍ، أَوْ رِزْقٍ، فَما قُدِّرَ في تِلْكَ السَّنَةِ وَقُضِيَ، فَهُوَ الْمَحْتومُ وَللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فيهِ الْمَشيئَةُ»**(١).

وهذه اللَّيلة تَتكرَّرَ في كلّ سنة، ولا تختصّ بعصر دون عصر، فلا قيمة لقول من قال: إنّها مختصّة بعصر النّبيّ ﷺ، وسياق السّورة المباركة يدلّ على تكرارها، فلا حاجة لذكر الأدلّة الأخرى، وقد وردت في هذا روايات عدّة نذكر منها رواية أبي ذرّ رضي الله عنه أنَّه قال: «قلتُ: يا رسول الله، ليلةُ القدر هي شيء تكون على عهد الأنبياء، ينزل فيها، فإذا قبضوا رُفِعَت؟ قال: **لا، بَلْ هِيَ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**»(٢).

وعَنْ داوُدَ بْنِ فَرْقَد، قالَ حَدَّثَني يَعْقوبُ، قالَ: «سَمِعْتُ رَجُلاً يَسْأَلُ أَبا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقالَ: أَخْبِرْني عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ كانَتْ، أَوْ تَكونُ في كُلِّ عامٍ؟ فَقالَ أَبو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **لَوْ رُفِعَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَرُفِعَ الْقُرْآنُ**»(٣).

كما تدلّ السّورة المباركة على أنَّ هذه اللَّيلة لها من العظمة ما يفوق حدود الإدراك والتّصوّر البشريّ إلى حدّ أن يخاطب الله تعالى أكمل خلقه بقوله: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ**﴾، «فكأنَّه قال: وما أدراك يا محمّد ما خطر ليلة القدر، وما حرمتها، وهذا حثّ على العبادة فيها»(٤)، وإنَّك «لم تبلغ درايتك غاية فضلها، ومنتهى علوّ قدرها»(٥).

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٦٢٥/٧، ح/٦٦٢٤.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٨٦/١٠.

(٣) الكافي: ٦٢٦/٧، ح/٦٦٢٥.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٨٩/١٠.

(٥) الزّمخشريّ، الكشّاف: ٧٨٠/٤.

وهذه الكلمة وإن كانت للتّعظيم والتّفخيم إلا أنَّ وراء هذا الأمر سرٌّ أكبر من ذلك كما ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام؛ فهذا التّركيز على ليلة القدر «لا ليمنحوها هالة قدسيّة فحسب نظير الأديان الأخرى، بل ليمنحوها بعداً عمليّاً يشرق في أفق النّفس البشريّة، وأوّل ما ينتج ذلك دفع حركة المريد باتّجاه الكمال الإنسانيّ من خلال تكامل نظرتي العلم والعمل»[1]، وبيان قيمة العمل وأهمّيّته فيها؛ لأنّها اللّيلة الّتي اختارها الله تعالى لنزول أعظم كتاب جامع لجميع الأبعاد الإنسانيّة، وأكمله في العلم والعمل على أكمل نبيّ، ومن هذا الكتاب شعّ نور السّماء على أهل الأرض، ولا يزال يشعّ، ولن يتوقّف إلى يوم القيامة.

وقد ورد في الحديث أنّها حجة الله على خلقه؛ فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**يَا مَعْشَرَ الشِّيعَة، خَاصِمُوا بِسُورَة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ تَفْلُجُوا**[2]**، فَوَالله إِنَّهَا لَحُجَّةُ الله - تَبَارَكَ وتَعَالى - عَلَى الْخَلْق بَعْدَ رَسول الله صلى الله عليه وآله، وَإِنَّها لَسَيِّدَةُ دِينِكُمْ**[3]**، وَإِنَّها لَغَايَةُ عِلْمِنا**»[4].

وحجّيّة ليلة القدر لما أفاض الله فيها من الرَّحمة على الخلق بنزول القرآن،

---

(١) السّيّد أبو القاسم الموسويّ، ليلة القدر: ٩١.

(٢) تفلجوا، أي تظفروا وتفوزوا.

(٣) «**لَسَيِّدَةُ دِينِكُمْ**»، يعني لسيّدة حجج دينكم؛ كتاب الوافي للفيض الكاشانيّ: ٢/٥١؛ و«المراد أنّها لسيّدة دلائل دينكم القرآنيّة، وخيريّة الدَّليل ظهور الغلبة به على الخصم، فحيث كان ظهور الغلبة بها على الخصم أشدّ جُعلَت سيّدة الدّلائل، ومن تأمّل هذه الأحاديث الواردة في هذا الباب من أوّل الباب إلى آخره ظهر عليه ظهور دلالتها على حقّيّة مذهب الإماميّة»، الحاشية على أصول الكافي لبدر الدّين العامليّ: ١٧١.

(٤) الكافي: ١/٦١٨-٦١٩، ح/٦٥٠.

وما فيه من هدى، ورشاد، وإصلاح، وتغيير للبشريّة نحو الأكمل، فلو أخذت بهدى الله تعالى لأكلت من فوقها، ومن تحت أرجلها، ولعاشت بتمام السَّعادة بأمن وأمان، ولفتح الله أبواب رحمته من الأرض والسَّماء.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

ويستفاد من بعض شرّاح الكافي أنَّ برهان حجيّتها لما فيها من علوم إلهيّة[٢]، وهي «**غايَةُ عِلْمنا**»: «أي نهاية ما يحصل لنا من العلم لكشفها عن ليلة القدر الَّتي تحصل لنا فيها غرائب العلم ومكنوناته»[٣].

## مَعْنى كَوْنِها خَيْراً مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه خطب النّاس آخر يوم من شعبان، فقال: «**أَيُّها**

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) قال المولى المازندرانيّ في شرح هذا الحديث: «قوله: «**إِنَّها لَحُجَّةُ الله عَلى الْخَلْقِ بَعْدَ رَسولِ الله**» حيث دلّت على أنَّ الزَّمان بعده لا يخلو من حجّة، ويحتمل أن يراد أنَّ رسول الله حجّة الله على الخلق أوّلاً لبيانه من يقوم مقامه بعده، ثمّ هذه السّورة حجّة الله عليهم بعده لما مرّ. قوله: «**وَإِنَّها لَسَيِّدَةُ دينِكُمْ**» لدلالتها على أعظم أُمور الدّين، وهي الخلافة الّتي تبتنى عليها سائر أموره. قوله: «**وَإِنَّها لَغايَةُ عِلْمِنا**» لدلالتها على حصول علوم غير محصورة لهم في تلك اللَّيلة بإخبار الملائكة، أو لأنَّ هذه العلوم من توابع العلوم الَّتي كانت حاصلة لهم وغاياتها، فإنّهم عليهم السلام علموا جميع ما في اللَّوح المحفوظ من النّقوش حتميّة كانت أو غير حتميّة، ويجيئهم حتم غير المحتوم في تلك اللَّيلة، والله أعلم»، شرح أصول الكافي: ١٣/٦-١٤.

(٣) كتاب الوافي: ٥١/٢.

**النّاس، إنَّهُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظيمٌ، شَهْرٌ مُبارَكٌ، شَهْرٌ فيه لَيْلَةٌ، الْعَمْلُ فيها خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ في أَلْفِ شَهْرٍ»**[١].

عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه سئل: «كيف هي خير من ألف شهر؟» فقال: **«الْعَمَلُ فيها خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ في أَلْفِ شَهْرٍ، ولَيْسَ في هذه الأَشْهُرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ»**[٢].

والعدد في الآية لا يفيد التَّحديد، وإنَّما التَّكثير كما قال بعض المفسّرين، وإنَّما جُعلَت خيراً من ألف شهر؛ لأنَّ نفعها أكثر للبشريّة؛ حيث الرّحمة الإلهيّة فيها تتضاعف أضعافاً كثيرة؛ بما يقرّب النّاس إلى الله، وهي فيض أفاضه الله تعالى، وحيث «إنَّ الأوقات إنّما يفضّل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير من النَّفع، فلمّا جعل الله الخير الكثير في ليلة القدر كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما يكون في هذه اللّيلة»[٣].

«والمراد بكونها خيراً من ألف شهر خيريّتها منها، من حيث فضيلة العبادة على ما فسَّره المفسّرون، وهو المناسب لغرض القرآن، وعنايته بتقريب النّاس إلى الله، فإحياؤها بالعبادة خيرٌ من عبادة ألف شهر، ويمكن أن يستفاد ذلك من المباركة المذكورة في سورة الدّخان في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾»[٤].

وعَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: **«كانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْن - صَلَواتُ الله عَلَيْه -، يَقولُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ صَدَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ في**

(١) القاضي النّعمان، دعائم الإسلام: ٢٦٩؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٣٤٢/٩٦.

(٢) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٩٦٢-٩٦٣؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ١١٣/٩، ح/٥٢٤٧.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٨٩/١٠.

(٤) الميزان في تفسير الميزان: ٣٣٢/٢٠.

لَيْلَة الْقَدْر: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ قالَ رَسولُ الله ﷺ: لا أَدْري. قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ لَيْسَ فيها لَيْلَةُ الْقَدْر، قالَ لرَسول الله ﷺ: وَهَلْ تَدْري لِمَ هِيَ خَيْرٌ منْ أَلْف شَهْر؟ قالَ: لا، قَالَ: لأَنَّها ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾، وَإِذا أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بشَيْء فَقَدْ رَضيَه. ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، يَقولُ: تُسَلِّمُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ مَلائكَتي وَروحي بسَلامي منْ أَوَّل ما يَهْبِطونَ إِلى مَطْلَع الْفَجْر»[1].

وعَن ابنِ عبَّاس قال: «ذُكر لرَسول الله ﷺ رجل مَن بني إسرائيل، أنَّه حمل السّلاح على عاتقه في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجب من ذلك رسول الله ﷺ عجباً شديداً، وتمنّى أن يكون ذلك في أمّته، فقال: يا رَبِّ، جَعَلْتَ أُمَّتي أَقْصَرَ النّاس أَعْماراً، وَأَقَلَّها أَعْمالاً، فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: لَيْلَةُ الْقَدْر خَيْرٌ مِنْ أَلْف شَهْر الَّذي حَمَلَ الإسْرائيليُّ السِّلاحَ في سَبيلِ الله، لَكَ وَلأُمَّتكَ مِنْ بَعْدكَ إلى يَوْمِ الْقيامَة في كُلِّ رَمَضان»[2].

وما أحسن قول بعضهم[3]: [من الكامل]

هي ليلة القدر الَّتي شرفت على ... كلّ الشّهور وسائر الأعوامِ
من قامها يمحو الإله بفضله ... عنه الذّنوب وسائر الآثامِ
فيها تجلّى الحقُّ جلَّ جلاله ... وقضى القضاء وسائر الأحكامِ
فادعوه واطلب فضله تُعْطَ المُنى ... وتجاب بالإنعام والإكرامِ

---

(١) الكافي: ٦١٦/١، ح/٦٤٨.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٨٩/١٠؛ وينظر: إعانة الطّالبين للبكريّ الدّمياطيّ: ٢٥٧/٢؛ وتفسير نور الثّقلين للحويزيّ: ٦١٥/٥.

(٣) إعانة الطّالبين: ٢٥٧/٢.

فالله يرزقنا القبول بفضله ويجود بالغفران للصّوّامِ
ويذيقنا فيها حلاوة عفوه ويميتنا حقّاً على الإسلامِ

ومن مختصّات هذه اللّيلة أنَّ الملائكة تنزل فيها أفواجاً أفواجاً إلى السَّماء الدُّنيا للسّلام على المؤمنين المتعبّدين، وقد روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**إِنَّهُمْ يَنْزِلون لِيُسَلِّموا عَلَيْنا، وَلِيَشْفَعوا لَنا، فَمَنْ أَصابَتْهُ التَّسْليمَةُ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُه**»[١].

﴿**مِّن كُلِّ أَمْرٍ**﴾ (من) هنا للتَّعليل والغاية، أي لأجل تدبير كلّ أمر من الأمور أيّ تنفيذ الأمر الإلهيّ الّذي يفسّره قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾[٢]، كما جاء هذا المعنى في تفسير الميزان للعلامة الطّباطبائيّ قدس سره[٣]، والمعنى أنَّ الملائكة تنزل والرّوح فيها في ليلة القدر بأمر الله تعالى لأجل تدبير أمور الخلق التّكوينيّة.

ثمَّ إنَّ هذه اللَّيلة سلامٌ كلّها من الله تعالى لعباده؛ سلام من كيد الشَّياطين فإنّها تُغَلّ في تلك اللّيلة، وتفتح أبواب الرّحمة؛ وسلام من الآفات الظّاهرة والباطنة، وهذا إشارة إلى العناية الإلهيّة بشمول الرَّحمة لعباده المقبلين إليه، الرّاجين رحمته، الطّالبين غفرانه، وسدّ لباب نقمته، وهذا السَّلام لأجل صلاح المكلّفين، وتزكيتهم، فقوله تعالى: ﴿**سَلَٰمٌ هِيَ**﴾ «ما هي إلا سلامة، خبر ومبتدأ، أي لا يقدّر الله فيها إلا السَّلامة والخير. ويقضي في غيرها بلاءً وسلامة، أو: ما هي إلا سلام؛ لكثرة ما يسلّمون على المؤمنين، قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنةً إلا سلّموا عليه في تلك

(١) الفخر الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ٣٣/٣٢.
(٢) يس: ٨٢.
(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٢/٢٠.

اللَّيلة»[١].

ويستمرّ هذا الشُّمول بالفيوضات الإلهيّة من الخير والرّحمة والبركة والعتق من النَّهار إلى طلوع الفجر.

## لماذا أخفى الله هذه اللَّيلة؟

قالوا: إنَّ الله تعالى أخفى هذه اللَّيلة لوجوه عدّة أهمّها:

أ- إنَّه تعالى أخفى كثيراً من الأمور والأشياء فقد أخفى رضاه في الطّاعات كلّها حتّى يرغبوا في الكلّ، وأخفى غضبه في المعاصي حتّى يحذروا الكلّ، وأخفى وليّه في النّاس حتّى يحترموا الكلّ، وأخفى الإجابة في الدُّعاء؛ ليبالغوا في الكلّ، وأخفى الاسم الأعظم في الأسماء؛ ليعظّموا الكل، وأخفى الصَّلاة الوسطى؛ ليحافظوا على الكلّ، وأخفى قبول التّوبة؛ ليواظب المكلّف على جميع أقسام التَّوبة، وأخفى وقت الموت؛ ليخاف المكلّف، فكذا أخفى هذه اللَّيلة؛ ليعظّموا جميع ليالي شهر رمضان[٢].

ب- رحمة بعباده حيث إنَّ العبد إذا علم بليلة القدر، ثمَّ تجاسر بالمعاصي فيها؛ فإنَّ عقابه سيكون أشدّ كما يكون ثوابه مقدار عبادة ألف شهر إذا أطاع وعمل، فكأنه تعالى يقول: إذا علمْتَ بليلة القدر، وأطعتَ فيها، فلك ثواب ألف شهر؛ وإن عصيْتَ فعليك عقاب ألف شهر، ودفع العقاب أولى من جلب الثَّواب.

ج- وإنَّ الله أخفاها؛ ليجتهد العبد في جميع ليالي شهر رمضان، فيكسب ثواب الاجتهاد.

---

(١) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التّأويل: ٦٦٦/٣.

(٢) ينظر: التّفسير الكبير: ٢٨/٣٢، بتصرّف.

د- قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: «أَخبرنا عن ليلة القدر؟»، قال: «**ما أَخْلو منْ أَنْ أَكونَ أَعْلَمُها فَأَسْتُرُ علْمَها، ولَسْتُ أَشُكُّ أَنَّ اللهَ إِنَّما يَسْتُرُها عَنْكُمْ نَظَراً لَكُمْ، لأَنَّهُ لَوْ أَعْلَمَكُموها عَملْتُمْ فيها، وتَرَكْتُمْ غَيْرَها، وأَرْجو أَنْ لا تُخْطئَكُمْ إِنْ شاءَ اللهُ، انْهَضوا رَحمَكُمُ اللهُ**»[1].

## أَمّا وَقْتُها:

فقد أخفي في ليالي شهر رمضان المبارك، ولكن الرّوايات الواردة عن الرّسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أشارت إلى ليلة الحادي والعشرين، والثّالث والعشرين؛ فقد ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام قوله لأبي بصير:

«**يا أَبا مُحَمَّد، وَفْدُ الْحاجِّ يُكْتَبُ في لَيْلَة الْقَدْر، وَالْمَنايا وَالْبَلايا وَالأَرْزاقُ، وَما يَكونُ إِلى مثْلها في قابل، فَاطْلُبْها في لَيْلَة إِحْدى وَعشْرين، وَثَلاث وَعشْرينَ، وَصَلِّ في كُلٍّ واحدَة منْهُما مائَةَ رَكْعَةً، وَأَحْيهما إِن اسْتَطَعْتَ إِلى النّور، واغْتَسلْ فيهما**»، قال أبو بصير: «قلْتُ: فإن لم أقدر على ذلك وأنا قائم؟ قال: **فَصَلِّ وَأَنْتَ جالسٌ**، قلتُ: فإن لم أستطع؟ قال: **فَعلى فراشكَ، لا عَلَيْكَ أَنْ تَكْتَحلَ أَوَّلَ اللَّيْل بشَيْء منَ النَّوْم؛ إِنَّ أَبْوابَ السَّماء تُفَتَّحُ في رَمَضانَ، وَتُصَفَّدُ الشَّياطينُ، وَتُقْبَلُ أَعْمالُ الْمُؤْمنينَ، نعْمَ الشَّهْرُ رَمَضانُ، كانَ يُسَمّى عَلى عَهْد رَسول الله صلى الله عليه وآله الْمَرْزوقَ**»[2].

وفي مسند أحمد بن حنبَل عن عَبادَة بن الصّامت أنَّه قال: «يا رسول الله،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥٤/٢٠؛ وبحار الأنوار: ٥/٩٧.

(٢) الكافي: ٦٢١/٧-٦٢٢، ح/٦٦٢٠.

أخبرنا عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: **هيَ في رمَضانَ، الْتَمسوها في الْعَشْرِ الأَواخرِ؛ فَإِنَّها وتْرٌ، في إحْدى وَعشْرين، أَوْ ثلاث وَعشْرين، أَوْ خَمْس وَعشْرين، أَوْ سبْعٍ وعشْرين، أَوْ تسْعٍ وَعشْرين، أَوْ في آخرِ لَيْلَة، فَمَنْ قامَها إيماناً، وَاحْتسابا غُفرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ منْ ذَنْبه وَما تَأَخَّرَ**»[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٧/٤٠٦، ح/٢٢٧٤١.

# الاسْتِقْبالُ

عن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**إذا اسْتَقْبَلْتَ الْقِبْلَةَ فَآيِسْ منَ الدُّنْيا، وَما فيها، والْخَلْق وما هُمْ فيه، وَفَرِّغْ قَلْبَكَ عَنْ كُلِّ شاغِلٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللهِ تَعالى، وَعايِنْ بِسِرِّكَ عَظَمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، واذْكُرْ وُقوفَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ... يوْمَ** ﴿**تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ**﴾[1]، **وَقِفْ عَلى قَدَمِ الْخَوْفِ وَالرَّجاءِ**»[2].

الاستقبال للقبلة: هو التّوجّه التّامّ - استجابة لأمر الله - إلى الكعبة المشرّفة الّتي جعلها الله تعالى بيته الحرام، فعظّمها، وكرّمها، وشرّفها، وجعلها ﴿**قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ**﴾[3]، و﴿**مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾[4]، و﴿**مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ**﴾[5]، بكلّ كيان الإنسان روحاً وبدناً جوارحاً وجوانحاً، والانصراف المطلق عن غيره تعالى، بل والانقطاع الكامل عن كلّ شيء مادّيّاً ومعنويّاً، ويتقوّم هذا التّوجّه بأمرين:

١- المقدّميّ: كما سمّاه الإمام الخمينيّ قدس سره: «وهو صرف الوجه الظّاهر

---

(١) يونس: ٣٠.

(٢) مصباح الشَّريعة: ٨٧؛ وموسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ١٢٢/٢.

(٣) المائدة: ٩٧.

(٤) البقرة: ١٢٥، ومثابة للنّاس: «أي مرجعاً لهم يثوبون إليه، أي يرجعون إليه في حجّتهم وعمرتهم في كلّ عام» مجمع البحرين للشّيخ الطّريحيّ: ١٩/٢، (ثوب).

(٥) آل عمران: ٩٦.

إلى جهة دون سائر الجهات»[١]، أي أن يصرف الإنسان وجهه بإخلاص وتجرّد تامّ عن أيّة جهة مهما كانت، ومن كانت، ويُقبل إلى الواحد الأحد فقط وفقط.

٢- التّوجّه النّفسيّ: وهو التّوجّه الكلّيّ إلى الكعبة الَّتي هي مركز الأرض، وبعبارة أخرى إنَّ التّوجّه والاستقبال هو الإقبال النَّفسيّ والبدني جوارحاً وجوانحاً إلى نقطة واحدة، شريطة أن تمثّل هذه النُّقطة الكمال المطلق، ولا شكَّ أنَّ الفطرة البشريّة بطبيعتها تتطلّع إلى الكمال المطلق؛ ولذا فهي بذاتها تتّسم بصفتين أساسيّتين، وهما:

أ- النُّفور من النّقص والنّاقص.

ب- العشق للكمال والكامل.

وهاتان فطرتان، أحدهما ذاتيّة أصيلة متمركزة في كينونة الإنسان، وهي النّفور من النّاقص، والثّانية تابعة لها وهي الانجذاب إلى الكامل، قال الإمام الخمينيّ قدس سره: «اعلم أنَّ في الإنسان - إن لم نقل في كلّ موجود - حبّاً فطريّاً للكمال المطلق، وللوصول إلى الكمال المطلق، وهذا الحبُّ ممّا يستحيل أن يفارق الإنسان تماماً، كما أنَّ الكمال المطلق محال أن يتكرّر، أو أن يكون اثنين، فالكمال المطلق هو الحقُّ جلَّ وعلا، والجميع يبحثون عنه، وإليه تهفو قلوبهم ولا يعلمون، فهم محجوبون بحجب الظّلمة والنّور؛ لذا فهم يتوهَّمون أنَّهم يطلبون شيئاً آخر غيره؛ ولذا تراهم لا يقنعون بتحقيق أيّة مرتبة من الكمال، ولا بالحصول على أيّ جمال أو قدرة أو مكانة؛ فهم يشعرون أنَّهم لا يجدون في كلّ ذلك ضالّتهم المنشودة، فالمقتدرون ومن يمتلكون القدرة الكبرى هم في سعي دائم للحصول على القدرة الأعلى مهما بلغوا من القدرة...

---

(١) الإمام الخمينيّ، آداب الصّلاة: ١٨٣.

ولو أُعطِيَ السّاعون إلى القدرة والسّلطة، التّصرّف في جميع العالم المادّيّ من الأرضين، والمنظومات الشّمسيّة والمجرّات، بل وكلّ ما هو فوقها، ثمَّ قيل لهم: إنَّ هناك قدرةً فوق هذه القدرة الَّتي تملكونها، أو أنَّ هناك عالماً أو عوالم أخرى فوق هذا العالم، فهل تريدون الوصول إليها؟ فإنَّهم من المحال أن لا يتمنّون ذلك، بل إنَّهم من المحتّم أن يقولوا بلسان الفطرة: ليتنا بلغنا ذلك أيضاً!»[1].

إذن كلُّ متوجّه إلى نقطة يرى أنَّها تمثّل الكمال، أو يعتقد أنّها كمال، أو تحقّق له الكمال؛ فطالب الدُّنيا يرى أنَّ الجاه، والسُّمعة، والشّهرة تحقّق له الكمال، فيعشقها ويتوجّه إليها، والمنهوم بجمع الأموال يرى أنَّه يحقّق له الكمال، حتّى الطّاغية السّفّاح يرى في سفك الدّماء تحقيق الغلبة والانتصار، وفيه ينال الكمال وهكذا، ولو ترك الإنسان على فطرته الَّتي فطره الله عليها لما توجّه إلى غيره، ولكنّ تلوّث فطرته هو السَّبب في تغيّر نظرته إلى مفهوم الكمال؛ ولذا نرى أنَّ الإنسان المؤمن سليم الفطرة يرى أنَّ في التّوجّه إلى فاطر السَّماوات والأرض نقطة الكمال، وإدراك الجمال، وتلك هي الحقيقة بعينها...

ولأجل أن يتحقّق المطلوب من ذلك لا بدّ من آداب يعرفها الإنسان، ويوحي لنفسه بها؛ ليتحقّق معنى الاستقبال، ومن هذه الآداب:

أ- أن يُفْهِمَ القلب أنَّه لا كمال ولا كامل في جميع دار الدُّنيا إلا ذات الله المقدّسة الكاملة على الإطلاق؛ فإذا ترسَّخ هذا الفهم في ذهن الإنسان، ثمَّ انساب من ذهنه إلى قلبه تحقّق فيه الوعي الإيمانيّ الَّذي لا يدع للمرء مجالاً إلا أن يتوجّه إلى الله؛ لأنَّ الكمال المطلق لا يوجد إلا في الذّات الإلهيّة المقدّسة، وهذا الوعي لا يتكرس في قلب الإنسان إلا إذا بذل جهده في كسب المعارف الإلهيّة بتجرّد

(١) الإمام الخمينيّ، موعد اللّقاء: ٨٠-٨١.

وإخلاص لله، وتحرّر من ضغوط الأهواء والشّهوات، وتطهّر من أدران الذّنوب، وتخلّق بمعالي الأخلاق، وتمرّد على العادات المنافية لأحكام الاسلام، وتعالى على الرّغبات الدّانية، وسفاسف الأمور وصغائرها، ولم تغرّه زخارف الدُّنيا، وتَقَلُّب الطُّغاة فيها؛ ومما لا شكَّ فيه أن هذه الأمور تتطلّب جهوداً مضاعفة في تطهير النَّفس، وتزكيتها، وإعدادها، وتقويمها، وتربيتها وفق منهج التّوحيد الإلهي بالصَّبر، والمصابرة، والتّمرين، والمعاناة، وكلُّ ذلك لا يتحقّق إلا بالتّأسّي بأكمل البشريّة على الإطلاق سيّد رسل الله محمّد صلى الله عليه وآله: «**فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ صلى الله عليه وآله، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى، وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ**»(١).

ب- أَنَ يوقن أنَّ كلّ العالَم سائر نحو نهايته متحوّلاً من عالم إلى عالم آخر، وبالتّالي فهو فانٍ ومتلاشٍ، ولا يبقى إلا وجه الله تبارك وتعالى، وأنَّ الإنسان كادحٌ إلى ربّه، وملاقيه، مهما عاش في هذه الدُّنيا فهو راحل عنها، وراجع إلى ربّه، ومحاسب على أعماله، ولن يعزب من أعماله عن الله مثقال ذرة، فإذا عاش الإنسانُ المؤمن هذه العقائد بوعي، وصدق، وإيمان، وترسَّخت في قلبه فإنَّها ستصبح حاضرة في كلّ كيانه حينما يقف في محرابه مستقبلاً بيت الله الحرام، متوجّهاً إلى فاطر السّماوات والأرض، منقطعاً عمّا سواه، متضرّعاً إليه، خاشعاً بين يديه راجياً قبوله في حضرة قدسه تبارك وتعالى، فإذا عاش هذه المشاعر بصدق وإخلاص فسيُقْبِل بكلّه إلى الله، وحينئذٍ يرزقه الله الخشوع، والخضوع، والسَّكينة، والخوف، والخشية في موقفه هذا.

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حضر وقت الصّلاة انقطع عن كلّ ما حوله

---

(١) نهج البلاغة: ٢٥٨، خطبة: ١٦٠.

مهما كان؛ فقد رُوِيَ عن عائشة زوج أنَّها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحدّثنا، ونحدّثه، فإذا حضرت الصَّلاة فكأنَّه لم يعرفنا، ولم نعرفه»(١).

وكان عليٌّ عليه السلام إذا حضر وقت الصَّلاة يتململ، ويتزلزل، ويتلوّن وجهه، فقيل له: «ما لَكَ يا أَميرَ الْمُؤْمنينَ؟» فقال: **«جاءَ وَقْتُ أَمانَة عَرَضَها اللهُ عَلى السَّماوات وَالأَرْضِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها، وأَشْفَقْنَ منها، وحَمَلْتُها»**(٢).

ويروى عن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنَّه كان إذا توضّأ اصفرّ لونه، فيقول له أهله: «ما هذا الَّذي يعتريك عند الوضوء؟» فيقول: **«أَتَدْرونَ بَيْنَ يَدَي مَنْ أَقومُ؟»**(٣).

«وكلّ ذلك إشارة إلى استحضار عظمة الله تعالى، والالتفات إليه حال العبادة، والانقطاع عن غيره»(٤).

ولنرجع إلى الحديث المتقدّم؛ لنستلهم منه الآداب الرّوحيّة للاستقبال، وقد أشار إلى خمس حقائق كلّها تتعلّق بالقلب:

١- **«إذا اسْتَقْبَلْتَ الْقِبْلَةَ فَآيِسْ مِنَ الدُّنْيا، وَما فيها، وَالْخَلْقِ وَما هُمْ فيه»**:

حين يقف المصلّي بين يدي جبّار السَّماوات والأرض، فلا بدَّ أن يوحي لنفسه بعظمة الموقف، ورهبته في محضر القدس الأعظم، فليس هناك موقف

---

(١) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ١/١٥٠؛ وعدّة الدّاعي لابن فهد الحلّيّ: ١٨٦؛ وموسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ٢/١٢٠.

(٢) إحياء علوم الدّين: ١/١٥١؛ وموسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ٢/١٢٠.

(٣) المصدران السّابقان أنفسهما.

(٤) موسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ٢/١٢٠.

أعظم، ولا أخطر من هذا الموقف بين يدي من خلقه، وسوّاه، وعدّله في أيّ صورة ما شاء ركَّبه، والَّذي بيده حياته وموته، ونفعه وضره، وحسابه وحشره ونشره؛ فإذا استحضر المصلّي هذه الحقائق العقديّة بيقين ووعي إيماني صادق لا بدَّ أن يقطع أمله ورجاءه عن الدُّنيا، ولا يأمل العون والمدد من أحد، وأن يعمّق في نفسه أنَّ الحياة والموت والغنى والفقر والسّعة والضّيق بيد الواحد الأحد، لا يملكها أحد سواه، ولا كاشف للضُّرّ غيره، ولا جالب للرَّحمة سواه.

وفي طرح هذه المفاهيم لفهمها، ووعيها، وتطبيقها يريد الإسلام أن يطهّر قلوبنا من الشّرك الخفيّ، وهو الاعتماد على الخلق دون الخالق الَّذي هو الشّرك الحقيقيّ إذا كان بشعور استقلاليّ عن الله؛ فعن مالك بن عطيّة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾[1]، قال: «**هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلا فُلانٌ لَهَلَكْتُ، وَلَوْلا فُلانٌ لأَصَبْتُ كَذا وَكَذا، وَلَوْلا فُلانٌ لَضاعَ عِيالي، أَلا تَرى أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ للهِ شَرِيكاً في مُلْكِه يَرْزُقُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ؟**» قال: «قُلْتُ: فيقول: لولا أن مَن الله عليَّ بفلان لهلكْتُ؟، قال: **نَعَمْ، لا بَأْسَ بِهذا**»[2].

وقد يقع الإنسان في هذا من حيث لا يشعر به؛ لأنَّه أخفى من دبيب النَّمل في اللَّيلة الظَّلماء على الصَّخرة السّوداء، وقد ورد في الحديث الشَّريف: «**الشِّرْكُ أَخْفى في هذِهِ الأُمَّةِ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْداءِ عَلى الصَّخْرَةِ الصَّمّاءِ في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ**»[3].

وورد عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّه سُئِلَ عن قول

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) العيّاشيّ، التّفسير: ٢/٣٧٤، ح/٢١٦٩؛ وعدّة الدّاعي: ١٢١.

(٣) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ٨/١٠٨٤.

النّبيّ ﷺ: **إنَّ الشِّرْكَ أَخْفى منْ دَبيب النَّمْل على صَفاة سَوْداءَ في لَيْلَة ظَلْماءَ**، قال: **كانَ الْمُؤْمنونَ يَسُبّونَ ما يَعْبُدُ الْمُشْركونَ منْ دون الله، فَكانَ الْمُشْركونَ يَسُبّونَ ما يَعْبُدُ الْمُؤْمنونَ، فَنَهى اللهُ عَنْ سَبِّ آلهتهمْ؛ لكَيْلا يَسُبُّ الْكُفّارُ إلهَ الْمُؤْمنينَ، فَيكونَ الْمُؤْمنونَ قَدْ أَشْرَكوا بالله منْ حَيْثُ لا يَعْلَمونَ، فَقالَ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**[1]»[2].

ولعلَّ هذا نوعٌ من الرّياءّ الخفّيّ؛ فقد لا يشعر السّابّ لإله الكفّار به من حيث عدم التّأمّل في دافعه لهذا السَّبّ، وما يتمخّض عنه من ردود فعل معاكسة تمسّ جوهر العقيدة الإسلاميّة من خلال سبّ الكافرين لله تعالى، وفي رواية أخرى عن عبّاس بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلتُ: إنَّ هؤلاء العوامّ يزعمون أنَّ الشّرك أخفى من دبيب النّمل في اللّيلة الظّلماء على المسح الأسود، فقال: **لا يَكونُ الْعَبْدُ مُشْركاً حَتّى يُصَلِّي لغَيْر الله، أَوْ يَذْبَحَ لغَيْر الله، أَوْ يَدْعُو لغَيْر الله عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

ولعلَّ الإمام عليه السلام أراد أن يزيل بعض حالات الوهم أو التّوهّم الّتي يقع بها بعض المتحرّجين والمتشدّدين.

## ٢- «وفَرِّغْ قَلْبَكَ عَنْ كُلِّ شاغلٍ يَشْغَلُكَ عَن الله تَعالى»:

إنَّ حضور القلب هو الرّكن الأساسي الّذي تتقوّم به العبادة، وما لم يكن الإنسان متوجّهاً بقلبه إلى الحضرة القدسيّة لا يمكن أن تكون عبادته مقبولة.

ومعنى حضور القلب: هو التّوجّه التّامّ بكلّ الحواسّ، والمشاعر،

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

(٢) تفسير القمّيّ: ١/٣١٤.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١/١٣٦-١٣٧.

والأحاسيس إلى نقطة مركزيّة خاصّة، والانصراف الكامل عن كلّ ما سواها، بحيث يصل المتوجّه إلى حالة نفسيّة لا يجري فكره في غير المقام المتلبّس به، والأساس فيه هو صرف الهمّة إلى مطلبه الَّذي يبتغيه، ويروم الوصول إليه، فإذا هَمَّ الإنسانُ بعزم وصدق، وإرادة خالصة، لامتثال أمر الله في طاعته وعبادته متجرّداً من أيّ مطلب من المطالب الدّنيويّة، فإنَّ قلبه ينصرف إلى ذلك المطلب.

وهذه المهمّة تتقوّم «بالعلم العقليّ البرهانيّ أوّلاً، وبالإيمان القلبيّ ثانياً»، ولا بدّ من تقارن الأمرين: العلم، والإيمان على نحو طوليّ، وينتج استفراغ القلب وحضوره من الشّواغل الدّنيويّة فَهْم المقام الّذي هو فيه، وحينئذٍ تنصرف جميع الخواطر المانعة عن الله تعالى، ويتوجّه القلب إلى عزّ مقام الرّبوبيّة، فحينئذٍ يستشعر بذلّ العبوديّة لله فيخشع، ويخضع، ويرقّ، ويلين، وينشرح الصّدر لله، فيفيض الله عليه الرَّحمة والرّضوان، والقبول للحضور بين يديّ الله، وبهذا الفهم يرتفع المؤمن إلى مستوى الوعي الإلهي وهو عبارة عن انسياب الفكرة من عالم العقل إلى عالم القلب، وبعبارة أخرى امتزاج الفكر بالعاطفة، ليتولّد منها الإحساس بالهيمنة الإلهيّة في كلّ حركة وسكنة بل ونَفَسٍ، حتّى يصبح لا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله، وبعده، وفيه، وهذا هو الَّذي يحقّق التَّعظيم لمقام الرّبوبيّة، وهي حالة تتولّد في القلب من معرفتين:

أ- معرفة جلال الله وعظمته.

ب- معرفة حقارة النَّفس وخسّتها.

وبالجملة أنَّ تفريغ القلب يتمّ بأمرين: سبب خارجيّ، وطريقه الحواسّ الخمس، فلا بدّ من تهيئة الأسباب لحصرها في مقامها المتلبّسة بها، وسبب باطنيّ وهو قطع الخواطر الّتي ترد إلى القلب، ولحضور القلب في الصَّلاة أهمّيّة عظمى؛

لأنّه لا قيمة للصّلاة من دونه، وقد أكّدت الأحاديث الشّريفة على ذلك بشدّة؛ فعن الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّما لكَ منْ صَلاتكَ ما أَقْبلْتَ عَلَيْه بقَلْبكَ**»[١].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لا تَجْتَمعُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ في قَلْب إلا وَجَبَتْ لَهُ الْجنَّةُ، فَإذا صَلَّيْتَ فَأَقْبلْ بقَلْبكَ عَلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّهُ لَيْسَ منْ عَبْد مُؤْمن يُقْبلُ بقَلْبه عَلى الله عَزَّ وجَلَّ في صَلاته ودُعائه إلا أَقْبَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْه بقُلوب الْمُؤْمنينَ إلَيْه، وَأَيَّدَهُ مع مَودَّتهمْ إيّاهُ بالْجنَّة**»[٢].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**إذا أَحْرَمْتَ في الصَّلاة فَأَقْبلْ عَلَيْها، فَإنَّكَ إذا أَقْبَلْتَ أَقْبَلَ اللهُ عَلَيْك، وَإذا أَعْرَضْتَ أَعْرَضَ اللهُ عَنْكَ، فَرُبَّما لَمْ يُرْفَعْ منَ الصَّلاة إلا النِّصْفُ أَو الثُّلْثُ أَو الرُّبْعُ أَو السُّدْس، عَلى قَدر إقْبال الْمُصَلّي عَلى صَلاته، وَلا يُعْطي اللهُ الْقَلْبَ الْغافلَ شَيْئاً**»[٣].

وهذا المطلب من أسمى أماني العارفين بالله، بل هو أمنية الكُمَّل من أولياء الله، بل أكمل أولياء الله تجدهم يتضرَّعون، ويتوسَّلون بالله في منتهى الضَّراعة والخشوع؛ ليحقّق الله لهم ذلك، ولنستمع لسيّد السّاجدين وزين العابدين عليه السلام في دعائه وضراعته في ذلك:

«**اللّهُمَّ، صلِّ على مُحَمَّد وآله، وَفَرِّغْ قَلْبي لمَحَبَّتكَ، وَاشْغَلْهُ بذكْرك، وَأَنْعشْهُ بخَوْفكَ، وَبالْوَجَل منْكَ، وَقَوِّه بالرَّغْبَة إلَيْكَ، وَأَمِلْهُ إلى طاعَتك، وَأَجْرِ به في أَحَبِّ السُّبُل إلَيْكَ، وَذَلِّلْهُ بالرَّغْبَة فيما عنْدَكَ أَيّامَ حَياتي**

(١) موسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ٢/١٠٢؛ وينظر: الكافي لثقة الإسلام الكلينيّ: ٢٩٣/٦، ح/٥٢٠١.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٢٠٩/١، ح/٦٣٢.

(٣) القاضي النّعمان، دعائم الإسلام: ١٥٨/١-١٥٩.

**كلِّها**»[١].

ونستوحي من هذا الدّعاء الشَّريف أنَّ تفريغ القلب لمحبّة الله تعالى هو المنطلق الأساسيّ لحصول حالات نفسيّة وفكريّة وأخلاقيّة وروحيّة تقرّب العبد المؤمن إلى الله أكثر؛ لأنَّ تفريغ القلب هو السَّبيل لانشغاله بذكر الله، ولا شكَّ أنَّ القلب إذا انشغل بذكر الله انصرف عمّا سواه، وهذه أسمى أماني العارفين، ثمَّ إنَّ هذا الانصراف إلى الله ينعش القلب، ويعمّق فيه الخوف، والوجل، والخشية، ويشعره بالقصور والتَّقصير في أداء حقوق الله في طاعته وعبادته مهما بذل من جهودٍ وجهادٍ وتفانٍ في أقصى حالات التَّسليم والانقياد والتّوجّه، والمعاناة، والإخلاص، وقد صوَّر لنا الإمام السّجّاد عليه السلام هذه الحالة في دعائه مناجياً ربّه:

«**يا إلَهي، لَوْ بَكَيْتُ إلَيْكَ حَتّى تَسْقُطَ أَشْفارُ عَيْنَيَّ، وَانْتَحَبْتُ حَتّى يَنْقَطِعَ صَوْتي، وَقُمْتُ لَكَ حَتّى تَتَنَشَّرَ قَدَماي، ورَكَعْتُ لَكَ حَتّى يَنْخَلِعَ صُلْبي، وَسَجَدْتُ لَكَ حَتّى تَتَفَقَّأَ حَدَقَتايَ، وأَكَلْتُ تُرابَ الأَرْضِ طولَ عُمْري، وَشَرِبْتُ ماءَ الرَّمادِ آخِرَ دَهْري، وَذَكَرْتُكَ في خلال ذلكَ حَتّى يَكِلَّ لِساني، ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفي إلَى آفاقِ السَّماءِ اسْتِحْياءً مِنْكَ، ما اسْتَوْجَبْتُ بِذلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ واحِدَةٍ مِنْ سَيِّئاتي**»[٢].

وهكذا بتفريغ القلب تتولّد القوّة فيه بالرّغبة في عبادة الله تعالى، فيميل الرّاغب إلى طاعة الله، ويجري في أحبّ السُّبل، ويتحرّى مرضاة الله في كلّ عمل يحبّه الله إلى أن تصبح الطّاعة لله طبعاً يعيشه الإنسان أين ما كان، وفي أيّة حالة

(١) الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ٩١، دعاء: ٢١، دعاؤه إذا أحزنه أمر.

(٢) المصدر نفسه: ٧٠، دعاء: ١٦، دعاؤه في الاستقالة.

كان، يستشعر معيّة الله، وحضوره، وهيمنته، ورقابته، فلا تشغله عن الله تجارة، ولا بيع، ولا مال، ولا ولد، فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله، وبعده، وفيه، تلك بعض آثار حضور القلب، وتفريغه لله تعالى.

### ٣- «وَعايِنْ بِسِرِّكَ عَظَمَةَ الله عَزَّ وَجَلَّ»:

لعلَّ المقصود بالمعاينة هذه هي التّفكّر في آيات الله الأنفسيّة والآفاقيّة بما تنطوي عليه من أسرار وحقائق تفتح أبواب المعارف الإلهيّة للإنسان؛ لتهديه إلى معرفة سرّ وجوده وعلّة إيجاده، وترسّخ في نفسه مسؤوليّته أمام الله، وهذا التّفكير مرحلة متأخّرة عن الإيمان بوجود الله، وكماله، ولطفه، ورحمته؛ فهي حالة تضع الكادح إلى الله على سلّم التّكامل والعروج إلى الله، وتعمّق في نفسه الشّوق والتّطلّع إلى المزيد من المعارف الّتي تكرّس في وجدانه الحبّ، والخوف، والخشية، والرَّجاء، وبذلك تتولّد التّقوى بأرفع مراتبها، وبها ينال الإنسان كرامة الدُّنيا والآخرة، وهكذا تحصل المعرفة من خلال معاينة عظمة الله في آياته الأنفسيّة والآفاقيّة المبثوثة في كتاب التّكوين، وكتاب التّدوين، وعلى هذا أكّد القرآن في كثير من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

(١) الطّارق: ٥-٧.

**﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾**(١).

هذه الآيات الكريمة كلّها هي من الآيات الأنفسيّة الّتي تؤشّر إلى ما في نفس الإنسان من أسرار تتجلّى فيها عظمة الخالق عزَّ وجلَّ، وصدق من قال: «الحمد لله الّذي تجلّى لخلقه بخلقه»(٢).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لَقَدْ تَجَلّى اللهُ لخَلْقِه في كَلامِه، ولَكنَّهُمْ لا يُبْصِرونَ**»(٣).

وأمّا الآيات الآفاقيّة فتتجلّى فيها عظمة الله بمجرّد أن يلتفت الإنسان إلى ما يحيط به من عجائب خلق الله في جميع الآفاق الكونيّة ممّا لا يمكن للإنسان أن يحيط بها؛ لأنَّه كلّما اكتشف حقيقة انفتحت أمام ناظريه ملايين الحقائق؛ ولهذا نرى أنَّ المفكّرين، والفلاسفة، وعلماء الطَّبيعة لا زالوا يكدحون منذ ملايين السّنين، ولم يكتشفوا إلا النَّزر القليل.

وقد جاء الحث متواصلاً في القرآن الكريم على التّفكّر في الآفاق الكونيّة، يقول تبارك وتعالى: **﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾**(٤).

**﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾**(٥).

---

(١) الرّوم: ٢٠-٢٣.

(٢) الذّهبيّ، تاريخ الإسلام: ٥٢٥/١٨.

(٣) موسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ١٤٩/٢.

(٤) آل عمران: ١٩١.

(٥) الرّوم: ٢٤.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وآيات الآفاق الكونيّة كثيرة ليس لها عدٌّ، ففي كلّ مخلوق من الذَّرّة إلى المجرّة آية، ومن هنا ينبغي لمن أراد أن يعاين بسرّه عظمة الخالق أن يديم التَّفكير والتّأمّل في الكون الفسيح؛ ليقف في محراب عبادته خاشعاً خاضعاً متضرّعاً لربّ العزّة والجلال؛ ليرى آيات الله في خلقه.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٣).

«فآيات الآفاق تشمل خلق الشَّمس والقمر والنّجوم والنّظام الدَّقيق الّذي يحكمها، و خلق أنواع الأحياء والنَّباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تعدّ ولا تحصى، و ما في عالم الأحياء من عجائب لا تنتهي، إنّ كلّ هذه الآيات هي دليل على التّوحيد و على وجود الله»(٤).

٤- «وَاذْكُرْ وقوفَكَ بيْنَ يدَيْه... يوْمَ ﴿ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾»:

---

(١) الرّوم: ٤٦.

(٢) يونس: ١٠١.

(٣) فصّلت: ٥٣.

(٤) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٠٩/١٥.

إنَّ استحضار الموقف بين يدي الله بإيمان ووعي وصدق وإخلاص يفتح القلب، ويوجّهه إلى الله، ويرهف الشّعور، ويذكّر بعظمة الموقف ورهبته، فيتعمّق الوعي والإيمان بالمعاد، وحينئذ يشعر الإنسان بهزالة نفسه، وقلّة أعماله الصّالحة مهما عمل من أعمال الخير، فيتوجّه إلى الله بذلّ، وضراعة، وخشوع، وصغار.. ومن فوائد هذا الشُّعور إذا اعتاده الإنسان في الصّلاة وغيرها الارتداع عن الوقوع في المعاصي والآثام، والثَّبات في المواقف الصَّعبة العسيرة، وخير مثال لذلك موقف سحرة فرعون حين قال لهم: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، فماذا كان موقفهم، وهم يعلمون أنّ فرعون يفعل ما يقول؟

لقد كان ردُّهم حاسماً قاطعاً قاطعيّة الإيمان: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[2]، و﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾[3].

فاستحضار رهبة الموقف بين يدي الله يحطّم الأرقام القياسيّة كلّها في المواقف الصعبة المستصعبة، ويرزق الله فيه عباده روح التّحدّي والصّبر والثّبات والاستقامة والنّصر وخلود الذّكر الحسن والسّعادة الدّائمة في دار رحمة الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ١٢٤.

(٢) طه: ٧٢.

(٣) الشّعراء: ٥٠.

(٤) فصّلت: ٣٠.

٥- «وَقِفْ على قَدَمِ الْخَوْفِ وَالرَّجاءِ»:

الخوف والرّجاء مفهومان نفسيّان متخالفان ينتابان الإنسان في حالات معيّنة، فبينما الخوف توقّع مكروه يصيب الإنسان في المستقبل، فالرّجاء على خلافه يجعل الإنسان يأمل حصول أمر محبوب ومرضيّ لنفسه، وحين يقف الإنسان بين هاتين الحالتين حينئذٍ يعيش بين أمل يلوح ويبرق له من بعيد، وبين ألم يتوقّع حدوثه؛ هذا في الأمور الدّنيويّة؛ ولهذا نرى أنّ الانسان يحاول أن يوازن بين الأمرين؛ ليحافظ على توازنه واعتداله؛ لئلا تختلّ أمور دنياه.

أمّا الخوف والرَّجاء بين يدي الله تعالى فيختلف من حيث الموقف كاختلاف الوقوف بين يدي إنسان محدود القدرات والإمكانات، وبين الوقوف بين يدي واجب الوجود ربّ العزّة والجلال الَّذي ليس كمثله شيء، ولا يحيط به شيء، ولا يخفى عليه شيء يعلم سرائر النُّفوس، وما توسوس به، ومن هنا يختلف الخوف والخشية من الله عن الخوف من المخلوق المحدود القدرات والبقاء، والرّجاء؛ كذلك فالخوف من الله يتناسب تناسباً طرديّاً مع مستوى معرفة الإنسان بالله، وإيمانه به تعالى، فكلّما توسَّعت معرفة الإنسان بالله، وازداد إيمانه به تعالى وباليوم الآخر ازداد خوفه؛ ولهذا ترى الأبرار من أولياء الله يتعاظم إيمانهم، ويشتدّ كلّما ازدادوا عملاً في سبيله، وتقرّباً إليه تعالى، وذابوا في حبّه، ورغم ذلك يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى أنّهم يتوسّلون إلى الله تعالى؛ ليضاعف خشيتهم منه تعالى كما في دعاء عرفة لسيّد الشُّهداء عليه السلام حيث قال: «**اللّهمَّ،**

(١) الإنسان: ١٠.

**اجْعَلْني أَخْشاكَ كَأَنّي أَراكَ، وأَسْعدْني بتَقْواكَ، ولَا تُشْقني بمَعْصيَتكَ»**(١).

وفي دعاء الإمام السَّجّاد عليه السلام: «**اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وارْزُقْني خَوْفَ غَمِّ الْوَعيد، وَشَوْقَ ثَوابِ الْمَوْعود، حَتّى أَجِدَ لَذَّةَ ما أَدْعوكَ لَهُ، وَكَآبَةَ ما أَسْتَجيرُ بكَ منْهُ**»(٢).

ثمّ لا بدَّ أن نشير إلى حقيقة مهمّة، وهي ضرورة التّوازن والتّساوي بين الخوف والرّجاء في سير المؤمن وسلوكه إلى الله عزَّ وجلّ، فلا بدّ أن يتعادلا، فلا يرجح أحدهما على الآخر أبداً؛ لأنَّه إن رجح الخوف على الرَّجاء أصاب السّالك القنوط واليأس، وإن رجح الرّجاء على الخوف أصابه الغرور والعجب، ومن هنا أكَّد القرآن الكريم على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ **ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾(٣).

﴿ **وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** ﴾(٤).

﴿ **وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ** ﴾(٥).

﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾(٦).

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢١٨/٩٨-٢١٩.

(٢) الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ٩٥، دعاء: ٢٢، دعاؤه عند الشّدّة.

(٣) الأعراف: ٥٥.

(٤) الأعراف: ٢٠٥.

(٥) الأنبياء: ٩٠.

(٦) السّجدة: ١٦.

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

فترى في جميع هذه الآيات اقترن الخوف مع الرَّجاء، فالتلازم والتوازن إذن بين الخوف والرّجاء أمر لا محيد عنه لبناء الشَّخصيّة الإيمانيّة المتوازنة في كدحها إلى الله، وعلى هذا المسار جاءت الأحاديث الشَّريفة مؤكّدة لذلك؛ فعَن الْحارث بْن الْمُغيرة أَوْ أَبيه، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «قُلْتُ لَهُ: ما كانَ في وَصيَّة لُقْمانَ؟ قالَ: **كانَ فيهَا الأَعاجيبُ، وكانَ أَعْجَبَ ما كانَ فيها أَنْ قالَ لابْنه: خَفِ اللهَ - عزَّ وَجلَّ - خيفَةً لَوْ جئْتَه ببرِّ الثَّقَلَيْن لَعَذَّبَك، وارْجُ اللهَ رَجاءً لَوْ جئْتَه بذُنوب الثَّقَلَيْن لَرحمَكَ**، ثُمَّ قالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: **كانَ أَبي يَقولُ: إنَّه لَيْسَ منْ عَبْد مُؤْمن إلا وفي قَلْبه نُوران نورُ خيفَة، ونَورُ رَجاء، لَوْ وُزنَ هذا لَمْ يَزدْ عَلى هَذا، ولَوْ وُزنَ هذا لَمْ يزدْ عَلى هَذا**»(٢).

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**الْمُؤْمنُ بيْنَ خَوْفَيْن: خَوْف ما مَضى، وَخَوْف ما بَقي، وَبمَوْت النَّفْس يَكونُ حياةُ الْقَلْب، وبحَياة الْقَلْب الْبلوغُ إلى الاسْتقامَة، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ عَلى ميزان الْخَوْف وَالرَّجاء لا يَضلُّ ويَصلُ إلى مَأْموله**»(٣).

وهكذا اتّضح لنا أهمّيّة الوقوف على قدم الخوف والرَّجاء، وبالتّلازم بينهما تتوازن شخصيّة الإنسان، وتتكامل في سيرها وسلوكها وكدحها إلى الله.

وخلاصة القول: إنَّ الاستقبال في الصَّلاة يكتمل للإنسان إذا يئس من الدّنيا،

---

(١) الأعراف: ٥٦.

(٢) الكافي: ٣/١٧٣-١٧٤، ح/١٥٩٩.

(٣) مصباح الشّريعة: ١٨٠-١٨١.

ولو في لحظات الانقطاع المؤقّت من خلال تلبّسه في الصّلاة، وهي لحظات تشدّه إلى الله بمقدار يأسه من الدُّنيا، وانفصاله عن زخارفها حقيقةً لا شكلاً فقط، وتفريغ القلب الرّكن الأساسيّ لحصول اليأس من الدُّنيا، وبهذا الحضور القلبيّ يعاين عظمة الله؛ ليتجلّى له الجلال والجمال، ويضعه الله على مدرجة الكمال؛ ليقف متماسكاً على قدم الخوف والرّجاء.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يُحسن وقوفنا بين يديه، ويقبلنا في حضرة قدسه، والحمد لله أوّلاً وآخراً.

# الانْحِرافُ

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾(١).

هذا دعاء حكاه الله تعالى عن عباده من أولي الألباب من الرّاسخين في العلم؛ إذ إنَّهم يعلمون أنَّ قلب الإنسان قابل للميل عن جادّة الصّواب باختياره لجهل، أو هوى، أو غفلة، أو خدعة، أو تغرير، أو ما إلى ذلك من عوامل الزّيغ والانحراف...

والنَّصُّ الكريم يوحي وينبئ عن إشفاق الدّاعين وخوفهم من الوقوع في شباك الشَّيطان، أو تسويلات النَّفس الأمّارة بالسّوء، من حيث يعلم الإنسان أو لا يعلم، «والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضّلال، وقيمة الرّؤية الواضحة بعد الغبش، قيمة الاستقامة على الدَّرب بعد الحيرة، قيمة الطّمأنينة للحقّ بعد الأرجحة، قيمة التّحرّر من العبوديّة للعبيد بالعبوديّة لله وحده، قيمة الاهتمامات الرَّفيعة الكبيرة بعد اللَّهو بالاهتمامات الصَّغيرة الحقيرة.. ويدرك أنَّ الله منحه بالإيمان كلّ هذا الزّاد.. ومن ثمّ يشفق من العودة إلى الضَّلال، كما يشفق السّائر في الدَّرب المستقيم المنير أن يعود إلى التّخبّط في التّعرّجات المظلمة، وكما يشفق من ذاق نداوة الظّلال أن يعود إلى الهجير القائظ والشّواظ! وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة، وفي

---

(١) آل عمران: ٨

طمأنينة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق شقوة الشّرود والضّلال»[١].

ومعلوم أنَّ للإنسان عدوّين؛ أحدهما داخليٌّ يحمله بين جنبيه وهو الأهواء والشّهوات، ولعلَّ هذا معنى قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**أَعْدى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ**»[٢]؛ والآخر خارجيّ يتابع الإنسان، ويرصده في مسيره إلى الله، وهو الشيطان، الَّذي حكى تعالى قوله:

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٣].

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٤].

ثمَّ إنَّ الله تعالى حذّر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذرّيّته من الوقوع في شباك الشّيطان كما في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٦].

فالإنسان إذن مهما بلغ درجة من الإيمان - إلا من عصم الله - معرَّض

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١/٥٤٤-٥٤٥.

(٢) ابن فهد الحلّيّ، عدّة الدّاعي: ٣٦٤.

(٣) الأعراف: ١٦.

(٤) ص: ٨٢-٨٣.

(٥) فاطر: ٦.

(٦) البقرة: ١٦٨-١٦٩.

للانحراف والزّيغ، ولا يصحّ له أن يأمن على نفسه، ويقول: إنّي قد بلغت درجة لا يمكن أن أميل عن خطّ الاستقامة؛ ولذلك نرى أنَّ الرّاسخين «في العلم يعرفون ضعف البشر، وكونهم عرضة للتّقلّب والنّسيان والذّهول، ويعرفون أنَّ قدرة الله فوق كلّ شيء، وعلمه لا يحاط به، وهو المحيط بكلّ شيء، فيخافون أن يستزلّوا، فيقعوا في الخطأ، والخطأ في هذا المقام قرين الخطر، وليس للإنسان بعد بذل جهده في إحكام العلم في مسائل الاعتقاد، وإحكام العمل بحسن الاهتداء إلا اللّجأ إلى الله بأن يحفظه من الزَّيغ العارض، ويهبه الثَّبات على معرفة الحقيقة، والاستقامة في الطَّريقة»[1].

ولمّا كان الأمر كذلك فينبغي للمؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى، ويتوسّل به أن يعينه على نفسه، وعلى شياطين الإنس والجنّ، وأن يثبّت إيمانه، ولنعلم أنَّنا لا يمكن أن نواصل السَّير في طريق ذات الشَّوْكة اعتماداً على أنفسنا وقوّتنا من دون استمداد العون من الله عزَّ وجلَّ، فالاستقامة على خطّ الشَّريعة الغرّاء لا بدّ لها من تسديد الله وتأييده؛ لأنَّها حركة كدح ومعاناة، لا يستمرّ فيها إلا من هذَّب نفسه، وأعانه الله عليها؛ ولهذا نجد أكمل البشريّة وأرسخها إيماناً وعلماً وعملاً الرَّسول المصطفى صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَآلِهِ رغم عصمته وطهارته كان يكرّر التَّوبة والاستغفار في اليوم واللَّيلة سبعين مرَّة؛ فعن الإمام الصَّادق عَلَيْهِالسَّلَامُ، قال: «**كانَ رَسولُ الله صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يَسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في كُلِّ يومٍ سَبْعينَ مَرَّةً، ويَتوبُ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ سَبْعين مَرَّةً**»[2].

---

(١) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ٢٣٠/٣.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣٨٠/٤، ح/٣٢٢٥.

وقد روى العامّة في كتبهم أنَّه ﷺ قال: «**إنَّه ليُغانُ**(١) **على قَلْبي؛ حتّى**

(١) قال الشّريف الرّضيّ رحمه الله في تفسير هذا الحديث: «وهذا القول مجاز، والمراد أنَّ الغمَّ يتغشّى قلبه عليه الصّلاة والسّلام حتّى يستكشف غمَّته، ويستفرج كربته بالاستغفار، فشبّه ما تغشّى قلبه من ذلك بغواشي الغيم الَّتي تستر الشَّمس، وتجلّل الأفق، والغيم والغين اسمان للسُّحاب»، المجازات النّبويّة: ٢٢٣.

وقال ابن ميثم البحرانيّ في تعليقه على الحديث هذا: «وليس ذلك المستغفر منه إلا اشتغال ذهنه بتدبير أمور الأرض، وعمارتها، واشتغاله بذلك عن الخلوة بالله، واستشراق أنوار قدسه»، شرح نهج البلاغة: ٣٨٠/٢.

وقال التّوربشتيّ: «الغين لغة في الغيم... وغيِّن على كذا، أي غطّى عليه، وقال أبو عُبَيْد في معنى الحديث: «أي يتغشّى قلبي ما يلبسه»، وقد بلغنا عن الأصمعيّ عبد الملك بن قريب أنَّه سُئِلَ عن هذا الحديث، فقال للسّائل: عن قلب من يروى هذا؟ فقال: عن قلب النّبيّ ﷺ، فقال: لو كان غير قلب النّبيّ ﷺ، لكنْتُ أفسّره لك. ولله درُّه في انتهاجه منهج الأدب، وإجلاله القلب الَّذي جعله الله موقع وحيه، ومنزل تنزيله، وبعد فإنّه مشرب سُدَّ عن أهل اللّسان مورده، وفتح لأهل السّلوك مسالكه، وأحقّ من يعرب أو يعبّر عنه مشايخ الصّوفيّة الَّذين نازل الحقّ أسرارهم ووضع الذّكر عنهم أوزارهم، ونحن بالنّور المقتبس من مشكاتهم نذهب في الوقوف عليه مذهبين: أحدهما أن نقول: لمّا كان قلب النّبيّ ﷺ أتمَّ القلوب صفاءً، وأكثرها ضياءً، وأعرقها عرفاناً، وكان معنيّاً مع ذلك بتشريع الملّة، وتأسيس السُّنَّة ميسّراً غير معسّر، لم يكن له بدٌّ من النُّزول إلى الأخصّ، والالتفات إلى حظوظ النَّفس، مع ما كان ممتحناً به من أحكام البشريّة، فكان إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرع كُدورتها إلى القلب لكمال رقّته، وفرط نورانيّته، فإنَّ الشَّيء كلّما كان أرقّ وأصفى كان ورود التّأثيرات عليه أبين وأهدى، وكان ﷺ إذا أحسَّ بشيء من ذلك عدَّه على النَّفس ذنباً فاستغفر منه، ولهذا المعنى كان استغفاره عند خروجه من الخلاء فيقول غفرانك. والآخر أن نقول: إنَّ الله تعالى كما فناه عن العالمين، أراد أن يبقيه لهم لينتفعوا به؛ فإنَّه ﷺ لو ترك وما هو عليه وفيه من الحضور والتّجلّيات الإلهيّة لم يكن ليتفرّغ لتعريف الجاحد وتعليم الجاهل، فاقتضت الحكمة الإلهيّة أن يرد إليهم الفينة بعد الفينة بنوع من الحجبة والاستتار ليكمل حظّهم فيرى ذلك من سيّئات حاله فيستغفر منه، والله أعلم»، كتاب الميّسر في شرح مصابيح السّنّة: ٥٣٩/٢-٥٤٠.

**أَسْتَغْفِرَ اللهَ مئةَ مرَّةٍ**»[١].

وكان إذا استيقظ في اللَّيل، قال: «**لا إلهَ إلا أَنْتَ، سُبْحانَكَ، اللّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لذَنْبي، وأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللّهُمَّ زدْني علْماً، ولا تُزِغْ قَلْبي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَني، وهَبْ لي منْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ**»[٢].

ولا شكَّ أن استغفاره ﷺ لم يكن عن ذنب، وإنَّما لشعوره بالتَّقصير في دائرة العصمة في عبادة الله تعالى، فهو ﷺ يشعر أنَّ معرفته رغم كمالها، وعبادته رغم مواصلتها قليلة محدودة مهما بلغت أمام عظمة الله المطلقة[٣]؛ ولذلك قال ﷺ: «**ما عَبَدْناكَ حَقَّ عبادَتكَ، وَما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرفَتكَ**»[٤]، «بناء على أن يكون المعنى – والله العالم – أنّ هذا المقدار من العبادة والمعرفة ليس عبادتك ومعرفتك مع ما أنت عليه من استحقاق المجد والثناء والمعبوديّة،

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٩٣/٢٩، ح/١٧٨٤٩؛ و٣٩١/٢٩، ح/١٧٨٤٨؛ والإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ٢١١/٣، ح/٩٣١؛ والمعجم الكبير للطّبرانيّ: ٣٠٢/١، ح/٨٨٦-٨٨٧-٨٨٨-٨٨٩.

(٢) سنن أبي داود: ٤٨٩/٢، ح/٥٠٦١.

(٣) «معنى اعترافهم عليهم السلام بالذّنب والاستغفار منه هو: إقرارهم بالتَّقصير والعجز في مقام الأداء اللائق بحقّ العبوديّة، والشُّكر لله عزَّ وجلَّ الَّذي بفضله وتفضّله الكبير وصلوا إلى ذلك المنصب الرَّفيع من العلم والإمامة والاعتصام، ونالوها منه، وأنَّه لولا لطفه سبحانه لصدر منهم ما ينافي ولا يناسب جلالة مقام القيادة الدّينيّة ورفعة قدرها، وإلى نحو هذا الموقف من خضوعهم وخشوعهم – سلام الله عليهم – لحضرة المولى المنعم لهم ذلك المقام الخطير، يشير النّبويّ المعروف: «**إلهي، ما عَبَدْناكَ حَقَّ عبادَتكَ، وَما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرفَتكَ**»، وهناك توجيهات وتأويلات أخرى لأمثال هذه الأخبار في البحار: ٢٠٩/٢٥-٢١١ وغيرها»، من هامش كتاب الزّهد للحسين بن سعيد الكوفيّ، بتحقيق غلامرضا عرفانيان: ٧٣-٧٤.

(٤) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٣/٧١.

فتأمّل»(١).

فالثَّبات والاستقامة، والهداية، والرّشاد، والتّسديد، والتّأييد، والحفظ، والعصمة من الله تعالى مقوّمات أساسيّة يستمدّها الإنسان من خلال توكّله على الله تعالى، ومن اعتمد على قواه وطاقاته فقط فإنَّه سيكون معرّضاً للضّلال والزّيغ عن الصّراط المستقيم، ونحن ندعو الله تعالى في كلّ يوم بكلام الله الَّذي علمنا إيّاه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(٢)، وفي تكرار قراءة هذا الدُّعاء ضمن فاتحة الكتاب في الصّلوات الخمسة وجوباً دلالة للتّأكيد على أهمّيّة استمداد الهداية والاستقامة على الصّراط منه تعالى، إضافةً إلى ما ورد في الكتاب الكريم من أدعية تدلّ على ذلك:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾(٣).

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٤).

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٥).

## الْعَوامِلُ الْمُؤَثِّرَةُ في انْحِرافِ الإِنْسانِ:

إنَّ العوامل الَّتي تؤدّي إلى انحراف الإنسان عن منهج الاستقامة كثيرة

---

(١) الشّيخ الاشتهارديّ، مدارك العروة: ٣٤١/١٤.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) آل عمران: ٨.

(٤) البقرة: ٢٥٠.

(٥) الأعراف: ١٢٦.

جداًّ، نذكر منها:

## أوَّلاً: عَدَمُ وُضوحِ الْهَدَفِ:

الهدفيّة في الكون مَعْلَمٌ بارز في الكون من أصغر ذرّة إلى أكبر مَجَرّة فيه، وهذا دلالة على أنَّ الله تعالى ما خلق السَّماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما لعباً، ولا لهواً بل جعل لكلّ مخلوق هدفاً معيّناً له، وسنّة يجري فيها، وحدَّد مسيرة الإنسان وأهدافه في الحياة، ولهذا لا بدّ لسالك الطَّريق إلى الله تعالى من بصيرة ووضوح في مسيرته، ولا شكَّ أن السّائر على غير هدف واضح جَليّ لا يصل إلى غايته، بل لا يزيده سرعة السّير إلا بعداً عن مراده، أمّا إذا كان «على بصيرة، وعلى بيّنة قوية، وعلى منطق صحيح صريح لا التواء فيه، ولا تعقيد» فإنَّه يصل إلى غايته الَّتي يرجوها بقدرة واستقامة وجدارة.

وتأسيساً على ذلك لا بدَّ للمؤمن من تحصيل الوضوح الكامل في سيره نحو أهدافه الرّساليّة على المستويين الفرديّ والاجتماعيّ؛ فحين يكون الهدف أمام الإنسان واضحاً وجليّاً، ويسعى إليه بجدّيّة، ورغبة، وصدق نية، فإنَّ الله تعالى يرزقه الاستقامة والثَّبات على نهجه القويم، ولا يدعه ينحرف عنه، وبخلاف ذلك عندما يكون الغبش والضّبابيّة مسيطرة على بصره فإنَّه لا بدَّ أن ينتابه الاضطراب والقلق والتّردّد، فحينئذٍ يكون معرّضاً للانحراف والسّقوط ولا سيّما وقت العسر، وتصاعد المحن، وإقبال الفتن.

إنَّ النَّفس الإنسانيّة لها طموحات واسعة، ونزعات مختلفة، فلا بدَّ من إخضاعها للهدف الأكبر الَّذي حدَّده الإسلام العظيم، وهو طلب رضوان الله

تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[(١)].

وهذا الهدف أعني نيل رضوان الله تعالى بالطّاعة والامتثال، تنطوي تحته جميع الأهداف الأخرى سواء كانت تربويّة، أو سياسيّة، أو اجتماعيّة... نعم، إذا استقامت نيّة الإنسان على أداء الواجب خالصةً لله تعالى، امتثالاً وطاعةً، فلا يمكن أن ينحرف ما دام كذلك؛ ومن هنا يجب على الإنسان أن ينظر دائماً وأبداً إلى دوافعه، ويزنها بميزان الله تعالى؛ ليرى هل دوافعه لله تعالى، أو لنفسه، وأهوائه، ومصالحه؛ أم يكون انشداده دائماً لرسالته تعالى، وتحرّكه في سبيله.

وهذا يتحقّق حين يضع الإنسان دوافعه تحت مجهر المراقبة الدّائمة، فيرزقه الله واعظاً من نفسه لنفسه، وهذه الحالة هي أعظم صمّام للأمان من خطورة الانحراف عن المنهج الإلهيّ، وفي هذا المسلك جاء عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ كانَ لَهُ في نَفْسه واعظٌ، كانَ عَلَيْه من اللهِ حافظٌ**»[(٢)].

وعنه عليه السلام: «**مَنْ كانَ لَه منْ نَفْسه يَقْظَةٌ، كانَ علَيْه منَ الله حَفَظَةٌ**»[(٣)].

وعنه عليه السلام: «**واعْلَموا أنَّهُ مَنْ لَمْ يعنْ عَلى نَفْسه حَتّى يَكونَ لَهُ منْها واعظٌ وَزاجرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ منْ غَيْرها زاجرٌ وَلا واعظٌ**»[(٤)].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ منْ نَفْسه واعظاً، فَإنَّ مَواعظَ النّاسِ لَنْ تُغْنيَ عَنْهُ شيْئاً**»[(٥)].

---

(١) التّوبة: ٧٢.

(٢) بحار الأنوار: ٦٩/٧٨.

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٥، ح/٤٧٢٥.

(٤) نهج البلاغة: ١٤٧، خطبة: ٨٩.

(٥) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٩٤.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ واعظٌ منْ قَلْبه، وَزاجرٌ منْ نَفْسه، ولَمْ يَكُنْ لَهُ قَرينٌ مُرْشدٌ، اسْتَمْكَنَ عَدوُّهُ منْ عُنُقه»(١).

وبهذا المنهج الإلهيّ الَّذي يمكن أن نسمّيه منهج التَّربية الذّاتيّة تنفذ بصيرة الانسان إلى أعماق نفسه فيعرفها، وتتّضح له أهدافه، ويصبح بصيراً يعلم أين يضع أقدامه حين سَيْره لأجل تحقيقها، فهو سائر على طريق بَيّنٍ واضحٍ، وبذلك يكون متوازن الحركة في سيره لا ينحرف إلى اليمين ولا إلى اليسار.

وعدم وضوح الهدف ربّما يكون من الجهل بالعقيدة السَّليمة، أو من الجهل بأحكام الله تعالى، أو لخطأ في تلقّيهما؛ ولذلك لا بدَّ أن يعيد الإنسان دائماً نظره في معتقداته وأحكامه؛ ويعرضها على كتاب الله وسنّة رسوله، وأهل العلم المخلصين، ومعلوم أنَّ الهدف إذا اتّضح، والنّيّة قد خلصت لله، والحركة تواصلت بجدّيّة وفاعليّة انعكس ذلك على محتوى الإنسان الدّاخليّ صفاء، وشفافية، ورقّة، وعذوبة، وعزماً، وثباتاً في النَّفس، والعكس صحيح، وقد وجدنا أنَّ كثيراً ممَّن انحرفوا عن جادّة الصّواب كان بسبب ضبابية الرّؤية، وعدم وضوح الغاية الرّساليّة عندهم نتيجة التَّقليد الأعمى، أو الانتماء المصلحيّ، أو الفهم السّياسيّ المجرّد عن الوعي الدّينيّ، أو الانخداع بالعقل الجمعيّ... ولا نشكُّ أنَّ هذه الأسباب هي الأهمّ من بين العوامل الأخرى في حياة الإنسان.

## ثانياً: الخُضوعُ لفِكْرَةٍ مَخْطوءَةٍ:

إنَّ الفكرة في أغلب الأحيان هي الَّتي تقود الإنسان وتسيّره إلى ما تريد،

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٥٢٦، ح/٧١١؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٥٩/٧، ح/٣٧١٦.

ومن هنا حاول الإسلام أن يجتثّ من نفس الإنسان أفكاره المترسّبة نتيجة تأثيرات البيئة الاجتماعيّة، أو التّربية العائليّة، أو التَّقليد الأعمى، ويغرس فيها مبادئ السَّماء، ولأجل ذلك حثَّ أتباعه على التَّفكير الدّائم والتّبصّر في العقائد والأحكام والأمور الخاصّة والعامّة، ولم يجوّز للمؤمن أن يقلّد في عقائده وأصول دينه؛ لئلا يقع في اشتباهات الآخرين، ولا ينخدع في الواقع المموّه بالدّين، وقد عاب القرآن الكريم الَّذين يقلّدون آباءهم من دون وعي وتبصّر، قال تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٣).

ومن خلال هذه الآيات يتّضح لنا أنَّ من أسباب الانحراف هو تقليد الآباء من دون وعي ولا تبصّر.

وقد أكَّدت أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام على مواصلة التَّفكير، وجعلت التَّفكير السَّليم أهمّ الطّرق في تحصيل التّبصّر، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) الزّخرف: ٢٢-٢٣.

(٢) البقرة: ١٧٠.

(٣) المائدة: ١٠٤.

**«تفكُّرُكَ يُفيدُكَ الاسْتِبْصارَ، ويُكْسِبُكَ الاعْتِبارَ».**

**«رَأْسُ الاسْتِبْصارِ الْفِكْرَةُ».**

**«لا بَصيرَةَ لِمَنْ لا فِكْرَ لَهُ».**

**«دَوامُ الْفِكْرِ وَالْحَذَرِ يُؤْمِنُ ويُنْجي مِنَ الْغِيَرِ».**

**«ثَمَرَةُ الْفِكْرِ السَّلامَةُ»**[(١)].

فبالتفكير الهادف الملتزم لدى الباحث عن الحقيقة يمنح الله الإنسان الاستقلال الفكريّ، والرّؤية السَّليمة، ويقلع من نفسه جذور الأفكار السّقيمة... أمّا إذا بقيت الأفكار السَّقيمة كامنة في النّفس فإنَّ تأثيرها خطر على مستقبل الإنسان في الدُّنيا والآخرة، ولربّما تطغى وتصبح عقبة في تلقّي الأفكار السَّليمة، وقد رأينا التَّأثير السّلبيّ الكبير للخلفيّات الفكريّة على كثير من الَّذين وقعوا في انحرافات من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

قيلَ: إنَّ الحارث بن حَوْط أَتى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «أَتَرَاني أَظُنُّ أَصْحابَ الْجَمَلِ كَانوا عَلى ضَلالَةٍ؟» فَقالَ عليه السلام - وقد عرف نقطة الضَّعف عنده-: «**يَا حارِ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ**[(٢)] **فَحِرْتَ؛ إِنَّكَ لَمْ**

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٧-٥٨، ح/٥٧٦-٥٧٨-٥٨٠-٥٩٢-٥٩٩.

(٢) قال شارح النَّهج ابن ميثم البحرانيّ: «وقيل في قوله: إنّك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك: أي نظرتَ في أعمال النّاكثين من أصحاب الجمل المتمسّكين بظاهر الإسلام الَّذين هم دونك في المرتبة لبغيهم على إمام الحقّ فاغتررت بشبهتهم، واقتديتَ بهم، ولم تنظر إلى من هو فوقك، وهو إمامك الواجب الطّاعة ومن معه من المهاجرين والأنصار، ولا سمعت حكمهم بكون خصومهم على الباطل، فكان ذلك سبب حيرتك، ويحتمل أن يكون نظره تحته كناية عن نظره إلى باطل هؤلاء وشبهتهم المكتسبة عن محبّة الدنيا الَّتي هي الجنبة السّافلة، ونظره فوقه كناية عن نظره إلى الحقّ وتلقّيه من الله»، شرح نهج البلاغة: ٤٧٧/٥.

**تَعْرِف الْحَقَّ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتاه، ولَمْ تَعْرِف الْباطِلَ فتَعْرِفَ مَنْ أَتاه»**[١].

«فقد كان هذا الرّجل خاضعاً لفكرة خاطئة تلحُّ على فكره بقوّة، وهي استبعاد ضلال النّاس بمثل هذا العدد الكبير، فخُيِّل إليه أنَّ مجرّد الكثرة كافٍ في فكرة الحكم بالضّلال والباطل عليهم... ولكنَّ الإمام أجابه بالتَّركيز على المقياس الحقيقيّ للتّمييز بين الحقّ والباطل في حياة النّاس، وذلك بمعرفة طبيعة الحقّ في ملامحه الفكريّة، وطبيعة الباطل في خصائصه الذّاتيّة، بعيداً عن عنصر الكثرة والقلّة، وبذلك يستقيم له الحكم، فترتكز القناعات الفكريّة على أساس الرّؤية الواضحة المحدّدة للمبادئ الَّتي تحكم الأشياء؛ لتكون أساساً للتَّقييم في جانب القلّة والكثرة، لا على أساس النَّظر إلى طبيعة الكمّ؛ لنأخذ منها المبادئ الَّتي تحكم الحياة»[٢].

ومثالٌ آخر حدث في حياة الإمام الصّادق عليه السلام، ففي حوار أبي الصّباح الكنانيّ معه، قال لأبي عبد الله عليه السلام: «ما نَلْقى منَ النّاس فيكَ»، فَقالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: «**وما الَّذي تَلْقى من النَّاس فيَّ؟**» فَقالَ: «لا يَزالُ يكونُ بيْنَنا وبيْنَ الرَّجُلِ الْكَلامُ، فَيَقولُ: جَعْفَرِيٌّ خَبيثٌ»، فَقالَ: «**يُعيِّرُكُمُ النّاسُ بي؟**» فَقالَ لَهُ أَبو الصَّبّاح: «نَعَمْ»، فَقالَ: «**فما أَقَلَّ وَالله مَنْ يَتَّبِعُ جَعْفَراً منْكُمْ إنَّما أَصْحابي مَن اشْتَدَّ ورَعُهُ، وعَمِلَ لخالقه، ورَجا ثَوابَهُ، هؤلاء أَصْحابي**»[٣].

فهنا كذلك وقع أبو الصّباح الكنانيّ في خطأ الفكرة حيث تصوّر أنَّ عداوة النّاس له ولأمثاله؛ لأنَّه من أتباع الإمام الصّادق عليه السلام، وليس من سوء تصرّفهم،

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣١، قصار الحكم: ٢٥٣.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، خطوات على طريق الإسلام: ١١٢-١١٣.

(٣) الكافي: ١٩٧/٣، ح/١٦٣٣.

وجهل النّاس بالحقّ، فصحّح له الإمام عليه السلام تصورّه بأنّهم لو استقاموا على تعاليمه بصورة صحيحة لما واجهوا ما واجهوا من عنت النّاس وجهلهم؛ فإنَّ الأساس هو الاستقامة، «**وبالسّيرَة الْعادلَة يُقْهَرُ الْمُناوئُ**»(١).

وسأل رَجلٌ أَميرَ المَؤمنين عليه السلام، فَقال: «بماذا أسوء عدوّي؟» فقال: «**بأَنْ تَكونَ عَلى غايَة الْفَضائل، لأَنَّهُ إنْ كانَ يَسوءهُ أَنْ يَكونَ لَكَ فَرَسٌ فارهٌ، أَوْ كَلْبٌ صَيودٌ؛ فَهُوَ لأَنْ تُذْكَرَ بالْجَميل، ويُنْسَبَ إلَيْكَ أَشَدُّ مَساءَةً**»(٢).

ولعلَّ هذا ما أراده الإمام الصّادق عليه السلام بقوله: «**وَكونوا دُعاةً إلى أَنْفُسكُمْ بغَيْر أَلْسنَتكُمْ، وَكونوا زَيْناً، وَلا تَكونوا شَيْناً**»(٣).

وفي حديث آخر: «**كونوا دُعاةً للنّاس بغَيْر أَلْسنَتكُمْ؛ ليَرَوا منْكُمُ الْوَرَعَ وَالاجْتهادَ وَالصَّلاةَ وَالْخَيْرَ، فَإنَّ ذلكَ داعيَةٌ**»(٤).

وقوله عليه السلام: «**إنّا لا نَعُدُّ الرَّجُلَ مُؤْمناً حَتّى يَكونَ بجَميع أَمْرنا مُتَّبعاً مُريداً، أَلا وَإنَّ من اتّباع أَمْرنا وَإرادَته الْوَرَعَ، فَتَزَيَّنوا به، يَرْحَمْكُمُ اللهُ، وَكَبِّدوا**(٥) **أَعْداءَنا به يَنْعَشْكُمُ اللهُ**»(٦).

وخلاصة القوَل: إنَّ الفكرة المخطوءة المترسّبة في الذّهن تجعل الإنسان

---

(١) نهج البلاغة: ٥٢٢، قصار الحكم: ٢١٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥٨/٢٠.

(٣) الكافي: ١٩٨/٣-١٩٩، ح/١٦٣٦.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٢/٣، ح/١٦٤١.

(٥) كبّدوا: من كبدت الرّجل، أصبت كبده، والكَبَدَ: الشّدّة؛ وفي بعض النّسخ (كيّدوا) بالياء.

(٦) الكافي: ٢٠١/٣، ح/١٦٤٠؛ وينعشكم الله: أي يرفعكم الله، وانتعش العاثر: إذا نهض من عثرته، والمعنى: حاربوا أعداءنا بالورع لتغلبوا عليهم يرفعكم الله.

يُخضع لها بقيّة أفكاره، وتحكم عليها، وتجرّه بالنّتيجة إلى الصّدود والإعراض والتّجافي عن الحقّ، وبالتالي يقع في مستنقع الانحراف عن الحقّ.

## ثالثاً: التَّلقّي الفِكْرِيُّ غَيْرُ السَّليمِ:

قد يتلقّى الإنسان أفكاره وعقائده وأحكامه من مصادر غير سليمة، أو من أشخاص لم يعوا الإسلام جيّداً، وحينئذ ستكون النّتيجة عكس ما أراد؛ لأن النَّتيجة تتبع أخسّ المقدّمتين، وبذلك تبنى شخصيّته على أسس مهزوزة غير ثابتة، ويكون معرضاً للانهدام في أوّل مواجهة فكريّة معاكسة، أو محنة قويّة، أو مشكلة صعبة، ومن أجل ذلك حذَّرت التَّعاليم الإسلاميّة من التّلقّي من أشخاص غير مؤهّلين للعطاء الفكريّ ممّن اتَّخذوا الدّين وسيلة إلى نيل الدُّنيا، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

**«يا مَعْشَرَ شيعَتنا، والْمُنْتَحلينَ مَوَدَّتَنا، إيّاكُمْ وأَصْحابَ الرَّأْي[1]؛ فَإنَّهُمْ أَعْداءُ السُّنَن، تَفَلَّتَتْ منْهُمُ الأَحاديثُ أَنْ يَحْفَظوها، وأَعْيَتْهُمُ السُّنَّةُ أَنْ يَعوها، فَاتَّخذوا عبادَ الله خَوَلاً، ومالَهُ دُوَلاً، فَذَلَّتْ لَهُمُ الرِّقابُ، وأَطاعَهُمُ الْخَلْقُ أَشْباهُ الْكلابِ، ونازَعوا الْحَقَّ أَهْلَهُ، وتَمَثَّلوا بالأَئمَّة الصّادقينَ، وَهُمْ**

(١) أصحاب الرّأي هم الّذين يقولون في الحلال والحرام برأيهم، فيحلّون ما حرّم الله، ويحرّمون ما أحلَّ الله، فيَضلّون ويُضلّون، قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«لَوْ كانَ الدّينُ بالرَّأْي لَكانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلى بالْمَسْح منْ أَعْلاهُ»**، سنن أبي داود: ٤٤/١، ح/١٦٢؛ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إيّاكم وأرأيت وأرأيت، فإنّما هلك من كان قبلكم بأرأيت وأرأيت، ولا تقيسوا شيئاً بشيء، ﴿**فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا**﴾، وإذا سُئلَ أحدكم عمّا لا يعلم فليقل لا أعلم؛ فإنّه ثلث العلم»، المعجم الكبير للطّبرانيّ: ١٠٩/٩، ح/٨٥٥٠.

**من الْجهّال والْكفّار والْملاعين، فسئلوا عمّا لا يعْلمون، فأنفوا أنْ يعْترفوا بأنّهمْ لا يعْلمون، فعارضوا الدّين بآرائهمْ، فضلّوا وأضلّوا»**[1].

وعن عليّ بن سويد النّسائيّ، قال: «كتب إليّ أبو الحسن الأوّل، وهو في السّجن: **وأمّا ما ذكرْت يا عليّ ممّنْ تأخذ معالم دينك: لا تأْخذنّ معالم دينك عنْ غيْر شيعتنا؛ فإنّك إنْ تعدّيْتهمْ أخذْت دينك عن الْخائنين الّذين خانوا الله ورسوله، وخانوا أماناتهمْ إنّهمْ ائْتمنوا على كتاب الله جلّ وعلا، فحرّفوه وبدّلوه، فعليْهمْ لعْنة الله، ولعْنة رسوله وملائكته، ولعْنة آبائي الْكرام الْبررة، ولعْنتي، ولعْنة شيعتي إلى يوْم الْقيامة»**[2].

ففي هذين الحديثين الشّريفين دلالة واضحة على أهمّيّة التّلقّي لمعالم الدّين من أهله الصّالحين من عباد الله المخلصين الّذين استقاموا على حبّهم وولايتهم رغم ما لاقوه من محن، وما واجهوه من فتن، وفيهما تحذير صريح من التّلقّي من ذوي الآراء الفاسدة الّذين لبسوا ثوب الدّين كذباً وخداعاً، وتشبّهوا

---

(١) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٥٣، ح٢٦؛ وبحار الأنوار: ٨٤/٢ قال المحدّث المجلسيّ في تعليقه على الحديث: «قوله عليه السلام: «**الْمنْتحلين مودّتنا**» فيه تعريض بهم؛ إذ الانتحال ادّعاء أمر من غير الاتّصاف به حقيقةً، ويحتمل أن يكون المراد الّذين اتّخذوا مودّتنا نحلتهم ودينهم. قوله عليه السلام: «**تفلّتتْ منْهم الأحاديث**» أي فات وذهب منهم حفظ الأحاديث، وأعجزهم ضبط السّنّة فلم يقدروا عليه. قوله عليه السلام: «**فاتّخذوا عباد الله خولاً**» قال الجزريّ: في حديث أبي هريرة: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين كان عباد الله خولاً، أي خدما وعبيداً يعني أنّهم يستخدمونهم ويستعبدونهم. قوله عليه السلام: «**وماله دولاً**» أي يتداولونه بينهم. وقوله عليه السلام: «**أشْباه الْكلاب**» نعت للخلق. قوله عليه السلام: «**وتمثّلوا**» أي تشبّهوا بهم وادّعوا منزلتهم. قوله عليه السلام: «**فأنفوا**» أي تكبّروا واستنكفوا»، بحار الأنوار: ٨٥/٢.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّيّ): ٧/١-٨ ح/٤.

بأهل العلم الواقعيين؛ ولذلك يجب الحذر الشّديد من تلقّي معالم الدّين منهم.

وهناك طائفة أخرى من الأحاديث شخَّصت وجوب التّلقّي العلميّ من معادن العلم؛ «**فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ**»[١]، وهم أهل بيت العصمة عليهم السلام وأتباعهم من العلماء الملتزمين بمبادئهم، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**اطْلُبوا الْعِلْمَ مِنْ مَعْدَنِ الْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْوَلائِجَ**[٢]**، فَهُمُ الصَّدّادونَ عَنِ اللهِ**»، ثمَّ قال: «**ذَهَبَ الْعِلْمُ، وَبَقِيَ غُبَّراتُ**[٣] **الْعِلْمِ في أَوْعِيَةِ سوءٍ، فَاحْذَروا باطِنَها؛ فَإِنَّ في باطِنِها الْهَلاكَ، وَعَلَيْكُمْ بِظاهِرِها؛ فَإِنَّ في ظاهِرِها النَّجاةَ**»[٤].

وعن أحمد بن حاتم بن ماهويه، قال: «كتبتُ إليه – يعني أبا الحسن الثّالث عليه السلام – أسأله عمَّن آخذ معالم ديني، وكتب أخوه أيضاً بذلك، فكتب إليهما: **فَهِمْتُ ما ذَكَرْتُما، فاصْمِدا في دينِكُما عَلى كُلِّ مُسِنٍّ في حُبِّنا، وَكُلُّ كَثيرِ الْقَدَمِ في أَمْرِنا**[٥]**، فَإِنَّهُمْ كافوكُما إِنْ شاءَ اللهُ تَعالى**»[٦].

---

(١) نهج البلاغة: ٢٣٦، خطبة: ١٤٧.

(٢) «الوليجة: كلّ ما يتّخذه الإنسانُ معتمداً عليه، وليس من أهله، من قولهم فلان وليجةٌ في القوم إذا لحق بهم وليس منهم، إنساناً كان أو غيره، قال [تعالى]: ﴿**وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً**﴾ (التّوبة: ١٦)»، مفردات ألفاظ القرآن للرّاغب الأصفهانيّ: ٧٤٨، (ولج).

(٣) الغُبَّر: جمع غابر، والغُبَّرات: جمع غُبَّر، النّهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٣٣٨/٣.

(٤) بحار الأنوار: ٩٣/٢.

(٥) جاء في معنى قوله عليه السلام: «**كُلِّ مُسِنٍّ في حُبِّنا، وَكُلُّ كَثيرِ الْقَدمِ في أَمْرِنا**»: «ليس ما هو المترائي من ظاهره، بل المراد الاعتماد بمن امتحن الله قلبه بالإيمان، وكان عارفاً بما صدر عنهم» الدُّرُّ النّضيد في الاجتهاد والاحتياط والتّقليد لمحمّد حسن المرتضويّ اللنگروديّ: ١٦٦/١؛ و«يمكن أن يقال أنَّ المراد بقوله عليه السلام: «**كُلِّ مُسِنٍّ في حُبِّنا، وَكُلُّ كَثيرِ الْقَدمِ في أَمْرِنا**»: من كان الإيمان وحب الأئمّة عليهم السلام ثابتاً في قلبه بحيث صار ملكةً له، لا من كانت المحبّة غير ثابتة في قلبه»، المصدر نفسه: ٤٢٣/١.

(٦) اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّيّ): ١٦/١-١٧، ح/٧.

إذن يجب أن يكون تلقّي العلم والمعرفة من أهل الدّين العارفين به، والعاملين بأحكامه، الدّاعين إليه بسلوكهم قبل أقوالهم... ونتيجة هذا الحثّ الّذي تربّى عليه أصحاب الأئمّة عليهم السلام نجدهم دائماً يسألونهم عمَّن يأخذون دينهم فمرّة يوجّهونهم إلى الأشخاص الموثوقين عندهم كيونس بن عبد الرّحمن، وزرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وزكريا بن آدم... وغيرهم من خلّص أصحابهم؛ فعن عليّ بن المسيّب الهمدانيّ، قال: «قلْتُ للرّضا عليه السلام: شقّتي بعيدة، ولسْتُ أصل إليك في كلّ وقت، فَممَّنْ آخذ معالم ديني؟ قال: **مِنْ زَكَرِيّا بْنِ آدَمَ الْقُمِّيِّ الْمَأْمونِ عَلى الدّينِ وَالدُّنْيا**»[1].

وروى عبد العزيز بن المهتدي قال: «سألت الرضا عليه السلام فقلْتُ: إنّي لا ألقاك في كلّ وقت، فعن من آخذ معالم ديني؟ فقال: **خُذْ مِنْ يونُسَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ**»[2].

ولمّا عُرِضَ كتابُ يونس «كتاب يوم وليلة» على أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «**أَعْطاهُ اللهُ بِكُلِّ حَرْفٍ نوراً يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[3].

ومرَّة يعطونهم المقياس والميزان الّذي توزن فيه الحقائق، وتميّز الأباطيل به، وهو إرجاعهم إلى كتاب الله تعالى، وجعله المقياس الأساسيّ في قبول الكلام أو رفضه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ عَلى كُلِّ حَقٍّ حَقيقَةً، وَعَلى كُلِّ صَوابٍ نوراً، فَما وافَقَ كِتابَ اللهِ فَخُذوهُ، وَما خالَفَ كِتابَ اللهِ فَدَعوهُ**»[4].

---

(1) اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّيّ): 858/2 ح/1112.

(2) المصدر نفسه: 779/2، ح/910.

(3) رجال النّجاشيّ: 447.

(4) الكافي: 172/1، ح/203.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**خَطَبَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله بمنى، فَقال: أَيُّها النّاسُ، ما جاءَكُمْ عَنّي يُوافِقُ كِتابَ الله، فَأَنا قُلْتُهُ، وَما جاءَكُمْ يُخالِفُ كِتابَ الله، فَلَمْ أَقُلْهُ**»(١).

وبذلك يتبيّن لنا وجوب التّلقّي من أهل العلم والإيمان والعمل الصّالح والاستقامة على منهج الولاء الواعي، وأنَّ التّلقّي غير السَّليم يقود الإنسان إلى الانحراف عن الجادّة الشّرعيّة، ويدخله في مهاوي الشّيطان، والعكس صحيح.

وهكذا يجب على الإنسان فحص الفكرة الّتي يتلقّاها بدقّة، ويضعها في الميزان الشّرعيّ؛ ليعرف هل هي من الإسلام أو منسوبة إليه زوراً وبهتاناً؛ فعن عليّ بن عيسى القاسانيّ، عن أبي مسعود المسيريّ، رفعه، قال: «قال المسيح عليه السلام: **خُذوا الْحَقَّ مِنْ أَهْلِ الْباطِلِ، وَلا تَأْخُذوا الْباطِلَ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، كونوا نُقّادَ الْكَلامِ، فَكَمْ مِنْ ضَلالَةٍ زُخْرِفَتْ بِآيَةٍ مِنْ كِتابِ الله، كَما زُخْرِفَ الدِّرْهَمُ مِنْ نُحاسٍ بِالْفِضَّةِ الْمُمَوَّهَةِ، النَّظَرُ إِلى ذلكَ سَواءٌ، وَالْبُصَراءُ بِهِ خُبَراءُ**»(٢).

## رابعاً: التَّبْريرُ:

كثيراً ما يحاول الإنسان أن يحلّ التّعارض بين مفاهيمه الفكريّة والأخلاقيّة، وبين نزواته الشّخصيّة، فيقوم بالتّفتيش عن مبرّر يتجاوز فيه أحكام دينه وأصول عقائده، أو يفسّر المفاهيم والأحكام كما يحلو له، كمن يفسّر انتظار الحجّة بن الحسن عليه السلام بالقعود والرّكون إلى الرّاحة والدّعة والسّكوت عن الظُّلم طلباً للسّلامة، فيلقي الحبل على غاربه، أو كمن يفسّر الصّبر بالسُّكوت

---

(١) الكافي: ١/١٧٤، ح/٢٠٧.

(٢) البرقيّ، المحاسن: ١/٣٥٩، ح/٧٦٩؛ وبحار الأنوار: ٢/٩٦.

عن الظّالم مع قدرته على المواجهة طلباً للعافية، وهذا هو «المعنى السّائد في الفكر التّبريري الّذي يحاول التّغطية على الانحراف، والتّوفيق بين الأوضاع المنحرفة المائعة وبين الدين هو (تغيير الرّسالة) وتحريفها؛ لتنسجم مع واقع الانحراف والانحلال.. ومن خلال الفكر التبريري هذا يغيّر الإنسان الرّسالة السّماويّة ويحرّفها، بدلاً عن أن يتغيّر بها.. ويشوّهها.. وينزل بها إلى واقعه بدلاً عن أن يصعد بها»[١].

فالتّبرير إذن من الحالات الخطيرة الّتي تجرّ الإنسان إلى مهاوي الانحراف... وفي عصر الإمام الباقر عليه السلام ظهرت موجة التّبرير، فوقف منها موقفاً شديداً، وفسَّر الولاء لأهل البيت عليهم السلام بأنّه الاستقامة على خطّهم، والسَّير على نهجهم، وبيّنَ صفات الشّيعة الواقعيّة، قال عليه السلام: «**لا تَذْهَبْ بِكُمُ الْمَذاهِبُ، فَوَالله ما شيعتّنا إلا مَنْ أَطاعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**»[٢].

عن جابر الأنصاريّ، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال لي: **يا جابرُ، أَيَكْتَفي مَنْ يَنْتَحِلُ التَّشَيُّعَ أَنْ يَقولَ بِحُبِّنا أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَوَالله ما شيعتّنا إلا مَن اتَّقى اللهَ وَأَطاعَهُ، وما كانوا يُعْرَفونَ يا جابرُ إلا بِالتَّواضُعِ، وَالتَّخَشُّعِ، وَالأَمانَةِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ، وَالصَّوْمِ، وَالصَّلاةِ، وَالْبِرِّ بِالْوالِدَيْنِ، وَالتَّعاهُدِ لِلْجيرانِ مِنَ الْفُقَراءِ، وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْغارمينَ وَالأَيْتامِ، وَصِدْقِ الْحَديثِ، وَتِلاوَةِ الْقُرْآنِ، وَكَفِّ الأَلْسُنِ عَنِ النّاسِ إلا مِنْ خَيْرٍ، وَكانوا أُمَناءَ عَشائِرِهِمْ في الأَشْياءِ**، قال جابر: فقلتُ: يا ابن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصّفة، فقال: **يا جابرُ، لا تَذْهَبَنَّ بِكَ الْمَذاهِبُ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَقولَ: أُحِبُّ عَلِيّاً**

(١) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ٢٢٢.

(٢) الكافي: ١٨٧/٣، ح/١٦٢٠.

**وأَتَوَلاهُ، ثُمَّ لا يَكونُ مَعَ ذلكَ فَعّالاً؟ فَلَوْ قالَ: إنّي أُحبُّ رَسولَ الله، فَرَسولُ الله ﷺ خَيْرٌ منْ عَلَيٍّ عليه السلام، ثُمَّ لا يَتَّبِعُ سيرَتَه، وَلا يَعْمَلُ بسُنَّته ما نَفَعَهُ حُبُّهُ إيّاهُ شَيْئاً، فاتَّقوا اللهَ، واعْمَلوا لما عنْدَ الله، لَيْسَ بَيْنَ الله وبَيْنَ أَحَد قَرابَةٌ، أَحَبُّ الْعباد إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأَكْرَمُهُمْ عَلَيْه أَتْقاهُمْ، وأَعْمَلُهُمْ بطاعته، يا جابر، وَالله ما يُتَقَرَّبُ إلى الله - تَبارَكَ وَتَعالى - إلا بالطّاعَة، وما مَعَنا بَراءَةٌ من النّار، ولا عَلى الله لأَحَد منْ حُجَّة، مَنْ كانَ لله مُطيعاً فَهُوَ لَنا وَليٌّ، وَمَنْ كانَ لله عاصياً فَهُوَ لَنا عَدُوٌّ، وَما تُنالُ وَلايَتُنا إلا بالْعَمَل والْوَرَع»**[1].

قال الشّهيد الشّيخ حسين معن قدس سره: «والفكر التّبريريّ هو أبسط الأساليب وأشملها في حلّ الصّراعات الدّاخليّة بين القوى الأخلاقيّة، والقوى الغريزيّة الشّهويّة والميول والأهواء.. ومن هنا يحاول الإنسان دائماً أن يخدع ضميره الأخلاقي؛ ليمارس شهواته وأهواءه براحة بال»[2].

## الْعَوامِلُ الْخارِجيَّةُ في انْحِرافِ الإِنْسانِ:

ما تقدّم من أسباب الانحراف هي أسباب ذاتيّة تتعلّق بذات الإنسان، وأمّا الأسباب الخارجيّة الّتي ترد على الإنسان من الخارج، وتؤثّر على مساره، فأهمّها:

١- محاولة التّدجين وتلطيف مشاعر الرّفض في المجتمع الإسلاميّ كي يتآلف مع الواقع المنحرف الّذي يروّج له أعداء الإسلام، وهي محاولات فكريّة متدرّجة منحرفة معادية للإسلام، تطرح بأسلوب ناعم مرن متدرّج، ظاهره نور،

---

(١) الكافي: ٣/١٨٩-١٩١، ح/١٦٢٢.

(٢) نظرات في الإعداد الرّوحيّ: ٢٢١-٢٢٢.

وباطنه ظلام حالك ونار محرقة.

وهذا الطَّرح يأتي بشكل هادئ يفتّش عن نقاط الوفاق مع الدّين؛ ليبرّر مفاسد طرحه، ويتجنّب إثارة حساسيّة المجتمع الإسلاميّ تجاه طروحاته؛ فيقف منها موقف الرّفض، ولذلك يحاول أن يلبسها ثوباً قريباً للذّوق الإسلاميّ؛ لتتقبّله النّفوس وتألَفَه، ولا تستنكره، ويصبح مقبولاً عندها، ثمَّ يطرح ما هو أشمل منه وأشدّ، وهكذا يستمرّ بدس السّمّ في العسل إلى أن يأتي على القاعدة الفكريّة، فيقتلعها من أساسها، وإنَّما تدرّجوا في الطّرح تفادياً لحسّاسيّة الأمّة المسلمة، وقد نبَّه السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصَّدر قُدِّسَ سِرُّهُ على هذا الأسلوب الخبيث، قبل أكثر من نصف قرن إذ قال في مقدّمة كتابه القيّم "اقتصادنا": «نادت بالاشتراكيّة؛ لأنَّها أدركت أنَّ القوميّة وحدها لا تكفي، بل هي بحاجة إلى نظام، ونادت بها في إطار عربيّ تفادياً لحسّاسيّة الأمّة ضدّ أيّ شعار، أو فلسفة مرتبطتين بعالم المستعمرين، فحاولت عن طريق توصيف الاشتراكيّة بالعربيّة تغطيه الواقع الأجنبيّ المتمثّل في الاشتراكيّة من النّاحية التّاريخيّة والفكريّة»[١].

وطريقة التَّدجين هذه تبدأ بطرح شعارات محبّبة إلى النُّفوس تستثير بها العواطف وتستميلها، وبأُطر شاملة محبّبة تستهوي النّفوس كشعار الحرّيّة والعدالة، وحقوق الإنسان، وحقوق العمال، وحقوق المرأة... وهلمّ جرا من الألفاظ المعسولة الّتي حقيقتها عكس معانيها ومقاصدها تماماً...

٢- أصدقاء وجلساء السّوء: إنَّ للصّديق والجليس أثراً بالغاً على جليسه إن أراد أو لم يرد؛ ولذلك حذَّرت الأدبيّات الإسلاميّة من مجالسة ذوي الأفكار

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، اقتصادنا: ٢٣.

المنحرفة والأخلاق المتردّية، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تَصْحَبِ الشِّرِيرَ؛ فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْ طَبْعِه شَرّاً وَأَنْتَ لا تَعْلَمُ**»(١).

وعن الإمام الجواد عليه السلام: «**إيّاكَ ومُصاحَبَةَ الشِّرِيرِ، فَإِنَّهُ كَالسَّيْفِ الْمَسْلُولِ، يَحْسُنُ مَنْظَرُهُ، ويَقْبُحُ أَثَرُهُ**»(٢).

بل حذر الأئمّة عليهم السلام من مجالسة المنحرفين، وعدّوه من الموبقات الّتي قد تؤدّي إلى الهلاك، فعَنِ الْجَعْفَرِيِّ، قالَ: «سَمِعْتُ أَبا الْحَسَنِ عليه السلام يَقولُ: **ما لي رَأَيْتُكَ عِنْدَ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ يَعْقوبَ؟** فَقالَ: إنَّه خالي، فَقالَ: **إِنَّه يَقولُ في اللهِ قَوْلاً عَظيماً، يَصِفُ اللهَ، ولا يُوصَفُ، فَإمّا جَلَسْتَ مَعَهُ وَتَرَكْتَنا، وإمّا جَلَسْتَ مَعَنا وتَرَكْتَهُ**، فَقُلْتُ: هُوَ يَقولُ ما شاءَ، أَيُّ شَيْءٍ عَلَيَّ مِنْه إذا لَمْ أَقُلْ ما يَقولُ؟ فَقالَ أَبو الْحَسَنِ عليه السلام: **أَما تَخافُ أَنْ تَنْزِلَ بِه نَقِمَةٌ، فَتُصيبَكُمْ جَميعاً، أَما عَلِمْتَ بِالَّذي كانَ مِنْ أَصْحابِ موسى عليه السلام، وَكانَ أَبوهُ مِنْ أَصْحابِ فِرْعَوْنَ، فَلَمّا لَحِقَتْ خَيْلُ فِرْعَوْنَ موسى تَخَلَّفَ عَنْهُ لِيَعِظَ أَباهُ، فَيُلْحِقَهُ بِموسى، فَمَضى أَبوهُ، وَهُوَ يُراغِمُهُ(٣) حَتّى بَلَغا طَرَفاً مِنَ الْبَحْرِ، فَغَرِقا جَميعاً، فَأَتى موسى عليه السلام الْخَبَرُ، فَقالَ: هُوَ في رَحْمَةِ اللهِ، وَلكِنَّ النَّقِمَةَ إِذا نَزَلَتْ لَمْ يَكُنْ لَها عَمَّنْ قارَبَ الْمُذْنِبَ دِفاعٌ**»(٤).

والأحاديث في ذلك كثيرة، وكما حذّر الاسلام من مجالسة المنحرفين

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٧٢/٢٠.

(٢) الحلوانيّ، نزهة النّاظر وتنبيه الخاطر: ١٤٠؛ ومستدرك الوسائل للميرزا النّوريّ: ٣٥١/٨، ح/٩٦٣٤.

(٣) يراغمه: يحاجّه ويغاضبه، أي يبالغ في ذكر ما يبطل مذهبه، ويذكر ما يغضبه.

(٤) الكافي: ١٢١/٤-١٢٢، ح/٢٨٢٦.

أوضحت تعاليم أخرى آثارها السّلبيّة، وأخطارها النّفسيّة والاجتماعيّة، ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَثَلُ الْجَليس الصّالح، وَالسَّوْء كَحامل الْمسْك، وَنافخ الْكير، فَحاملُ الْمسْك إمّا أَنْ يُحْذيَكَ**[١]**، وإمّا أَنْ تَبْتاعَ منْهُ، وَإمّا أَنْ تَجدَ منْهُ ريحاً طَيِّبَةً، وَنافخُ الْكير**[٢] **إمّا أَنْ يُحْرِقَ ثيابَكَ، وإمّا أَنْ تَجدَ منْهُ ريحاً خَبيثَةً**»[٣].

٣- التَّفكير في فعل الحرام: التَّفكير هو الّذي يوجّه حركة الإنسان، ويرسم خطوط مساره في الحياة الدّنيا، بل هو الّذي يقرّر مصيره، ويحدّد عاقبة أمره في الدُّنيا والآخرة، قل لي كيف يفكّر الرّجل؟ وبماذا يفكّر؟ وكم يأخذ التَّفكير من وقته؟ أقول لك: أيّ رجل هو، ولأيّ عمل يناسب، وما هو الدّور الَّذي ينبغي أن يناط به.

وإحدى المسارب الخطيرة إلى النَّفس البشريّة الوسوسة، وهي نوع من الخطرات الشَّيطانيّة الَّتي تتوارد على ذهن الإنسان فتشوّشه، وتقلقه، وتذهب به يميناً، وشمالاً، ويبقى مضطرباً لا يستقرّ على حالة معينة، وإذا استولت عليه هذه الخواطر استغرق فيها، واستحوذ عليه الشَّيطان، وأغواه، وأصبح من جنده، والعياذ بالله، وحينئذٍ يصبح مظلم القلب، مضطرب النَّفس، قلق البال، فاسد الضَّمير.

ولحماية الإنسان من الوقوع في هذه المهالك حذّر الإسلام كتاباً وسنّةً من الوقوع في شباك الشّيطان وأحابيله وخططه، وأخذ عهداً على بني آدم أن لا

---

(١) يحذيك: يعطيك.

(٢) كير الحداد المبنيّ من طين، وقيل: زقّه الّذي ينفخ به.

(٣) صحيح البخاريّ: ٢٣١/٣.

يتولّوه ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(١).

بل أوجب على المؤمنين اتّخاذه عدوّاً، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢).

وأكّدت النّصوص الشّريفة على المؤمنين بضرورة الفطنة، واليقظة الدّائمة، ومراقبة ما يرد على الذّهن من خواطر وأفكار ورؤى، وعرضها على الكتاب الكريم والسّنّة المشرّفة والعقل السّليم، ومحاكمتها على ضوئها؛ لئلا يقع المؤمن في فخاخه ومكائده؛ ولذا يصف القرآن الكريم هذه اليقظة بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(٣).

ولتعميق الحماية وتشديدها في مسار الإنسان إلى الله تعالى جاء تأكيد آخر لزيادة التّحرّز من الشّيطان بالاستعاذة منه، وهي عمليّة فرار منه، ولجوء إلى الله، يقول تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٤).

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾(٥).

وكما أمر تعالى بالاستعاذة منه أمر بالاستعاذة من همزاته وخطراته، ﴿ وَقُل

---

(١) يس: ٦٠.

(٢) فاطر: ٦.

(٣) الأعراف: ٢٠١.

(٤) فصّلت: ٣٦.

(٥) النّحل: ٩٨.

﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[١].

وهمزات الشّياطين هي تسويلاتهم، وإغواؤهم، وتحرّكاتهم، وضغوطهم، ودفعهم إلى فعل المنكرات والمخالفات الشّرعيّة، وكلّ ما يلقى في قلب الإنسان من تصوّرات سلبيّة، ووسوسات شيطانيّة تدفعه نحو الانحراف عن الصّراط السّويّ؛ ولذا أمر الشّرعُ المقدّس بالحذر والحيطة الدّائمة والمستمرّة من الانجرار والاستجابة لخطراته وتسويلاته؛ ولتأكيد التّحرّز من الوقوع في شباك التّسويلات الشّيطانية ورد في المستحبّات العباديّة عن أبي عبد الله عليه السلام أن يقول المصلّي عشر مرّات قبل طلوع الشّمس، وعشراً قبل غروبها: «**أَعوذُ بالله السَّميعِ الْعَليم مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطينِ، وأَعوذُ بكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرون، إنّ اللهَ هُوَ السَّميعُ الْعَليمُ**»، وإن نسيت قضيت[٢].

وهكذا يتّضح لنا أنَّ التَّفكير بالحرام هو نوع من الإلقاءات الشَّيطانيّة الّتي تجرّ الإنسان إلى الوقوع به، وبالتّالي تؤدّي به إلى الانحراف عن جادّة الصَّواب، فإن لم ينحرف تكدَّرت حياته، وتشوَّش فكره، وبقي قلقاً مضطرباً، ورد في مواعظ عيسى عليه السلام أنّه قال: «**إنَّ موسى نَبيَّ الله عليه السلام أَمَرَكُمْ أَنْ لا تَزْنوا، وأَنَا آمُرُكُمْ أَنْ لا تُحَدِّثوا أَنْفُسَكُمْ بالزِّنا فَضْلاً عَنْ أَنْ تَزْنوا؛ فَإِنَّ مَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالزِّنا كانَ كَمَنْ أَوْقَدَ في بَيْتٍ مُزَوَّقٍ**[٣]**، فَأَفْسَدَ التَّزاويقَ الدُّخانُ، وإِنْ**

(١) المؤمنون: ٩٧-٩٨.

(٢) الكافي: ٤/٤٤٤، ح/٣٣٠٩.

(٣) مزوّق: مزيّن.

**لَمْ يَحْتَرِق الْبَيْتُ»**(١).

إنَّ التَّفكير بالحرام يجرّ الإنسان إلى الوقوع فيه، والوقوع في الحرام إذا تكرّر يجرُّ الإنسان تدريجاً إلى الانحراف، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فِكْرُكَ في الْمَعْصيَةِ يَحْدوكَ عَلى الْوُقوعِ فيها**»(٢).

٤- العيش في بيئة الكفر: «الظّروف المحيطة بكلّ إنسان هي بالفعل لها تأثير قويٌّ على سلوكه وأفعاله بغضّ النَّظر عن الحالات الشّاذّة القليلة، إلا أنَّ بعض الضَّمائر تموت سريعاً، وبعضها يصمد أمام العواصف إلى آخر نفس؛ فإذا صمد، وكان صادقاً أعانه الله على ظروفه، وأبقى له ضميره حيّاً. فتجد على سبيل المثال من تربّى في بيتٍ صالح متديّن له تأثير عليه كبير، على عكس من تربّى في وسط فاسد، فنشأ على الفساد، وكما قال الشّاعر: [من الوافر]

وينشأ ناشئ الفتيان منّا ... على ما كان عوّده أبوه»(٣)

وهكذا عندما يعيش الإنسان في وسط موبوء مهما حاول أن يحمي نفسه من التّلوّث بجراثيمه لا بدَّ أن يصيبه شيءٌ منها؛ لأنَّ جرثومة الكفر والشّرك والنّفاق، بل جميع المفاسد الاجتماعية فكريّة، أو أخلاقيّة، أو اقتصاديّة، لها تأثير سلبيٌّ على الإنسان إن أراد، أو لم يرد ما دام لا يستطيع أن يعزل نفسه، ولا سيّما في عصرنا الحاضر الَّذي تعدَّدت فيه حاجات الإنسان، وتشابكت مصالحه، وتنوَّعت وسائله الإعلاميّة، أو التّربويّة، أو الحربيّة، وتوسَّعت مطامعه في استعباد

---

(١) الكافي: ٢٤٦/١١، ح/١٠٣١٣.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٧، ح/٥٥٨.

(٣) من الشّبكة العنكبوتيّة، موقع (طريق الإسلام).

البعض للبعض الآخر؛ ولهذا أصبح مدّ الجسور والتّمدّد على حريم أمم بكاملها أمر ميسّر لدى فراعنة الاستكبار؛ حتّى امتدّت اليوم عدوى الأفكار والعادات والأعراف من مجتمع إلى مجتمع آخر، وأصبحت سارية معدية تنشر سمومها بيسر من خلال وسائل الإعلام الحديثة الّتي دخلت إلى كلّ بيت؛ ولهذا حذَّر الإسلام من الانخداع والانجرار وراء الأوهام المزخرفة بعناوين برّاقة كالحرّيّة، والتّقدّم، والتّحضّر، والحداثة، والعصرنة، والحبّ، والفنّ، وما إلى ذلك من مظاهر الحضارة الغربيّة، وحذَّر من العيش في البيئات الفاسدة، وأمر بالهجرة حين يرى الإنسان الخطر يداهمه على دينه، ويستضعفه ويستذلّه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[١].

فهؤلاء أصبحوا ظالمين لأنفسهم؛ لأَنَّهم رضوا بالعيش تحت نير الظّلم والظّالمين، ولم يهاجروا بدينهم؛ وفي آية اخرى ألغى ولايتهم الإيمانيّة ما داموا خانعين للظّالمين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٢].

---

(١) النّساء: ٩٧.

(٢) الأنفال: ٧٢.

وهذا دليل آخر على خطورة العيش في البيئات الفاسدة الَّتي لا يأمن الإنسان فيها على دينه، طامعاً في أموال، أو عقار، أو تجارة، أو أهل، أو أولاد، أو استقرار، مقدّما ذلك على إيمانه ودينه وكرامته.

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

ولأجل ذلك نرى المؤمنين الصّادقين في إيمانهم يضحّون بكلّ ما يملكون من غالٍ ونفيس، ويهاجرون بدينهم، وقد ورد في تاريخ المهاجرين تضحيات جمّة قديماً وحديثاً؛ فعن سعيد بن المسيّب، قال: «لمّا أقبل صُهيبٌ مهاجراً نحو النّبيّ ﷺ، فاتّبعه نفرٌ من قريش، نزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، ثمَّ قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أنّي من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليَّ حتّى أرمي بكلّ سهم معي في كنانتي، ثمّ أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكّة وخلّيتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فلما قدم على رسول الله ﷺ المدينة، قال ﷺ: **رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيى، رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيى**»، قال: «ونزلت: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[2]»[3].

---

(١) التّوبة: ٢٤.

(٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء: ١/١٥١-١٥٢.

٥- مجالس اللَّهو واللّعب: نقصد بمجالس اللّهو هذه المجالس العبثيّة الّتي تخلو من الهدفيّة والفائدة المعنويّة والمادّيّة ككثير من المجالس السّائدة في مجتمعنا، والَّتي تعقد لقضاء وقت الفراغ كالمقاهي وكثير من الدّواوين، ولا شكَّ أنَّ هذه المجالس يخاض فيها في شتّى الأحاديث الَّتي قد توقع الإنسان في آثام لا يقصدها كالغيبة والنَّميمة والمجاملات التّافهة على حساب الأخلاق والدّين والإيمان، وحين ينغمر الإنسان فيها، ويستأنس بها، ويتفاعل معها؛ فإنَّها تنسيه ذكر ربّه، ومن نسي ذكر ربّه اتبعه الشَّيطان وأغواه وأضلّه عن منهج الاستقامة، وقد ورد في الحديث: «**مَجالسُ اللَّهْوِ تُفْسدُ الإيمانَ**»(١).

ومن هنا حذَّر الحكماء من المشاركة فيها تجنّباً لمخاطرها الرّوحيّة والأخلاقيّة؛ فعَنْ محمّد بْن عيسى، عَنْ يونُسَ رَفَعَهُ، قال: «قَالَ لُقْمانُ لابْنه: **يا بنيَّ، اخْتَر الْمَجالسَ عَلى عَيْنك، فَإنْ رَأَيْت قَوْماً يذْكُرونَ الله جَلَّ وعزَّ، فَاجْلسْ معَهمْ؛ فَإنْ تَكُنْ عالماً، نفعكَ علْمُك، وإنْ تَكُنْ جاهلاً علَّموك، ولَعَلَّ الله أَنْ يُظلَّهُمْ برَحْمَته؛ فَتَعمَّكَ معَهُمْ، وإذا رأَيْتَ قَوْماً لا يَذْكُرونَ اللهَ، فَلا تَجْلسْ معَهمْ؛ فَإنْ تَكُنْ عالماً، لَمْ يَنْفَعْكَ علْمُكَ، وإنْ كُنْتَ جاهلاً يَزيدوكَ جَهْلاً، ولَعَلَّ الله أَنْ يُظلَّهُمْ بعُقوبَة؛ فَتَعُمَّكَ معَهُمْ**»(٢).

أمّا السّرُّ في هذا التَّحذير فإنَّ هذه المجالس إن لم يكن فيها ضرر، فليس فيها فائدة وضياع للعمر فيما لا طائل فيه، وهذا ما لا ينبغي أن يفعله عاقل، نعم، يمكن لمن يعي أهمّيّة الدَّعوة إلى الله أن يقصد هذه المجالس لتوجيه اللاهين،

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦١، ح/١٠٥٦٠.

(٢) الكافي: ٩٤/١، ح/٨١.

وتذكير الغافلين، ويستغلّها للتّعليم والوعظ والتّذكير، وقد نجح كثير من دعاة الإسلام في ذلك، وكان لهم دورٌ فعّال فيها استطاعوا أن يحوّلوها إلى منابر توعية وهداية وإرشاد؛ هذا بالنّسبة لهذه المجالس، أمّا المجالس الّتي يُعصى الله فيها، فلا ينبغي أن يدخلها المؤمن إلا إذا كان قادراً على تغييرها، فعَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**لا يَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِساً يُعْصى اللهُ فيه، ولَا يَقْدِرُ على تَغْييرِه**»(١).

## وَسائِلُ الْحَصانَةِ مِنِ الانْحِرافِ:

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الانسان معرّض للزّلل والانحراف مهما كان ومن كان إلا من عصمهم الله تعالى، وأذهب عنهم الرّجس، وطهّرهم تطهيراً، ما دام الشّيطان يرصده، ونفسه الأمّارة بالسّوء تنازعه، وزخارف الدّنيا تخادعه، والغفلة تنتابه؛ فهو في معرض الخطر في أيّ لحظة ينسى ذكر الله، أو يغفل عن مكائد شياطين الإنس والجنّ، ولعله لهذا أوجب الله على المسلم أن يقف في محراب العبادة خمس مرّات يوميّاً، وأن يذكر الله ذكراً كثيراً، ويسبّحه بكرةً وأصيلاً؛ ليدخل في درع الله الحصينة، ولا شيء يحمي الإنسان غيره؛ «**لا إلهَ إلا اللهُ حِصْني، فَمَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ مِنْ عَذابي**»(٢).

ولأجل تركيز هذا المفهوم التّوحيديّ العقائديّ الّذي يمثّل العمود الفقريّ في الفكر الإسلاميّ لا بدّ للمؤمن من أن يحدّد لنفسه قواعد يرتكز عليها،

---

(١) الكافي: ١٢١/٤، ح/٢٨٢٥.

(٢) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٢٦٠/٢، ح/٧٦٨.

وينطلق منها؛ ليتحاشى الوقوع في الانحراف بأيّ شكل من أشكاله.

وهناك وسائل حماية كثيرة يمكن استنباطها من الكتاب والسّنّة المشرّفة نذكر بعضها بصورة مختصرة في النُّقاط الآتية:

أ- أن يخضع الإنسان نفسه من حيث دوافعها، وأعمالها، بل خواطرها للمحاسبة اليوميّة، فمن وضع نفسه تحت المحاسبة الذّاتيّة في كلّ أقواله وأعماله جعل الله له من نفسه رقيباً على نفسه، وأعانه على أهوائه ونزواته، ومن هنا جاء التّأكيد متواصلاً بوجوب المحاسبة الذّاتيّة اليوميّة لما لها من آثار إيجابيّة يكتشف فيها المرء عيوبه ونواقصه وسلبيّاته، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ وَقَفَ عَلى عُيوبِه، وَأَحاطَ بِذُنوبِه، واسْتَقالَ الذُّنوبَ، وأَصْلَحَ الْعُيوبَ**»[1].

وقال عليه السلام: «**مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْها خَسِرَ، وَمَنْ خافَ أَمِنَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ**»[2].

والحديث عن المحاسبة كثير، ومن أهمّ ما فيها أن تجعل للإنسان رقيباً من نفسه على نفسه، ولا شكَّ أنَّ هذه الرّقابة من أعظم ما يحمي الإنسان من السُّقوط في بؤر الانحراف، وقد عبَّرت بعض الأحاديث عن ذلك بالواعظ الدّاخليّ، رُوِيَ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إذا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً جَعَلَ لَهُ واعِظاً مِنْ نَفْسِه، وَزاجِراً مِنْ قَلْبِه، يَأْمُرُهُ وَيَنْهاهُ**»[3].

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٦، ح/٤٧٤٨.

(٢) نهج البلاغة: ٥٢٠، قصار الحكم: ١٩٨.

(٣) حلية الأولياء: ٩٩/١٠.

وذلك لأنَّ الحماية تصبح ذاتيّة، وهي من أقوى الحصانات النّفسيّة والفكريّة وأثبتها يرزقها الله تعالى لعباده الصّالحين، ويجعل لهم حفظة من عنده، ورد عن الإمام عليّ عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ كانَ لَهُ في نَفْسه واعظٌ، كانَ علَيْه من الله حافظٌ**»(١).

وعنه عليه السلام: «**مَنْ كانَ لَهُ منْ نَفْسه يَقْظَةٌ، كانَ عَلَيْه منَ الله حَفَظَةٌ**»(٢).

ولعلَّ السّرَّ في ذلك أنَّ الإنسان أبصر بنواقصه، ومن بصَّره الله بنواقصه هداه إلى إصلاحها.

إنَّ الواعظ الذّاتيّ يفتح للإنسان آفاقه النَّفسيّة، فيكتشف ما في نفسه من طاقات مختلفة، فيوجّهها إلى ما فيه صلاحها، هذا من جانب، ومن جانب آخر إذا افتقر الإنسان للواعظ الذّاتيّ فلا ينفعه وعظ، ولا زجر، ولا تذكير، ولا نصيحة أبداً، ويصبح كالأرض الصّخريّة الَّتي لا تقبل الحرث ولا السَّقي، قال الدّيلميّ مؤلف إرشاد القلوب: «إنَّ الموعظة لا تنجع فيمن لا زاجر له، ولا واعظ من نفسه، وما وهب الله تعالى لعبده هبة أنفع له من زاجر من نفسه، وقَلَّ أن تنجع الموعظة في أهل التّجبّر والتّكبّر»(٣).

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ واعظٌ منْ قَلْبه، وَزاجرٌ منْ نَفْسه، ولَمْ يَكُنْ لَهُ قَرينٌ مُرْشدٌ، اسْتَمْكَنَ عَدُوُّهُ منْ عُنُقه**»(٤).

---

(١) بحار الأنوار: ٦٩/٧٨.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٥، ح/٤٧٢٥.

(٣) الدّيلمي، إرشاد القلوب: ١٣٩/١.

(٤) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٥٢٦، ح/٧١١؛ وترتيب الأمالي: ٥٩/٧، ح/٣٧١٦.

ب- على الإنسان أن يبني لنفسه قاعدة فكريّة رصينة مستندة إلى معرفة الله تعالى وعبادته؛ ليشعر بهيمنته تعالى، ورقابته أين ما كان، وفي أيّ حال كان، مع العمل بأحكام الله على قدر استطاعته، فالإيمان القائم على الدّليل البرهانيّ، والسّلامة الفطريّة، والعمل الصّالح، والإخلاص لله يوقف المؤمن على قاعدة صلبة لا تزلزلها الفتن، ولا المحن، ولا الإغراءات الدّنيويّة، وبذلك يتحصّن المؤمن بحصن الله المنيع، وهو الدّرع الواقي من الزّيغ والانحراف، بل هو العنصر الأساسيّ الَّذي يحمي الإنسان من الزّيغ والانحراف، وكلّ الوسائل والأمور الأخرى إمّا نابعة منه أو راجعة إليه، ولعلّ الإيمان هو الدّرع الحصين الَّذي يلتمسه عباد الله الصّالحين بدعائهم؛ ليحتموا به، فعَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام، قالَ: «**لا تَدَعْ أَنْ تَدْعُوَ بهَذا الدُّعاء ثَلاثَ مَرّات إذا أَصْبَحْتَ، وثَلاثَ مَرّات إذا أَمْسَيْتَ: اللّهمَّ، اجْعَلْني في درْعك الْحَصينَة الَّتي تَجْعَلُ فيها مَنْ تُريدُ؛ فإنَّ أَبي عليه السلام كانَ يَقولُ: هذا منَ الدُّعاء الْمَخْزون**»[1].

ومن هنا كان أعظم ما توسَّل به المتوسّلون بالله هو ثبات الإيمان والاستقامة على نهجه كما جاء في أدعيتهم عليهم السلام:

«**اللّهُمَّ... أَسْأَلُكَ إيماناً لا أَجَلَ لَهُ دونَ لقائكَ تُحْيِيني وتُميتُني عَلَيْه، وتَبْعثُني عَلَيْه إذا بعَثْتَني**»[2].

«**اللّهُمَّ، ثَبِّتْني عَلى دينكَ ما أَحْيَيْتَني، ولا تُزِغْ قَلْبي بَعْدَ إذْ هَدَيْتَني، وَهَبْ لي منْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الوَهّابُ**»[3].

---

(١) الكافي: ٤/٤٤٧، ح/٣٣١٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤/٥٦١-٥٦٢، ح/٣٤٦١.

(٣) بحار الأنوار: ٩٠/١٣٤.

وكثرة النُّصوص الدّعائيّة الواردة عن أهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم السلام وفي مختلف الأوقات العباديّة، والأبواب الرّوحيّة دليلٌ على أهمّيّة هذا المطلب؛ لأنَّ الاستقامة والثَّبات في طريق ذات الشَّوكة صعبٌ مستصعبٌ كما ورد في الحديث المشهور عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إنَّ أَمْرنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لا يَحْتَمِلُهُ إلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، أَوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، أَوْ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ للإيمانِ**»(١).

وقد علّق الفيض الكاشانيّ رحمه الله على الحديث قائلاً: «وذلك لأنَّ أسرار العلوم على ما هي عليه لا تطابق ما يفهمه الجمهور من ظواهر الشَّرع، وطريق معرفة العلم التّقليدي بنوعيه أعني الاعتقادي والعملي ليس إلا تعرّف آثار أهل البيت عليهم السلام، وتعلّم أحاديثهم من الأصول المنقولة عنهم؛ لأنَّهم هم خلفاء النّبيّ صلى الله عليه وآله، ومهابط الوحي، وخزنة العلم، والرّاسخون فيه وأهل الذّكر الَّذين أُمِرْنا بمسألتهم، وأولو الأمر الَّذين أُمِرْنا بطاعتهم»(٢).

ج- مصاحبة أهل الدّين ممّن تُذكّر بالله رؤيتهم؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: قالَت الْحَوارِيّون لعيسى: يا روحَ الله، مَنْ نُجالِسُ؟ قالَ: مَنْ تُذَكِّرُكُمْ اللهَ رُؤْيَتُهُ، وَيَزيدُ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَيُرَغِّبُكُمْ في الآخِرَةِ عَمَلُهُ**»(٣).

ممّا لاشك فيه أنَّ مجالسة عباد الله الّصالحين، ولا سيّما إذا كانوا من

---

(١) الصّفّار، بصائر الدّرجات: ٦٦/١، ح/١٠٦.

(٢) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ١١/١-١٢.

(٣) الكافي: ٩٥/١، ح/٨٣.

العلماء العاملين، لها آثار إيجابيّة على الجليس لما يتلقّى من آداب أهل العلم والإيمان لما يسمع من أحاديث معرفيّة تعمّق الإيمان، وتنوّر القلب، وتقوّم السّلوك، وتهدي إلى الله؛ ولذلك أعطى الشّارع المقدّس لتلك المجالس أهمّيّة عظيمة، قال الإمام الباقر عليه السلام: «**لَمَجْلسٌ أَجْلسُهُ إلى مَنْ أَثِقُ بِه، أَوْثَقُ في نَفْسي مِنْ عَمَلِ سَنَة**»(١)؛ وذلك لأنَّ مجالسة أهل الصّلاح والخير تحيي القلوب، وتوقظ الضّمائر، وتحرّك الإنسان إلى فعل الخير.

ولعلّه من هذا المنطلق أمر أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام أولياءهم على التّزاور بين المؤمنين؛ ليتمّ التّلاقي والتّباحث بينهم، قال الإمام الصّادق عليه السلام:

«**تَزاوَروا؛ فَإنَّ في زيارتكُمْ إحْياءً لِقُلوبكُمْ، وَذِكْراً لأحاديثنا، وَأَحاديثُنا تُعَطِّفُ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ، فَإنْ أَخَذْتُمْ بها رَشَدْتُمْ وَنَجَوْتُم، وَإنْ تَرَكْتُموها ضَلَلْتُمْ وَهَلَكْتُمْ، فَخُذوا بِها، وَأَنا بِنَجاتِكُمْ زَعيمٌ**»(٢).

هذه بعض الوسائل المهمّة الّتي تحصّن الإنسان فكريّاً وروحيّاً وأخلاقيّاً، وتحميه من الانحراف والزيغ.

«**اللّهُمَّ، ثَبِّتْني عَلى دينكَ ما أَحْيَيْتَني، وَلا تُزِغْ قَلْبي بَعْدَ إذْ هَدَيْتَني، وَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الوَهّابُ**»(٣).

---

(١) الكافي: ٩٦/١، ح/٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧٦/٣، ح/٢١٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ١٣٤/٩٠.

# آياتُ اللهِ في الْبِحارِ[1]

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

تتجلّى عظمة الله[3] في آياته الباهرة في البحار والمحيطات، كما تجلّى في بقيّة مخلوقاته الأخرى في الأنفس والآفاق، وهي تدلّ على قدرة عظيمة لا تحدّ بحدود، فكل ما فيها من حيث الخلق والتّكوين، ومن حيث الوجود والاستمرار، ومن حيث الظّواهر الطّبيعيّة فيها بما تحمل من أسرار، ومن حيث المنافع والخيرات والنّعم، والّتي لم يستطع الإنسان رغم ما بذل من جهود عظيمة لاكتشاف أسرارها أن يسبر[4] أغوارها، ولم يكتشف إلا القليل منها؛ لأنَّ فيها من خفايا الخلق ما لا تحيط به قدرات الإنسان، والّتي لا زال الإنسان يجهلها، «وعلى

---

(١) هذا البحث تجميعٌ لمعلومات عامّة حول عالم البحار، جمعتها من الشّبكة العنكبوتيّة، مع شيء من التّصرّف.

(٢) الجاثية: ١٢.

(٣) قال الشّيخ الصّدوق: «معنى قوله عليه السلام: «**تَجَلّى الله لعَبْده**» أي ظهر له بآية من آياته يعلم بها أنَّ الله يخاطبه»، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٦٨/٢.

(٤) سبر الشّيء: خَبَره ليعرف عمقه، تقول: سبر الجرح قاس غوره بالمسبار، وسبر فلاناً خبره؛ ليعرف ما عنده؛ ينظر: الرّائد لجبران مسعود: ٤٣١، (سبر).

الرّغم من التّطوّر التّكنولوجيّ الهائل ما زال هناك الكثير من الأمور الّتي يلفّها الغموض، ولم تُكشف أسرارها بعد، ومع ذلك هناك الكثير من الأسرار والعجائب الّتي تمّ التّوصّل إليها عبر الوصول إلى معلومات قيّمة عن بعض الحيوانات البحريّة على اختلافها، كطريقة حياتها، أو أنواعٍ طعامها، وأماكن تواجدها»(١).

والبحار تُكَوّنُ القسم الأعظم من الكرة الأرضيّة، فكما يقول العلماء: إنَّ مساحة البحار تُكَوّن ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة، حيث «تغطّي المياه ما نسبته ٧٢٪ من سطح الأرض، وتنقسم هذه المياه إلى أسطح متنوّعة تحتوي على مختلف الأحياء البحريّة الّتي تشكّل جزءاً أساسيّاً، ورئيسيّاً للحياة الطَّبيعيّة في العالم؛ إذ يستمدّ منها الإنسان الكثير، مثل: طاقة المياه، والأحياء البحريّة النّباتيّة والحيوانيّة، ويعتبر عالم البحار من أكثر العوالم غموضاً وسحراً؛ إذ لا زالت الأبحاث تستكشف حيوانات وحقائق علميّة إلى وقتنا الحاليّ، وبحسب الدّراسات اكتشف أكثر من اثنين وثلاثين ألف نوع من الحيوانات والشُّعب المرجانيّة، ويعتبر هذا فقط خمسةً بالمئةِ من عالم البحار»(٢).

وفي ذلك حكمةٌ عظيمةٌ جعلها الله تعالى كي يناسب مناخُ الأرض الحياةَ عليها، ويمكن العيش فيها، ولو اختلّ التّوازن في ذلك لما استطاع حيٌّ أن يعيش على الأرض، فقد أكَّد علماء الطَّبيعة أنَّ الماء بهذه النّسبة على الكرة الأرضيّة «يؤثّر تأثيراً بالغاً على الجوّ السّائد ودرجة الحرارة، ولو تجرَّد الماء من بعض خواصّه؛ لظهرت على سطح الأرض تغيّرات في درجة الحرارة تؤدّي إلى

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) من الشّبكة العنكبوتيّة.

حدوث الكوارث، وللماء درجة ذوبان مرتفعة، وهو يبقى سائلاً فترة طويلة من الزَّمن، وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت، ويصونها من التّقلّبات العنيفة، ولولا كلّ ذلك لتضاءلت صلاحيّة الأرض للحياة إلى حدّ كبير، ولقلّت متعة النَّشاط الإنسانيّ على سطح الأرض بدرجة عظيمة»[1].

بل أكَّدوا أنَّه لولا وجود البحار والمحيطات لاستحالت الحياة على كوكب الأرض، ولأصبحت حرارتها محرقة!

إذن القدرة التي خلقت البحار في الكرة الأرضيّة بهذا الحجم الجبّار، والَّذي لا يحيط الإنسان إلا بالقليل منها قدرة عجيبة خارقة لا تدركها أبصارنا؛ لأنَّها خارجة عن مستوى قدراتنا، وكيف يحيط المحدود الفاني بالمطلق الدّائم الَّذي ليس له حدٌّ محدودٌ ولا أمد معدود؟

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[2].

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[3].

وقد قسَّم الجغرافيّون المياه على الأرض على قسمين: قسم متواصل بعضه بالبعض الآخر ممّا لا تظهر مبدؤها من منتهاها كالمحيطات الَّتي تحيط بالأرض، والَّتي تمتدّ من غرب أفريقيا، إلى أوروبا، وإلى أمريكا، متّصلاً بالمنجمدين الشّماليّ والجنوبيّ، وقسّموه على خمسة أقسام: المحيط الأطلسيّ، والمحيط الهنديّ، والمحيط الباسفيكي (الهادئ)، والمحيط المنجمد الشّماليّ، والمحيط

(١) جون كلوفر مونسيما، الله يتجلّى في عصر العلم: ٥٠.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) طه: ١١٠.

المنجمد الجنوبيّ.

وقسمٌ متقاطع الأجزاء نشعر بحدوده، ويتّصل بعضها بالبعض الآخر، وهذه سمّيت بالبحار، وهي متفرّعة من المحيطات كالبحر الأبيض المتوسّط، وبحر الأدرياتيكي، والبحر الأسود، وبحر مانش، وبحر الشّمال، وبحر ألمانيا.

فالبحار إذن من حيث التَّكوين، والخلق، والتَّنظيم، آيةٌ من آيات الله، فحريٌّ بالإنسان أن يفكّر في هذه القدرة العجيبة، وكما أنَّ خَلْقَها آيةٌ من آيات الله تعالى، فبقاؤها واستمرارها آية أخرى، حيث عمليات التَّبخير، وانتقال الماء من مكان إلى آخر، وسوقه من بلد إلى بلد آخر؛ ليحدث تلك الدّورة المائيّة العظيمة الَّتي تدور فيها؛ لذا نرى أنَّ الله تعالى خلق الماء، وسلَّط عليه الشَّمس؛ لتبخّره، وخلق الرِّياح؛ لتنقل الغيوم من بقعة إلى أخرى، وأعطى الماء قابليّة التَّبخير، فبقاء البحار والبقع المائيّة إذن آيةٌ أخرى تدلّ على الخالق العظيم، فسبحان ربّنا، وجلَّت قدرته.

## الظَّواهِرُ الطَّبيعِيَّةُ في الْبِحارِ:

إنَّ من أشهر صفات ماء البحر الملوحةَ، وقد وجد حسب التَّحليل الكيمياويَّ أنَّ أملاح البحر تحتوي على (الكلور)، و(المغنسيوم)، و(الكلس)، و(الصّوديوم) و(البوتاسيوم)، و(اليود)، وبعض الحوامض الكيمياوية، «أمّا درجة الملوحة، فهي وزن الملح الذّائب في كلّ ألف جزء من ماء البحر؛ حيث تقدّر درجة الملوحة بنسبة ألفيّة، وليس نسبة مئويّة، وتذوب الأملاح في البحر عندما تتأكسد جميع الكربونات ويحلّ الكلور مكان اليود والبروم، وتُقدّر نسبة ملوحة مياه البحار بـ ٣٥ جزءاً في الألف؛ أي أنَّه يوجد ٣٥ غراماً من الأملاح الذّائبة في

كلّ ١٠٠٠ جرام من ماء البحر، وتختلف هذه النّسبة من بحر إلى بحر، وعلى سبيل المثال تكون مياه البحار الباردة شبه عذبة؛ حيث تصل نسبة الملوحة إلى ٢،٥ في الألف، وترتفع نسبة الملوحة بالانتقال إلى البحار في المناطق المداريّة، وشبه المداريّة؛ وخاصة في البحار الدّاخليّة والمتوسّطة مثل البحر الأحمر، فتصل إلى ٤٠ جزءاً في الألف»[١].

ولم يتوصّل العلماء إلى حدّ الآن إلى تحليل علميّ دقيق لأسباب ملوحة الماء، فراحوا يبحثون في أسباب وجود هذه الأملاح العظيمة - كما سنبيّن فيما يأتي - والّتي يقال: «لو افترضنا أنّ البحار كلّها قد جفّت، لترسّب ملحٌ يكفي لبناء جدار ارتفاعه ١٨٠ ميلاً وسماكته ميل، ويمتدّ ليشكّل حزاماً يلفّ الكرة الأرضيّة، عند خطّ الاستواء»[٢]، بل قيل: «إنّ الملح الّذي يمكن أن يترسّب من البحار كلّها يشكّل صخرةً هائلةً أكبر من قارّة أوروبا بخمس عشرة مرّةً»[٣].

وقيل: «لو فُرشت اليابسة بكلّ الملح الموجود في البحار، لشكّل طبقة تفوق سماكتها ١٥٠ متراً، أي ما يساوي ارتفاع مبنى مؤلّف من ٤٥ طبقة!»[٤].

## لِماذا صارَ الْبَحْرُ مالِحاً؟

يحاول العلماء تفسير الظّواهر الكونيّة في الخليقة لكي يتوصّلوا إلى بعض أسرارها وحكمها، ولكن ليس بالضّرورة أنّ كلّ ما يتوصّلون إليه صحيح، بدليل

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) الموسوعة العلميّة المبسّطة (عجائب الكون وغرائبه): ٣١٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) من الشّبكة العنكبوتيّة.

اختلاف تفسيراتهم، بل وتبدّل آراء العالم الواحد بين الحين والآخر، وبما أنَّنا لا نستطيع أن نعرف أسرار الخلق بدقّة إلا أنَّنا من خلال التَّحليلات العلميّة يمكن أن نتوصّل إلى بعض حكمها وأسبابها، مثلا يقولون: إنَّ «السَّبب الرّئيس في ملوحة مياه البحر هو وجود كلوريد الصّوديوم بنسبة مرتفعة جدّاً في الكرة الأرضيّة وتحديداً في القشرة، فقد احتوت قشرة الكرة الأرضيّة على العديد من العناصر الكيميائيّة المختلفة في الكثافة، وعندما بردت القشرة الأرضيّة حدثت فيها تفاعلات كيميائيّة عديدة أدَّت إلى تكوين مركّبات من تلك العناصر، وتتميّز هذه المركبات بأنّها قابلة للذّوبان في الماء، وتدعى هذه المركبات بالقلويّة الملحيّة، والَّتي بسببها أصبحت مياه البحر مالحة، وتختلف نسبة ملوحة المياه من منطقة إلى أخرى، وعلى سبيل المثال تكون مياه البحر الميّت شديدة الملوحة؛ وذلك لقلّة المياه العذبة الواصلة إليه، بالإضافة إلى ارتفاع درجة الحرارة الَّتي تؤدّي إلى زيادة معدّلات التّبخّر، وبالتّالي زيادة تركيز الأملاح، أمّا مياه بحر البلطيق فهي قليلة الملوحة؛ وذلك لوصول كمّيّات كبيرة من المياه العذبة إليه عن طريق الأنهار الَّتي تصبُّ فيه، ويعد النّشاط البركانيّ من أسباب ملوحة مياه البحار؛ حيث تنتقل الأملاح النّاتجة عن الحمم والمصهورات البركانيّة إلى الماء بالإضافة إلى ثاني أوكسيد الكربون الَّذي يذوب في الماء، وتشكّل حامض الكربونيك، وهو بدوره يُذيب المعادن الَّتي تزيد من ملوحة مياه البحار، كما تساهم عمليّات التّبخّر في زيادة ملوحة المياه، فعندما يتبخّر الماء يترك وراءه الأملاح للتّراكم مرّة بعد أخرى في البحار، كما تنقل الأنهار الأملاح إلى مياه البحار والمحيطات خلال مرورها عبر صخور اليابسة والَّتي تتآكل بدورها، وينتج عن تآكلها الأملاح والمعادن المختلفة، ويمكن القول أنَّ ملوحة

مياه البحار أو المحيطات لا تزداد بل هي مستقرّة، ويعود السَّبب في ذلك إلى استهلاك بعض من الأملاح من قِبَل الكائنات البحريّة بكمّيّات كبيرة»[1].

هكذا حلّلوا ملوحة الماء في البحار دون أن يشيروا إلى الحكمة الإلهيّة الّتي قَنَّنَتْ ذلك لتحافظ على التّوازن في الكون؛ ولتجعل الحياة ممكنة، وتحفظ استمراريّة حياة الكائنات، وهي دلالة على وجود خالق حكيم تتجلّى عظمته في خلقه لمن تفكَّر وتدبَّر في مخلوقاته، ولذا يمكن القول أنَّ الحكمة من ملوحة مياه البحار تتَّضح جليّاً عندما نعرف أنَّ من بديهيّات الأمور: أنَّ الماء العذب إذا ركد لمدّة طويلة فإنَّه ينتن، ويتغيّر طعمه، ولونه، وريحه بعكس الماء المالح، فلا ينتن من استمراريّة الرّكود، ولو جعله الله تعالى كلّه عذباً لتغيَّرت رائحته، ولحملت الرّياح تلك الرّوائح إلى أطراف اليابسة، ولأدّى ذلك إلى فساد الهواء، ولانتشر الطّاعون والأمراض الأخرى.

ومن الظّواهر الطّبيعيّة: الأمواج الّتي تحدث بسبب هبوب الرّياح، وجاذبيّة الشّمس والقمر، وحركة الأرض اليوميّة، وتظهر الأمواج كالجبال حتّى يبلغ بعضها أربعون قدماً، «وتنشأ الأمواج عندما يضطرب سطح البحر، وأهمّ ما يميّز حركة الموجة أنّها حينما تمرّ على سطح الماء بسرعة معيّنة، فإنَّ المياه نفسها تعلو وتنخفض في حركة متّسقة منتظمة، وهناك ارتباط بين طول الموجة وقوّتها وعمق المياه، حيث تقاس بعمليّات حسابيّة تفسّر الاختلاف في اتّجاه أو خطّ سير الأمواج الّتي تنشأ في مياه عميقة، وحين تصل إلى مياه ضحلة، وتنشأ الأمواج عادةً مع هبوب الرّياح والعواصف، فمعظم الأمواج ناتجة عن تأثير حركة الرّياح على الماء، غير أنَّ الأمواج قد تنشأ بتأثير حركات المدّ والجزر،

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

كما تنشأ أيضاً من تأثير الزّلازل والبراكين في قاع المحيط، ونظام سير الأمواج في البحار والمحيطات نظام مضطرب، فهو خليط من الأمواج في شكل مجموعات أو سلاسل، تختلط ببعضها في تناسق، وتسابق، وتلاحق مستمرّ»(١).

وهناك أسباب أخرى لنشوء الأمواج مذكورة في محلّها لا حاجة لذكرها نكتفي بذلك.

## فَوائِدُ الْبَحْرِ:

وللبحار فوائد عظيمة نذكر منها:

١- إنَّه طريق عظيم للمواصلات بين القارات كلّها على وجه الأرض، مثلاً البحر الأبيض المتوسط الَّذي هو مركز الممالك المتمدّنة، والمحيط الأطلسيّ الَّذي هو الطّريق الموصل بين العالم القديم والعالم الجديد، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النّعمة العظيمة، أي تسخير الفلك، وهي السّفن وتَسْيِيرها في البحر، وهي آية أخرى من آيات الله جلَّ جلاله منَّ بها على عباده، يقول الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾(٢).

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾(٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٤).

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة، موقع البحار للدّكتور نور الدّين مشاط.

(٢) الشّورى: ٣٢.

(٣) الرّحمن: ٢٤.

(٤) لقمان: ٣١.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾(٣).

وتتجلّى عظمة الله في جريان الفلك في البحر، فما أعظم تلك القدرة العجيبة الَّتي سخّرت كلّ هذا؟ من الَّذي أعطى الموادّ الَّتي تصنع منها السُّفن خاصيّة الطَّواف على سطح الماء؟ ومن الَّذي أعطى الماء خاصيّة رفع تلك الأثقال العظيمة؟ فالسَّفينة الَّتي يبلغ وزنها آلاف الأطنان، وهي أثقل من الماء بكثير، ورغم ذلك تجري عليه، ومن الَّذي أعطى الرّياح هذه القدرة في دفع السّفن الشّراعيّة؟ ومن الَّذي أعطى البخار القوّة لتحريك السَّفينة كي تسير على سطح الماء؟ سبحان الَّذي سخَّر هذا كلّه، وجلَّت عظمته.

ومن هنا يتبيّن «أنَّ البَحر له أهمّيّةٌ بالغةٌ في الإبحار، وحمل ونقل النّاس والسّلع التّجاريّة، وكما أشرنا فإنّ البحار تعتبر أهمّ وسائل البشر للحمل والنّقل، لا

---

(١) الجاثية: ١٢.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) إبراهيم: ٣٢.

سيّما الخطوط البحريّة الَّتي تمتدّ بشكلٍ طبيعيٍّ إلى بقاع الأرض كافّة، ويكفينا الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي صناعة البواخر العملاقة الَّتي تستطيع أن تستوعب (خمسمائة ألف طنّ) من النَّفط، وتنقله إلى أيّ نقطة في العالم، وهذا يلزم توفّر (خمس وعشرين ألف سيّارة ذات حمولة ٢٠ طنّاً) لحمل هذه البضاعة»[١].

٢- ومن فوائد البحار أنَّها تحتوي على ثروات مختلفة من الحيوانات الَّتي عبَّر عنها القرآن الكريم باللَّحم الطّريّ، وفيها الحُلية الَّتي يتزيّن بها الإنسان حيث قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢].

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣].

وهاتان الآيتان تشيران إلى فوائد ثلاث: المواصلات، الحلية، واللّحم الطّريّ؛ تلك هي نعم الله عزَّ وجلَّ في البحار: يصطاد الإنسان حيوانات طيّبة المذاق محلّلة له، من دون أن يبذل في تربيتها جهداً، وإنَّما أوجدتها اليد الإلهيّة، ونمَّتها بقدرتها، وأحلَّتها لابن آدم! ثروات مباركة تتجدّد دهراً بعد دهر؛ وهكذا

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) النّحل: ١٤.

(٣) فاطر: ١٢.

يتضح أنَّ المواد الغذائيّة هي من أهم الفوائد الأخرى للبحار «الَّتي يحصل عليها الإنسان منها، ومن أجل معرفة أهمّيّة هذا الأمر يكفينا العلم بأنَّه يتمّ صيدُ ستّ وعشرين مليون طنّ من الأسماك سنويّاً، علماً أنّ هذا الإحصاء يتعلّق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلَّم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر»(١).

٣- استثمار المعادن والمواد الكيمياويّة الأخرى؛ لتوليد الطّاقات المختلفة المتواجدة في قيعان البحار ومياهه، ولذا أكَّد العلماء منذ أمد بعيد إمكانيّة استثمار تلك الطّاقات لخدمة البشريّة، وهذا ما حصل فعلاً بعد التّقدّم التّكنلوجيّ، فقد ثبت لديهم «أنّ البحارَ غنيّةٌ بالمعادن، ويكمنُ جانبٌ من هذه المعادن في أعماقها، ويعومُ الجزء الأعظم منها على سطحها، ومنها الفلزّات الَّتي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الَّذي يُستعملُ في الصّناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و«البروم» و«سلفات الصّوديوم» وغيرها.

يقول العلماء: إنَّ أكثر من أربعين عنصراً (عدا ما ذُكر) موجودٌ في ماء البحر، لها قيمةٌ صناعيّة جديرة بالاهتمام، كما ويعثر على الذَّهب في ماء البحر أيضاً، غير أنَّ استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج إلى ميزانيّة هائلة لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتي اليوم الَّذي يتمكّن فيه الإنسان من أن ينالها من خلال طرقٍ أكثرَ يُسراً، وتقوم بعض الشّركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسمائة مادة مختلفة من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الأطنان من المعادن، ويعدّ النفط - وهو من أثمن المستخلصات - من هدايا البحر؛ لأنَّ المليارات من الموجودات البحريّة توجد في أعماق البحار العظيمة، وبما أنّ القارّات ارتفعت فيما بعد فقد دُفنت هذه الموجودات تحت الرّمال الَّتي تحوَّلت

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

إلى صخور بعد ذلك، وبقي النَّفط النّاتج عنها في أعماق الأرض»[١].

وقدً أثبتت البحوث العلميّة في عصرنا أنَّ البحار خزائن عظيمة لثروات مختلفة الأشكال والأنواع والأصناف حتّى أصبحت حقيقة ماثلة للجميع، بل أصبحت محطَّ أنظار جميع الدّول الَّتي تحاول استغلال تلك الثّروات العظيمة الكامنة في البحار، بل تعمل على الاستحواذ عليها، ولو كانت خارج حدودها بعد أن ثبت لها أنَّ البحار «أفضلُ منتجٍ للطّاقة – لقد انتبه الإنسان منذ القِدَم إلى هذا الأمر، وهو إمكانيّة إنتاج الطّاقة من خلال السَّيطرة على المياه المتراكمة بسبب المدّ، وتنسحب أثناء حدوث الجزر، فتستغلّ لتحريك المطاحن وغيرها، وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنَّهُ يُمكنُ إنتاج الكهرباء بكمّيّة كبيرة من هذه البحار، وأنْ يستعانَ بها بصفتها أهمّ مصدرٍ لإنتاج الطّاقة، فالجَزر والمدّ اللّذان يحدثان مرّتين ليلاً ونهاراً بتأثير جاذبيّة القمر يقومان برفع وخفض ماء البحار بمقدار كبير»[٢].

وأخيراً بعد تقدّم العلوم (التّكنولوجيّة) أصبحت البحار كنزاً من كنوز الثَّروات البشريّة حيث اكتشف أنَّ تحت قيعان البحار ثروات نفطيّة هائلة بدأت الحكومات باستخراجها؛ ولذا أصبحت البحار ميدان صراع بين الدُّول الكبرى، كلّ يحاول أن يستحوذ على قدر أكبر ممكن من ثرواتها، وقد ورد في حديث شريف: «**إنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ ناراً، وَتَحْتَ النّارِ بَحْراً**»[٣].

وهذا دليل قاطع على نبوّة الرّسول الأعظم ﷺ ولو لم يكن إخباراً من

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٣) سنن أبي داود: ٥٥٨/١، ح/٢٤٨٩؛ كنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٤٣/٤، ح/٩٤٢٣.

الله تعالى فمن أين علم النّبيّ بوجود النّار تحت البحار مع عدم وجود حركة بحث كما هي الآن، وهذا الإخبار منه ﷺ ممّا لم تدركه العقول في ذلك الزّمان وإن آمن به كثير منهم لإيمانهم بأخبار الوحي الإلهيّ، وقد أورد موقع الكحيل بحثاً قيّماً للأستاذ عبد الدّائم الكحيل نورده بطوله لعظيم فوائده:

«عالم البحار مليء بالأسرار والعجائب والّتي ظلّت تُنسج حولها الأساطير حتّى عهد قريب عندما اخترع الإنسان الغوّاصة واستطاع الغوص لآلاف الأمتار في أعماق المحيطات، وقد كان الاكتشاف المذهل وجود نار ملتهبة في أعمق البحار! فجميع البحار والمحيطات في العالم يوجد في قاعها شقوق تتدفّق من خلالها الحمم المنصهرة.

شبكة الصُّدوع والشُّقوق هذه تمتدّ لآلاف الكيلومترات، ويتدفّق من خلالها ملايين الأطنان من السّوائل المنصهرة الموجودة تحت الغلاف الصّخريّ للأرض، وتبلغ درجة حرارة المواد المنصهرة هذه أكثر من ألف درجة مئويّة، وهذه الصُّدوع تعاني من تدفّق مستمرّ على مدار السّاعة ممّا يؤدّي إلى تراكم المواد المنصهرة، وتبرّدها في ماء البحر حتّى تتشكّل الجزر البركانيّة.

وقد تمَّ اكتشاف سلاسل من الجبال البركانيّة في عرض البحر تمتدّ لعشرات الألوف من الكيلومترات، والّتي تشكّلت نتيجة اندفاع الحمم الملتهبة من قاع هذه البحار، ولكن الشّيء غير المتوقّع أنَّ هذه الحمم والّتي تنطلق من الطّبقة الثّالثة للأرض (فيما يسمّى بنطاق الضّعف الأرضي) تحتوي في تركيبتها على الماء. إذن الطّبقة الأرضيّة الّتي تحت البحر وتحت هذه النّار تحتوي ماءً، ويمكن القول بأنَّ الحقيقة العلميّة الثّابتة واليقينيّة هي وجود نار تحت أيّ بحر في العالم، وتحت هذه النّار هنالك ماء يقدّر بأضعاف ما يوجد في البحار!! وهو

ما حدَّثنا عنه الرّسول الكريم ﷺ، فقال: «**إِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ ناراً، وَتَحْتَ النّارِ بَحْراً**»(١).

وهنا نقف وقفة تأمليّة مع هذا الحديث العظيم، فالبحر والنّار هما شيئان متضادّان ولا يجتمعان أبداً، وهذا الفهم موجود عند العرب منذ القديم، وعن قول الرَّسول الرَّحيم عليه الصّلاة والسّلام أنَّ تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً، هو دليل على اجتماع الماء والنّار دون أن يطفئ أحدهما الآخر، وهذا ما ثبت علميّاً، ونحن اليوم نستطيع مشاهدة منظر لأعماق البحار حيث تتّفق الموادّ المنصهرة، وتنتشر عبر ماء البحر البارد، وعلى الرّغم من كثرة ماء البحر؛ فإنَّه لا يستطيع تبخير ماء البحر.

هذا التّوازن هو بالضّبط ما نجده في حديث سيّدنا محمّد ﷺ: «**إِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ ناراً، وَتَحْتَ النّارِ بَحْراً**»، ومع أنَّ هذا النّبيّ الأمّيّ لم يركب البحر ولا مرّة واحدة، ولم ينزل إلى أعماق المحيطات، ومنذ أربعة عشر قرناً لم يكن هنالك غوّاصات، بل أقصى عمق يمكن الوصول إليه تحت سطح الماء لا يتجاوز العشرة أمتار، إنَّ هذا دليل على نبوّة هذا الرَّسول الخاتم ودليل على صدق رسالته للبشر جميعاً.

نشرت جريدة ديلي ميل أحد الاكتشافات الغريبة: بحر هائل على عمق ٤٠٠-٦٠٠ كيلومتراً تحت سطح الأرض، أي تحت الطَّبقة الثّالثة من طبقات الأرض. هذا البحر يحوي كمّيّة من الماء يعادل ثلاثة أضعاف الموجود على سطح الأرض... هذا الاكتشاف قدّمه العلماء في آذار/مارس ٢٠١٤.

(١) سنن أبي داود: ٥٥٨/١، ح/٢٤٨٩؛ كنز العمّال: ٤٣/٤، ح/٩٤٢٣.

وهكذا أصبح لدينا بحر على الأرض وهو الَّذي نعرفه، وتحت هذا البحر مباشرة قشرة رقيقة، وتحتها الطَّبقة الثّانية من طبقات الأرض، ثمَّ تأتي الطَّبقة الثّالثة وهي طبقة ملتهبة تدفّق منها البراكين والحمم المنصهرة.. وتحت هذه الطَّبقة هناك بحر اكتشف حديثاً.

فالكرة الأرضيّة تبدو كرة زرقاء جميلة من الخارج، ولكنّها تخفي تحت طبقاتها ناراً وحمماً منصهرة، فالمظهر الخارجيّ تطغى عليه البحار والغيوم والهدوء.. ولكن عندما ننزل تحت القشرة الأرضيّة الرَّقيقة نرى طبقات ملتهبة، ولكن تحت هذه الطَّبقات النّارية هناك بحر أكبر وأعظم.

وهكذا يصبح عدد طبقات الأرض سبعة:

١- القشرة الأرضية.

٢- الغلاف الصَّخريّ.

٣- الوشاح الأعلى.

٤- الوشاح الأوسط، ويحوي البحر الهائل المكتشف حديثاً وهو طبقة انتقاليّة.

٥- الوشاح الأدنى.

٦- النّواة الخارجيّة.

٧- النّواة الدّاخليّة..

إذن اليوم اتَّضحت الصّورة، وأصبح عدد طبقات الأرض سبع طبقات.. وهذه الحقيقة أشار إليها القرآن في قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

﴿ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾(١).

إذن الحقيقة العلميّة اليقينيّة تقول: إنَّ تحت البحر ناراً وحمماً منصهرة تتدفّق من الطَّبقة الثّانية للأرض، وتحت هذه الطَّبقة الملتهبة هناك بحر هائل... ويصبح لدينا التّرتيب التّالي: بحر - نار - بحر... والآن ماذا عن الحبيب الأعظم؟ كيف تناول هذه القضيّة العلميّة الَّتي اكتشفها العلماء في القرن الحادي والعشرين؟ قال ﷺ: «**إنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ ناراً، وتَحْتَ النّارِ بَحْراً**»، هذا الحديث يخبر عن نار تحت البحر، وقد أثبت العلماء ذلك قبل سنوات، واليوم أثبتوا وجود بحر تحت النّار! والسؤال: ألا يشهد هذا الاكتشاف على صدق حبيبنا عليه الصّلاة والسّلام؟»(٢).

٤- و من فوائد البحار ما يستخرج منها من مواد تجميل كاللّؤلؤ والمرجان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(٣)، جلّت عظمة الله على هذه القدرة والَّتي لا تحيط بها الأوهام، فـ«من المنافع الأخرى للبحار الَّتي ذُكرت بشكل خاصّ في الآيات المذكورة هي وسائل الزّينة الَّتي تُستخرج من البحر، كاللّؤلؤ الّذي ينمو في نوعٍ خاصّ من الصّدف، والمرجان الَّذي هو نوع من الأحياء البحريّة، ولكن على هيأة أغصان أشجار لها منظر جميل ومرغوب، وإضافة إلى صفة الزّينة فهو يُستعملُ في الطّب أيضاً».

٥- ومن فوائد البحار ما يَستخرج من الأعشاب والنَّباتات البحريّة من أعلاف حيوانيّة، ويستخرج منها أدوية وعقاقير طبّيّة؛ فقد نشر بعض الباحثين أنَّه

---

(١) الطّلاق: ١٢.

(٢) من الشّبكة العنكبوتيّة، من موقع عبد الدّائم الكحيل.

(٣) الرّحمن: ٢٢.

«يحصل من كلّ هكتار من البحر خمسمائةُ طنّ من العلف الأخضر، في حين أنّ أفضل مزارعنا لا تنتجُ أكثر من أربعة أطنان، وفي بعض البلدان يُستَغلّ هذا العلف لتغذية المواشي، ويُستَعملُ رماده سماداً للمزارع أيضاً، ويستخرجون من الأعلاف البحريّة مختلف المواد، كالكحول الجامد والسّلولوز والنّشاء والموادّ الجيلاتينيّة، حيث تُستثمر في الصّناعات الكيميائيّة، وإعداد الطّعام وبعض الأدوية»[١].

٦- ومن أهمّ فوائد البحار هو تأثيرها على المناخ في اليابسة الَّتي يستحيل العيش فيها لولا وجود البحار، وما يهب منها من رياح تؤثّر في «تلطيف الجوّ عن طريق البحار - ليست الرّياح الَّتي تهبُّ من البحار نحو اليابسةِ هي الّتي تُرطّبُ وتُلَطّفُ الجوَّ فقط، بل هنالك أنهارٌ عظيمةٌ متحرّكة في قلبِ محيطات العالم تتحرّك من المناطق الحارّة إلى المناطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامّة لها أثرٌ بالغٌ في تلطيف الهواء على الكرة الأرضيّة، وواحدٌ من أعظمها هو «غولف ستريم»، هذا النَّهر العظيم الَّذي يتحرّك من سواحل أمريكا الوسطى، ويطوي المحيط الأطلسيّ، ثمّ يصل إلى سواحل شمال أوربا، وهذه المياه تكون حارّةً حينما تتحرّك من المناطق القريبة من خطّ الاستواء، حتّى أنّ لونها يختلف أحياناً عن لون المياه المجاورة لها، واللَّطيف أنّ عُرضَ هذا النَّهر البحريّ العظيم أي «غولف ستريم» نحو مائة وخمسين كيلومتراً، وعمقه عدّة مئات من الأمتار، وتبلغ سرعته في بعض المناطق حدّاً بحيث يقطع مائة وستّين كيلومتراً في اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة بـ(١٠-١٥) درجة، إنَّ «غولف ستريم» يتسبّب في حصول رياحٍ حارّةٍ، ويعطي نسبةً كبيرة من حرارته إلى

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة، موقع عالم البحار.

البلدان الواقعة شمال أوربا، فيعمل على تحسين جوّها، ولولا هذا الجريان لتعسَّرت الحياة كثيراً في هذه البلدان، واستحالت في بعضها، والعجيب أنّ هذه الأنهار البحريّة العظيمة، والَّتي يكمن السَّبب الرَّئيس وراء ظهورها في التَّفاوت في درجة حرارة المناطق الاستوائيّة والمناطق القطبيّة قليلاً ما تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوي آلاف الكيلومترات بهذا الشّكل، فهي مصداقٌ لطيفٌ لـ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[(١)]»[(٢)].

٧- ويستفاد من فضاءات البحار ومناخاتها في معظم البلدان كوسيلة للتَّنشيط الصّحّيّ، فقد أثبت التَّجارب «أنّ ماء البحر له آثارٌ مفيدة لجسم وأعصاب الإنسان، ولهذا ينتشر اليوم، وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلديّة والعصبيّة، أو لحفظ الصّحّة والسّلامة، ولو تمَّ القضاء على التّلوّث الأخلاقيّ في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط النّاس»[(٣)].

٨- وإنَّ البحر هو المصدر الأساسيّ للمياه الجوفية، فـ«إنّ أهمَّ وأعظمَ وأكثر فوائد البحر هي الأبخرة الَّتي تتصاعد منه، ثمّ تؤلّفُ الغيوم، وتساقُ هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافّة، فتُحييها»[(٤)]، وتسيل في الأرض، وتسقي الحرث والنّسل، ويتسلّل الباقي إلى جوف الأرض ليبقى ذخيرة للمستقبل.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

---

(١) الرّحمن: ١٩-٢٠.

(٢) من الشّبكة العنكبوتيّة، وينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ: ١٧/٣٦٤-٣٦٥.

(٣) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٤) من الشّبكة العنكبوتيّة.

مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[(١)].

فما أعظم نعم الله علينا الَّتي لا تعدّ ولا تحصى.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[(٢)].

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)].

هذه بعض المنافع الَّتي نحسّ بها، ونسعى لتحصيلها من أوساط هذه البحار العظيمة، أمّا النّعم غير المحسوسة، والّتي لا يعرفها كثير من النّاس، وهي: تأثير البحار على اليابسة، فلولا وجود البحار لاستحالت الحياة على الأرض، كما تقدّم لأصبحت جافّة ميّتة لا تُسْكَن، فالبحر هو الَّذي يلطّف الله به مناخ الأرض، ويجعل حرارته معتدلة، ومنه تنبعث رطوبة منعشة تخفّف قساوة البرد، وتلطّف حرارة الجوّ.

واليوم تتّجه أبصار العلماء صوب البحار؛ لغرض المحافظة عليها من التّلوّث، والعمل على حفظ تلك الثَّروات العظيمة من الانقراض؛ لأنَّ خسارة البشريّة لهذه الثَّروة العظيمة الَّتي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على الإنسانيّة لا يعوّضها شيء، والأعجب في هذا الأمر أنَّ آلاف الأصناف من الحيوانات الّتي تمنح الإنسان لحماً طريّاً تعيش في هذا الماء المالح الأجاج، وهذا يدلّل على قدرة الله ووحدانيّته.

---

(١) فاطر: ٩.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) النّحل: ١٨.

## مَظاهِرٌ عَجيبَةٌ وَغَريبَةٌ في الْبَحْرِ:

يقول العلماء، ويعرف البحّارون: أنَّ في البحار والمحيطات أماكن كثيرة فيها منابع عذبة معروفة ترتفع على سطح البحر وسط الماء تقصدها السّفن للتّزوّد منها، وهذا دليل على التَّخطيط الهادف الَّذي وضعه الله للإنسان حين سخَّر له البحر، وكذلك هناك منابع في قعر البحر تنبعث منها مياه معدنيّة كالَّتي تظهر على اليابسة، فسبحان من سخَّر هذا لعباده، وأراد منهم أن يتفكّروا بها؛ ليعرفوا عظمة خالقها جلَّت قدرته، فيوحّدوه ويعبدوه بعد أن يعوا عجائب خلقه سبحانك.

**«يا مَنْ في السَّماوات عَظَمَتُهُ، يا مَنْ في الأَرْضِ آياتُهُ، يا مَنْ في كُلِّ شَيْءٍ دَلائِلُهُ، يا مَنْ في البِحارِ عَجائِبُهُ، يا مَنْ في الجِبالِ خَزائِنُهُ»**[1].

ومن المظاهر العجيبة - الَّتي حيَّرت العقول البشريّة وإلى اليوم - وهي مجاورة المياه العذبة في البحار مع المياه المالحة في المحيطات دون أن يختلط أحدهما بالآخر، ودون أن يتجاوز الماء حدّه المقدّر له كما ذكره القرآن الكريم، وأثبت اختلاف مياه البحار والمحيطات من حيث العذوبة والملوحة، ومن حيث درجة الحرارة، وهذا ما اكتشفه علماء البحار بعد مضي أكثر من ألف سنة على إخبار الوحي الإلهيّ به، فـ «في عام ١٨٧٣ عرف الإنسان أنَّ مناطق معيّنة في البحار المختلفة تختلف في تركيب المياه فيها... عندما خرجت رحلة (تشالنجر)، وطافت حول البحار ثلاثة أعوام، وتعتبر هذه السّفينة رحلة (تشالنجر) هي الحدّ الفاصل بين علوم البحار التّقليديّة القديمة المليئة بالخرافة والأساطير، وبين الأبحاث الرَّصينة القائمة على التَّحقيق والبحث. هذه الباخرة هي أوّل هيأة

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٩١/٩٤، دعاء الجوشن الكبير.

علميّة بيَّنت أنَّ البحار المالحة تختلف في تركيب مياهها، لقد أقامت محطّات، ثمّ بقياس نتائج هذه المحطّات وجدوا أنَّ البحار المالحة تختلف والحرارة والكثافة والأحياء المائيّة وقابليّة ذوبان الأوكسجين، وفي عام ١٩٤٢ فقط ظهرت لأوّل مرّة نتيجة أبحاث طويلة جاءت نتيجة لإقامة مئات المحطّات البحريّة في البحار، فوجدوا أنَّ المحيط الأطلنطيّ - مثلاً - لا يتكوّن من بحر واحد، بل من بحار مختلفة، وهو محيط واحد.

لمّا جاءت مئات المحطّات، ووضعت، ميَّزَتْ هذه المحطّات المختلفة أنَّ هذا بحر مالح، وهذا كذلك أيضاً بحر مالح آخر، هذا له خصائصه، وهذا له خصائصه، في إطار هذا البحر تختلف: الحرارة، والكثافة، والملوحة، والأحياء المائيّة قابليّة ذوبان الأكسجين خاصّة بهذه المنطقة بجميع مناطقها، هذان بحران مختلفان مالحان يلتقيان في محيط واحد، فضلاً عن بحرين مختلفين يلتقيان كذلك كالبحر الأبيض والبحر الأحمر، وكالبحر الأبيض والمحيط الأطلنطيّ، وكالبحر الأحمر وخليج عدن يلتقيان أيضاً في مضايق معيَّنة، ففي ١٩٤٢ عرف لأوّل مرّة أنَّ هناك بحاراً كاملة يختلف بعضها عن بعض في الخصائص والصّفات وتلتقي.

وعلماء البحار يقولون: إنَّ أعظم وصف للبحار ومياه البحار: أنَّها ليست ثابتة (ليست ساكنة) أهمُّ شيء في البحار أنَّها متحرّكة، فالمدُّ والجزر والتّيّارات المائيّة والأمواج والأعاصير عوامل كثيرة جدّاً كلّها عوامل خلط بين هذه البحار، وهنا يرد على الخاطر سؤال: فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تمتزج هذه البحار ولا تتجانس؟! درسوا ذلك، فوجدوا الإجابة: أنَّ هناك برزخاً مائيّاً وفاصلاً مائيّاً يفصل بين كلّ بحرين يلتقيان في مكان واحد، سواء في محيط أو في مضيق،

هناك برزخ وفاصل يفصل بين هذا البحر وهذا البحر، تمكّنوا من معرفة هذا الفاصل وتحديد ماهيّته بماذا؟ هل بالعين؟ لا، وإنّما بالقياسات الدَّقيقة لدرجة الملوحة، ولدرجة الحرارة والكثافة، وهذه الأمور لا ترى بالعين المجرّدة»(١).

ولا شكَّ أنَّ «تقسيم الماء على هذا النّحو في الكرة الأرضيّة لم يجئ مصادفة ولا جزافاً، فهو مُقَدَّر تقديراً عجيباً. الماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضيّة، ويتّصل بعضه ببعض، ويشغل اليابس الرّبع، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقّة لتطهير جوّ الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة»(٢).

وقد لفتت هذه الظّاهرة نظر علماء البحار، واهتدى بعضهم للإسلام بعد اكتشاف هذه الظّاهرة العجيبة الَّتي ذكرت في القرآن الكريم كالعالم (جاك كوستو) البَحّار منذ سنة ١٩٢٨م، «ومرَّ بتجارب علميّة هزَّت نفسه، وحرّكت وجدانه، فأخذ يبحث عن الحقيقة، فلاحظ في تجاربه البحريّة أنَّ الكائنات الحيّة من نبات وحيوان، الَّتي تعيش في البحر الأبيض المتوسّط تختلف في دقائق تركيبها عن شبيهاتها في المحيط الأطلسيّ المجاور له؛ ولامتحان هذه الحقيقة أبحر (كوستو) تصحبه بعثته العلميّة إلى مضيق جبل طارق حيث هناك البرزخ، وهو الحدّ الفاصل بين البحرين، فأصبح ينادي: إنّ الحقائق الأوليّة الَّتي وصلنا إليها تشير إلى أمور أثارت دهشتي، حيث تحقّقنا من جريان سيل مائيّ يفصل ما بين مياه البحر المتوسّط والمحيط الأطلسيّ، فلا يدع أحدهما يطغي على الآخر أو يختلط به.

---

(١) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٦٨١/٧.

ويقول (كوستو): لقد سبقتنا بعثه مائيّة في علوم البحار إلى ملاحظة مماثلة، تنصبّ على الحدّ الفاصل بين البحر الأحمر والمحيط الهنديّ، وذلك في موضع (مضيق باب المندب)، فهناك يقوم تيّار مائيّ آخر يمنع اختلاط مياه أحد البحرين بالآخر، ويترك كلّ منهما كيانه الخاصّ به، وبما يحتوي عليه من نبات وحيوان، ووصل (كوستو) إلى أنّه تيقّن وعلم أنّ مياه البحار والمحيطات لها تراكيب مختلفة لا يختلط بعضها ببعض أبداً؛ وذلك لوجود حاجز مائيّ يمنع امتزاجها.

وذكر (كوستو) أنّه تحدَّث لصديقه (مورس بوكيل)، فقال له (بوكيل): إذا أردت أن تعرف هذه الحقيقة، فعليك أن تراجع الكتاب المقدّس عند المسلمين (القرآن الكريم) الَّذي قصَّ علينا هذا النبأ قبل ألف وأربعمائة عام، فقال (كوستو): فأسرعت إلى (القرآن) المترجم بالإنكليزيّة والفرنسيّة، فوجدت ضالّتي فيه، وفي الآيات ١٩-٢١ من سورة الرَّحمن، فتقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

## كَيْفَ يُقاسُ عُمْقُ الْبَحْرِ؟

«من المعلومات الَّتي يهتمّ بها علماء المحيطات عمق المياه، واستطلاع عمق المياه يُسمّى (سبر العمق) أو (عملية السَّبر). كان هذا السّبر، في الماضي، يتمّ عن طريق إنزال حبل عُلّق في طرفه ثقل.

اليوم يستطيع العلماءُ تكوين فكرةٍ أوضح عن قاع البحر بفضل اختراع جهاز اسمه (مسبر الصّدى). هذا المسبر يستخدم صدى الصّوت؛ ليبيّن عمق

(١) حسن السّعيد، الإسلام والغرب الوجه الآخر: ١٢٧-١٢٩.

البحر.

يُرسلُ (مسبر الصّدى) المحمول على سفينة، إشارة صوتيّة تخترق الماء بسرعة ميل في الثّانية، ويعكس قاع البحر هذا الصَّوت أي يرجع صداها، ويستقبل المسبر هذا الصّدى، وكلّما كان الماءُ عميقاً استغرق الصّدى وقتاً أطول كي يصلّ إلى السَّفينة...

مسبر الصّدى يقيس العمق بسهولة، لكنّه يفعل ما هو أكثر بكثير، إنّه يقدّم رسماً أو خطّاً يبيّن شكل قاع البحر تحت السَّفينة، إنّه يقوم بعمليّة سبر كلّما تحرَّكت السَّفينة أمتاراً قليلة، فإذا عبرت السَّفينة فوق جبل يجري من مرتفعات الأعماق سجّل المسبر شكله بدقّة، وإذا كان قاع البحر منبسطاً سجّل شكلاً منبسطاً»[1].

## أَعْمَقُ النُّقاطِ الْبَحْرِيَّةِ:

قيعان المحيطات مغطّاة حتّى عمق ١٢٠٠٠ قدماً برواسب طينيّة ناعمة، وأعمق نقاطه تندرج فيما يأتي:

١- أعمق نقطة في المحيط الهادئ، ويبلغ معدل عمقها ١٤٠٤٨ قدماً أو ٤٢١٤ متراً.

٢- ويليه في معدّل العمق المحيط الهنديّ، ويبلغ عمقه ١٣٠٠٢ قدماً أو ٣٩٠٠ متراً.

٣- ثمّ المحيط الأطلسيّ، ويبلغ ١٢٨٨٠ قدماً أو ٣٨٦٤ متراً.

٤- أقلُّ البحار عمقاً بحر (البلطيق)، فلا يتجاوز معدّل عمقه ١٨٠ قدماً، أو

---

(١) الموسوعة العلميّة المبسّطة (عجائب الكون وغرائبه): ٣٢٧-٣٢٨.

٥٤ متراً.

٥- وأعمق نقطة عُرِفَت حتّى الآن موجودة في المحيط الهادئ قرب (غوام) تجاه الفيليبين الشّرقيّ، ويبلغ عمقها ٣٥٤٠٠ قدم، حوالي ١١٠٠٠ متر، والوهدة البحرية التّاليّة في العمق موجودة في المحيط الأطلسيّ قريباً من شاطئ (بورتوريكو)، ويبلغ عمقها (٣٠٢٤٦) قدماً، أو(٩٠٧٣) متراً[(١)].

فسبحان من خلق هذا، وجلَّت قدرته، وتجلَّت عظمته، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[(٢)].

(١) ينظر: الموسوعة العلميّة المبسّطة (عجائب الكون وغرائبه): ٣٢٩-٣٣٠.

(٢) ص: ٢٧.

# الْمسؤوليّةُ في الإِسْلامِ

﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[1].

خلق الله الإنسان، وجعله خليفته في الأرض بما ميَّزه على سائر الكائنات بالعقل والاختيار، فهو كائن حرٌّ ذو إرادة وعزم، وهو الوحيد من الكائنات القابل للتَّكليف والإلزام، فكلُّ الكائنات تعيش في ضمن القانون الطَّبيعيّ التّكوينيّ تسيّرها الفطرة والإلهام الغرائزيّ؛ أمّا الإنسان فهو قابل للتَّكليف والمسؤوليّة القانونيّة، ويعيش في إطاره بخلاف المخلوقات الأخرى، فهي غير قابلة للتَّكليف وتَحَمُّل المسؤوليّة القانونيّة، فلا يمكن وضع قانون للحيوانات أو الجمادات، بل وحتّى الملائكة فهي مُسَيّرة تكويناً، ومزيّة الإنسان الأخرى هي أنَّه حرٌّ ومسؤول، وحديثنا هنا يدور حول المسؤوليّة الملقاة على الإنسان في المنهج والنّظام الإسلاميّ، فما هي المسؤوليّة؟

المسؤوليّة: تكليف وإلزام يتحملّه الإنسان باختياره، وهذا الإلزام نابعٌ من أصل استخلاف الإنسان من قبل الله تعالى، وبعبارة أخصر هي تعاقد مع الله تعالى، وتعهّد بحمل تكاليفه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[2]، وهذا التّعاقد مغروس بأصل فطرة الإنسان منذ أخذ الله تعالى عهداً وميثاقاً على بني آدم حين خلقهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ

(١) الصّافّات: ٢٤.

(٢) الإسراء: ٣٤.

﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[١].

فالإنسان إذن له عهد وميثاق فطريّان مع الله قَبلَهُ بلسان حال الفطرة في الجواب عن سؤاله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وله تعاهد آخر من خلال إيمانه برسالة الرُّسل والأنبياء، وهذا هو الطَّرف الأوّل من العهد المباشر وغير المباشر، والطَّرف الثّاني من المسؤوليّة حمل أمانة الاستخلاف، فالمستخلَف (بالفتح) يمثّل المستخلف (بالكسر) بصفته أميناً في أرضه، «إنَّ الخلافة استئمان؛ ولهذا عبَّر القرآنُ عنها في المقطع الأخير[٢] بالأمانة، والأمانة تفترض المسؤوليّة والإحساس بالواجب؛ إذ بدون إدراك الكائن أنَّه مسؤول لا يمكن أن ينهض بأعباء الأمانة، أو يُخْتار لممارسة دور الخلافة: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾»[٣].

ولذلك يُسأل الإنسان عن الميثاق الَّذي قطعه على نفسه مع الله عزَّ وجلَّ، يقول تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٤].

جاء في تفسير هذه الآية الشَّريفة: «فمعنى سؤال الصّادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يُظهروا ما في باطنهم من الصّدق في مرتبة القول والفعل، وهو عملهم الصّالح في الدُّنيا، فالمراد بسؤال الصّادقين عن صدقهم توجيه التَّكليف على حسب الميثاق إليهم؛ ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم، وهذا في الدُّنيا

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، (الأحزاب: ٧٢).

(٣) السّيّد محمّد باقر الصَّدر، الإسلام يقود الحياة: ١٢٩-١٣٠.

(٤) الأحزاب: ٨.

لا في الآخرة، فأَخْذُ الميثاق في نشأة أخرى قبل الدُّنيا كما يدلّ عليه آيات الذّرّ»[١].

فحتّى الصّادقين الَّذين هم الثّلّة المؤمنة بكلّ مراتبها الإيمانيّة يسألون عن صدقهم، «فإنَّ الصّادق إذا سُئِلَ عن صدقه على أيّ وجه قال، فيجازي بحسبه، فكيف يكون صورة الكاذب»[٢]؟!

فالإنسان حرٌّ مختار حُمِّلَ رسالة الله، وقَبِلَ ميثاقه باختياره، فمسؤوليّته في الأصل أمام الله تعالى بوصفه خليفته في الأرض، والمستخلَف مسؤول أمام المستخلِف، وخلاصة مسؤوليّته أمام الله تعالى أن يؤدّي ما حمَّلَه من تكاليف، قال شيخ الطّائفة الطّوسيّ قدس سره: «إنَّهم مسؤولون" عمّا كلّفهم الله في الدُّنيا من عمل الطّاعات، واجتناب المعاصي، هل فعلوا ما أُمِروا به أم لا؟ على وجه التَّقْرير لهم، والتَّبكيت دون الاستعلام»[٣].

وقال السّيّد الطّباطبائيّ قدس سره: «إنَّ المسؤول عنه هو كلّ حق أعرضوا عنه في الدُّنيا من اعتقاد حق، أو عمل صالح استكباراً على الحقّ تظاهراً بالتّناصر»[٤].

وهذه المسؤوليّة أمام الله تعالى ليست قيوداً تكبّل حريّة الإنسان كما قد يتصوّرها المادّيّون، بل هو تشويق له، يحفظ قدرته على التَّعبير الثّوريّ البنّاء، ويحقّق له حياة اجتماعيّة كريمة تنسجم مع قيم السَّماء، فهي تضعه على الجادّة الوسطى، وتصونه من التَّفريط والإفراط، وبحمل هذا التَّكليف تنتفي العبثيّة من حياة الإنسان:

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٧٩/١٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٣١٩/٨.

(٣) التّبيان في تفسير القرآن: ٤٩٠/٨.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٣٢/١٧.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(١).

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾(٢).

فوجود الإنسان على الأرض له هدف عظيم، وهذا الهدف يتحقّق بحمل تلك الأمانة الإلهيّة، ويكون مسؤولاً عنها أمام الله تعالى، ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٣).

والمسؤوليّة شاملة لجميع بني آدم المرسَل، والمرسَل إليه، وكلّ حسب مستوى علمه، وقوّة عقله، وما قدَّمه من أعمال للعباد والبلاد، ونوعيّة استفادته من البقاع والبهائم(٤).

ومسؤوليّة الإنسان أمام الله تعالى ذات جانبين متلازمين لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى؛ مسؤوليّة فرديّة خاصّة، وأخرى اجتماعيّة عامّة.

أمّا الأولى: فتشمل جميع شؤون الإنسان الخاصّة، وما منحه الله من قدرات وطاقات، وما يتعلّق به من جوارح، وعقل، وشباب، وعمر، ومال، وأهل.. وما يترتّب على ذلك من أعمال وعلاقات، فهو مسؤول أمام الله تعالى عن كلّ ذلك؛ لأنَّه وفق العقيدة الإسلاميّة هو عبدٌ لله لا يملك من نفسه شيئاً، ولا يُسمح له أن يتصرَّف بها كما يشاء إلا وفق ما شرَّعه الله له، والمسؤوليّات الفرديّة الخاصّة كثيرة

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

(٢) القيامة: ٣٦.

(٣) الأعراف: ٦.

(٤) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اتَّقوا اللهَ في عِبادِهِ وَبِلادِهِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْؤولونَ حَتّى عَنِ الْبِقاعِ وَالْبَهائِمِ»، نهج البلاغة: ٢٧٤، خطبة: ١٦٧.

نذكر منها:

١- مسؤول عن تزكية وتربية نفسه، يقول تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عبادَ الله، اللهَ اللهَ في أعزِّ الأنْفُسِ عليْكُمْ، وأَحَبِّها إليْكُمْ؛ فإنَّ اللهَ قدْ أَوْضَحَ سبيلَ الْحَقِّ، وأَنارَ طُرُقَه، فشقْوَةٌ لازمَةٌ أَوْ سَعادَةٌ دائمَةٌ**»[٢].

ولذا لأجل تربية النّفس، وتزكيتها جاءت الأحاديث متواترة تحثّ على محاسبة النَّفس، ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «**لَيْسَ منّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ في كُلّ يوْمٍ، فَإنْ عَمِلَ خَيْراً اسْتَزادَ اللهَ منْهُ، وإنْ عَمِلَ شيْئاً شرّاً اسْتَغْفَرَ اللهَ وتابَ إلَيْه**»[٣].

ومن هنا عدَّ القرآنُ الكريمُ الخاضعَ للظّلم، والرّاكن إلى الظّالمين ظالماً لنفسه؛ ولذا كان مأواه جهنم وبئس المصير، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[٤]، فهؤلاء إنّما صاروا ظالمين لأنفسهم؛ لأنّهم لم يزكّوها، ولم يهذّبوها ويروّضوها على المنهاج الإلهيّ، ورضوا بالظّلم؛ فكانوا ظالمين لأنفسهم فاستحقّوا عذاب الجحيم.

---

(١) الشّمس: ٧-٩.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥٣، خطبة: ١٥٧.

(٣) الشّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٦-٢٧؛ ومحاسبة النَّفس للسّيّد ابن طاووس: ٣٣.

(٤) النّساء: ٩٧.

٢- مسؤول عن نيّته في عمله: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَوَّلَ مَنْ يُدْعى يوْمَ الْقيامَة رَجلٌ جمَعَ الْقُرْآنَ، ورَجلٌ قُتلَ في سَبيلِ الله، ورَجُلٌ كثيرُ الْمال، فيَقولُ اللهُ عزَّ وَجلَّ للْقارئ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنْزلْتُ عَلى رَسولي؟ فيَقول: بلَى يا رَبِّ، فيَقول: ما عَملْتَ في ما علمت؟ فيَقولُ: يا رَبِّ، قَرأْتُه في آناء اللَّيْل وأَطْراف النَّهار، فيَقولُ اللهُ تَعالى: كَذبْتَ، وتَقولُ الْمَلائكَةُ: كَذبْتَ، ويَقولُ اللهُ تَعالى: إنَّما أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ قارئٌ، فَقَدْ قيلَ ذلكَ؛ ويُؤْتى بصاحب الْمال، فيَقولُ اللهُ تَعالى: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتّى لَمْ أَدعْكَ تَحْتاجُ إلى أَحَد؟ فيَقولُ: بَلى يا رَبِّ، فيَقول: فَما عَملْتَ في ما آتَيْتُك؟ قالَ: كُنْتُ أَصلُ الرَّحْم، وأَتَصدَّقُ، فيَقولُ اللهُ تَعالى: كَذبْتَ، وتَقولُ الْمَلائكَةُ: كَذبْتَ، ويَقولُ اللهُ تَعالى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ جَوادٌ، وقَدْ قيلَ ذلكَ، ويُؤْتى بالَّذي قُتلَ في سَبيلِ الله، فيَقولُ اللهُ تَعالى: ما فعَلْتَ؟ فيَقولُ: أُمرْتُ بالْجهاد في سَبيلك، فَقاتَلْتُ حَتّى قُتلْت، فيَقولُ اللهُ تَعالى: كَذبْتَ، وتَقولُ الْمَلائكَةُ: كَذبْتَ، فيَقولُ اللهُ تَعالى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ شُجاعٌ جَريءٌ، فَقَدْ قيلَ ذلكَ»، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «أولئكَ تُسْعَرُ بهمْ نارُ جَهَنَّمَ»[1].

٣ - مسؤول عن جوارحه: يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2]، فهذه الجوارح نعَمٌ عظيمة أنعم الله بها على عباده، والنّعمة تستلزم شكر المنعم، والشُّكر يتحقّق بأن يستعمل

(١) موسوعة الشّهيد الثّاني (الرّسائل): ٢/١٥٢-١٥٣؛ ومستدرك الوسائل للميرزا النّوريّ: ١/١١١، ح/١٢٠.

(٢) الإسراء: ٣٦.

هذه النّعم لطاعة الله؛ ولذلك فالإنسان مسؤول عمّا يستعمل به هذه الجوارح، وهذا ما أكّدته الرّوايات الكثيرة؛ فقد ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**فَهَذا ما فَرَضَ اللهُ عَلى الْعَيْنَيْن منْ غَضِّ الْبَصَر عَمّا حَرَّمَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَمَلُهُما، وهُوَ منَ الإيمان، وَفَرَضَ اللهُ عَلى الْيَدَيْن أَنْ لا يَبْطشَ بهما إلى ما حَرَّمَ اللهُ وَأَنْ يَبْطشَ بهما إلى ما أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَرَضَ عَلَيْهما منَ الصَّدَقَة وَصلَة الرَّحم وَالْجهاد في سَبيل الله وَالطَّهور للصَّلاة، فَقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾**[1]»[2].

وعن الحسن قال: «كنت أطيل القعود في المخرج؛ لأسمع غناء بعض الجيران»، قال: «فدخلْتُ على أبي عبد الله عليه السلام، فقال لي: **يا حَسَنُ، ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾**[3]، **السَّمْعُ وَما وَعى، وَالْبَصَرُ وَما رَأى، وَالْفُؤادُ وَما عَقَدَ عَلَيْه**»[4].

٤- مسؤول عن كلّ ما يصدر عنه من قول أو عمل صغيراً أو كبيراً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَمّا بَعْدُ، فَإِنّي أوصيكُمْ بتَقْوى الله، وَالْعَمَل بما أَنْتَمْ عَنْهُ مَسْؤولونَ، فَأَنْتُمْ به رهْنٌ، وَأَنْتُمْ إِلَيْه صائرونَ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿كُلُّ**

(١) المائدة: ٦.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٩٥-٩٦، ح/١٥٢١.

(٣) الإسراء: ٣٦.

(٤) تفسير العيّاشيّ: ٣/٥٢، ح/٢٥١٨.

نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾[١]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٢]، وقال: فَوَرَبِّكَ ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٣]، فَاعْلَموا عِبادَ الله أَنَّ اللهَ سائِلُكُمْ عَنِ الصَّغيرِ مِنْ أَعْمالِكُمْ وَالْكَبيرِ...»[٤].

وَقال عليه السلام: «وَإِنَّ اللهَ تَعالى يُسائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبادِهِ عَنِ الصَّغيرَةِ مِنْ أَعْمالِكُمْ وَالْكَبيرَةِ، وَالظّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ»[٥].

٥- إنَّه مسؤول عن شبابه وعمره وماله وولاية الأئمّة سلام الله عليهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تَزولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمْرِهِ فيما أَفْناهُ، وَ[عَنْ] شَبابِهِ فيما أَبْلاهُ، وَعَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفيما أَنْفَقَهُ، وَعَنْ حُبِّنا أَهْلَ الْبَيْتِ»[٦].

٦- مسؤول عن كلّ دعوة يدعو الآخرين إليها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما مِنْ داعٍ دَعا إِلى شَيْءٍ إِلا كانَ مَوْقوفاً يَوْمَ الْقِيامَةِ، لازِماً بِهِ لا يُفارِقُهُ، وَإِنْ دَعا رَجُلٌ رَجُلاً»، ثمَّ قرأ: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾[٧].

---

(١) المدثّر: ٣٨.

(٢) آل عمران: ٢٨.

(٣) الحجر: ٩٢-٩٣.

(٤) الثّقفيّ، الغارات: ١/٢٣٣-٢٣٤؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦/٦٧.

(٥) نهج البلاغة: ٤٠٩، كتاب: ٢٧.

(٦) الشّيخ الصدوق، كتاب الخصال: ٢٥٣.

(٧) سنن التّرمذيّ: ٥/٣٦٤، ح/٣٢٢٨.

وفي حديث آخر: «**أَيُّما رَجُلٍ دَعا رَجُلاً إلى شَيْءٍ، كانَ مَوْقوفاً يَوْمَ الْقِيامَةِ، مُلازِماً به لا يُفارِقُه**»، ثمَّ قرأ: ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ** ﴾[١].

٧- مسؤولٌ عن النِّعَم الَّتي منَّ الله بها عليه؛ فقد ورد في الحديث الشَّريف عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قال: «**إنَّ اللهَ لَمْ يُنْعِمْ على عَبْدٍ نِعْمَةً إلا وقَدْ أَلْزَمَه فيها الْحُجَّةَ من الله، فَمَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْه، فَجَعَلَه قَوِيّاً فَحُجَّتُه عَلَيْه الْقِيامُ بما كَلَّفَه، وَاحْتِمالُ مَنْ هُوَ دُونَه مِمَّنْ هو أَضْعَفُ مِنْه، ومَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْه فَجَعَلَه مُوسَّعاً عَلَيْه، فَحُجَّتُه عَلَيْه مالُه، ثُمَّ تَعاهُدُه الْفُقَراءَ بَعْدُ بِنَوافِلِه، ومَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْه فَجَعَلَه شَرِيفاً في بَيْتِه، جَميلاً في صورَتِه، فَحُجَّتُه عَلَيْه أَنْ يَحْمَدَ اللهَ تعالى عَلى ذلِكَ، وأَنْ لا يَتَطاوَلَ عَلَى غَيْرِه، فَيَمْنَعَ حُقوقَ الضُّعَفاءِ لِحالِ شَرَفِه وَجَمالِه**»[٢].

فالإنسان إذن مسؤول عن النِّعم الإلهيّة عليه بصورة شاملة: القوّة في الجسد، والسّعة في الحال، والشّرف الاجتماعيّ سواء كان علميّاً، أو سياسيّاً، أو اقتصاديّاً، بل حتّى الجمال في الصّورة...

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ اللهَ يَسْأَلُ الْمَرْءَ عَنْ جاهِه، كما يَسْأَلُ عَنْ مالِه، يَقولُ: جَعَلْتُ لَكَ جاهاً، فَهَلْ نَصَرْتَ به مَظْلوماً؟ أَوْ قَمَعْتَ به ظالِماً، أَوْ أَعَنْتَ به مَكْروباً**»[٣]؟

وَقال عليه السلام: «**كُلُّكُمْ راعٍ، وَكُلُّ راعٍ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**»[٤].

---

(١) المتّقي الهنديّ، كنز العمّال: ٣٨/٢، ح/٣٠٣٣.

(٢) الكافي: ٣٩٧/١، ح/٤٢٤.

(٣) العلامة الحلّيّ، الرّسالة السّعديّة: ١٤٩.

(٤) المصدر السّابق، وحلية الأولياء للأصبهانيّ: ٢٨١/٨.

فكلُّ نعمة مسؤول عنها، ومسؤوليّته هي أن يسخّر ما منحه الله تعالى في طاعته ومرضاته، وأن لا يعدّه نعمة ذاتيّة خاصّة به، وإنَّما هي مِنّةٌ مَنَّ الله تعالى بها عليه، وشكر النّعم أداء حقّها، وهو أن يستعملها فيما أمره تعالى، وأن لا يستعين بها على معاصيه، قال أمير المؤمنينعليه السلام: «**أَقَلُّ ما يَلْزَمُكُمْ لله أَلا تَسْتَعينوا بنعمه عَلى مَعاصيه**»[1].

ويعجبني أن أنقل الحوار الَّذي دار بين بهلول الحكيم[2] وهارون العبّاسيّ،

(١) نهج البلاغة: ٥٤١، قصار الحكم: ٣٢١.

(٢) قال العلامة الخوانساريّ: «العالم العارف الكامل الكاشف عن لطائف أسرار الفنون بهلول بن عمرو العاقل العادل الكوفيّ الصّوفيّ المشتهر بالمجنون، اسمه وهب، وكان من خواصّ تلامذة مولانا الصّادق عليه السلام كاملاً في فنون الحكم والمعارف والآداب، بل ومن جملة المفتين على طريقة أهل الحقّ في زمانه مقبولاً عند العامّة أيضاً، ويقال: إنَّ أباه عمراً كان عمَّ الرَّشيد كما في «تاريخ المستوفي» وفي «المجالس» أنَّ الرَّشيد لمّا أجمع أمره على قمع أثر مولانا الكاظم عليه السلام، وجعل يحتال في ذلك، أرسل إلى حملة الفتيا يستفتيهم عن إباحة دمه المعصوم عليه السلام متّهماً إيّاه بداعية الخروج ، فأفتوا - قاتلهم اللّه جميعاً - بالإباحة سوى البهلول، وكان منهم فإنّه لقى في سرّه الإمام عليه السلام، وأخبره بالواقعة، وطلب منه الهداية إلى طريق النَّجاة، فأشار عليه السلام إليه بالتّجنّن في أعينهم وإظهاره السَّفه والهذيان صيانة لنفسه ودينه، وإقداراً له على إحقاق الحقّ، وإبطال الباطل كما يريد. قلتُ: ويؤيّد ذلك ما نقله السيّد نعمة الله التّستريّ رحمه الله في حقّ الرّجل في كتابه الموسوم بـ«غرائب الأخبار» قال: روي أنَّ هارون الرَّشيد أراد أن يولّي أحداً قضاء بغداد، فشاور أصحابه، فقالوا: لا يصلح لذلك إلا بهلو. فاستدعاه، وقال: يا أيّها الشّيخ الفقيه أعنّا على عملنا هذا، قال: بأيّ شيء أعينك؟ قال: بعمل القضاء، قال: أنا لا أصلح لذلك، قال: أطبق أهل بغداد على أنّك صالح لهذا العمل، فقال: يا سبحان الله، إنّي أعرف بنفسي منهم، ثمّ إنّي في إخباري عن نفسي بأنّي لا أصلح للقضاء لا يخلو أمري من وجهين: إمّا أن أكون صادقاً، فهو ما أقول، وإن كنتُ كاذباً، فالكاذب لا يصلح لهذا العمل، فألحّوا عليه وشدّدوا، وقالوا: لا ندعك أو تقبل هذا العمل، قال: إن

فعن الفضل بن الرّبيع، قال: «حججت مع هارون الرّشيد أمير المؤمنين، فمررنا بالكوفة في طاق المحامل، فإذا ببهلول المجنون قاعد يهذي، فقلت له: اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت، فلمّا جاء الهودج، قال: يا أمير المؤمنين، حدّثني أيمن بن نابل، حدّثنا قدامة بن عبد الله العامريّ، قال: رأيتُ النَّبيّ ﷺ بمنى على جمل، وتحته رحل رثّ، فلم يكن ثَمَّ طردٌ ولا ضرب ولا إليك اليك، فقلْتُ: يا أمير المؤمنين، إنه بهلول المجنون، قال قد عرفته، وبلغني كلامه، قل يا بهلول، فقال: يا أمير المؤمنين، هب أنَّك ملكت العباد طرّاً، ودان لك العباد فكان ماذا؟ أليس مصيرك إلى قبر يحثو ترابك هذا وهذا؟ فقال: أجدتَ يا بهلول أفغيره؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، من رزقه الله جمالاً ومالا فعفَّ في جماله، وواسى في ماله كُتبَ في ديوان الأبرار، قال: فظنَّ أنّه يريد شيئاً، قال: فإنّا قد أمرنا أن نقضي دينك، قال لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا تقضِ ديناً بدين، اردد الحقّ إلى أهله، واقضِ دين

كان ولا بدّ فأمهلوني اللَّيلة حتّى أفكّر في أمري، فأمهلوه؛ فخرج من عندهم فلمّا أصبح في اليوم الثّاني تجانن، وركب قصبة، ودخل السّوق، وكان يقول: طرّقوا، خلّو الطّريق، لا يطأكم فرسي. فقال النّاس: جنّ بهلول، فقيل: ذلك لهارون، فقال: ما جُنّ، ولكن فرّ بدينه منّا، وبقي على ذلك إلى أن مات: وكان من عقلاء المجانين رحمه الله. ويؤيّد أيضاً صدق هذه النّسبة إليه. ما نقل في أخبارنا المعتبرة من صدور الأمر بالتّجانن عن مولانا أبي جعفر الباقر عليه السلام بالنّسبة إلى جابر الجعفيّ، وهو أيضاً من حملة أسرارهم الأخيار المقرّبين حين خروجه إلى الكوفة من خدمة الإمام عليه السلام، وكان والي الكوفة قد أمر بإرسال رأسه إلى الخليفة لكثرة ما كان ينشره فيهم من مناقب المعصومين عليهم السلام، فصار ذلك منشأ لخلاصه، وعذرهم إيّاه بعد شهادة أهل البلد بجنونه إلا أنّ جنون جابر كان من قبيل الإدواريّ، ومختصّاً بتلك الواقعة بخلاف جنون البهلول المطبّق أوقاته طول حياته لشدّة التّقيّة في زمانه الَّذي هو إلى أواخر زمن المتوكّل الملعون بخلافها في زمن الصّادقَيْن عليهما السلام كما لا يخفى. وله مناظرات طريفة، ومباهات لطيفة مع أبي حنيفة، وغيره أيضاً منقولة في «المجالس» وغيره...»، روضات الجنّات: ٢/١٤٥-١٤٧.

نفسك من نفسك؛ فإنَّ نفسك هذه نفس واحدة، وإنْ هلكت والله ما انجبرت عليها، قال: فإنّا قد أمرنا أن نجري عليك، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يعطيك وينساني، أجري عليَّ الذي أجرى عليك، لا حاجة لي في إجرائك، ومضى».

قال ابن عساكر: «هكذا قال والصّواب: [من الوافر]

هب أنَّك قد ملكْتَ الأرض طرّاً ... ودان لك العباد، فكان ماذا؟

أليس تصير في قبرٍ ويحوي ... تراثك بعدُ هذا ثمّ هذا»[1]

وأعظم النّعم المسؤول عنها نعمة الإيمان والولاء لأهل الحقّ والهداية، والمسؤوليّة هنا هي عن الامتثال للأوامر الولائيّة المكلّف بها الإنسان؛ فعنْ منذر الصّيرفيّ، عن أبي خالد الكابليّ، قال: «دخلْتُ على أبي جعْفر عليه السلام، فدعا بالغداء، فأكلْتُ معه طعاماً ما أكلْت طعاماً قطّ أنظف منه، ولا أطيب، فلمّا فرغْنا من الطّعام قالَ: **يا أَبا خَالد كَيْفَ رأَيْتَ طَعامَك، أَوْ قالَ: طَعامَنا؟** قلْتُ: جُعلْتُ فداك، ما رأيتُ أطيب منه، ولا أنظف قطّ، ولكنّي ذكرْتُ الآية الّتي في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾[2]، قال أبو جعفرٍ عليه السلام: **لا، إنَّما تُسْأَلونَ عمّا أَنْتُمْ عَلَيْه منَ الْحَقِّ**»[3]

وعَنَ أبي حمزة، قال: «كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعةً، فدعا بطعامٍ ما لنا عهدٌ بمثله لذاذةً وطيباً، وأوتينا بتمر ننظر فيه إلى وجوهنا من صفائه وحسنه، فقال رجلٌ: لتسألنّ عن هذا النّعيم الّذي نُعِّمتم به عند ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أكْرَمُ وأَجَلُّ منْ أَنْ يُطْعمَكُمْ طَعاماً فَيُسوِّغَكُموه،**

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٥/٤٠٨-٤٠٩.

(٢) التّكاثر: ٨

(٣) الكافي: ١٢/٣٢٤، ح/١١٦١١.

ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ عَنْهُ، وَلكِنْ يَسْأَلُكُمْ عَمّا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله»(١).

فنعمة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر إذن من النّعم العظيمة الَّتي يُسْأَل عنها الإنسان، إنَّها نعمة الإسلام والإيمان الَّتي مَنَّ اللهُ بها على الإنسان، يقول تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢).

نعم تلك هي المنّة الكبرى الَّتي لا تحدّ بحدود لمن عرفها وتذوَّق حلاوتها، وعرف أبعادها وأهدافها ومسؤوليّاتها، وقد روى العيّاشيّ بإسناده في حديث طويل، قال: «سأل أبو حنيفة أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾، فقال له: ما النَّعيمُ عِنْدَكَ يا نُعْمانُ؟ قال: القوت من الطّعام والماء البارد، فقال: لَئِنْ أَوْقَفَكَ اللهُ يومَ الْقيامَة بَيْنَ يدَيْه، حتّى يَسْأَلَكَ عَنْ كُلِّ أَكْلَةٍ أَكَلْتَها، وَشُرْبَةٍ شَرِبْتَها، لَيَطُولَنَّ وُقُوفُكَ بيْنَ يدَيْه.

قال: فماَ النَّعيم، جُعِلْتُ فداك؟ قال: نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ النَّعيمُ الَّذي أَنْعَمَ اللهُ بنا عَلى الْعباد، وَبنا ائْتَلَفوا بَعْدَ أَنْ كانوا مُخْتَلفينَ، وَبنا أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلوبهمْ، وَجَعَلَهُمْ إخْواناً بَعْدَ أَنْ كانوا أَعْداءً، وَبنا هَداهُمُ اللهُ للإسْلام، وَهيَ النِّعْمَةُ الَّتي لا تَنْقَطعُ، وَاللهُ سائلُهُمْ عَنْ حَقِّ النَّعيمِ الَّذي أَنْعَمَ اللهُ به عَلَيْهِمْ، وَهُوَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وَعتْرَتُهُ»(٣).

---

(١) الكافي: ٣٢٣/١٢، ح/١١٦٠٩.

(٢) الحجرات: ١٧.

(٣) تفسير العيّاشيّ: ١٧٣/٣-١٧٤؛ ومجمع البيان في تفسير القرآن للشّيخ الطّبرسيّ: ٨١٣/١٠.

٨- **مسؤوليّة الإنسان عن أهله:** فكما أنّه مسؤول عن نفسه فكذلك مسؤول عن أهله في ارشادهم، وتربيتهم، وهدايتهم إلى شرعة الله تعالى، وحفظهم من الانحراف عنها، وأَمرهم بما يأمر به نفسه، ونهيهم عما ينتهي عنه، يقول تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾[(١)].

وقد ورد في تفسير هذه الآية روايات توضّح كيف يقي الإنسان أهله، فعن عبد الأعلى مولى آل سام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**لَمّا نَزَلَتْ هذه الآيَةُ... جَلَسَ رَجُلٌ من الْمُسْلمينَ يَبْكي، وَقالَ: أَنا عَجَزْتُ عَنْ نَفْسي، كُلِّفْتُ أَهْلي، فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: حَسْبُكَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بما تَأْمُرُ به نَفْسَكَ، وَتَنْهاهُمْ عَمّا تَنْهى عَنْهُ نَفْسَكَ**»[(٢)].

وعن أبي بصير: «قلتُ: كيف أقيهم؟ قال: **تَأْمُرُهُمْ بما أَمَرَ اللهُ، وَتَنْهاهُمْ عَمّا نَهاهُمُ اللهُ، فَإِنْ أَطاعوكَ كُنْتَ قَدْ وَقَيْتَهُمْ، وَإِنْ عَصَوْكَ كُنْتَ قَدْ قَضَيْتَ ما عَلَيْكَ**»[(٣)].

وفي رواية اخرى أنَّه سأل الامام عليه السلام: «كيف نقي أهلنا؟» قال: «**تَأْمُرونَهُمْ وَتَنْهَوْنَهُمْ**»[(٤)].

«وفي ضوء ذلك نفهم أنَّ المسألة تندرج في مسؤوليّة الإنسان في مجال

---

(١) التّحريم: ٦.

(٢) الكافي: ٤٩٩/٩-٥٠٠، ح/٨٣٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠٠/٩، ح/٨٣٤١.

(٤) المصدر نفسه: ٥٠٠/٩، ح/٨٣٤٢.

الدَّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، بالوسائل المتنوّعة الَّتي تقود إلى الاقتناع الفكريّ والإيمان القلبيّ، وبالأساليب الضّاغطة الَّتي تثير أمام الإنسان الكثير ممّا يفرض عليه النَّظر بجدّيّة ومسؤوليّة إلى المسائل الَّتي تطرح عليه؛ ليفكّر فيها، وليتوجّه إلى الالتزام بها.

وقد تكون خصوصيّة الأهل، من خلال توفّر الأجواء الضّاغطة الَّتي يملكها الإنسان تجاههم باعتبار القرب العاطفيّ والمصالح المادّيّة، والمجتمع الواحد الَّذي يتحرَّكون فيه، ممّا تلتقي فيه العاطفة بالعقل والعادة والأجواء المشتركة.

وهذا هو ما ينبغي للآباء والأمّهات أن يتحمّلوا مسؤوليّته في رعاية شؤون أولادهم الدّينيّة بالتّأكيد على تنمية المشاعر الإيمانيّة في مشاعرهم، وتركيز العقيدة الإسلاميّة في أفكارهم، وتحريك الالتزام الدّينيّ في واقعهم العمليّ قبل أن يسبقهم إليهم الضّالّون المضلّون، من الكافرين والمنحرفين والمستكبرين، بما يثيرونه من أفكار الكفر وعاداته وتقاليده؛ ليصوغوا أجيالنا صوغاً كافراً، قد يؤدّي إلى تعقيدهم ضدّ الإسلام فكراً وعملاً.

ولعل التَّقصير في ذلك يساوي التَّقصير في مواجهة الحملات العسكريّة على البلاد الإسلامية، في ما يُعبّر عنه ذلك من معنى الخيانة، بل ربّما يزيد عليه؛ لأنَّ السَّيطرة على الأفكار العامّة للأمّة، أكثر خطورةً من السَّيطرة على مواقعها الجغرافيّة، باعتبار ما يستتبعه ذلك من نفوذ طوعيّ للكافرين والمستكبرين على الواقع الإسلامي من الدّاخل والخارج»[1].

هذه بعض المسؤوليّات الفرديّة الَّتي يسأل عنها الفرد بنفسه بوصفه فرداً، وهناك مسؤوليّات أخرى لا يسع الحديث عنها الآن...

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ١٩/٥١-٥٢.

## المسؤوليّاتُ الاجْتِماعِيَّةُ:

وهي الّتي يمتدّ تأثيرها إلى المجتمع كمسؤوليّة الإنسان عن أخيه الإنسان من ناحية هدايته وإصلاحه ومساعدته وقضاء حاجته... الخ.

وتتفاوت هذه المسؤوليّات من فرد إلى فرد آخر؛ فمسؤوليّة النّبيّ والإمام عليهما السلام أكبر من مسؤوليّة الفقيه العالم، ومسؤوليّة العالم أكبر من مسؤوليّة المتعلّم... وهلمّ جرى، ولكن ليس هناك من إنسان معفوّ عن أداء المسؤوليّة الاجتماعيّة إذا استطاع؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كُلُّكُمْ راعٍ، ومَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، فَالإمامُ راعٍ، وهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، والرَّجُلُ في أَهْلِه راعٍ، وهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، والْمَرْأَةُ في بَيْت زَوْجها راعيةٌ، وَهيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعيَّتها، والْخادمُ في مال سَيِّده راعٍ، وهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته... والرَّجُلُ في مال أَبيه راعٍ، وهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، فَكُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته**»[1].

فالجميع مسؤولون، ولكن كلّ حسب علمه وقدرته وموقعه من المجتمع؛ ولذلك إذا ترك المجتمع جميعاً هذه المسؤوليّات عرَّض نفسه للهلاك في الدُّنيا والآخرة، وقد صوَّر رسول الله صلى الله عليه وآله هذه المسؤوليّة بقوله: «**مَثَلُ الْقائم عَلى حُدود الله، والْمُدْهن فيها كَمَثَل قَوْم اسْتَهَمّوا عَلى سَفينَة في الْبَحْر، فَأَصابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَها، وأَصابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاها، فَكانَ الَّذينَ في أَسْفَلها يَصْعَدونَ، فَيَسْتَقونَ الْماءَ، فَيَصُبّونَ عَلى الَّذينَ في أَعْلاها، فَقالَ الَّذينَ في أَعْلاها: لا نَدَعُكُمْ تَصْعَدونَ فَتُؤْذونَنا، فَقالَ الَّذينَ في أَسْفَلها: فَإنَّنا نَنْقُبُها منْ أَسْفَلها، فَنَسْتَقي**»، قال: «**فَإنْ أَخَذوا عَلى أَيْديهمْ فَمَنَعوهُمْ، نَجَوا جَميعاً، وَإنْ تَرَكوهُمْ**

(١) صحيح البخاريّ: ٨٨/٣.

**غرقوا جميعاً»**[(١)].

ومن المسؤوليّات الاجتماعيّة المهمّة مسؤوليّة الدَّعوة إلى الله تعالى، وتشمل تبليغ رسالة الله إلى النّاس جميعاً بتخطيط حكيم، يقول تعالى:

**﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾**[(٢)].

**﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾**[(٣)].

**﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾**[(٤)].

والدَّعوة إلى الله عمل اجتماعيٌّ تتوقّف عليه مسؤوليّة نشر تعاليم السّماء بما فيها من عقائد إلهيّة، وأحكام شرعيّة، ومفاهيم إسلاميّة، ونظم دستوريّة، وعلى مختلف الأصعدة: الأخلاقيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة... وهي من أعظم المسؤوليّات الَّتي تَحَمَّل من أجلها الأنبياء والرُّسل وأوصياؤهم وأتباعهم الكثير الكثير من الشَّدائد حتّى قال رسول الله ﷺ: **«ما أوذِيَ أَحَدٌ مِثْلَ ما أوذيتُ في اللهِ»**[(٥)].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣١٠/٣٠، ح/١٨٣٦١؛ وينظر: صحيح البخاريّ: ١١١/٣.

(٢) النّحل: ١٢٥.

(٣) فصّلت: ٣٣.

(٤) يوسف: ١٠٨.

(٥) حلية الأولياء: ٣٣٣/٦.

ومن أجلها سُفكَت دماء طاهرة، وما ذلك الجهد الَّذي بذله رسول الله ﷺ إلا من أجل التَّبشير والدّعوة والإنذار برسالة الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

وعدّت الدَّعوة إلى الله من أعظم الأعمال، فعن السَّكوني، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «قالَ أَميرُ الْمُؤْمنين صَلَواتُ الله عَلَيْه بعثني رَسولُ الله ﷺ إلى الْيَمَن، وَقالَ لي: يا عَليُّ، لا تُقاتلَنَّ أَحَداً حَتّى تَدْعُوَه، وأَيْمُ الله لأَنْ يَهْديَ اللهُ عَلى يَدَيْك رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ، ولَكَ وَلاؤُه يا عَليُّ»[2].

ومن المسؤوليّات الاجتماعيّة المهمّة هي التّناصح والتّراحم بين المؤمنين، فقد وصف الله المؤمنين بأنَّهم كانوا يتواصون بالثّبات على الحقّ، وبالصَّبر على مواصلة المسير، وبالتّراحم بينهم، يقول تعالى:

﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾[3].

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾[4].

«والنَّصيحة كالسَّلام ليست أمراً كماليّاً في بناء المجتمع الإنسانيّ، وفي بناء شبكة العلاقات الإنسانيّة، وإنّما هي في نظر الإسلام حاجة ضروريّة لا يمكن أن يستغني عنها الإنسان، ومن دونها لا تستقيم حياته»[5].

---

(١) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٢) الكافي: ٤١٠/٩، ح/٨٢٣٢.

(٣) العصر: ٣.

(٤) البلد: ١٧.

(٥) الشّيخ محمّد مهديّ الآصفيّ، في رحاب القرآن: ٣٤٨/٥.

والعلاقات الاجتماعيّة إذا لم تتضمّن النَّصيحة تبقى متخلخلة، فهي واجبة مع الله تعالى، ومع الرّسول، ومع الأمّة؛ ولذا تظافرت النّصوص في ذلك، قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**الدّين نَصيحَةٌ**»، قيل: «لمن يا رسول الله؟» قال: «**لله، ولِرَسوله، ولِكتابه، ولِلأَئمَّة في الدّين، ولِجَماعَة الْمُسْلمينَ**»[١].

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**إنَّ أَعْظَمَ النّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيامَة أَمْشاهُمْ في أَرْضِه بِالنَّصيحَة لِخَلْقه**»[٢].

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**لِيَنْصَح الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخاهُ كَنَصيحَته لِنَفْسه**»[٣].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**يَجِبُ لِلْمُؤْمِنِ عَلى الْمُؤْمِنِ النَّصيحَةُ لَهُ في الْمَشْهَد وَالْمَغيب**»[٤].

وعنه عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِالنُّصْحِ لله في خَلْقه، فَلَنْ تَلْقاهُ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْهُ**»[٥].

ثمّ مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: وهي مسؤوليّة اجتماعيّة، وواجب شرعيٌّ على كلّ مسلم إذا كان قادراً ولو بأدنى درجاته، وقد أوعد الله الأمّة الّتي تترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بأن يسلّط بعضهم على بعضهم، ويسلّط عليهم شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم، ويعمّهم بالعذاب، وينزل عليهم غضبه، وينزع القدسيّة منهم، وعدّ تاركه ضعيفاً لا دين له، وحرّم على عين تطرف أن ترى منكراً حتّى تغيّره، جاء في الحديث الشّريف: «**إِنَّ الأَمْرَ**

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ١٤٠؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٢٤٤/٣، ح/١٢٩٣.

(٢) الكافي: ٣/٥٣٠-٥٣١، ح/٢٢١٣.

(٣) المصدر نفسه: ٥٣٠/٣، ح/٢٢١٢.

(٤) المصدر نفسه: ح/٢٢١٠.

(٥) المصدر نفسه: ٥٣١/٩، ح/٢٢١٤.

**بالْمَعْروف وَالنَّهْيَ عَن الْمُنْكَر سبيلُ الأَنْبِياء، وَمِنْهاجُ الصُّلَحاء، فَريضَةٌ عَظيمَةٌ، بها تُقامُ الْفَرائض، وتَأْمَنُ الْمَذاهِبُ، وتَحِلُّ الْمَكاسِبُ، وَتُرَدُّ الْمَظالِمُ، وَتُعْمَرُ الأَرْضُ، ويُنْتَصَفُ منَ الأَعْداءِ، ويَسْتَقيمُ الأَمْرُ»**(١) الحديث.

فسعادة المجتمع وسلامته من الانحراف والهلاك موقوف على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، عن أبي الحسن عليه السلام: «**لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْروف، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَر، أَوْ لَيُسْتَعْمَلَنَّ عَلَيْكُمْ شِرارُكُمْ، فَيَدْعو خِيارُكُمْ، فَلا يُسْتَجابُ لَهُمْ**»(٢).

وعن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**لا يَزالُ النّاسُ بخَيْر ما أَمَروا بِالْمَعْروف، وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَر، وَتَعاوَنوا عَلى الْبِرِّ وَالتَّقْوى، فَإذاً لَمْ يَفْعَلوا ذلكَ نُزِعَتْ مِنْهُمُ الْبَرَكاتُ، وَسُلِّطَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ناصِرٌ في الأَرْضِ وَلا في السَّماءِ**»(٣).

ومن خلال ذلك نفهم أنَّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مسؤوليّة اجتماعيّة تشمل الجميع من العارفين بهما وبشروطهما.

ومن المسؤوليّات المهمة أيضاً مسؤوليّة مقاومة الظُّلم، والحدُّ من انتشاره وتفشّيه بين المسلمين على القادرين باليد أو باللّسان أو الإعراض والمقاطعة؛ فعن أبي جعفر الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ مَشى إلى سُلْطان جائر، فَأَمَرَهُ بِتَقْوى الله، وَوَعَظَهُ وَخَوَّفَهُ، كانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، وَمِثْلُ أَعْمالِهِمْ**»(٤).

---

(١) الكافي: ٩/٤٨٢-٤٨٣، ح/٨٣١٩.

(٢) المصدر نفسه: ٩/٤٨٥، ح/٨٣٢١.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، تهذيب الأحكام: ٦/٢٠٣.

(٤) الشّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٦١-٢٦٢.

وجعل السّاكت عن الظّلم شريك الظّالم في ظلمه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعاملُ بالظُّلْم، وَالْمُعينُ عَلَيْه، وَالرّاضي به شُرَكاء ثَلاثَة**»[1].

بل عُدَّ السّاكت عن قول الحقّ وهو قادر عليه شيطاناً أخرس.

وفي الوقت نفسه رفع الإسلام القدسيّة عن أيّ أمّة لا يؤخذ للمظلوم حقّه من الظّالم، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**ما قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَمْ يُؤْخَذْ لِضَعيفها مِنْ قَوِيِّها بِحَقِّه غَيْرَ مُتَعْتَعٍ**»[2].

فمقاومة الظّلم والظّالمين إذن مسؤوليّة اجتماعيّة أساسيّة تتفرّع على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولا مناصّ لمسلم في السّكوت والقعود... بل عدَّ الدّولة، والحكومة، والزّعامة، والإمارة لا قيمة لها إذا لم يقم فيها الحقّ، ويُردّ فيها الباطل، قال عبد الله بن عبّاس: «دخلت على أمير المؤمنين صلوات الله عليه بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: **ما قيمَةُ هذا النَّعْلِ**؟ فقلتُ: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: **وَالله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إمْرَتِكُمْ إلا أَنْ أُقيمَ حَقّاً، أَوْ أَدْفَعَ باطلاً**»[3].

وقال عليه السلام: «**أَما وَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلا حُضورُ الْحاضر، وَقيامُ الْحُجَّة بوُجود النّاصر، وَما أَخَذَ اللهُ عَلى الْعُلَماء، أَلا يُقارّوا[4] عَلى كظَّة[5] ظالمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَها عَلى غاربِها، وَلَسَقَيْتُ آخِرَها**

---

(١) كتاب الخصال: ١٠٧/١.

(٢) الكافي: ٤٨٤/٩، ح/٨٣٢٠؛ وغير متعتع، أي من غير أن يصيبه أذى يقلعه ويزعجه.

(٣) نهج البلاغة: ٩١، خطبة: ٣٣.

(٤) ألا يُقارّوا: ألا يوافقوا مقرّين.

(٥) «كظّة: ما يعتري الآكل من امتلاء البطن بالطّعام، والمراد استئثار الظّالم بالحقوق».

**بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْياكُمْ هَذه أَزْهَدَ عِنْدي مِنْ عَفْطَةِ[١] عَنْز»[٢].**

وهنَاك مسؤوليّة الحاكم الإسلاميّ عن شعبه، ومسؤوليّة الشّعب تجاه حاكمه، ومسؤوليّة الدَّولة عن رعاياها، فإنّ المستفاد من الآيات والرّوايات الَّتي مرّت في بيان تكاليف الحاكم، وكذلك من سيرة النّبيّ ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام «هو أنّ الإمام والحاكم في الحكومة الإسلاميّة يكون هو المكلّف والمسؤول لحفظ كيان المسلمين، وتدبير أمورهم، وإصلاح شؤونهم على أساس ضوابط الإسلام ومقرّراته. فهو المكلّف بإصلاح الملك والمسؤول عن فساده»[٣].

---

(١) «عفطة العنز ما تنثره من أنفها كالعفطة، عفطت تعفط من باب ضرب، غير أنَّ أكثر ما يستعمل ذلك في النَّعجة، والأشهر في العنز النَّفطة بالنّون، يقال: ما له عافط، ولا نافط، أي نعجة، ولا عنز، كما يقال ما له ثاغية ولا راغية، والعفطة الحبقة أيضاً لكن الأليق بكلام أمير المؤمنين هو ما تقدّم» من شرح محمّد عبده في هامش نهج البلاغة: ٣٧.

(٢) نهج البلاغة: ٥٥-٥٦، خطبة: ٣.

(٣) الشّيخ المنتظريّ، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدّولة الإسلاميّة: ٥١/٢.

# الأَمَلُ وَذِكْرُ الْمَوْتِ

كان الإمام زين العابدين عليه السلام إذا ذكر الموت دعا بقوله:

**«اللَّهُمَّ، صَلِّ على مُحَمَّد وآله، واكْفنا طولَ الأَمَل، وقَصِّرْهُ عنّا بصدْق الْعَمَل حتّى لا نُؤَمِّلَ اسْتتْمامَ ساعةٍ بَعْدَ ساعَة، ولا اسْتيفاءَ يومٍ بَعْدَ يومٍ، ولا اتِّصالَ نَفَسٍ بِنَفَسٍ، وَلا لُحوقَ قَدَمٍ بِقَدَمٍ، وسَلِّمْنا منْ غُروره، وآمنّا منْ شُرُوره.**

**وانْصب المَوْتَ بَيْنَ أَيْدينا نَصْباً، ولا تَجْعَلْ ذكْرَنا لَهُ غبّاً.**

**واجْعَلْ لَنا منْ صالح الأعْمال عَمَلاً نَسْتَبْطئُ مَعَهُ الْمَصيرَ إلَيْك، ونَحْرصُ لَهُ على وشْك اللِّحاق بكَ، حَتّى يكونَ الْمَوْتُ مأنسَنا الَّذي نأنَسُ به، ومألَفَنا الَّذي نَشْتاقُ إلَيْه، وحامَّتَنا الَّتي نُحبُّ الدُّنُوَّ منْها، فإذا أَوْرَدْتَهُ عَلَيْنا، وأَنْزَلْتَهُ بنا، فأسْعدْنا به زائراً، وآنسْنا به قادماً، ولا تُشْقنا بضيافته، ولا تُخْزنا بزيارته، واجْعَلْهُ باباً منْ أَبْواب مَغْفرَتك، ومفْتاحاً منْ مَفاتيح رَحْمَتك.**

**أَمِتْنا مُهْتَدينَ غَيْرَ ضالّينَ، طائعينَ غَيْرَ مُسْتَكْرهينَ، تائبينَ غَيْرَ عاصينَ ولا مُصرِّينَ، يا ضامنَ جزاء الْمُحْسنينَ، ومُسْتَصْلحَ عَمَل الْمُفْسدينَ»**[1].

الأمل: «تعلُّق النَّفس بحصول محبوب في المستقبل، ويرادفه الطَّمع والرَّجاء، غير أنّ الأمل أكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله، والطَّمع فيما قرب

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٥٣-١٥٤، دعاء: ٤٠، دعاؤه عند ذكر الموت.

حصوله، والرَّجاء بين الأمل والطَّمع، وقد يستعمل أحدهما مكان الآخر. وفرّق بعضهم بين الأمل والرَّجاء بأنّ الأمل: يكون في الممكن والمستحيل، والرَّجاء يختصّ بالممكن، والصَّحيح أنّ هذا الفرق بين التّمنّي والرّجاء، وأمّا الأمل فلا يكون في المستحيل»[١].

وأمّا طول الأمل فهو الاستغراق بحبّ الدُّنيا في طموحاتها، وملذّاتها، وشهواتها، وغرورها، ونسيان ما وراءها إلى حدّ قد يؤدّي هذا النّسيان إلى تعطيل الإنسان عن العمل الصّالح، وتسويف التّوبة، والاستسلام لتسويلات الشَّيطان، وأمانيّه، وتزيّناته، وتغريره، والابتعاد عن خطّ الإيمان، والتَّسويف بالتّوبة وارتكاب المعاصي، والوقوع في شراك التَّبرير، حتّى تسيطر عليه الغفلة المطبقة، فيعطّل عقله عن التَّفكير، وتعمى بصيرته عن رؤية الحقّ، ويصمّ مسامعه عن سماع كلمة الهدى، فلا يفكّر إلا بما استغرق به ممّا توحيه له الآمال العريضة؛ لأنَّها تستقطب اهتماماته كلّها، وتستحوذ على طاقاته كلّها، ويصبح حبُّ الدُّنيا محور حياته الوحيد، (ويسدّ عليه كلّ منافذ الرّؤية)، فلا يتحرّك، ولا يسكن إلا بما توحيه له الآمال، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاعْلَموا عبادَ الله: أَنَّ الأَمَلَ**[٢] **يُذْهِبُ الْعَقْلَ، ويُكَذِّبُ الْوَعْدَ، ويَحُثُّ على الْغَفْلَة، ويورِثُ الْحَسْرَةَ، فَأَكْذِبوا الأَمَلَ؛ فَإِنَّهُ غرورٌ، وَإِنَّ صاحِبَهُ مَأْزورٌ**»[٣].

وقال عليه السلام: «**واعْلَموا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، ويُنْسي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبوا**

---

(١) السّيّد علي خان المدنيّ، رياض السّالكين: ٣٤٣/٥.

(٢) المقصود به طول الأمل.

(٣) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ١٠٢.

**الأَمَلَ؛ فَإِنَّه غُرورٌ، وَصاحِبُه مَغْرورٌ**»[١].

ولعله هذا هو طول الأمل الَّذي عناه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**أَلا إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتان: اتِّباعُ الْهَوى، وَطولُ الأَمَلِ، أَمّا اتِّباعُ الْهَوى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَطولُ الأَمَلِ يُنْسي الآخِرَةَ**»[٢].

فإذا استحوذ هذا الشّراك على قلب الإنسان، وأصبح قطب الرّحى في حياته، «فلا يفكّر بالنّهايات الَّتي تحدّد له نهاية حياته، ولا يتذكّر الموت الَّذي يجمّد له حركته، ولا يتطلّع إلى ما وراء هذه الحياة من حياة أخرى، وهكذا تحيط به الحياة الدُّنيا من جميع جوانبه، وتسجنه داخل أقفاصها الذّهبيّة والفضّيّة الَّتي تشغله عن الاختناق اللَّذيذ»[٣]، وحينئذ يصبح طويل الأمل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾[٤]

«والسَّبب في طول الأمل - كما قيل - حبّ الدّنيا، فإنَّ الإنسان إذا أنس بها وبلذّاتها ثقل عليه مفارقتها، وأحبّ دوامها، فلا يفتكر بالموت الَّذي هو سبب مفارقتها، فإنَّ من أحبَّ شيئاً كره الفكر فيما يزيله ويبطله، فلا زال يمنّي نفسه البقاء في الدُّنيا، ويقدّر حصول ما يحتاج إليه من أهل ومال وأدوات، فيصير فكره مستغرقاً في ذلك، فلا يخطر الموت بخاطره، وإن خطر بباله التّوبة والإقبال على الأعمال الأخرويّة أخَّر ذلك من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر، ومن سنة إلى سنة، فيقول: إلى أن أكتهل، ويزول سنّ الشّباب عنّي، فإذا اكتهل قال: إلى أن أصير

(١) نهج البلاغة: ١٤٠، خطبة: ٨٥

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٥١.

(٣) السّيّد محمّد حسين فضل الله، آفاق الرّوح: ٢٩٥/٢.

(٤) الحجر: ٣.

شيخاً، فإذا شاخ قال: إلى أن أتمّم عمارة هذه الدّار وأزوّج ولدي، وإلى أن أرجع من هذا السَّفر، وهكذا يؤخّر التّوبة شهراً بعد شهر، وسنةً بعد سنة، وهكذا كلَّما فرغ من شغل عرض له شغل آخر، بل أشغال حتّى يختطفه الموت، وهو غافل غير مستعدّ، مستغرقُ القلب في أمور الدّنيا، فتطول في الآخرة حسرته، فتكثر ندامته، وذلك هو الخسران المبين»(١).

## الأَمَلُ في الإِسْلامِ:

ليس معنى ما تقدّم أنَّ الإنسان ينبغي أن يستأصل روح الأمل من نفسه، ويعيش اليأس؛ لأنَّ اليأس معناه القنوط عن رحمة الله، وهو الكفر الصَّريح؛ ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾(٢).

وقد حذَّرت السُّنَّة الشَّريفة من طول الأمل لا من الأمل مطلقاً؛ لأنَّ الإنسان إذا فقد الأمل فقد الحياة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**الأَمَلُ رَحْمَةٌ لأُمَّتي، ولَوْلا الأَمَلُ ما أَرْضَعَتْ والدةٌ ولَدَها، ولَا غرَسَ غارسٌ شَجَراً**»(٣).

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «**الأَمَلُ رَفيقٌ مُؤْنسٌ**»(٤).

وإنَّ هناك آمالاً وهميّة باطلة، وتمنّيات خياليّة يوحيها الشّيطان للإنسان، لا يقرّها عقل ولا منطق، وهناك عكس ذلك آمال عقلائيّة حقيقيّة مبنيّة على التّوكّل على الله، تطرد اليأس والقنوط، وتبعث في النَّفس الحيويّة والنَّشاط؛ ولهذا نجد

---

(١) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٣١٠/٥.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٢٩٥.

(٤) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣١١، ح/٧٢٠٥.

الإمام زين العابدين عليه السلام يسأل الله أن يوفّقه لأوْفَقَ الآمال، فيقول: «**اللّهمَّ، رَبَّ الْعالَمينَ... أَسْأَلُكَ... مِنَ الآمالِ أَوْفَقَها**»[١].

والآمال السَّليمة هي نوع من التّفاؤل، فمن تفاءل بالخير وجده؛ لأنَّ «الأمل ضدّ اليأس، والأمل تفاؤل، واليأس تشاؤم، والأمل مبدأ يستهدي به من عرف سرّ الحياة والوجود، واليأس هوّة يقع فيها من عمى عن سرّ الحياة والوجود، والأمل حبل موصول، وطريق مفتوح أمام الشَّخص الَّذي لا يلتفّ بوجدانه حول نفسه، بل يوزّع حبّه على ذويه، أمّا اليأس فإنَّه منزلق تحت قدمي الشَّخص الأنانيّ الّذي لا يعشق إلا ذاته...

يجب أن تعلم أنَّ الأمل ليس مجرّد حالة نفسيّة تعتورك بعض الوقت، ثمّ ما تفتأ أن تختفي؛ لتحلّ محلّها حالة نفسيّة أخرى هي حالة اليأس، فالأمل إيمان راسخ لا يتزعزع، وليس مجرّد عاطفة عابرة، إنَّ رسوخه أقوى من رسوخ الجبال، وأصلد من الفولاذ والحجر الصّوان»[٢].

ووجود الأمل في نفس الإنسان هو سرٌّ من أسرار الحياة؛ لأنّنا لو فرضنا أنَّ الإنسان عرف بدقّة ما سيلاقي، وما سوف يقع فيه من مصائب وأحداث مؤلمة لتوقّف عن العمل، ومات هلعاً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَوْلا الأَمَلُ عَلِمَ الإنْسانُ حَسَبَ ما هُوَ فيهِ، وَلَوْ عَلِمَ حَسَبَ ما هُوَ فيهِ، ماتَ خُفاتاً**[٣] **مِنَ الْهَوْلِ وَالْوَجَلِ**»[٤].

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٥٥/٩٤.

(٢) يوسف ميخائيل أسعد، الشّخصيّة النّاجحة: ٢٢-٢٣.

(٣) خفت خُفاتاً: مات فجأة.

(٤) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٥٨/٤، ح/٢٨٦٧.

ولو فقد الإنسان الأمل لعاش في شقاء دائم وعذاب متواصل؛ إذن «في الأمل سرٌّ لطيف؛ لأنّه لولا الأمل ما تهنّى أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدُّنيا، وإنّما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلّف بإزالته»(١).

والإسلام إنّما حذَّر من الاستغراق في الأمل لا من الأمل مطلقاً؛ لأنَّ المنهج الإسلاميّ في الحياة يقوم على الموازنة بين العمل في الدُّنيا لنيل خيراتها، وبين توقّع النّهاية العاجلة، قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «**وَاعْمَلْ لِدُنْياكَ كَأَنَّكَ تَعيشُ أَبَداً، وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَموتُ غَداً**»(٢).

وهذا هو مفهوم الموازنة بين الجوانب المادّيّة والجوانب المعنويّة، أو قل بين متطلّبات الرّوح ومتطلّبات البدن، والميزان في ذلك: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(٣)؛ ولهذا فالأمل المطلوب في الإسلام هو الموازنة «بين أحلامنا الممتدّة، وبين واقعنا المحدود في اتّجاه مسؤوليّتنا الحاسمة... إنَّه الأمل الَّذي يطرد اليأس، ولكن ليس الَّذي يحلّق في الخيال، ويتحرّك في الفراغ، ويغيب في الضَّباب، ويشرد في السّراب، بالطَّريقة الَّتي تجعل الإنسان لا يفكّر بموت، ولا يعمل على أن يقف عند حدود المسؤوليّة، بل يبقى الأمل لديه حيّاً متحرّكاً، مع الحذر أن لا يكون طويلاً في مستوى الغفلة الممتدّة في الغيوم الدّاكنة، بل يكون أملاً مشرقاً بالوعي، محدقاً بالله، متحرّكاً في

(١) ابن حجر، فتح الباري: ٢٤١/١١.

(٢) بحار الأنوار: ١٣٩/٤٤.

(٣) القصص: ٧٧.

خطّ العمل في مواقع المسؤوليّة»[1].

## قُصْرُ الأَمَلِ الدّافِعُ لِلْعَمَلِ:

نعود إلى الدُّعاء الشَّريف لنجد أنَّ الإمام عليه السلام قال: «**وَقَصِّرْهُ عَنّا بِصِدْقِ الْعَمَلِ**»، أي يا ربّ اجعل الحياة الدُّنيا في تصوّرنا مرحلة قصيرة نتوقَّع الرَّحيل عنها عاجلاً لنعبر منها إلى عالم الخلود، ولا شكَّ أنَّ سعادتنا، أو شقاءنا متوقّف على نوع عملنا في هذه الدّنيا؛ فإنَّ المؤمن حين يعيش حالة التّرقّب لرحيل عاجل في مرحلة تتوقّف سعادته فيما بعدها على مقدار ما يكسبه من عمله فيها، فسوف يضاعف من جهده، واستعداده في هذه المرحلة القصيرة؛ ليحمل أكثر ما يستطيع من زاد لطريقه الطَّويل، وليكسب من الخيرات أكثر، ويدّخرها إلى يوم لا عمل فيه، و﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[2]، وبهذا الاعتقاد يصبح جادّاً صادقاً مخلصاً لله في عمله.

فقصر الأمل في الإسلام إذن عامل دفع إلى مضاعفة الجهود قبل فوات الأوان، وليس القعود والرّكود وانتظار الموت، وهذا هو مفهوم الاستعداد للموت الَّذي هو جسر نعبر به إلى الآخرة، سُئلَ أمير المؤمنين عليه السلام: «ما الاستعداد للموت؟»، فقال: «**أَداءُ الْفَرائِضِ، واَجْتِنابُ الْمَحارِمِ، وَالاشْتِمالُ عَلى الْمَكارِمِ، ثُمَّ لا يُبالي أَوَقَعَ عَلى الْمَوْتِ، أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ**»[3].

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إِنَّما الاسْتِعْدادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرامِ،**

---

(١) آفاق الرّوح: ٢٩٧/٢.

(٢) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ١٧٢، ح/١٧٣؛ ينظر: ترتيب الأمالي للمحموديّ: ٣٩٤/٧، ح/٤١٩٨.

وَبَذْلُ النَّدى وَالْخَيْرِ»(١).

فـ «الاستعداد للموت: إعداد العدّة له، أو طلب العدّة، للقائه، ولا عدّة له إلا الأعمال الصّالحة»(٢).

وتأسيساً على ذلك أكَّد فقهاء الإسلام استحباب الاستعداد للموت، فقد قال الشّهيد الأوّل قدس سره: «يستحبّ الاستعداد للموت بالتَّوبة، والعمل الصّالح، والإكثار من ذكره قلباً ولساناً، والوصيّة لمن عليه حقٌّ أو له، ويكره تمنّي الموت لضُرٍّ نزل به، والشّكاية للمريض كقوله: «لم يُبْتَلَ أحدٌ مثلي»، بل ينبغي الصَّبر على المرض احتساباً للأجر»(٣)، وذهب آية الله العظمى السّيّد عبد الأعلى السَّبزواريّ قدس سره إلى وجوب الاستعداد للموت مستدلّاً بالأدلّة الأربعة(٤).

## تَذَكُّرُ الْمَوْتِ:

ليس المقصود من تذكّر الموت هو الاستغراق في الجانب المأساويّ حيث الانقطاع عن لذّات الدُّنيا ومباهجها، فلا ينظر إلى ما ينقطع عنه، بل ينظر إلى ما سينتقل إليه، فيعيش حالة فناء الدُّنيا وزوالها، وخلود الآخرة وبقائها، فيقارن بين لذّات الدُّنيا الفانية المحدودة المشروطة بلذّات الآخرة الباقية الَّتي لا ألم فيها، ولا عناء، ولا انقطاع؛ فهي لذّة لا تنتهي، وقد صوَّرها الإمام الحسين عليه السلام أجمل تصوير حين رأى عجب أصحابه من ازدياد إشعاع النّور في وجهه كلّما اقترب للشّهادة، فقال:

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٣١٠/١.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمّد عبده: ١١٠.

(٣) موسوعة الشّهيد الأوّل (البيان): ٦٣/١٢.

(٤) ينظر: مهذّب الأحكام للسّيّد السّبزواريّ: ٣٤٤/٣.

«صَبْراً بني الْكرام، فَما الْموْتُ إلا قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بكُمْ عَن الْبُؤْس وَالضَّرّاء إلى الْجنان الْواسعَة وَالنَّعيم الدّائمَة، فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَنْ يَنْتَقلَ منْ سجْن إلى قَصْر، وما هُوَ لأَعْدائكُمْ إلا كَمَنْ يَنْتَقلُ منْ قَصْر إلى سجْن وعَذاب، إنَّ أَبي حَدَّثني عَنْ رَسول الله ﷺ: «أَنَّ الدُّنْيا سجْنُ الْمُؤْمن وَجَنَّةُ الْكافر»، وَالْمَوْتُ جسْرُ هؤُلاء إلَى جَنّاتهمْ، وَجسْرُ هؤُلاء إلى جَحيمهمْ، ما كَذَبْتَ وَلا كُذِّبْتُ»(١).

فذكر الموت إذن هو عمليّة استعداد واعية للانتقال من هذه الحياة إلى حياة أوسع وأدوم وأبقى، وهي عمليّة وعظ داخليّة يعظ الإنسان بها نفسه؛ ليَحدّها من الانجرار وراء الشَّهوات حينما تنازعه نفسه إليها، قال الإمام عليّ عليه السلام:

«فَأَكْثروا ذكْرَ الْمَوْت عنْدَما تُنازعُكُمْ إلَيْه أَنْفُسُكُمْ منَ الشَّهوات، فَإنَّه كَفى بالْمَوْت واعظاً، وكانَ رَسولُ الله ﷺ كَثيراً ما يوصي أَصْحابَهُ بذكْر الْموْت فَيَقولُ: «أَكْثروا ذكْرَ الْموْت؛ فَإنَّهُ هادمُ اللَّذّات، حائلٌ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ الشَّهَوات».

وَاعْلَموا عبادَ الله أَنَّ ما بَعْدَ الْمَوْت أَشَدُّ منَ الْمَوْت، لمَنْ لَمْ يَغْفر اللهُ لَهُ ويَرْحَمْهُ، وَاحْذَروا الْقَبْرَ، وَضَمَّتَهُ، وَضيقَهُ، وظُلْمَتَهُ، وغُرْبَتَهُ، فَإنَّ الْقَبْرَ يَتَكَلَّمُ كُلَّ يوْم، ويَقول: أَنا بَيْتُ التُّراب، وأَنا بَيْتُ الْغُرْبَة، وأَنا بَيْتُ الدّود وَالْهَوامِّ؛ وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ منْ رياض الْجَنَّة، أَوْ حُفْرَةٌ منْ حُفَر النّار، إنَّ الْمُسْلمَ إذا دُفنَ قالَتْ لَهُ الأَرْضُ: مَرْحباً وأَهْلاً، قَدْ كُنْتَ ممَّنْ أُحبُّ أَنْ يَمْشي عَلى ظَهْري، فَإذا ولّيْتُكَ فَسَتَعْلَمُ كَيْفَ صُنْعي بكَ! فَيَتَّسعُ لَهُ مَدَّ الْبَصَر. وَإذا دُفنَ

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٨٩.

**الْكافِرُ قالَتْ لَهُ الأَرْضُ: لا مَرْحَباً وَلا أَهْلاً، قَدْ كُنْتَ مِمَّنْ أَبْغَضُ أَنْ يَمْشي عَلى ظَهْري، فَإِذا وَلَّيْتُكَ فَسَتَعْلَمُ كَيْفَ صُنْعي بِكَ! فَتَنْضَمُّ عَلَيْهِ حَتّى تَلْتَقي أَضْلاعُهُ»**(١).

فهنا نرى أنَّ الإمام في بيان عمليّة تذكّر الموت يؤكّد على ثلاث نقاط:

١- بيان الموت الَّذي لا مفرَّ منه بحال، وإنَّما هو ملاقٍ للإنسان على كلّ حالٍ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

**﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾**(٢).

**﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾**(٣).

**﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾**(٤).

**﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾**(٥).

**﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾**(٦).

وبناءً على هذا التّأكيد لوقوع الموت لا بدّ للإنسان أن يعيشه واقعاً نفسيّاً في

---

(١) الثّقفيّ، الغارات: ٢٣٨/١-٢٣٩؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٩/٦.

(٢) الجمعة: ٨.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

(٤) الأنبياء: ٣٥.

(٥) العنكبوت: ٥٧.

(٦) الرّحمن: ٢٦-٢٧.

كلّ هواجسه الشّعوريّة، وينتظره كحقيقة لا بدَّ له أن يواجهها، ويمرّ فيها، فلا ينساها لحظة واحدة، بل يتوقّع نزوله به في كلّ لحظة كما صوّر الإمام زين العابدين عليه السلام بدرجة يتوقّع الإنسان حلول الموت حتى لا يأمل استتمام ساعة بعد ساعة، ولا استيفاء يوم بعد يوم، ولا إيصال نفس بنفس، ولا لحوق قدم بقدم، فلو عاش الإنسان هذا التّصوّر الحقيقيّ عن إيمان ووعي حينئذٍ سيضاعف من جهوده في العمل الصّالح الّذي يقرّبه لله تعالى؛ لأنّه يشعر أنَّ مدة بقائه قصيرة، وسفره وشيك، وزاده الَّذي سيصحبه قليل، فلا بدّ أن يبذل جهوداً مضاعفة لكسب المزيد من الصّالحات، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

**«مَنْ راقَبَ أَجَلَهُ قَصَّرَ أَمَلَهُ».**

**«مَنْ راقَبَ أَجَلَهُ اغْتَنَمَ مَهَلَهُ».**

**«مَنِ اسْتَقْصَرَ بَقاءَهُ وَأَجَلَهُ قَصَّرَ رَجاؤُهُ وَأَمَلَهُ»**[(١)].

٢- أن يعدّ له عدته: بما أنَّ الإنسان يعيش حالة ترقّب لحلول الموت به، وبما أنَّه يؤمن أنَّ الموت ليس نهاية المطاف، وإنَّما هو نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وبما أنَّ السَّعادة في عالم الخلود متوقّفة على ما يقدّمه في هذه الحياة فسوف يستعدّ له أيّما استعداد، وقد صوَّر ذلك أمير المؤمنين عليه السلام:

**«احْذَرِ الْمَوْتَ، وَأَحْسِنْ لَهُ الاسْتِعْدادَ تَسْعَدْ بِمُنْقَلَبِكَ».**

**«إِنَّ أَمْراً لا تَعْلَمُ مَتى يَفْجَأُكَ يَنْبَغي أَنْ تَسْتَعِدَّ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَغْشاكَ».**

**«تَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ»**[(٢)].

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٦٢، ح/٣١٤٢-٣١٤٣-٣١٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٣، ح/٣١٤٧-٣١٤٩-٣١٥٤.

٣- ثمّ يركّز الإمام عليه السلام على بيان حقيقة مهمّة، وهي: أنَّ الأعمال الصّالحة بها يستبطئ الموت، وهو معنى يستبطن بيان عمليّة انتظار الموت، وأنَّها لم تكن مجرّد موقف سلبيّ، وإنَّما هو موقف إيجابيٌّ «ليكن العمل الصّالح العنوان الَّذي تتمثّل فيه كلُّ أعمالنا، حتّى إذا استكملنا وجودنا في خطّه الحركيّ الباحث عنك، الصّاعد إليك، سارعنا إليك، واستبطأنا معه المصير إليك، وتحرّكنا نحوه في عجلة من أمرنا وحرصنا، بكلّ اهتمام وشوق، على قرب اللّحاق بك، حتّى لا يعود الموت مشكلة روحيّة عندنا، ولا حزناً نفسيّاً في همومنا، بل يتحوّل - بفعل ما ينتظرنا بعده من العمل الصّالح - إلى فرصة للحصول على الفرح والأنس الَّذي نستعجله، وإلى موقع نألفه من كلّ مواقع الألفة الَّتي نشتاق إلى ساحاتها، وإلى شيء من خصوصيّاتنا الحميمة المتّصلة بأحلامنا الذّاتيّة الَّتي نحبّ الدّنوّ منها والوصول إليها»[1].

---

(١) آفاق الرّوح: ٢/٣٠٠.

# عَقَباتُ الْمَسيرِ في طَريقِ دارِ رَحْمَةِ اللهِ

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۞ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾[1].

ما معنى العقبة؟ وأين توجد هذه العقبة؟ وهل هي عقبة واحدة أم عقبات؟ وكيف يتجاوز الإنسان هذه العقبات؟

العقبة لغة: هي الطّريق الوعر، الصَّعب العبور، الخطر المرور، الَّذي يواجه فيه الإنسان شدّة وضيقاً، وخطراً ومشقّةً، جاء في مجمع البيان: «العقبة: الطَّريقة الَّتي ترتقى على صعوبة، ويحتاج فيها إلى معاقبة الشّدّة بالضّيق والمخاطرة، وقيل: العقبة الثّنية الضّيّقة في رأس الجبل، يتعاقبها النّاس، فشبّهت النَّفقة في وجوه البرّ بها»[2].

قال ابن منظور: «والعَقَبة: واحدة عَقَبات الجبال، والعَقَبَةُ: طريقٌ في الجَبَل، وَعْرٌ، والجمع عَقَبٌ وعِقابٌ. والعَقَبَة: الجبَل الطويلُ، يَعْرِضُ للطّريق فيأْخُذُ فيه، وهو طَويلٌ صَعْبٌ شديدٌ»[3].

وهنا إشارة إلى المسالك المعنويّة الصَّعبة الَّتي يحتاج السّائر فيها إلى إرادة

---

(١) البلد: ١١-١٨.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٤٦/١٠.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ٦٢١/١، (عقب).

قويّة، وعزيمة ماضية، وبصيرة نافذة؛ ليقتحم بها الصّعاب؛ فيدخل على الشّدّة بالضّيق، أي يلج السّبل الصَّعبة بجرأة وقوّة في الجسم والنّفس والقلب.

وأمّا وجود هذه العقبة أو العقبات، فقد اختلف المفسّرون فيما بينهم في تفسيرها، فقيل: إنَّ هذه العقبة توجد في نفس الإنسان بما تحتويه من طمع وجشع، وحرص، وشحّ، وطول أمل، وهذه العقبات كامنة في نفس الإنسان تقف حاجزاً في مسيره فتمنعه عن بذل الخير، وفعل البرّ؛ ولهذا يجب أن يذلّل هذه العقبة فيقتحمها ويتجاوزها؛ وحينئذٍ يستطيع أن يتجاوز جميع العقبات المستقبليّة، الأخرى، قال الرّازيّ: «إن ذكر العقبة هاهنا مثل ضربه الله لمجاهدة النَّفس والشَّيطان في أعمال البرّ، وهو قول الحسن ومقاتل، قال الحسن: عقبة الله شديدة، وهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه من شياطين الإنس والجنّ، وأقول هذا التَّفسير هو الحقّ، لأنَّ الإنسان يريد أن يترقّى من عالم الحسّ والخيال إلى يفاع[1] عالم الأنوار الإلهيّة، ولا شكَّ أنَّ بينه وبينها عقبات سامية دونها صواعق حامية، ومجاوزتها صعبة، والتّرقّي إليها شديد»[2].

والحقيقة أنَّ عقبة النَّفس بما تحمل من أهواء، ورغبات، وميول، وآمال... هي من أشدّ العقبات وأصعبها، فمن لا يعبر هذه العقبة، لا يمكنه أن يتجاوز العقبات الأخرى في مسيره إلى دار رحمة الله تعالى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾[3]، فلا يمكن أن يتجاوز الإنسان عقبات

---

(١) اليفاع: المرتفع من كلّ شيء.

(٢) الفخر الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ١٨٥/٣١.

(٣) الشّمس: ٩-١٠.

المسير بما فيها من تكاليف وفروض ونواهٍ ما لم يزكّ نفسه بجهاده وترويضه لها؛ لتتذلّل في أداء التّكاليف الإلهيّة، وقد قال بعض علمائنا أنّ العقبات الواقعة على طريق المحشر كل عقبة منها اسمها اسم فرض، وأمر، ونهي[1]...

وقال الشّيخ المفيد قدّس سرّه: «العقبات عبارة عن الأعمال الواجبة، والمساءلة عنها، والمواقفة عليها، وليس المراد بها جبال في الأرض تُقطع، وإنّما هي الأعمال شبّهت بالعقبات، وجُعِلَ الوصف لما يلحق الإنسان في تخلّصه من تقصيره في طاعة الله تعالى كالعقبة الّتي يجهد صعودها وقطعها، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[2]، الآية، فسمّى سبحانه الأعمال الّتي كلّفها العبد عقبات تشبيهاً لها بالعقبات والجبال لما يلحق الإنسان في أدائها من المشاقّ كما يلحقه في صعود العقبات وقطعها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ أمامَكُمْ عَقَبَةً كَؤوداً، ومَنازِلَ مَهولَةً، لا بُدَّ منَ الْمَمَرِّ بها، وَالْوُقوف عَلَيْها؛ فإمّا بِرَحْمَة منَ الله نَجَوْتُمْ، وإمّا بِهلَكَة لَيْس بَعْدَها انْجبارٌ**». أراد عليه السلام بالعقبة: تخلّص الإنسان من التّبعات الّتي عليه، وليس كما ظنّه الحشويّة من أنّ في الآخرة جبالاً وعقبات يحتاج الإنسان إلى قطعها ماشياً وراكباً، وذلك لا معنى له فيما توجبه الحكمة من الجزاء...»[3].

وتأسيساً على ذلك يتّضح أنّ عبور عقبات الأعمال الّتي يمرُّ الإنسان بها في الدُّنيا بتفوّق ونجاح لا يحصل إلا بتطبيق الأوامر الإلهيّة، والانتهاء عن الزّواجر

---

(١) ينظر: المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٢٨/٧-١٢٩.

(٢) البلد: ١١-١٣.

(٣) موسوعة الشّيخ المفيد (تصحيح اعتقادات الإماميّة): ١١٢-١١٣.

الرّبّانيّة، وهي زاده الَّذي يحمله إلى الآخرة؛ ليتجاوز به ما يمرّ بها من محطّات أخرويّة، يَحْسن حاله فيها أو يساء، يسعد بها أو يشقى، وهذه العقبات قائمة على صحّة اعتقاد الإنسان بالله تعالى وبرسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبأهل بيته عليهم السلام؛ ولهذا جاء في بعض الرّوايات أنَّ من جملة العقبات عقبة الولاية لأهل البيت عليهم السلام، وهي عقبة عمليّة تعني الالتزام والتّمسّك بما تمسّكوا به، أو أمروا به، أو نهوا عنه، وقد قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**إنَّ شيعتنا مَنْ شيَّعَنا، واتَّبَعَ آثارَنا، واقْتَدى بأَعْمالنا**»(١).

فبهذا المعنى تكون الولاية عقبة إذا لم يؤدّ الإنسان جميع لوازمها ومقتضياتها؛ فعن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾، قال: «**نَحْنُ الْعقبةُ، ومَنِ اقْتَحَمَها نَجا، وبِنا فَكَّ اللهُ رِقابَكُمْ مِنَ النّارِ**»(٢).

وعنه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلتُ له: جعلتُ فداك، قوله تعالى: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾؟ قال: **مَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِوَلايَتِنا فَقَدْ جازَ الْعَقَبةَ، ونَحْنُ تِلْكَ الْعقبةُ الَّتي مَنِ اقْتَحَمَها نَجا**»(٣).

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: «**مَنِ انْتَحَلَ وَلايَتَنا فَقَدْ جازَ الْعَقَبةَ، فَنَحْنُ تِلْكَ الْعقبةُ الَّتي مَنِ اقْتَحَمَها نَجا**»(٤).

---

(١) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٠٧، ح/١٤٩؛ وبحار الأنوار: ١٥٥/٦٨.

(٢) شرف الدّين الأسترابادي، تأويل الآيات الظّاهرة: ٨٤٤/٢؛ وبحار الأنوار: ٢٨٢/٢٤.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٤١٠/٢، ح/١١٧٥.

(٤) بحار الأنوار: ١٢٥/٢٧.

## عَقَباتُ الْوُصولِ:

قال بعض المفسّرين: إنَّ هذه العقبة في الآخرة: هي عقبة جهنّم، وقيل: هي عقبة بين النّار والجنّة، وقيل: هي الصّراط تضرب على جهنم، والمواقف كثيرة والعقبات أكثر حتّى ورد في الحديث عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إنَّ بَيْنَ الدُّنْيا وَالآخِرَةَ أَلْفَ عَقَبَة أَهْوَنُها وَأَيْسَرُها الْمَوْتُ**»[1].

ويحسن بنا أن نستعرض بشيءٍ من التَّفصيل بعض تلك العقبات الَّتي لا بدَّ وأن يمرّ بها كلُّ إنسان في طريقه إلى دار رحمة الله تعالى:

## عَقَبَةُ الْمَوْتِ:

وهي من العقبات العسيرة الَّتي لا بدَّ وأن تمرّ بها كلُّ نفس مهما بلغت قدسيّتها، ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[2]، وقد ورد في بعض الأحاديث: «**إنَّ اللهَ جَعَلَ الْمَوْتَ عَقَبَةً لا يَصِلُ إِلى تِلْكَ الْجِنانِ إلا مَنْ قَطَعَها**»[3].

وفي الأحاديث الشَّريفة تأكيد على تذكر الموت، و بيان حالات المؤمن والكافر فيه، وبيَّنت روايات أخرى علّة تعسير الموت على البعض، وتسهيله على البعض الآخر، ونحن نذكر بعضاً من تلك الرّوايات للعبرة والموعظة:

عن الإمام الحسين عليه السلام: «**قيلَ لأَميرِ الْمُؤْمنينَ عليه السلام: صِفْ لَنا الْمَوْتَ، فَقالَ: عَلى الْخَبيرِ سَقَطْتُمْ، هُوَ أَحَدُ ثَلاثَةِ أُمورٍ يَرِدُ عَلَيْه: إِمّا بِشارَةٌ بِنَعيمِ**

---

(١) الشَّيخ الصَّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٣٤/١، ح/٣٥٩.

(٢) العنكبوت: ٥٧.

(٣) التَّفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢١٢-٢١٣.

الأَبَد، وإمّا بشارةٌ بعَذاب الأَبَد، وإمّا تَحْزينٌ وتَهْويلٌ، وأَمْرُ[ه] مُبْهَمٌ لا يَدْري منْ أَيِّ الْفرَق هُوَ، فَأَمّا ولِيُّنا الْمُطيع لأَمْرنا فَهُو المُبَشَّرُ بنعيم الأَبَد، وأَمّا عَدوُّنا الْمُخالفُ عَلَيْنا فَهُوَ الْمُبَشَّرُ بعذاب الأَبد، وأَمّا الْمُبْهَمُ أَمْرُهُ الَّذي لا يَدْري ما حالُهُ، فَهُوَ الْمُؤْمنُ الْمُسْرفُ عَلى نَفْسه، لا يَدْري ما يؤُولُ إلَيْه حالُهُ، يأتيه الْخَبَرُ مُبْهَماً مَخوفاً، ثُمَّ لَنْ يُسَوِّيَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأَعْدائنا، لكنْ يُخْرجُهُ منَ النّار بشَفاعَتنا، فاعْمَلوا وَأَطيعوا، لا تَتَّكلوا ولا تَسْتَصْغْروا عُقوبَةَ الله عَزَّ وَجَلَّ فَإنَّ من الْمُسْرفينَ مَنْ لا تَلْحَقُهُ شَفاعَتُنا إلا بَعْدَ عَذاب ثَلاثمائة أَلْف سَنَة»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «قيلَ لعَليِّ بْن الْحُسَيْن عليهما السلام: ما الْمَوْتُ؟ قالَ: للْمُؤْمن كَنَزْع ثياب وَسْخَة قَملَة(٢)، وفَكِّ قُيود وأَغْلال ثَقيلَة، وَالاسْتبْدال بأَفْخَر الثِّياب وَأَطْيَبها رَوائح، وأَوْطَأ الْمَراكب، وآنَس الْمَنازل، ولَلْكافر كَخَلْع ثياب فاخرَةَ، وَالنَّقْل عَنْ مَنازلَ أَنيسَة، وَالاسْتبْدال بأَوْسَخ الثِّياب وَأَخْشَنها، وأَوْحَش الْمَنازل، وأَعْظَم الْعَذاب»(٣).

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «قيلَ للصّادق عليه السلام: صفْ لَنا الْمَوْتَ، فَقالَ: للْمُؤْمن كأَطْيَب ريح يَشَمُّهُ، فَيَنْعَسُ لطيبه، ويَنْقَطعُ التَّعَبُ والأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ، ولَلْكافر كَلَسْع الأَفاعي، وَلَدْغ الْعَقارب، أَوْ أَشَدَّ، قيلَ: فَإنَّ قَوْماً يَقولونَ إنَّهُ أَشَدُّ منْ نَشْر بالْمَناشير، وَقَرْض بالْمَقاريض، ورَضْخ بالأَحْجار، وتَدْوير قُطْب الأَرْحيَة(٤) في الأَحْداق، قالَ: فَهُوَ كَذَلكَ عَلى بَعْض الْكافرينَ

(١) الشَّيخ الصدوق، معاني الأخبار: ٢٨٨.

(٢) ثوب وسخ: علاه الدّرن لقلّه تعهّده بالماء، و«قمل» أي كثر فيه القمل، وهو دويبة معروفة.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٩.

(٤) الرَّضخ: الرّمي، والأرحية: جمع الرّحى، وهي الطّاحون.

**وَالفاجرين. أَلا تَرَوْنَ مِنْهُمْ مَنْ يُعاينُ تِلْكَ الشَّدائد، فَذلِكُمُ الَّذي هُوَ أَشَدُّ مِنْ هذا إلا مِنْ عَذابِ الآخرَة، فَهذا أَشَدُّ مِنْ عَذابِ الدُّنْيا، قيلَ: فما بالُنا نَرى كافراً يَسْهُلُ عَلَيْه النَّزْعُ فَيَنْطَفي، وَهُوَ يَتَحدَّثُ وَيَضْحَكُ وَيَتَكَلَّمُ، وَفي الْمُؤْمنينَ مَنْ يَكونُ كَذلك، وَفي الْمُؤْمنينَ وَالْكافرينَ مَنْ يُقاسي عنْدَ سَكَرات الْمَوْت هذه الشَّدائدَ؟ فَقالَ: ما كانَ منْ راحَة للْمُؤْمن هُناكَ فَهُوَ عاجلُ ثَوابه، وَما كانَ منْ شَديدَة فَتَمْحيصُهُ منْ ذُنوبه؛ ليَردَ الآخرَةَ نَقيّاً نَظيفاً مُسْتَحقّاً لثَواب الأَبَد لا مانعَ لَهُ دونَهُ، وَما كانَ منْ سُهولَة عَلَى الْكافر فَليُوَفّى أَجْرَ حَسَناته في الدُّنْيا؛ ليَردَ الآخرَةَ، وَلَيْسَ لَهُ إلا ما يوجبُ عَلَيْه الْعقابَ، وَما كانَ منْ شدَّة عَلى الْكافر هُناكَ فَهُوَ ابْتداءُ عقابِ الله لَهُ بَعْدَ نَفاد حَسَناته، ذلكُمْ بأَنَّ اللهَ عَدْلٌ لا يَجورُ»**(١).

وهذه العقبة شديدة الوقع على كلّ إنسان مهما بلغ من درجة الكمال حتّى الأنبياء وأولياء الله الّذين هم مطمئنّون عند حالة النّزع والموت؛ فإنّهم يتهيّبون من بعض العقبات، وما ينالهم من شدائد هذه الحالة نصيب، ويصابون ببعض العقبات في حالة الانتقال كما ورد في حالات انتقال روح النّبيّ الأكرم ﷺ إلى بارئها عند اللّحظات الأخيرة من عمره الشّريف المبارك، فـ«لمّا نزل بالنّبيّ ﷺ الموت، كان عنده قدح فيه ماء، يمسح يده من ذلك الماء، ثمّ يمسح وجهه، ويقول: **اللّهُمَّ، أَعنّي عَلى سَكَرات الْمَوْت**»(٢).

وعن أنس، قال: «لمّا ثقل النّبيّ ﷺ جعل يتغشّاه الكرب، فقالت فاطمة:

(١) معاني الأخبار: ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) محمّد بن سعد، كتاب الطّبقات الكبير: ٢٢٦/٢.

**وا كَرْبَ أَبَتاه!** فقال لها النّبيّ ﷺ: **«لَيْسَ على أبيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ»**[١].

يقول هذا وهو الطّاهر المطهّر، وهو أكمل خلق الله، وأطهرهم، وعندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾[٢]، قال ﷺ: **«لَيْتَني أَعْلَمُ متى يكونُ ذلكَ»**، فأنزل الله تعالى سورة النَّصر: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ**﴾[٣]، فكان رسول الله ﷺ يسكت بين التَّكبير والقراءة بعد نزول هذه السّورة، فيقول: **«سُبْحانَ الله، وَبِحَمْدِه، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ، وأَتوبُ إلَيْه»**، فقيل له: «إنّك لم تكن تقوله قبل هذا»، فقال: **«أَما إنَّ نَفْسي نُعِيَتْ إلَيَّ»**، ثمّ بكى بكاءً شديداً، فقيل: «يا رسول الله، أَوَتبكي من الموت، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟» قال: **«فَأَيْنَ هَوْلُ الْمُطَّلَعِ؟ وأَيْنَ ضيقُ الْقَبْرِ؟ وظُلْمَةُ اللَّحْدِ؟ وأَيْنَ الْقيامَةُ والأَهْوالُ؟»**[٤].

وعَنْ عَبْد الله بْن سنان، عَمَّنْ سَمِعَ أَبا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقولُ: **«لَمّا حَضَرَتِ الْحَسَنَ عليه السلام الْوَفاةُ بَكى، فَقيلَ لَهُ: يا ابْنَ رَسولِ الله، تَبْكي ومَكانُكَ مِنْ رَسول الله ﷺ الَّذي أَنْتَ به، وَقَدْ قالَ فيكَ ما قالَ، وقَدْ حَجَجْتَ عشْرين حَجَّةً ماشياً، وَقَدْ قاسَمْتَ مالَكَ ثَلاثَ مَرّات حَتّى النَّعْلَ بالنَّعْلِ؟ فَقالَ: إنَّما أَبْكي لخَصْلَتَيْن لهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وفِراقِ الأَحِبَّةِ»**[٥].

ونحن حينَ نستعرض الآياتَ الكريمة والأحاديث الشّريفة في مسألة الموت

---

(١) كتاب الطّبقات الكبير: ٢/٢٧٠.

(٢) الزّمر: ٣٠.

(٣) النّصر: ١.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/٦٧٧.

(٥) الكافي: ٢/٤٩٩-٥٠٠، ح/١٢٥٤.

نجد أنَّها أكَّدت على:

أ- حتميّة الموت.

ب- تذكّر الموت.

ج- الاستعداد للموت... وغير ذلك.

**أ- حتميّة الموت:**

وهذه حقيقة أكَّد عليها القرآن الكريم والأحاديث الشّريفة، وكلّ عاقل يدركها بالوجدان، أمّا كتاب الله تعالى فقد صرَّح في آيات عدّة نذكر منها قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾(١).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٢).

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾(٣).

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾(٤).

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٥).

وغيرها من الآيات الَّتي أكَّدت لا بُدِّيَّة الموت، وحتميّته، وأنَّه لا مفرَّ منه، ولا مفزع، ولا خلاص لكلّ حيّ مهما كان، فلا خلود لأحد غير الواحد الأحد جلَّ وعلا، وأمّا الأحاديث الواردة في حتميّة الموت، فلا تعدّ، ولا تحصى؛ لكثرتها

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) العنكبوت: ٥٧.

(٣) النّساء: ٧٨.

(٤) الجمعة: ٨

(٥) الرّحمن: ٢٦-٢٧.

وتنوّعها، نذكر منها على سبيل التّبرّك:

خطب رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته، فقال: «**أيُّها النّاسُ، كأنَّ الْموْتَ على غيْرنا كُتب، وكأنَّ الْحقَّ على غيْرنا وجب، وكأنَّ الّذين يُشيِّعون من الأمْوات سفْرٌ عمّا قليلٌ إليْنا راجعون...**»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**واعْلموا عباد الله أنَّ الْموْت ليْس منْهُ فوْتٌ، فاحْذروهُ قبْل وُقوعه، وأعدّوا لهُ عُدَّته، فإنَّكُمْ طُرداءُ الْموْت، وجدّوا للثَّواب، إنْ أقمْتُمْ لهُ أخذكُمْ، وإنْ هربْتُمْ منْهُ أدْرككُمْ، فهُو ألْزمُ لكُمْ منْ ظلِّكُمْ، معْقودٌ بنواصيكُمْ، والدُّنْيا تُطْوى منْ خلْفكُمْ، فأكْثروا ذكْر الْموْت عنْدما تُنازعُكُمْ إلَيْه أنْفُسُكُمْ من الشَّهوات، فإنَّه كفى بالْموْت واعظاً، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله كثيراً ما يوصي أصْحابهُ بذكْر الْموْت فيقولُ: أكْثروا ذكْر الْموْت؛ فإنَّهُ هادمُ اللّذّات، حائلٌ بيْنكُمْ وبيْن الشَّهوات**»(٢).

والأحاديث في ذلك كثيرة إلا أنَّ الإنسان بطبعه ما دام معافى فإنَّه ينسى تلك الحقيقة، فيطول أمله؛ ولهذا قال الإمام الحسن عليه السلام: «**ما رأيْتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشْبه بشكٍّ لا يقين فيه من الْموْت**»(٣).

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «**لمْ يخْلق اللهُ عزَّ وجلَّ يقيناً لا شكَّ فيه أشْبهُ بشكٍّ لا يقين فيه من الْموْت**»(٤).

---

(١) تاريخ اليعقوبيّ: ١٠٠/٢.

(٢) الثّقفيّ، الغارات: ٢٣٨/١؛ وينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٨/٦.

(٣) أبو هلال العسكريّ، كتاب الصّناعتين: ٢٧٨.

(٤) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١٤/١.

## ب- تذكّر الموت:

بما أنَّ الإنسان مجبولٌ على حبّ البقاء، وعلى طول الأمل، بل لعلَّه لو استطاع نيل الخلود لطلبه، بل لايزال يسعى إليه سعياً حثيثاً بطريقة أو أخرى ويودّ لو يعمّر إلى الأبد، ويودّ لو يعمّر ألف سنة كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾[١].

فالألف هنا للتّكثير - والله العالم - لا للتَّحديد؛ لأنَّ أماني حبّ البقاء لا تقبل التَّحديد، وهذه الحالات من الأماني الوهميّة إذا تحوَّلت إلى ملكة نفسيّة توقع الإنسان في أخطر المزالق والمخالفات الشّرعيّة؛ لأنَّ طول الأمل يُنسي الآخرة، وما هناك من خطر أكبر من ذلك فإنَّ من نسي الآخرة تجاوز الحدود وتعدّاها.

ودرءاً لتلك الأخطار أكّد الإسلام في منهجه التّربويّ على تذكّر الموت بصورة دائمة؛ ليذلّل ويلطّف شهوات النَّفس، ويضع الإنسان على جادَّة الصَّواب، قال الرَّسول الأكرم ﷺ: «**اذْكُروا هادمَ اللّذّات، قيلَ: وما هُوَ يا رَسولَ الله؟ فَقالَ: الْمَوْتُ، ما ذَكَرَهُ عَبْدٌ على الْحَقيقَة في سَعَة إلا ضاقَتْ عَلَيْه الدُّنْيا، وَلا في شدَّة إلا اتَّسَعَتْ عَلَيْه، وَالْمَوْتُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنازِلِ الآخِرَة، وَآخِرُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنازِلِ الدُّنْيا**»[٢].

وعن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، قال: «**اذْكُرِ الْمَوْتَ في صَلاتك؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذا ذَكَرَ الْمَوْتَ في صَلاتِهِ فَحَرِيٌّ بِأَنْ يُحْسِنَ صَلاتَهُ، وَصَلِّ**

(١) البقرة: ٩٦.

(٢) مصباح الشّريعة: ١٧١-١٧٢.

**صلاةَ رَجُلٍ لا يَظُنُّ أَنْ يُصلِّي صَلاةً غَيْرَها، وإِيّاكَ وكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْه»**[١].

وقد أوضح الإمام الصّادق فيما نُسبَ إليه عليه السلام فوائد ذكر الموت قائلاً: **«ذِكْرُ الْمَوْتِ يُميتُ الشَّهَواتِ في النَّفْسِ، ويَقْطَعُ مَنابتَ الْغَفْلَة، ويُقَوّي الْقَلْبَ بِمَواعِد الله، ويَرِقُّ الطَّبْع، ويَكْسِرُ أَعْلامَ الْهَوى، ويُطْفِئُ نارَ الْحِرْص، وهُوَ مَعْنى ما قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: فِكْرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سَنَة، وَذلكَ عِنْدَما تَحُلُّ أَطْنابَ خِيامِ الدُّنْيا، وتَشُدُّها بالآخِرَة، ولا يَسْكُنُ نُزولُ الرَّحْمَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ بِهذه الصِّفَة، ومَنْ لا يَعْتَبِرُ بِالْمَوْتِ، وقِلَّة حيلَته، وكَثْرَة عَجْزِه، وطول مُقامه في الْقَبْرِ، وتَحَيُّره في الْقِيامَة، فَلا خَيْرَ فيه»**[٢].

ولا يعني ذكر الموت اليأس من الحياة، والانقطاع عنها، والانصراف إلى المقابر والجلوس فيها، وانتظار الموت حتّى يحلّ، وإنّما المقصود أن يفكّر الإنسان في مستقبله الأخرويّ، وما سوف يواجهه من عقبات شديدة في طريقه إلى دار رحمة الله، فتذكّر الموت عملٌ تربويٌّ؛ لتهذيب النَّفس، والحدّ من غلوائها، وتلطيف نوازع الهوى، بل ولا يعني تذكّر الموت أن يتمنّى الإنسان الموت سأماً من الحياة، وفراراً من مشاكلها؛ فقد رُويَ عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: **«جاءَ رَجُلٌ إلى الصّادق عليه السلام، فَقالَ: قَدْ سَئِمْتُ الدُّنْيا، فَأَتَمَنّى عَلى الله عَزَّ وَجَلَّ الْمَوْتَ، فَقالَ عليه السلام: تَمَنَّ الْحَياةَ؛ لِتُطيعَ، لا لِتَعْصي، فَلَئِنْ تَعيشَ فَتُطيعَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَموتَ، فَلا تَعْصي وَلا تُطيعُ»**[٣].

---

(١) الدّيلمي، كتاب فردوس الأخبار: ٥٢٣/١، ح/١٧٦٠؛ وكنز العمال للمتّقي الهنديّ: ٥٢٤/٧-٥٢٥، ح/٢٠٠٧٩.

(٢) مصباح الشّريعة: ١٧١.

(٣) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٧/٢، ح/٣٠٦.

وعن أمّ الفضل: «دخل رسول الله ﷺ على رجل يعوده، وهو شاك، فتمنّى الموت، فقال رسول الله ﷺ: **لا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُ مُحْسِناً تَزْدادُ إِحْساناً إِلى إِحْسانِكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُسيئاً فَتُؤَخَّرُ لِتُسْتَعْتَبَ، فَلا تَمَنَّوا الْمَوْتَ**»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ بِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ**»[٢].

وقال ﷺ: «**لا تَتَمَنَّوا الْمَوْتَ؛ فَإِنَّ هَوْلَ الْمُطَّلَعِ شَديدٌ، وَإِنَّ مِنْ سَعادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يَطولَ عُمُرُهُ، وَيَرْزُقَهُ اللهُ الإِنابَةَ إِلى دارِ الْخُلودِ**»[٣].

### ج- الاستعداد للموت:

الموت أمرٌ حتميٌّ لا مفرَّ منه، وفي العقيدة الإسلاميّة لم يكن الموت نهاية للإنسان، وإنَّما هو نهاية مرحلة من مراحل الحياة، وبداية مرحلة أخرى فيها يُسعد الإنسان أو يشقى، وهذا متوقّف على نوعيّة عمله في الحياة الدُّنيا، فمن آمن وعمل صالحاً، ثمَّ اهتدى بهدى الله فلا يضلّ ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكره فإنَّ له معيشة ضنكا[٤]؛ وذلك لأنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرة، فما يزرعه في الدُّنيا يحصده في الآخرة، فمن زرع خيراً يحصد غبطة وسعادة، ومن زرع شرّاً يحصد شقاءً وعناءً دائماً؛ ولهذا أوجب الإسلام على حامليه أن يستعدّوا للموت، والاستعداد هذا هو إعداد لرحلة طويلة ينتقل فيها الإنسان من عالم الفناء إلى عالم البقاء والخلود؛

---

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٥٧٥؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٣٢٤/١، ح/٢٨٦.

(٢) الرّاونديّ، سلوة الحزين وتحفة العليل (الدّعوات): ١٣٢، ح/٣١٤.

(٣) المصدر نفسه: ح/٣١٥.

(٤) ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (طه: ١٢٤).

ليحقّق الله له ما في فطرته من حبّ للخلود والبقاء، وخطوات هذه الرّحلة هي: ترسيخ الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر في القلب، والتّعبّد لله بالالتزام بأحكام الإسلام بصورة جدّيّة فاعلة، والتّحلّي بأخلاقه طلباً لرضوان الله، وتجنّب كلّ ما لا يرضاه تعالى.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**سُئِلَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: أَيُّ الْمُؤْمنينَ أَكْيَسُ؟ قالَ: أَكْثَرُهُمْ ذِكْراً لِلْمَوْتِ، وأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْداداً**»(١).

وسُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام: «ما الاستعداد للموت؟»، فقال: «**أَداءُ الْفَرائضِ، وَاجْتِنابُ الْمَحارِمِ، وَالاشْتمالُ عَلى الْمَكارِمِ، ثُمَّ لا يُبالي أَوَقَعَ عَلى الْمَوْتِ، أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ، وَالله ما يُبالي ابْنُ أَبي طالِبٍ أَوَقَعَ عَلى الْمَوْتِ، أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ**»(٢).

فالاستعداد للموت إذن هو أن يتصوّر الإنسان سفره الطَّويل إلى الله، وما سوف يمرّ به من مضايق، وأهوال، وصعاب، وشدائد، وعقبات كأداء... ويعدّ لكلّ واحدة منهما عدّته يتجاوز بها تلك العقبات، وينبغي أن يتصوَّر الثّواب والعقاب، والحساب في القبر، والمبعث والمحشر والجنّة والنّار، ويحُضّر لذلك أعمالاً؛ ليفوز برضوان الله، وينال ثوابه، ويتخلّص من عقابه: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ**﴾(٣).

---

(١) الكافي: ٦٣٥/٥، ح/٤٧٦٦.

(٢) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ١٧٢، ح/١٧٣؛ وترتيب الأمالي: ٣٩٤/٧، ح/٤١٩٨.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

## عَقَبَةُ الْقَبْرِ:

وهي عقبة شديدة صعبة المرور لا يُنجي منها إلا الاعتقاد السَّليم الرّاسخ بالقلب الَّذي لا شَوب فيه، وبه يمرُّ بمساءلة دقيقة عن ربّه ونبيّه ودينه... فمن لم يكن قد رسخت عقائده في صفحات قلبه، فسوف يتزلزل، ويرتجّ، وينسى، ولا يتذكّر منها شيئاً، وهذا بعكس من ترسَّخت أشجار حبّ الله ورسوله في قلبه وعاش لها، ومات عليها؛ فعن موسى بن جعفر، عن أبيه الصّادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنَّه قال: «**إذا ماتَ الْمُؤْمنُ شَيَّعَهُ سَبْعونَ أَلْفَ مَلَكٍ إلى قَبْرِه، فَإذا أُدْخِلَ قَبْرَهُ أَتاهُ مُنْكَرٌ ونَكيرٌ فَيُقْعِدانه، ويَقولان لَهُ: مَنْ رَبُّك، وما دينُك، ومَنْ نَبيُّك؟ فَيَقولُ: رَبِّي اللهُ، ومُحَمَّدٌ نَبِيّي، والإسْلامُ ديني. فَيَفْسَحان لَهُ في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه، ويَأْتيانه بالطَّعامِ من الْجَنَّة، ويُدْخلان عَلَيْه الرَّوْحَ والرَّيْحانَ، وذَلكَ قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾، يَعْني في قَبْرِه ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[(١)]، يَعْني في الآخِرَة**».

ثمّ قال عليه السلام: «**إذا ماتَ الْكافِرُ شَيَّعَهُ سَبْعونَ أَلْفاً منَ الزَّبانيَة إلى قَبْرِه، وإنَّهُ لَيُناشِدُ حامليه بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إلا الثَّقَلان، ويَقولُ: لَوْ أَنَّ لي كَرَّةً فَأَكونَ منَ الْمُؤْمنين، ويَقولُ: ارْجِعوني ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، فَتُجيبُهُ الزَّبانيَةُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾[(٢)] أَنْتَ قائلُها، ويُناديهِمْ مَلَكٌ: لَوْ رُدَّ لَعادَ لما نُهِيَ عَنْهُ، فَإذا أُدْخِلَ قَبْرَهُ وفارَقَهُ النّاس، أَتاهُ مُنْكَرٌ ونَكيرٌ في أَهْوَلِ**

---

(١) الواقعة: ٨٨-٨٩.

(٢) المؤمنون: ١٠٠.

صورةَ فَيُقيمانه، ثُمَّ يَقولان لَهُ: مَنْ ربُّك، وَما دينُك، وَمَنْ نَبيُّكَ؟ فَيَتَلجْلَجُ لسانُهُ ولا يَقْدرُ عَلى الْجَواب، فَيَضْربانه ضَرْبَةً منْ عَذاب الله يَذْعَرُ لَها كُلُّ شَيْء، ثُمَّ يَقولان لَهُ: منْ ربُّك، وما دينُك، ومَنْ نَبيُّكَ؟ فيَقولُ: لا أَدْري، فَيَقولان لَهُ: لا دَرَيْتَ، ولا هُديتَ، ولا أَفْلَحْتَ، ثُمَّ يَفْتَحان لَهُ باباً إلى النّار، ويَنْزلان إلَيْه الْحَميمَ منْ جَهَنَّمَ، وذلكَ قَوْلُ الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يَعْني في الْقَبْر ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[1] يَعْني في الآخرَة»[2].

وَعَنْ سَعيد بْن الْمُسَيَّب، قالَ: «كانَ عَليُّ بْنُ الْحُسَيْن عليه السلام يَعظُ النّاسَ، ويُزَهِّدُهُمْ في الدُّنْيا، ويُرَغِّبُهُمْ في أَعْمال الآخرَة بهذا الْكَلامِ في كُلِّ جُمُعَةٍ في مَسْجد رَسول الله صلى الله عليه وآله، وحُفظَ عَنْه وكُتبَ، كانَ يَقولُ:

«أَيُّها النّاسُ، اتَّقوا اللهَ، واعْلَموا أَنَّكُمْ إلَيْه تُرْجَعونَ، فَتَجدُ كُلُّ نَفْس ما عَملَتْ في هذه الدُّنْيا منْ خَيْر مُحْضَراً، وما عَملَتْ منْ سوء تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أَمَداً بَعيداً، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ، وَيْحَكَ يا ابْنَ آدَمَ الْغافلَ، ولَيْسَ بمَغْفول عَنْهُ.

ابْنَ آدَمَ، إنَّ أَجَلَكَ أَسْرَعُ شَيْء إلَيْك، قَدْ أَقْبَلَ نَحْوَكَ حَثيثاً يَطْلُبُكَ، وَيوشكُ أَنْ يُدْركَك، وكَأَنْ قَدْ أَوْفَيْتَ أَجَلَكَ، وَقَبَضَ الْمَلَكُ روحَكَ، وَصرْتَ إلى قَبْركَ وَحيداً، فَرَدَّ إلَيْكَ فيه روحَكَ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْكَ فيه مَلَكان ناكرٌ ونَكيرٌ لمُساءلَتك، وشَديد امْتحانك.

---

(١) الواقعة: ٩٢-٩٤.

(٢) الشَّيخ الصَّدوق، الأمالي: ٣٦٥-٣٦٦، ح/٤٥٥؛ وترتيب الأمالي: ٣٥٧/١، ح/٣١٩.

**أَلا وإنَّ أَوَّلَ ما يَسْأَلانك عَنْ ربِّكَ الَّذي كُنْتَ تَعْبُده، وعَنْ نَبيِّكَ الَّذي أُرْسلَ إلَيْكَ، وعَنْ دينكَ الَّذي كُنْتَ تَدينُ به، وعَنْ كتابكَ الَّذي كُنْتَ تَتْلوه، وعَنْ إمامكَ الَّذي كُنْتَ تَتَولاه، ثُمَّ عَنْ عُمركَ فيما كُنْتَ أَفْنَيْتَه، ومالكَ منْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَه، وفيما أَنْتَ أَنْفَقْتَه، فخُذْ حذْرَكَ، وانْظُرْ لنَفْسكَ، وأَعدَّ الْجوابَ قَبْلَ الامْتحان والْمُساءَلَة، والاخْتبار، فإنْ تكُ مُؤْمناً، عارفاً بدينكَ، مُتَّبعاً للصّادقينَ، مُواليَاً لأَوْلياء الله، لَقّاكَ اللهُ حُجَّتَكَ، وأَنْطقَ لسانَكَ بالصَّواب، وأَحْسَنْتَ الْجَوَابَ، وبُشِّرْتَ بالرِّضْوان والْجَنَّة من الله عزَّ وجلَّ، واسْتَقْبَلَتْكَ الْمَلائكَةُ بالرَّوْح والرَّيْحان، وإنْ لَمْ تَكُنْ كَذلكَ تلَجْلَجَ لسانُكَ، ودَحَضَتْ حُجَّتُكَ، وعَييتَ عن الْجواب، وبُشِّرْتَ بالنّار، واسْتَقْبَلَتْكَ مَلائكَةُ الْعَذاب، بنُزُلٍ منْ حَميمٍ وتَصْلية جَحيمٍ»**[1].

فهذه العقبة إذن عقبة شديدة مخيفة مرعبة يخشاها أولياء الله، ويرتعدون من ذكرها، ويتوسّلون بالله صارخين: «**اللّهُمَّ أَعنّي على غَمِّ الْقَبْر، اللّهُمَّ، أَعنّي على ضيق الْقَبْر، اللّهُمَّ، أَعنّي على ظُلْمة الْقَبْر، اللّهُمَّ، أَعنّي على وَحْشَة الْقَبْر**»[2].

وعَنْ سالم، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قال: «**ما منْ مَوْضع قَبْر إلا وهُوَ يَنْطقُ كُلَّ يَوْمٍ ثَلاثَ مرّات: أَنا بَيْتُ التُّراب، أَنا بَيْتُ الْبَلاء، أَنا بَيْتُ الدّود.**

قالَ: **فإذا دَخَلَهُ عَبْدٌ مُؤْمنٌ، قال: مَرْحَباً وأَهْلاً، أَما والله، لَقَدْ كُنْتُ أُحبُّكَ، وأَنْتَ تَمْشي على ظَهْري، فكَيْفَ إذا دَخَلْتَ بطْني، فَسَتَرى ذلكَ**، قالَ: **فيُفْسَحُ لَه مدَّ الْبَصَر، ويُفْتَحُ لَهُ بابٌ يَرى مَقْعَدَهُ منَ الْجَنَّة.**

---

(١) الكافي: ١٥/١٨٢-١٨٥، ح/١٤٨٤٤.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، تهذيب الأحكام: ٣/١٠١.

قالَ: ويَخْرُجُ منْ ذلكَ رجلٌ لَمْ ترَ عيْناهُ شيْئاً قطُّ أحْسنَ منْه، فيَقولُ: يا عَبْدَ الله، ما رأَيْتَ شيْئاً قطُّ أَحْسَنَ منْكَ؟ فيَقولُ: أَنا رأْيكَ الْحسَنُ الَّذي كُنْتَ علَيْه، وعمَلُكَ الصّالحُ الَّذي كُنْتَ تعْملُه.

قالَ: ثُمَّ تُؤْخذُ روحُه، فتوضعُ في الْجنَّة حيْثُ رأى منْزلَه، ثُمَّ يقالُ لَهُ: نَمْ قَريرَ الْعيْنِ، فَلا يزالُ نفْحةٌ منَ الْجنَّة تُصيبُ جسدَهُ يجدُ لذَّتَها وطيبَها حتّى يُبْعَثَ.

قالَ: وإذا دخَلَ الْكافرُ، قالَتْ: لا مرْحباً بكَ، ولا أهْلاً، أما والله، لقدْ كُنْتُ أُبْغضُكَ، وأَنْتَ تمْشي على ظهْري، فكَيْفَ إذا دخلْتَ بطْني سترى ذلكَ، قالَ: فتضمُّ علَيْه، فتجْعلُه رميماً، ويُعادُ كما كانَ، ويُفْتَحُ لَهُ بابٌ إلى النّار، فيَرى مقْعدَه منَ النّار.

ثُمَّ قالَ: ثُمَّ إنَّهُ يخْرجُ منْه رجلٌ أقْبحُ منْ رأى قطُّ، قالَ: فيقولُ: يا عبْدَ الله، منْ أنْتَ؟ ما رأَيْتُ شيْئاً أقْبحَ منْكَ؟ قالَ: فيقولُ أنا عملُكَ السَّيِّئُ الَّذي كُنْتَ تعْملُه، ورأْيكَ الْخبيثُ.

قالَ: ثُمَّ تُؤْخذُ روحُه، فتوضعُ حيْثُ رأى مقْعدَهُ منَ النّار، ثُمَّ لَمْ تزَلْ نفْخةٌ منَ النّار تُصيبُ جسدَهُ، فيَجدُ ألَمَها وحرَّها في جسده إلى يوْمِ يُبْعَثُ، ويُسلِّطُ اللهُ على روحه تسْعةً وتسْعينَ تنّيناً تنْهشُهُ لَيْسَ فيها تنّينٌ ينْفخُ على ظهْر الأَرْض، فتُنْبتَ شيْئاً»(١).

ولهذا حذَّرَ أولياء الله من هذه العقبة، وأوصوا بالاستعداد لها؛ لتكون روضة من رياض الجنّة، لا حفرة من حفر النّار، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**واعْلَموا عبادَ**

(١) الكافي: ٥/٥٩٥-٥٩٧، ح/٤٧١٣.

**اللهِ، أَنَّ ما بَعْدَ الْمَوْتِ أَشَدُّ من الْمَوْت، لمَنْ لَمْ يَغْفر اللهُ لَهُ ويَرْحَمْهُ، وَاحْذَروا الْقَبْرَ، وَضَمَّتَهُ، وضيقَهُ، وَظُلْمتهُ، وغُرْبَته، فَإِنَّ الْقَبْرَ يتكلَّمُ كلَّ يومٍ، ويَقول: أَنا بَيْتُ التُّراب، وأَنا بيْتُ الْغُرْبَة، وأَنا بيْتُ الدّود والْهَوامِّ؛ والْقَبْرُ روْضَةٌ منْ رياض الْجنَّة، أَوْ حُفْرَةٌ منْ حُفَر النّار، إنَّ الْمُسْلمَ إذا دُفنَ قالَتْ لَهُ الأَرْضُ: مَرْحَباً وأَهْلاً، قَدْ كُنْتَ ممَّنْ أُحبُّ أَنْ يمْشي علَى ظَهْري، فَإذا ولِّيتُكَ فَسَتَعْلَمُ كَيْفَ صُنْعي بكَ! فيَتَّسع لَهُ مدَّ الْبَصَر. وَإذا دُفنَ الْكافرُ قالَتْ لَهُ الأَرْضُ: لا مَرْحَباً ولا أَهْلاً، قَدْ كُنْتَ ممَّنْ أَبْغَضُ أَنْ يَمْشي علَى ظَهْري، فَإذا ولِّيتُكَ فَسَتَعْلَمُ كَيْفَ صُنْعي بكَ! فَتَنْضَمُّ عَلَيْه حَتّى تَلْتَقي أَضْلاعُهُ.**

**وَاعْلَموا أَنَّ الْمَعيشَةَ الضَّنْكَ الَّتي قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1] هيَ عَذابُ الْقَبْر، وإنَّهُ لَيُسَلَّطُ علَى الْكافر في قَبْره تسْعَةٌ وَتسْعين تنّيناً تَنْهَشُ لَحْمَهُ حتّى يُبْعَثَ؛ لَوْ أَنَّ تنّيناً منْها نَفَخَ في الأَرْض ما أَنْبَتَتْ رَيْعَها أَبداً»[2].**

أقول: لو أخبرونا عليهم السلام بعض هذا لكان كافياً لأن ترتعد فرائصنا، وترتدع نفوسنا عن غيّها، وترتجف قلوبنا حتّى تبلغ حناجرنا!! كيف وأنا لم أذكر إلا غيظاً من فيض مما أخبرونا به، أعاننا الله على أنفسنا، وعلى ما نواجهه في قبورنا.

## عَقَبَةُ الْبَرْزَخِ:

قال الرّاغب الأصفهانيّ: «البرزخ الحاجز، والحدّ بين الشّيئين، وقيل: أصله

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) الثّقفيّ، الغارات: ٢٣٨/١-٢٣٩؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٩/٦.

بَرْزَهُ، فعُرّب، وقوله تعالى: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[١]، والبرزخ في القيامة الحائل بين الإنسان، وبين بلوغ المنازل الرَّفيعة في الآخرة، وذلك إشارة إلى العقبة المذكورة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾[٢]، قال تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٣]، وتلك العقبة موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصّالحون، وقيل: البرزخ ما بين الموت إلى القيامة»[٤].

والبرزخ يقع بين عالم الدُّنيا، وعالم الآخرة، ويقال له: عالم القبر، أو عالم الأرواح، أو عالم المثال، وفيه يبقى الإنسان إلى قيام السّاعة، وفي هذا قال الإمام الصّادق عليه السلام: «وَالله، ما أَخافُ عَلَيْكُمْ إلا [مِن] الْبَرْزَخِ، فَأَمّا إذا صارَ الأَمْرُ إلَيْنا فَنَحْنُ أَوْلى بِكُمْ»[٥].

وقد دلَّت آيات الكتاب الكريم على وجود هذا العالم منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[٧].

---

(١) الرّحمن: ٢٠.

(٢) البلد: ١١.

(٣) المؤمنون: ١٠٠.

(٤) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٧، (برزخ).

(٥) تفسير القمّيّ: ٢/٦٩٤.

(٦) آل عمران: ١٦٩.

(٧) طه: ١٢٤.

وأمّا الأحاديث الّتي أكّدت وجود البرزخ فكثيرة نذكر منها ما رُوِيَ الأصبغ بن نباته في حديث طويل، قال: «إنَّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه خرج من الكوفة، ومرَّ حتّى أتى الغريّين، فجازه، فلحقناه، وهو مُسْتَلْقٍ على الأرض بجسده، ليس تحته ثوب، فقال له قنبر: يا أمير المؤمنين، ألا أبسط ثوبي تحتك؟ قال: **لا، هَلْ هِيَ إلا تُرْبَةُ مُؤْمِنٍ، أَوْ مُزاحَمَتُهُ في مَجْلِسِه**»، قال الأصبغ: «فقلْتُ: يا أمير المؤمنين، تربة مؤمن قد عرفناه كانت، أو تكون، فما مزاحمته في مجلسه؟ فقال: **يا ابْنَ نُباتَه، لَوْ كُشِفَ لَكُمْ لأَلْفَيْتُمْ أَرْواحَ الْمُؤْمِنينَ في هذا الظَّهْرِ حَلَقاً يَتَزاوَرونَ، وَيَتَحَدَّثونَ، إنَّ في هذا الظَّهْرِ روحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ، وفي وادي بَرَهوتَ**[1] **نَسَمَةُ كُلِّ كافِرٍ**»[2].

## الْعِلْمُ الْحَديثُ وَعالَمُ الأَرْواحِ:

وما اشتهر اليوم بعلم تحضير الأرواح إلا دليل مؤيد على ذلك، «ورغم اعتبار ذلك نوعاً من الوهم والتّصوّرات لكنّ هذه القضيّة ثبت تَحقُّقُها، وثبت أنَّ الاتّصال بعالم الأرواح ممكن، وقد تحقّق فعلاً لبعض العلماء، حتّى أنّهم توصّلوا إلى بعض الحقائق عن طريق الأرواح، وهذه القضيّة بذاتها دليل واضح على وجود عالم البرزخ وحقيقته، فهي تبيّن أنّه يأتي بعد عالم الدُّنيا والموت وقبل القيامة في الآخرة، إنّه عالم قائم بذاته»[3].

---

(١) عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «إنَّ مِنْ وَراءِ الْيَمَنِ وادياً يُقالُ لَهُ: وادي بَرَهوتَ، وَلا يُجاوِزُ ذلكَ الْوادِيَ إلا الْحَيّاتُ السّودُ، وَالْبومُ منَ الطَّيرِ، في ذلكَ الْوادي بِئْرٌ، يُقالُ لَها: بَلَهوتُ، يُغْدى وَيُراحُ إِلَيْها بِأَرْواحِ الْمُشْرِكينَ، يُسْقَوْنَ مِنْ ماءِ الصَّديدِ...» الكافي: ٥٩٢/١٥، ح/١٥١٩٠.

(٢) محمّد بن سليمان الحلّيّ، المحتضر: ١٨، ح/٨.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٥٥/١٠.

وقد انتشر في أمريكا وفي دول الغرب علم الأرواح الحديث، وبرز اهتمام تلك الدُّول بهذا العلم، وأُنشئت معاهد وكلّيّات ومعامل كثيرة في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، قال مؤلّف كتاب "عالم الأرواح": «يكاد يجمع الرّأي على أنَّ الاهتمام الرّسميّ بالظّواهر الرّوحيّة بدأ في أميركا في منتصف القرن الماضي تقريباً إثر حدوث ظواهر وضربات وطرقات غامضة ومجهولة المصدر في أحد البيوت في قرية «هيدسفيل»، وقد أثارت هذه الظّاهرة اهتمام النّاس الَّذين قدَّموا العرائض مطالبين الحكومة بالتّحرّي عن هذا الأمر، وكشف ملابساته، فشُكّلت لجنة من كبار المسؤولين لفحصها، مستخدمين كلّ أساليب البحث العلميّ يومذاك، وبعد جهد أمكن إقامة نظام اتّصال، وتخاطب مع مصدر الصَّوت والظَّواهر، وكانت عبارة عن طرقات، وتحرّك قطع الأثاث من تلقاء نفسها، وانتهى البحث إلى نسبة هذه الظّواهر لرجل متوفّى يدعى: «تشارلس روزنا»، وقد أفاد أنَّه مات قتيلاً، وتمّ دفنه في قبو المنزل، وبالكشف هناك تمَّ العثور على بقايا الجثّة في المكان الَّذي عيَّنه لهم، وكان ممّن بحثوا هذه الظّاهرة وحقّقوها القاضي «جون وورث إدموندز» الَّذي كان رئيساً للمحكمة الاتّحاديّة العليا، ثمَّ رئيساً لمجلس الشّيوخ الأميركيّ، وقد كتب بعد ذلك بياناً إلى الجمهور معلناً فيه أنَّه بحث موضوع الطّرقات لمدّة أربعة أشهر مخصّصاً لها جلستين أسبوعيّاً، ومستعيناً بعشرة من العلماء، وخبير في الكهرباء، وعجزوا جميعاً عن تعليلها بمصدر مادّيّ، ثمّ جاء من بعده «جيمس مابس» أستاذ الكيمياء بجامعة «بنسلفانيا»، ونشر بنتيجتها مؤلّفاً بعنوان: «تحقيق تجريبيّ لظواهر الرّوح»، وبعد ذلك أقبل عدد من أبرز علماء الفيزياء والرّياضة والبيولوجيا والفلك والسّيكولوجيا إلى ميدان هذا البحث»[1].

---

(١) محمّد عبد الهادي حيدر، عالم الأرواح: ٤٧-٤٨.

حتّى أصبح هناك مئات الباحثين في هذا الميدان الفسيح مع عشرات المعاهد والكلّيّات والمعامل في كلّ من أمريكا وبريطانيا وفرنسا، ومعظم الدّول الأوربيّة، وإلى جانب ذلك «خصّصت كراسي الأستاذيّة في كثير من الجامعات للبحث الرّوحيّ، وأقيمت المستشفيات الخاصّة بالعلاج الرّوحيّ، وفي «البرازيل» وحدها تصدر المئات من المجلات والجرائد الّتي تتناول المسائل الرّوحيّة، وكذلك انتشرت الأبحاث الرّوحيّة في البلدان الاشتراكيّة لا سيّما في الاتّحاد السّوفياتيّ»[١].

وفي هذا الميدان صدرت تصريحات علميّة لأكابر العلماء مثل المخترع الكبير «إديسون» مخترع الكهرباء حيث قال: «إنّني أبحث عن الحقيقة، وقد تقدّمتُ في مضمارها تقدّماً كبيراً، خاصّة فيما يتعلّق بالعالم الآخر، والحياة بعد الموت، وإني أقرّ بأنّه لا بدَّ وأن تبقى الرّوح، وتحيا عند انفصامها عن الجسد»[٢].

وقال وليام كروكس رئيس الجمعيّة الملكيّة لتقدّم العلوم، ومكتشف عناصر الثّاليوم، والفيكتريوم، والأستريا، مخترع الرّاديومتر... قال: «لستُ أقول إنَّ الاتّصال بالأرواح ممكن الحدوث، بل أقول: إنّه أمر حاصل بالفعل»[٣].

وقال أوليفر لودج، مدير جامعة برمنجهام، ومن أشهر علماء الفيزياء: «ليس من العقل أن يقال إنَّ النَّفس تضمحلّ إذا تلف الجسد، بل سنظلّ موجودين بعد موتنا، وانتهاء أعمارنا القصيرة على الأرض، أقول ذلك مستنداً إلى أدلّة علميّة، أقوله لأنّني تحقّقت أنَّ بعض أصدقائي الّذين ماتوا لا يزالون موجودين؛ إذ إنّي

(١) عالم الأرواح: ٤٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٥٢.

قد ناجيتهم، ومناجاة الموتى ممكنة، لكن ينبغي أن تجري على نواميس، وأن نعرف شروطها، وإنّني مقتنع بأنَّنا لا نضمحلّ عند الموت، وأنَّ الموتى يهتمّون بأمور هذا العالم، ويساعدوننا ويعرفون أكثر ممّا نعرف بكثير، ويقدرون على مفاجأتنا أحياناً»[١].

وقال آرثر فندلاي: «ولقد انتهيت بعد تفكير وبحث قضيتُ فيهما سنين إلى أنَّ أرواح الموتى تستطيع أن تظهر ثانية في عالمنا المادّيّ هذا، وذلك بعد أن تستعير من الوسيط إفرازاً خاصّاً ينبثق من جسمه، فتستطيع به أن تخلق مؤقّتاً لنفسها أعضاء صوتيّة تهزّ جوّنا هزاً. ويجب قبل كلّ شيء أن نعلم أنَّ عالم الرّوح جزء من هذا العالم، وأنَّه يحيط بنا من جميع النّواحي»[٢].

وهناك العشرات بل المئات من العلماء والمفكّرين والباحثين صرَّحوا بذلك، وثبت أنَّه حقيقة؛ لأنَّهم يؤمنون بوجود الأرواح كما يؤمنون بوجود الأجسام، ونحن إنَّما ذكرنا بعض أقوال هؤلاء كمؤيّد لاعتقاداتنا الَّتي قد يقتنع بها من لم يصل إلى درجة الإيمان بما ورد عن الله تعالى وعن رسوله وأهل بيته عليهم السلام عسى أن يقتنع بها من لا يؤمن بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله.

## عَقَبَةُ الْمَحْشَرِ:

وهذه هي العقبة الأصعب الَّتي تُوقَف عندها جميع الخلائق، بعد أن يبعثوا من مراقدهم الَّتي لبثوا فيها من موتهم إلى مبعثهم، ولا يستثنى أحد من ذلك

(١) عالم الأرواح: ٥٢-٥٣.

(٢) آرثر فندلاي، على حافة العالم الأثيريّ: ٢١-٢٢.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[١].

وفيها تنكشف السَّرائر على حقيقتها، ولا يبقى منها شيء خافياً، بل تنكشف على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا نرى خليل الرَّحمن يتعوّذ من ذلك اليوم، فيقول متوسّلاً بالله تبارك تعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٢].

بل تخوَّف منها حتّى الأبرار المطهّرون الَّذين أذهب الله عنهم الرّجس، وطهّرهم تطهيراً، فلا ذنب لهم ورغم ذلك قالوا: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[٣].

والسَّبب في ذلك أنَّ الإنسان بعد طول اللّبث في مرحلة البرزخ يفاجأ بهذا الهول العظيم هول البعث والحشر، **«وَهُوَ أَوَّلُ هَوْلٍ مِنْ أَهْوالِ يَوْمِ الْقيامَة»**[٤].

وحين ينفخ في الصّور، وتبعث الخلائق من أجداثها يتصوّرون أنَّهم ما لبثوا إلا ساعة من النّهار، يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾[٥]، ويذهلون ويتساءلون بذهول مرعب، والأرعب من ذلك أنَّهم يسمعون نداء الجبّار تعالى:

**«أَنا اللهُ لا إِلهَ إِلا أَنا، الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذي لا يَجورُ، الْيَوْمَ أَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِعَدْلي وَقِسْطي، لا يُظْلَمُ الْيَوْمَ عِنْدي أَحَدٌ، الْيَوْمَ آخُذُ لِلضَّعيفِ مِنَ الْقَوِيِّ**

---

(١) الكهف: ٨٩

(٢) الشّعراء: ٨٧-٨٩

(٣) الإنسان: ١٠.

(٤) الكافي: ٢٥٦/١٥، ح/١٤٨٩٤.

(٥) يونس: ٤٥.

**بحقِّه ولصاحب المَظْلمَة بالْمَظْلمَة بالْقصاص من الْحَسنات والسَّيِّئات، وأُثيبُ على الْهبات، ولا يجوزُ هذه الْعقَبَةَ الْيَوْمَ عنْدي ظالمٌ ولأَحد عنْده مَظْلمَةٌ إلا مَظْلمَةً يَهَبُها صاحبُها، وأُثيبُه عَلَيْها، وآخذُ لَهُ بها عنْدَ الْحساب، فَتَلازَموا أَيُّها الْخَلائقُ، واطْلُبوا مظالمَكُمْ عنْدَ مَنْ ظَلَمَكُمْ بها في الدُّنْيا، وأَنا شاهدٌ لَكُمْ عَلَيْهِمْ، وكَفى بي شَهيداً»**[1].

ثمّ يسمعون النّداء: «**لا يجوزُ إلى جَنَّتي الْيَوْمَ ظالمٌ، ولا يَجوزُ إلى ناري الْيَوْمَ ظالمٌ ولأَحد من الْمُسْلمين عنْدَهُ مَظْلمَةٌ حَتّى يَأْخُذَها منْهُ عنْدَ الْحساب، أَيُّها الْخَلائقُ اسْتَعدّوا للْحساب**».

قالَ الإمام زين العابدين عليه السلام: «**ثُمَّ يُخَلّى سَبيلُهُمْ فَيَنْطَلقونَ إلى الْعَقَبَة يَكْرُدُ**[2] **بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَتّى يَنْتَهوا إلى الْعَرْصَة**»[3].

هذا بعض ما يلاقي الإنسان في هذه العقبة الشَّديدة؛ ولذا لا بدّ وأن يستعدّ ويحمل العدّة؛ ليتجاوز تلك العقبة، فهي أشدُّ ما يعترض طريق الإنسان، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**واعْلَموا - عبادَ الله - أَنَّ ما بَعْدَ الْقَبْر أَشَدُّ من الْقَبْر، يَوْمَ يَشيبُ فيه الصَّغيرُ، ويَسْكَرُ فيه الْكَبيرُ، ويَسْقُطُ فيه الْجَنينُ، وتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضعَة عَمّا أَرْضَعَتْ، واحْذَروا يَوْماً عَبوساً قَمْطَريراً، يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطيراً، أَما إنَّ شَرَّ ذلكَ الْيَوْم وفَزَعَهُ اسْتَطارَ حَتّى فَزعَتْ منْهُ الْمَلائكَةُ الَّذين لَيْسَتْ لَهُمْ ذُنوبٌ، والسَّبْعُ الشِّدادُ، والْجبالُ الأَوْتادُ، والأَرَضونَ الْمهادُ،**

(١) الكافي: ٢٥٧/١٥، ح/١٤٨٩٤، النَّصُّ مقطع من حديث الإمام السّجّاد عليه السلام.

(٢) الكرد: الطرد والدفع.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٩/١٥، ح/١٤٨٩٤.

وَانْشَقَّت السَّماءُ فَهي يوْمَئذ واهيةٌ، وَتَغَيَّرتْ، فَكانَتْ وَرْدَةً كالدِّهان، وكانَتْ الْجبالُ سَراباً، بَعْدَ ما كانَتْ صُمّاً صلاباً، يَقولُ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، فَكَيْفَ بِمَنْ يَعْصيهِ بالسَّمْعِ وَالْبصرِ وَاللِّسانِ وَالْيَدِ وَالْفَرْجِ وَالْبَطْنِ إنْ لَمْ يَغْفِر اللهُ ويَرْحَمْ»[2].

هذا بعض ما يلاقيه ابن آدم من أهوال؛ ولذا ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[3].

هذا ما أخبرنا به من ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[4]، وما حدَّثنا به من لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[5]، تلك هي الحقيقة الَّتي لا ريب فيها ولا شكَّ، أَوَليس من الحريّ بنا أن نتأمّلها، ونضعها نصب أعيننا، ونحن سائرون نحوها لا محال، وهي أقرب إلينا من حبل الوريد، اللّهمّ أعنّا على أنفسنا؛ لنعيشها في مسيرة حياتنا اليوميّة بصدق ووعي وإيمان.

## عَقَبَةُ الصِّراطِ:

«السّراط الطَّريق المستسهل، أصله من سرطت الطعام وزردته: ابتلعته، فقيل

---

(١) الزّمر: ٦٨.

(٢) الغارات: ٢٤١/١؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٧٠/٦.

(٣) الحج: ٢.

(٤) فصّلت: ٤٢.

(٥) النّجم: ٣-٤.

سراط، تصوّراً أنّه يبتلعه سالكه، أو يبتلع سالكه»[1].

ويظهر من التّأمّل في بعض الرّوايات أنَّ المرور على الصّراط في الآخرة هو امتداد، ونتيجة للثّبات والاستقامة على الصّراط المستقيم في الدّنيا الَّذي هو الإسلام في عقائده ونظامه، فمن لا يعبر هذا الصّراط في الدنيا بوعي، وجدارة، وإخلاص لا يمكن أن يعبر الصّراط على جهنم، وبهذا ورد عن الإمام العسكريّ عليه السلام: **«وَالصِّراطُ الْمُسْتَقيمُ هُوَ صراطان: صراطٌ في الدُّنْيا، وَصراطٌ في الآخرَة، وأَمّا الصِّراطُ الْمُسْتَقيمُ في الدُّنْيا فَهُوَ ما قَصُرَ عَن الْغُلوِّ، وَارْتَفَعَ عَن التَّقْصير، وَاسْتَقامَ فَلَمْ يَعْدِلْ إلى شَيْءٍ مِنَ الْباطل؛ وَأَمّا الطَّريقُ الآخَرُ: فَهُوَ طَريقُ الْمُؤْمنينَ إلى الْجَنَّة الَّذي هُوَ مُسْتَقيمٌ، لا يَعْدلونَ عَن الْجَنَّة إلى النّار، وَلا إلى غَيْرِ النّار سوى الْجَنَّة»**[2].

وعن المفضّل بن عمر، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصّراط، فقال: **هُوَ الطَّريقُ إلى مَعْرِفَة الله عَزَّ وَجَلَّ، وَهُما صراطان: صراطٌ في الدُّنْيا، وَصراطٌ في الآخرَة؛ وَأَمّا الصِّراطُ الَّذي في الدُّنْيا فَهُوَ الإمامُ الْمُفْتَرَضُ الطّاعَة، مَنْ عَرَفَهُ في الدُّنْيا، وَاقْتَدى بِهُداهُ مَرَّ عَلى الصِّراط الَّذي هُوَ جِسْرُ جَهَنَّمَ في الآخرَة، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ في الدُّنْيا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصِّراطِ في الآخرَة، فَتَرَدّى في جَهَنَّمَ»**[3].

واعتقادنا بالصِّراط أنّه حقٌّ، بل إنَّه من ضروريّات الدّين وحقيقته، و(صراط

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٢١، (سرط).

(٢) معاني الأخبار: ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٢.

الآخرة) جسر على جهنم أَحَدّ من السَّيف، وأدقّ من الشَّعرة، وعليه عقبات كثيرة، قال الشّيخ الصّدوق قُدِّسَ سِرُّهُ: «اعتقادنا في الصّراط أنَّه حقٌّ، وأنَّه جسر جهنّم، وأنَّ عليه ممرّ جميع الخلق، قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾[1]»[2].

وقال الشَّيخ المفيد قُدِّسَ سِرُّهُ: «الصّراط في اللّغة: هو الطّريق؛ فلذلك سمّي الدين صراطاً؛ لأنَّه طريق إلى الصّواب؛ و[له سمّي] الولاء لأمير المؤمنين والأئمّة من ذرّيّته عليهم السلام صراطاً، ومن معناه قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **أَنا صراطُ الله المُسْتَقيمُ، وعُرْوَتُهُ الْوُثْقى الَّتي لا انْفصامَ لَها**. يعني: أنَّ معرفته والتّمسّك به طريق الله سبحانه، وقد جاء الخبر بأنَّ الطريق يوم القيامة إلى الجنّة كالجسر يمرّ به النّاس»[3].

فعقبة الصّراط الأخرويّ مرتبطة بالصّراط في الدُّنيا؛ ولهذا فإنَّ الاعتقاد بذلك الصّراط الأخرويّ، وصعوبة السَّير فيه، والمرور عليه هو تجسيد لصعوبة الصّراط في الدُّنيا، فكما يمرّ المتمسّك بدين الله على صراط الدُّنيا، وهو دين الله تعالى الَّذي يواجه تيّار الشّهوات، وأمواج الضّلالات الفكريّة والسّياسيّة وغيرها، ويتجاوزها بصعوبة ومرارة، ويعاني معاناة شديدة هذه المعاناة ستيسّر مروره على ذلك الصّراط الَّذي وُصِفَ بأنَّه أدقُّ من الشّعرة، وأحدُّ من السَّيف فمن أتقن السَّير أوّلاً سَهل عليه العبور ثانياً، والعكس بالعكس... وكما أنَّ النّاس يتفاوتون في سيرهم والتزامهم بالصّراط في الدُّنيا كذلك يتفاوتون في السّرعة وبطء السَّير على

(١) مريم: ٧١.

(٢) الشّيخ الصّدوق، الاعتقادات: ٧٠.

(٣) موسوعة الشّيخ المفيد (تصحيح اعتقادات الإماميّة): ١٠٨/٥.

الصّراط في الآخرة، قال الإمام الصّادق عليه السلام:

**«النّاس يمرّون على الصِّراط طبقات، والصِّراط أدقُّ من الشَّعْر، ومن حدِّ السَّيْف، فمنهم من يمرُّ مثل البرق، ومنهم من يمرُّ مثل عدو الفرس، ومنهم من يمرُّ حبواً، ومنهم من يمرُّ مشياً، ومنهم من يمرُّ متعلِّقاً، قد تأخذ النّار منه شيئاً، وتترك شيئاً»**(١).

وهذا تعبير عن درجات الالتزام بدين الله تبارك وتعالى في الدُّنيا؛ لأنَّ كلّ ما في الدّنيا ينعكس في الآخرة.

## بَحْثٌ مُفَصَّلٌ آخَرُ في الصِّراطِ(٢):

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۞ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٣).

هذه الآيات الكريمة صريحة في أنَّ كلّ النّاس يحضرون حول جهنّم من دون استثناء: الصّالحين وغيرهم، إلا أنَّ هناك قوماً يتخطّونها إلى الجنّة، وآخرون يسقطون فيها، قال السّدّيّ: «سألتُ مرّة الهمدانيّ عن هذه الآية، فحدَّثني أنَّ عبد

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٤٢-٢٤٣، ح/٢٥٧؛ وترتيب الأمالي: ٥٠٦/١، ح/٤٧٨.

(٢) هذا البحث هو تقرير لأحد دروس سماحة أستاذنا الرّاحل آية الله الشّيخ محمّد مهدي الآصفيّ قدس سره في التّفسير الموضوعيّ للقرآن في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة.

(٣) مريم: ٦٧-٧٢.

الله بن مسعود حدَّثهم عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: **يَرِدُ النّاسُ النّارَ، ثُمَّ يَصْدُرونَ بِأَعْمالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْعِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرّاكِبِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ**(١)**، ثُمَّ كَمَشْيِهِ**»(٢).

وروى أبو صالح غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد، عن أبي سمينة، قال: «اختلفنا في الورود، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعاً، ثمّ ينجّي الله الَّذين اتّقوا، فلقيت جابر بن عبد الله، فسألته، فأومى بإصبعيه إلى أذنيه، وقال: صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول: **الْوُرودُ الدُّخولُ، لا يَبْقى بَرٌّ وَلا فاجِرٌ إلا يَدْخُلُها، فَتَكونُ عَلى الْمُؤْمِنينَ بَرْداً وَسَلاماً كَما كانَتْ عَلى إِبْراهيمَ، حَتّى أَنَّ لِلنّارِ** -أو قال: **لِجَهَنَّمَ**- **ضَجيجاً مِنْ بَرْدِها، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾**(٣)»(٤).

إذن الطَّريق الَّذي يعبرون عليه هو الصّراط، وهو الطَّريق الَّذي يجتازه النّاس على جهنّم حتّى يصلوا إلى الجنّة، فالصّراط طريق ذات طرفين: طرف منه الموقف، والطّرف الآخر هو الجنّة، وهو قائم، وممتدٌّ عبر جهنّم، وهو دقيق وحسّاس وحادٌّ كحدّ السَّيْف، وكدقّة الشَّعرة، فالسَّير عليه صعب عسير، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**النّاسُ يَمُرّونَ عَلى الصِّراطِ طَبَقاتٍ، وَالصِّراطُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، وَمِنْ حَدِّ السَّيْفِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ عَدْوِ الْفَرَسِ،**

---

(١) حضر الفرس: ارتفاعه في عدوه، وشد الرّجل: الرّكض بلهث وتعب.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/٨١٢.

(٣) مريم: ٧٢.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/٨١٢.

**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمرُّ حَبْواً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمرُّ مَشْياً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمرُّ مُتَعلِّقاً، قَدْ تَأْخُذُ النَّارُ مِنْهُ شَيْئاً، وَتَتْرُكُ شَيْئاً»**[١].

ونتساءل:

١- ما هي حقيقة الصّراط؟

٢- ماذا يرمز في الحياة الدّنيا؟

٣- لماذا يمرّ عبر جهنّم بالذّات؟

٤- ولماذا يسرع بعضهم حتّى يصل كالبرق الخاطف، ويتلكأ بعضهم حتّى يكاد يسقط في جهنم؟؟

إذن موضوع البحث في الآية هو الصّراط والعقبات في الطّريق.

## ما هُوَ الصِّراطُ؟

الصّراط هو الطريق الواصل بين نقطتين، «مأخوذ من سرطت سرطاً إذا بلعت بلعاً، كأنَّه يبلع سالكيه، فلا يدعهم يخرجوا عنه، ولا يدفعهم عن بطنه»[٢]، يتحرّك الإنسان في الصّراط سواء كان هذا الفاصل بين نقطتين مكانيّاً كالقاصدين لمدينتين، أو معنويّاً كالجاهل يريد أن يصير عالماً، وهذه حركة داخليّة معنويّة، والصّراط هنا هو العلم الَّذي تصل به النّفس إلى كمالها، والصّراط إلى الله هو الصّراط المستقيم، الَّذي يوصل الإنسان إلى الله، فبين الإنسان وبين دين الله مسافة، ولكنّها ليست مكانيّة، وإنَّما هي حركة معنويّة تكامليّة، وهذا الصّراط هو العبوديّة لله، وهو نهج واحد لا تعدّد فيه؛ لأنَّه لا يمكن أن يكون الصّراط إلى الله إلا واحداً.

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٤٢-٢٤٣، ح/٢٥٧؛ وترتيب الأمالي: ٥٠٦/١، ح/٤٧٨.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٣/١.

فالخطُّ المستقيم بين نقطتين واحد، ولا يمكن أن يتعدّد؛ ولذلك عبَّر القرآن الكريم عن الصّراط بالإفراد، فلا يقال سُرط جمع سراط، قال تعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[1].

﴿ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[2].

فالصّراط إلى الله إذن لا يتعدّد، ولكن الوسائل والسّبل إلى الله قد تتعدّد، ولذلك ورد السَّبيل على طريقة الجمع، فجمع سبيل سبل، ولكن الصّراط لا يجمع، فكل إنسان له سبيل على هذا الصّراط قد يختلف عن سبيل الآخرين، وكلّ شريعة لها طريقة خاصّة في عبوديّة الله وطاعته، وهكذا كلّ إنسان له نهج خاصّ، وسبيل خاصّ، ولا مانع من أن تتكرّر السّبل، وكلّها صراط إلى الله إذا لم تخالف شريعته الغرّاء.

فهناك إذن في الحياة أكثر من سبيل كما ورد في القرآن الكريم جمع سُبُل: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

فالسّبيل والصّراط إذن معنيان مختلفان؛ فالصّراط المستقيم واحد لا يتعدّد،

---

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) النّساء: ٦٧-٦٨.

(٣) المائدة: ١٦.

(٤) النّحل: ٦٩.

والسُّبل إلى الله كثيرة، حتّى قيل إنَّها بعدد أنفاس البشر[١].

من أهمّ ما يطلبه الإنسان من الله أن يوفّقه للسَّير على الصّراط المستقيم، ولم نجد شيئاً أكَّد عليه الإسلام بعد توحيد الله كتأكيده واهتمامه في وضع الإنسان على الصّراط المستقيم؛ ولذلك نرى في أهمّ فريضة وهي الصَّلاة يكّرر المصلّون الدعاء بأمر الله في كلّ يوم عشر مرّات: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[٢].

## الْعِلاقَةُ بَيْنَ صِراطِ الدُّنْيا وَصِراطِ الآخِرَةِ:

نحن نتحرّك إلى الله حركتين؛ لتحقيق الغاية الَّتي نطلبها، وهي معرفة الله تعالى ولقائه، ولا يصل الإنسان إلى هذه الغاية إلا عبر حركتين متطابقتين: حركة في داخل النَّفس، وحركة في واقع الحياة، حركتنا إلى الله تتمّ عبر معاناة مريرة في السَّيطرة على أهوائنا وشهواتنا، وتخليص نيّاتنا من كلّ شائبة إلا طاعة الله، وحبّه، والتّقرّب إليه، وتطويع النَّفس، وإلزامها بالطّاعة والخضوع إليه تعالى، وهذه المعاناة الدّاخليّة في كبح جماح النَّفس وتطهيرها من الأدران، هذه الحركة تتمّ على صراط دقيق صعب يمر فيه الإنسان عبر جحيم من الشَّهوات، ورذائل الأخلاق، وإنّيّة النَّفس، هذه الحركة داخل النَّفس، وأمّا الحركة في واقع الحياة إلى الله،

---

(١) قال صدر المتألّهين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام:١٥٣): «يعني السَّبيل الَّتي لكم فيها السّعادة، والنّجاة، وإلا فالسُّبل كلّها إليه؛ لأنَّ الله منتهى كلّ قصد، وغاية كلّ مقصود، ولكن ما كلّ من رجع إليه وآب سعد ونجى عن التّفرقة والعذاب، فسبيل السَّعادة واحدة ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ (يوسف:١٠٨)» تفسير القرآن الكريم لصدر المتألّهين: ٤٢/١.

(٢) الفاتحة: ٦.

فكذلك يواجه الإنسان فيها عقبات وأشواك، ومقاومات خارجيّة غير المقاومات الدّاخليّة؛ ولذلك يجب أن يسير الإنسان بحذر ويقظة على وسط الصّراط، فكلّ مَيَلان، وخروج عن الجادّة الوسطى يهوي إلى الانحراف، ويخرجه من خطّ الله إلى خطّ الشَّيطان، فعليه أن لا يتجاوز، ولا يفرط لكي يواصل سيره إلى الله، فعلى يمين هذا الصّراط، وعلى يساره فجاج وسبل كثيرة، وعلى الإنسان أن يكون يقظاً حذراً مراقباً لخطّ سيره في وسط هذا البحر الخضمّ؛ لكي يبقى ثابتاً على الصّراط فلا تزل قدمه.

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]، أي لا تذهبوا ذات اليمين، وذات الشّمال، واثبتوا على الجادّة الوسطى، واحذروا من السُّقوط في المنزلقات؛ عن جابر بن عبد الله، قال: «كنّا عند النّبيّ ﷺ فخَطَّ خطّاً، وخطَّ خطَّيْنِ عن يمينه، وخطَّ خطَّين عن يساره. ثمَّ وضع يده في الخطّ الأوسط، فقال: هذا سَبيلُ الله، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾»[2].

وعن ابن مسعود قال: «خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً بيده، ثمّ قال: **هذا سَبيلُ الله مُسْتَقيماً**، ثمَّ خطَّ عن يمينه وشماله، ثمّ قال: **هذه السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْها سَبيلٌ إلا عَلَيْهِ شَيْطانٌ يَدْعو إِلَيْهِ**، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) سنن ابن ماجة: ٦/١، ح/١١.

ٱلسُّبُلَ ﴾»(١).

إذن توجد مسالك متعدّدة في الحياة متفرّقة مختلفة تؤدّي بالإنسان إلى الهاوية، وهناك مسلك واحد فقط إلى الله تعالى، فعلى الإنسان أن يضع قدمه على ذلك الصّراط، ولا ينحرف يميناً ولا شمالاً، وهو أمر في غاية الدّقّة والصّعوبة، فعلينا دائماً أن ندعو بصدق: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ ولذا ورد الحديث الصّحيح: «**لا صَلاةَ إلا بفاتحَة الْكتاب**»(٢)، وروح الفاتحة هذه الآية الكريمة...

فالصّراط في الدُّنيا إذن جسر، وطريق ممدود عبر جحيم من الشَّهوات، والأهواء، والغرائز، والضّغوط الخارجيّة، يمتدّ من النّفس إلى الله عبر الدُّنيا، وهذا العبور من الدّنيا عبور وسط بحر من المقاومات الدّاخليّة تلك هي الغرائز والأهواء الملتهبة في النَّفس، وهذه الأهواء هي حرائق الجحيم، فكلّ تعلّق بها، وانصراف إليها، ووقوع تحت نفوذها انصراف عن الله، ووقوع في جحيم شهوات الدُّنيا كانفعالات النَّفس غير النّاضجة، وتحصّنها بغير حدود الله، وانجرارها وراء متطلّباتها، كلّ ذلك حرائق وجحيم، ورد في الحديث: «**الْغَضَبُ نارٌ موقَدَةٌ، مَنْ كَظَمَهُ أَطْفَأَها، ومَنْ أَطْلَقَهُ كانَ أَوَّلَ مُحْتَرِق بها**»(٣)، فإذا لم يستطع أن يسيطر على لهيب غضبه كان هو المحترق الأوّل.

فهذه الدّنيا إذن في لذّاتها، وأهوائها، وانفعالاتها حرائق من النّار في جهنّم، ولو كُشِفَ عنّا الغطاء لرأينا الحرائق تندلع وسط أهوائنا النّفسيّة، ولكنَّ عيوننا مغطّاة

(١) مسند الإمام أحمد: ٤٣٦/٧، ح/٤٤٣٧؛ والدّرّ المنثور للسّيوطيّ: ٢٥٩/٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، المبسوط في فقه الإماميّة: ١٠٦/١.

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٣، ح/٦٨٩٥.

فلا نرى جحيمها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾(١)، والآية تتحدّث بلسان الحقيقة لا المجاز.

إذن هذا الجسر الممدود على جحيم الأهواء والشَّهوات هو الصّراط، والَّذي يسير عليه بيقظة، وفطنة، وحذر من الوقوع في شباك الشيطان يسلم من السّقوط في النّار، والَّذي لا يستقيم على حدود الله تعالى تأكله النّار وتحطمه، فجحيم الدُّنيا من الأهواء والشَّهوات كجحيم الآخرة عندما تُسأل: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾(٢)، فالإنسان مهما ملك من خزائن الأرض يبقى يطلب المزيد، ولا تمتلئ نفسه، فشهوات النَّفس تطلب المزيد كجهنّم.

في هذا العبور من الحياة الدّنيا - والحركة حركتان - حركة من داخل نفوسنا، وحركة في المحيط الخارجيّ هناك أناس يسقطون في هذه الحرائق، وآخرون يعبرون الحياة من وسطها يشاركون أهل الدُّنيا بدنياهم، ولكن لا تلوّثهم الحياة الدُّنيا، ولا تصرفهم عن الله تعالى يتحرّكون في الحياة الدُّنيا بجميع أقسامها، لذّاتها، وآلامها، وأفراحها، وأتراحها، ولكن لا تصرفهم عن الله تعالى، يقول تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾(٣)، وهؤلاء لا يعتزلون الحياة، وإنَّما يشاركون أهل الدُّنيا بدنياهم، ولكنّها لا تحجبهم عن الله سبحانه وتعالى، كتب أمير المؤمنين عليه السلام وصيّة لمحمّد بن أبي بكر عندما ولاه مصر: «**وَاعْلَموا عِبادَ الله أَنَّ [الْمُؤْمنينَ]**

---

(١) النّساء: ١٠.

(٢) ق: ٣٠.

(٣) النّور: ٣٧.

الْمُتَّقِينَ ذَهَبوا بعاجِلِ الْخَيْرِ وآجله، شارَكوا أَهْلَ الدُّنْيا في دُنْياهُمْ، ولَمْ يُشارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيا في آخِرَتِهِمْ، يَقولُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١)، سَكَنوا الدُّنْيا بِأَفْضَلِ ما سُكِنَتْ، وَأَكَلوها بِأَفْضَلِ ما أُكِلَتْ، شارَكوا أَهْلَ الدُّنْيا في دُنْياهُمْ، أَكَلوا مِنْ أَفْضَلِ ما يَأْكُلونَ، وَشَرِبوا مِنْ أَفْضَلِ ما يَشْرَبونَ، ولَبِسوا مِنْ أَفْضَلِ ما يَلْبَسونَ، وَسَكَنوا بِأَفْضَلِ ما يَسْكُنونَ، وتَزَوَّجوا مِنْ أَفْضَلِ ما يَتَزَوَّجونَ، ورَكِبوا مِنْ أَفْضَلِ ما يَرْكَبونَ، أَصابوا لَذَّةَ الدُّنْيا مَعَ أَهْلِ الدُّنْيا، مَعَ أَنَّهُمْ غَداً مِنْ جيرانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَتَمَنّونَ عَلَيْهِ فَيُعْطيهِمْ ما يَتَمَنَّونَ، لا يُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلا يُنْقَصُ لَهُمْ [نَصيبٌ مِنْ] لَذَّةٍ؛ فَإِلى هذا يَشْتاقُ مَنْ كانَ لَهُ عَقْلٌ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ»(٢).

وطبقة أخرى يسقطون في الحياة الدُّنيا في هذا الاجتياز من الأنا إلى الله في حرائق الشّهوات، وبين أولئك وهؤلاء درجات من النّاس، ولكنّ القانون والسّنّة الإلهيّة أنَّ الطَّريق إلى الله لا يكون عبر الاعتزال في الكهوف والصَّوامع، ومن ظنَّ ذلك فقد أخطأ الطَّريق؛ لأنَّ النّاس جميعاً يشتركون في الورود والمرور عبر وديان الأهواء والشَّهوات، إلا أنَّ الاختلاف بينهم في درجة تعلّقهم بها أثناء العبور، وهذا الصّراط هو الإيمان، والعبوديّة، والتّقوى... فمن كان راسخ الإيمان، عابداً لله، متزيّناً بالتَّقوى يجوز على الصّراط، ولا يتلوّث بمستنقع الشّهوات.

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الثّقفيّ، الغارات: ١/٢٣٥-٢٣٦.

وأمّا الصّراط في الآخرة فهو يشبه هذا الصّراط الّذي يمرُّ عبر جحيم الأهواء والغرائز والشّهوات، وهذا يمرُّ من موقف المحشر عبر جهنّم إلى الجنّة، بعد أن يُمْضى من حارس الصّراط.

قال ابن حجر الهيثميّ في صواعقه: «أخرج الدّارقطنيّ أن علياً قال للسّتّة الّذين جعل عمر الأمر شورى بينهم كلاماً طويلاً من جملته: **أُنْشِدُكُمْ بالله، هَلْ فيكُمْ أَحَدٌ قالَ لَهُ رَسولُ الله ﷺ: يا عَليُّ، أَنْتَ قَسيمُ الْجَنَّة والنّار يَوْمَ الْقيامَة غَيْري**؟! قالوا: اللّهُمَّ، لا، ومعناه ما رواه عنترة عن الرّضا أنّه ﷺ قال له: **أَنْتَ قَسيمُ الْجَنَّة**[1] **والنّار، فَيَوْمَ الْقيامَة تَقولُ للنّار هذا لي، وَهذا لَك**، وروى ابن السّمّاك أنَّ أبا بكر، قال له رضي الله عنهما: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **لا يَجوزُ أَحَدٌ عَلى الصِّراط إلا مَنْ كَتَبَ لَهُ عَليٌّ الْجَوازَ**»[2].

وهذان الصّراطان متطابقان فالّذي يسلك صراط الدُّنيا بنجاح يسلك صراط الآخرة كذلك.

وقد ذكرنا أنَّ أعمال الإنسان لها صور محسوسة هناك: نيّاته، أعماله، عبادته، أخلاقه... فكلّ عمل له ظهور محسوس في يوم القيامة ذلك الظُّهور المحسوس هو واقع نياتنا وجوهرها في الدُّنيا... ولكنَّ هذا الواقع في الدُّنيا لا نراه، إنَّ القرآن

---

(١) روى الگنجيّ الشّافعيّ عن محمّد بن منصور الطّوسيّ: «كنّا عند أحمد بن حنبل، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، ما تقول في هذا الحديث الّذي يروى أنَّ عليّاً قال: **أَنا قَسيمُ النّار**؟ فقال أحمد: وما تنكرون من هذا الحديث؟ أليس روينا أنَّ النّبيّ ﷺ قال لعليّ: **لا يُحِبُّكَ إلاّ مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُكَ إلاّ مُنافِقٌ**؟ قلنا: بلى، قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنّة، قال: فأين المنافق؟ قلنا: في النّار، قال: فعليّ قسيم النّار»، كفاية الطّالب في مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٧٢.

(٢) ابن حجر الهيثميّ، الصّواعق المحرقة: ١٢٤.

الكريم يؤكّد أنَّ أعمالنا تعود إلينا في الحياة الأخرويّة، يقول تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾(١)، وكلمة ﴿وَلَا يَظۡلِمُ﴾ تعقيب على ما وجدوه حاضراً، يعني أنَّ الله لم يظلم أحداً، وإنَّما أعمال الإنسان السّيّئة عادت إليه، يقول تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾(٢).

﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾(٣).

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾(٤).

من هنا تنشأ حجّة الله على العباد: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾(٥).

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(٦).

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾(٧).

فحجّة الله البالغة على الإنسان أنَّ أعماله يوم القيامة تعود إليه وتُكشف له،

---

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) آل عمران: ١٨٢.

(٣) فصلت: ٤٦.

(٤) ق: ٢٩.

(٥) البقرة: ٩.

(٦) القصص: ٥٥.

(٧) محمد: ٣٥.

ويراها بأمّ عينه يجدها حاضرة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(١).

إذن الصّورة المحسوسة في الآخرة هي أعمالنا، والميزان من هذا القبيل، وكذلك الصّراط، فالصّراط في يوم القيامة حقيقة لا مجاز، يعبر عليه أناس سريعاً كلمح البصر، ومنهم من يسقط منه في جهنّم، عن الإمام العسكريّ عليه السلام: وبهذا ورد عن الإمام العسكريّ عليه السلام: «**وَالصِّراطُ الْمُسْتَقيمُ هُوَ صِراطان: صِراطٌ في الدُّنْيا، وَصِراطٌ في الآخِرَةِ**»(٢).

وعن المفضّل بن عمر، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصّراط، فقال: **هُوَ الطَّريقُ إلى مَعْرِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُما صراطان: صراطٌ في الدُّنْيا، وَصراطٌ في الآخرَةِ؛ وَأَمَّا الصِّراطُ الَّذي في الدُّنْيا فَهُوَ الإمامُ الْمُفْتَرَضُ الطّاعَةِ، مَنْ عَرَفَهُ في الدُّنْيا، وَاقْتَدى بِهُداهُ مَرَّ عَلى الصِّراطِ الَّذي هُوَ جِسْرُ جَهَنَّمَ في الآخرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ في الدُّنْيا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصِّراطِ في الآخِرَةِ، فَتَرَدّى في جَهَنَّمَ**»(٣).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**وَالصِّراطُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، وَمِنْ حَدِّ السَّيْفِ**»(٤).

هذا التّعبير يوحي، ويرمز إلى دقّة الحدود الشّرعيّة، وصرامتها المتناهية الّتي

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) معاني الأخبار: ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٢.

(٤) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٤٢-٢٤٣، ح/٢٥٧؛ وترتيب الأمالي: ٥٠٦/١، ح/٤٧٨.

وصلت حدّاً فاقت الشَّعرة في دقّتها، والسّيف في حدّه، وهذه الدّقّة والصّرامة في سلوك الإنسان تنعكس على صراطه في الآخرة، فالَّذي يعي حدود الله في الدُّنيا، ويحفظها حفظاً دقيقاً، ويطبّقها بدقّة وصرامة وقوّة يستطيع أن يتجاوز الصّراط المطروح على جهنّم بسهولة، ويمرّ عليه كلمح البصر، والَّذي يستخفّ، ويستهين بأحكام الله وحدوده يهوي إلى جهنّم، قال الفيلسوف الإسلاميّ العظيم صدر المتألّهين:

«ووصفه بأنَّه أدقُّ من الشّعر وأحدُّ من السَّيف؛ لأنَّ كمال الإنسان منوط باستعمال قوّتيه؛ أمّا القوّة النّظريّة فلإصابة الحقّ ونور اليقين في سلوك الأنظار الدَّقيقة الَّتي هي في الدّقّة واللَّطافة أدقُّ من الشَّعر إذا تمثّلت بكثير؛ وأمّا القوّة العمليّة، فبتعديل القوى الثّلاث الَّتي هي الشَّهويّة والغضبيّة والفكريّة في أعمالها؛ لتحصل للنّفس حالة اعتداليّة متوسّطة بين الأطراف غاية التّوسّط؛ لأنَّ الأطراف كلّها مذمومة، يوجب السّقوط في الجحيم ومنزل البعداء والأشقياء المردودين، وقد علمتَ أنَّ التّوسّط الحقيقيّ بين الأطراف المتضادّة بمنزلة الخلوّ عنها، والخلوّ عن هذه الأطراف المسمّى بالعدالة منشأ الخلاص عن الجحيم، وهي أحدُّ من السّيف؛ فإذن الصّراط له وجهان: أحدهما أدقّ من الشّعر، والآخر أحدّ من السَّيف، والانحراف عن الوجه الأول يوجب السّقوط عن الفطرة ان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون، والوقوف على الوجه الثّاني يوجب الشَّقّ والقطع»[1].

فالوجه النّظريّ هو وعي حدود الله، والوجه العمليّ هو السَّير على هذا الصّراط، والاستقامة صعبة تحتاج إلى توفيق، وقوّة إرادة، وتحمّل الصعوبات

---

(١) صدر المتألّهين، الحكمة المتعالية: ٢٨٥/٩.

والعقبات؛ ولذا نرى أنَّ أولياء الله لكي يحموا أنفسهم من نار الشَّهوات والهوى يترفّعون عن المباحات، جاء في الرّواية أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام «اشتهى كبداً مشويّةً على خبزة لبنة، فأقام حولاً يشتهيها، ثمَّ ذكر ذلك الحسن عليه السلام يوماً وهو صائم، فصنعها له، فلمّا أراد أن يفطر قرَّبها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: **يا بُنَيَّ، احْمِلْها إلَيْه، لا تُقْرأُ صَحيفَتُنا غَداً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾**[١]»[٢]، فهم يتعاملون بحسم وصرامة لكي لا يسقطوا في جحيم الشّهوات.

فالإنسان إذن يحتاج إلى دقّة وحسم، وهما وجهان للصّراط، وورد: «**إنَّ الصّورَةَ الإنْسانيَّةَ هِيَ الطَّريقُ الْمُسْتَقيمُ إلى كُلِّ خَيْرٍ، وَالْجِسْرُ الْمَمْدودُ بَيْنَ الْجَنَّة وَالنّارِ**»[٣].

ومعنى ذلك أنَّ الصراط الممدود على جهنّم إلى الجنّة هو (صورنا)، وليس المقصود بالصّور هي الصّور المشتركة بين كلّ النّاس، وإنَّما المقصود هي الصُّور الّتي يرسمها الإنسان بفعله، مثلاً يوجد إنسان انسلخت الرَّحمة من قلبه، وبالعكس إنسان امتلأ قلبه رحمة، وهكذا إنسان وقور حليم وآخر سفيه، وثالث عفيف ماجد... هذه الصُّور مَخْفية علينا في الدُّنيا، أمّا في الآخرة فإنَّ الحقائق تتكشف يوم تبلو السّرائر، ويظهر كلُّ إنسان على حقيقته، وبين هذه الصُّور يحشر الإنسان الحقيقيّ على صورته السّويّة هي الصّراط المستقيم وهي صورة الفطرة، وهي حقيقة الإنسان، وليس هذا بغريب فإنَّ الإنسان الَّذي حفظ فطرة الله فيه من التّلوّث، وسار على خطّ الفطرة، فإنّه يمرُّ سريعاً على الصراط.

---

(١) الأحقاف: ٢٠.

(٢) القاضي النّعمان، شرح الأخبار: ٣٦٣/٢، ح/٧٢٠.

(٣) الفيض الكاشانيّ، كتاب الصافي في تفسير القرآن: ١٢٧/١.

إنَّ اختلاف سير النّاس على الصّراط الّذي يعبر جهنّم يرتبط ارتباطاً كلّيّاً بحياتهم وسلوكهم ومعاناتهم في الدُّنيا، فالَّذي يعاني من ترويض نفسه يعبر الصّراط بسهولة، والّذي معاناته أخفُّ يكون مروره أبطأ، والَّذي أهمل نفسه وأوبقها لا يستطيع المرور على الصّراط؛ فمن النّاس إذن من يمرّ عليه مثل البرق، ومنهم من يمرّ عليه مثل عدو الفرس[1]، ومنهم من يسقط منه في جهنّم، فكلّ ما يواجهه الإنسان إذن من معاناة أكثر يكون عبوره أسرع، وبالعكس، يقول تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[3].

فالصّراط محفوف بكثير من المخاطر والشّدائد والمعاناة، وفي الآخرة أناس يمرّون، ولا تمسّهم النّار، وقد تقدَّم حديث ابن مسعود في ذلك، وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**إذا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّة الْجَنَّةَ، قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ وَعَدَنا رَبُّنا أَنْ نَرِدَ النّارَ؟ فَيُقالُ لَهُمْ: قَدْ**

(١) عن ابن مسعود، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**يَرِدُ النّاسُ النّارَ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْعِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرّيحِ، ثُمَّ كَحَضرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرّاكِبِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ**»، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨١٢/٦.

(٢) البقرة: ٢١٤.

(٣) البقرة: ١٥٥.

**وردْتموها وهي جامدةٌ**»[١].

وعن رسول الله ﷺ قال: «**تقولُ النّارُ للْمُؤْمنِ يوْمَ الْقيامَة: جزْ يا مُؤْمنُ، فقدْ أطْفأ نوركَ لهبي**»[٢].

ورُويَ عنه ﷺ: «**إنَّ الله تعالى يجْعلُ النّارَ كالسِّمْن الْجامد، ويجْمعُ عليْها الْخلْق، ثُمَّ يُنادي الْمُنادي: أنْ خُذي أصْحابك، وذري أصْحابي**»، قال ﷺ: «**فوالّذي نفْسي بيده لهي أعْرفُ بأصْحابها من الْوالدة بولدها**»[٣].

والصّراط يوم القيامة له مسالك، ومضايق، وعقبات كالفجاج بين الجبال، وتلك العقبات هي الأحكام الشّرعيّة، فكلُّ فرض وحكم عقبة، فإذا كان الإنسان متهاوناً بحدود الله تعالى هناك تبرز له عقبات على الصّراط، ولا يستطيع أن يجتازها، قال الشّيخ الصّدوق رحمه الله: «وهذه العقبات كلّها على الصّراط. اسم عقبة منها: الولاية، يوقف جميع الخلائق عندها فيسألون عن ولاية أمير المؤمنين والأئمّة من بعده عليهم السلام، فمن أتى بها نجا وجاز، ومن لم يأتِ بها بقي فهوى، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ﴾[٤]، واسم عقبة منها: المرصاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾[٥]، ويقول تعالى: «**وعزّتي وجلالي لا يجوزُ بي ظُلْمُ ظالمٍ**». واسم عقبة منها: الرحم. واسم عقبة منها: الأمانة. واسم عقبة منها: الصّلاة.

---

(١) الزّمخشريّ، الكشّاف: ٣٥/٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨١٢/٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الصّافّات: ٢٤.

(٥) الفجر: ١٤.

وباسم كل فرض أو أمر أو نهي عقبة يحبس عندها العبد فيسأل»[١].

فتسميتها بالعقبات من باب تمثيل المعقول بالمحسوس، قال الشّيخ المفيد رَحِمَهُ الله: «فسمّى سبحانه الأعمال الّتي كلّفها العبد عقبات تشبيهاً لها بالعقبات والجبال لما يلحق الإنسان في أدائها من المشاقّ، كما يلحقه في صعود العقبات وقطعها»[٢].

ولذا يقول تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾[٣]، والتَّعبير بالاقتحام يدلّنا على أنَّ تجاوز العقبات يحتاج إلى صبر، ومصابرة، وعناء، وشجاعة، وجرأة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَإِنَّ أَمامَكُمْ عَقَبَةً كَؤوداً، وَمَنازِلَ مَخوفَةً مَهولَةً لا بُدَّ مِنَ الْوُرودِ عَلَيْها، وَالْوُقوفِ عِنْدَها**»[٤].

وفي وصيّته لولده الحسن عليه السلام قال عليه السلام: «**وَاعْلَمْ، أَنَّ أَمامَكَ عَقَبَةً كَؤوداً، الْمُخِفُّ فيها أَحْسَنُ حالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْها أَقْبَحُ حالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبَطَها بِكَ لا مَحالَةَ عَلى جَنَّةٍ أَوْ عَلى نارٍ، فَارْتَدْ**[٥] **لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزولِكَ وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلا إِلَى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ**»[٦].

والعقبات كثيرة بعدد أفعال الخير، كلّما فعل الإنسان فعلاً صالحاً تجاوز عقبة منها، وهو ترابط عجيب بين الصّراط المستقيم في الدّنيا والصّراط المستقيم

---

(١) الاعتقادات: ٧٢.

(٢) موسوعة الشّيخ المفيد (تصحيح اعتقادات الإماميّة): ١١٢/٥.

(٣) البلد: ١١.

(٤) نهج البلاغة: ٣٤٩، خطبة: ٢٠٤.

(٥) الارتياد: الطّلب، والمراد: ابعث لنفسك رائداً من طيّبات الأعمال.

(٦) نهج البلاغة: ٤٢٣، كتاب: ٣١.

في الآخرة، عن سعيد بن المسيّب، عن عبد الرّحمن بن سَمُرة، قال: «كنّا عند رسول الله ﷺ يوماً، فقال: **إنّي رأَيْتُ الْبارحةَ عجائبَ**».

قال: «فقلنا: يا رسول الله، وما رأيت؟ حدّثنا به فداك أنفسنا وأهلونا وأولادنا، فقال: **رأَيْتُ رَجُلاً من أُمَّتي، وقَدْ أَتاهُ مَلَكُ الْمَوْت ليَقْبض روحه، فَجاءَه برُّه بوالدَيْه، فَمَنَعَهُ منْهُ، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي قَدْ بُسط عَلَيْه عذابُ الْقَبْر، فَجاءَهُ وُضوؤُه فَمَنَعَهُ منْهُ، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي قَد احْتَوَشَتْهُ الشَّياطين، فَجاءَهُ ذكْرُ الله عزَّ وجلَّ فَنَجّاهُ منْ بَيْنهمْ، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي يَلْهَثُ قَد احْتَوَشَتْهُ مَلائكَةُ الْعَذاب، فَجاءَتْهُ صَلاتُه فَمَنَعَتْهُ منْهُمْ، ورأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتي يَلْهَثُ عَطَشاً، كُلَّما وَرَدَ حَوْضاً مُنعَ منْهُ، فَجاءَهُ صيامُ شَهْر رَمَضان، فَسَقاهُ وأَرْواهُ، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي وَالنَّبيّونَ حلَقاً حلَقاً، كُلَّما أَتى حَلَقَةً طُرد، فَجاءَهُ اغْتسالُهُ من الْجَنابَة فَأَخَذَ بيده فَأَجْلَسَهُ إلى جَنْبي، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي بَيْنَ يَدَيْه ظُلْمَةٌ، ومنْ خَلْفه ظُلْمَةٌ، وعَنْ يَمينه ظُلْمَةٌ، وعَنْ شماله ظُلْمَةٌ، ومنْ تَحْته ظُلْمَةٌ، مُسْتَنْقعاً في الظُّلْمَة، فَجاءَهُ حَجُّهُ وعُمْرَتُهُ، فَأَخْرَجاهُ من الظُّلْمَة، وأَدْخَلاهُ النّور، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي يُكَلِّمُ الْمُؤْمنين فَلا يُكَلِّمونَهُ، فَجاءَهُ صلَتُهُ للرَّحم، فَقالَ: يا مَعْشَرَ الْمُؤْمنينَ، كَلِّموهُ، فَإِنَّهُ كانَ واصلاً لرَحمه، فَكَلَّمَهُ الْمُؤْمنونَ وصافَحوهُ، وكانَ مَعَهُمْ، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي يَتَّقي وَهَجَ النّيران وَشَرَرَها بيَده ووَجْهه، فَجاءَتْهُ صَدَقَتُهُ، فَكانَتْ ظلاً عَلى رَأْسه، وَستْراً عَلى وَجْهه، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي قَدْ أَخَذَتْهُ الزَّبانيَةُ منْ كُلّ مَكان، فَجاءَهُ أَمْرُهُ بالْمَعْروف ونَهْيُهُ عَن الْمُنْكَر فَخَلَّصاهُ منْ بَيْنهمْ، وجَعَلاهُ مَعَ مَلائكَة الرَّحْمَة، ورَأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي جاثياً عَلى رُكْبَتَيْه بَيْنَهُ وبَيْنَ رَحْمَة الله**

حجابٌ، فَجاءَهُ حُسْنُ خُلُقه، فَأَخَذَهُ بيَده، وأَدْخَلَهُ في رَحْمَة الله، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي قَدْ هَوَتْ صَحيفَتُهُ قِبَلَ شماله، فَجاءَهُ خَوْفُهُ من الله عَزَّ وجَلَّ، فَأَخَذَ صَحيفَتَهُ فَجَعَلَها في يمينه، ورأَيْتُ رجلاً منْ أُمَّتي قَدْ خَفَّتْ موازينُهُ، فَجاءَهُ أَفْراطُهُ[١]، فَثَقَّلُوا موازينَه، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي قائماً على شَفير جَهَنَّمَ، فَجاءَهُ رَجاؤُهُ من الله عَزَّ وجَلَّ، فَاسْتَنْقَذَهُ منْ ذلك، ورأَيْتُ رجلاً منْ أُمَّتي قَدْ هَوى في النّار، فَجاءَتْهُ دُموعُهُ الَّتي بَكى منْ خَشْيَة الله، فَاسْتَخْرَجَتْهُ منْ ذلكَ، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي على الصِّراط يَرْتَعدُ كما تَرْتَعدُ السَّعْفَةُ في يَوْمِ ريحٍ عاصف، فَجاءَهُ حُسْنُ ظَنِّه بالله، فَسَكَّنَ رِعْدَتَهُ، ومَضى على الصِّراط، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي على الصِّراط يَزْحَفُ أَحْياناً، ويَحْبو أَحْياناً، ويَتَعَلَّقُ أَحْياناً، فَجاءَتْهُ صَلاتُهُ عَلَيَّ، فَأَقامَتْهُ على قَدَمَيه ومَضى على الصِّراط، ورأَيْتُ رَجُلاً منْ أُمَّتي انْتَهى إلى أَبْواب الْجَنَّة كُلِّها، كُلَّما انْتَهى إلى باب أُغْلِقَ دونَهُ، فَجاءَتْهُ شَهادَةُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ صادقاً بها، فَفُتِحَتْ لَهُ الأَبْوابُ ودَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢].

هذه بعض العقبات الَّتي سوف تواجه الإنسان، ويمرّ بها في طريقه إلى الله تعالى، وهناك عقبات كثيرة حتّى ورد عنهم عليهم السلام: «إنَّ بَيْنَ الدُّنْيا والآخرَة أَلْفَ عَقَبَة أَهْوَنُها وأَيْسَرُها الْمَوْتُ»[٣].

---

(١) «الفَرَط – بفتح الفاء والرّاء –: هو الّذي لم يدرك من الأولاد الذّكور والإناث، وتتقدَّم وفاته على أبويه أو أحدهما، يقال: فرط القوم، إذا تقدّمهم، وأصله الّذي يتقدّم الرّكب إلى الماء، ليهيّئ لهم أسبابه»، موسوعة الشّهيد الثّاني: ٢١٤/٢، من رسالة (مسكّن الفؤاد).

(٢) الشَّيخ الصّدوق، الأمالي: ٣٠١-٣٠٣، ح/٣٤٢؛ وترتيب الأمالي: ٤٣٥/١-٤٣٧، ح/٣٩٩.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٣٤/١، ح/٣٥٩.

ومن هنا جاء تأكيد أهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم السلام على وجوب الاستعداد والإعداد وحمل العدّة؛ لتجاوز تلك العقبات، والتَّخفيف من كلّ ما يثقل مسيرة الإنسان إلى الله تعالى.

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنَّ أَمامَكُمْ عَقَبَةً كَؤوداً لا يَجوزُها الْمُثْقَلونَ، وأَنا أُريدُ أَنْ أُخَفِّفَ عَنْكُمْ لِتِلْكَ الْعَقَبَة**»[١].

## كَيْفَ يَتَجاوَزُ الإِنْسانُ تِلْكَ الْعَقَباتِ؟

هذه العقبات الصَّعبة العسيرة الكؤود لا يمكن أن يتجاوزها الإنسان إذا لم يتجاوز العقبة الأولى وهي عقبة نفسه؛ لأنَّ «**أَقْوى النّاسِ مَنْ قَوِيَ عَلى نَفْسه**»[٢]، فمن تجاوز تلك العقبة الكامنة في نفسه، والمتمثّلة في اتّباع الهوى، واللّهاث وراء الشَّهوات بطمع وجشع تجاوز العقبات الأخرى؛ لأنَّ الإنسان إذا لم يذلّل نفسه للعمل الصّالح بعد تزكيتها وتطهيرها وتخليصها من رذائل الأخلاق، وسيّئات الأعمال فلا تسمح له بمواصلة العمل لله تعالى، ولهذا عُدَّ جهاد النّفس هو الجهاد الأكبر، فالنَّفس إذن هي المنطلق، بل يمكن القول: إنَّ كلّ الأعمال الَّتي يقدّمها الإنسان هي لهذا الغرض، أقصد تزكية النَّفس وتهذيبها.

وآية العقبة ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ رسمت لنا السَّبيل لتجاوز تلك العقبات في ثلاثة أعمال:

١- ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: وهذا كان في عصر كان كثير من البشر يرسفون تحت نير

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠/٧٥٠.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٠، ح/٤٨٦٨.

العبوديّة الَّتي خطَّط لها الإسلام، وقضى عليها بأسلوب علميّ إنسانيّ، واليوم عاد استعباد البشر بشكل آخر، وهو حركة الإضلال والتَّضليل والإفساد الرّوحيّ، والفكريّ، والأخلاقيّ، وجرُّ البشر إلى الهاوية كما هو سائد في معظم أرجاء المعمورة، ولهذا يمكن القول إنَّ فكَّ الرّقبة - من دون تحميل على الآية - هو الهداية إلى جادّة الصّواب، وتطهير الآخرين بالتَّوبة من الذُّنوب، والمخالفات الشّرعيّة، وقد قيل: إنَّ فك الرَّقبة من الذّنوب بالتّوبة، وقيل: فكّ نفسه من العقاب بتحمّل الطاعات، جاء في رواية: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة، قال: **إنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ عَرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، اعْتق النَّسَمة، وَفُكَّ الرَّقَبةَ**، فقال: أَوَليسا واحداً؟ قال: **لا، عتْقُ النَّسَمة أَنْ تَنْفرِدَ بعتْقها، وفَكُّ الرَّقَبة أَنْ تعين في ثَمَنها، وَالْفَيْءُ عَلى ذي الرَّحمِ الظّالمِ، فإنْ لَمْ يكُنْ ذلكَ فَأَطْعم الْجائعَ، وَاسْق الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بالْمَعْروف، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَر، فإنْ لَمْ تَطقْ ذلكَ، فَكُفَّ لسانَكَ إلا منَ الْخَيْر**»[1].

٢- ﴿أَوْ إِطْعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۞ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۞ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ الإطعام في مجاعة: ومن وسائل اقتحام تلك العقبات إطعام الطَّعام في ظروف اقتصاديّة عسيرة؛ فعن معاذ بن جبل قال: «قال رسول الله ﷺ: **مَنْ أَشْبَعَ جائعاً في يَوْمِ سَغَب أَدْخَلَهُ اللهُ يوْمَ الْقِيامَة منْ باب منْ أَبْواب الْجَنَّة لا يَدْخُلُها إلا مَنْ فَعَلَ مثْلَ ما فَعَلَ**»[2].

وعن محمّد بن عمر بن يزيد قال: «قلتُ لأبي الحسن الرّضا عليه السلام: إنَّ لي ابناً

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٥٠/١٠.

(٢) المصدر نفسه.

شديد العلّة، قال: **مُرْهُ يتصدَّقُ بالْقَبْضَة من الطَّعام بَعْدَ الْقَبْضَة، فإنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾**، وقرأ الآيات»(١).

وعن معمر بن خلاد، قال: «كان أبو الحسن الرّضا عليه السلام إذا أكل أُتِيَ بصحفة، فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به، فيأخذ من كلّ شيء شيئاً، فيوضع في تلك الصّحفة، ثمّ يأمر بها للمساكين، ثمّ يتلو هذه الآية: **﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾**، ثمّ يقول: **عَلِمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ أَنْ لَيْسَ كُلُّ إنْسانٍ يَقْدِرُ على عِتْقِ رَقَبَة، فَجَعَلَ لَهُ سَبيلاً إلى الْجَنَّة [بإطْعامِ الطَّعامِ]**»(٢).

٣- **﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾** التّواصي بالصَّبر والتّواصي بالمرحمة: كلّ عمل من دون إيمان هواء في شبك، والآية الكريمة صريحة في ذلك، وإنما أخَّر ذكر الإيمان في آخر الآية؛ لبيان أنَّ الإيمان يجب أن يكون هو الباعث على الأعمال الصّالحة.

والتّواصي: من نغمة الآية وسياقها الَّذي يُعَبّر عن روح التّناصح والتّراشد والتّثبيت بين المؤمنين بعضهم للبعض الآخر يتّضح بأنَّ الإنسان قد يصيبه الضَّعف في بعض المواقف لنسيان، أو غفلة، أو غلبة هوى، أو شهوة، وهنا يأتي دور النّاصح الأمين، والمذكّر الحكيم الَّذي يذكر أخاه؛ ليوقظه من غفلته ويوصيه بالصَّبر والثَّبات، وتوطين النَّفس على طاعة الله، ومع التّواصي بالصَّبر يرتبط التّواصي بالمرحمة؛ ليفيض عليه من عطفه وحنانه، ويرسّخ فيه علائق الإيمان، وبهذا تبتني شخصيّته على الحبّ في الله، والبغض في الله.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٥١/١٠.

(٢) البرقيّ، المحاسن: ١٥١/٢-١٥٢، ح/١٤٠٤.

هذه هي بعض تلك الوسائل لاقتحام العقبة، نسأل الله أن يوفّقنا لسلوكها وأداء حقّها، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم.

# التِّجارَةُ الْمُنْجِيَةُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

لكلّ تجارة شروط وآداب، وشروط التّجارة مع الله أمران: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

ولكلّ تجارة أرباح أو خسائر، والتّجارة مع الله إذا توفَّرت على العزم الصّادق، والنّيّة الخالصة، والرّؤية الواضحة مع الشَّرطين المذكورين لا خسارة فيها أبداً، وإنّما كلّها أرباح آجلة أو عاجلة.

والتّجارة: «هي التّصرّف في رأس المال طلباً للرّبح»[2]، ورأس مال التّجارة مع الله هي النّفس لا غير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

---

(١) الصّف: ١٠-١٣.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ١٠٤، (تجر).

(٣) التّوبة: ١١١.

هذا الفوز هو الخلود في دار رحمة الله، وهي جنّة الخلود، وهذا ربح دونه كلّ أرباح الدُّنيا، والتّاريخ يحدّثنا عن مبايعة عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ ليلة العقبة، قال لرسول الله ﷺ: «اشترط لربّك، ولنفسكَ ما شئتَ»، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَشْتَرِطُ لربِّي أَنْ تَعْبُدوهُ، ولا تُشْرِكوا به شَيْئاً، وأَشْتَرِطُ لنَفْسي أَنْ تَمْنَعوني ممّا تَمْنَعون منْهُ أَنْفُسَكُمْ**» قال: «فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟» قال ﷺ: «**لَكُمُ الْجَنَّةُ**»، قالوا: «ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل»[1].

ومن الّذين عملوا في هذ التّجارة المنجية صهيب الرّوميّ، فقد روي: «أنَّ صهيباً، قال لأهل مكّة: أنا رجل كبير، إن كنْتُ معكم لم ينفعكم، وإن كنْتُ عليكم لم يضرّكم، فخذوا مالي، ودعوني، فأعطاهم ماله، وهاجر إلى رسول الله، فقال له أبو بكر: ربح البيع يا صهيب»[2].

وفي رواية أخرى عن سعيد بن المسيّب، قال: «لمّا أقبل صُهيبٌ مهاجراً نحو النّبيّ ﷺ، فاتّبعه نفرٌ من قريش،، نزل عن راحلته، وانتثل[3] ما في كنانته، ثمَّ قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أنّي من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليَّ حتّى أرمي بكلّ سهم معي في كنانتي، ثمّ أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكّة وخلّيتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فلما قدم على رسول الله ﷺ المدينة، قال ﷺ: **رَبِحَ الْبَيْعُ أَبا يَحْيى، رَبِحَ الْبَيْعُ أَبا يَحْيى**»، قال: «ونزلت: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ**

(١) الزّمخشريّ، الكشّاف: ٣١٣/٢.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥٥٧/٦.

(٣) أي استخرج ما فيها من السّهام.

مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[(١)]»[(٢)].

إذن في الآيات الكريمة دلالة من الله على تجارة رابحة منجية يُدلّ عباده المؤمنين إليها، ويأمرهم بالمتاجرة معه بها... ووسيلة هذه التّجارة هي الإيمان الحقيقيّ بالله ورسوله، واليوم الآخر، وهنا لا بدَّ أن نعرف ماهيّة الإيمان الحقيقيّ المطلوب في هذه التّجارة...

ولمعرفة حقيقة الإيمان لا بد وأن نرجع إلى أهل البيت عليهم السلام، فهم أدرى بما فيه، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الباب منها: عَنْ مُحَمَّد بْن عُذافر، عَنْ أَبيه، عَنْ أَبي جَعْفَر عليه السلام، قال: «**بَيْنا رَسولُ الله صلى الله عليه وآله في بَعْض أَسْفَاره إذْ لَقيَهُ رَكْبٌ، فَقَالوا: السَّلامُ عَلَيْك يا رَسُولَ الله، فَقَالَ: ما أَنْتُمْ؟ فَقَالوا: نَحْنُ مؤْمنونَ يا رَسولَ الله، قال: فَما حَقيقَةُ إيمانكُمْ؟ قالوا: الرِّضا بقَضاء الله، والتَّفْويضُ إلى الله، وَالتَّسْليمُ لأَمْر الله، فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: عُلَماءُ حُكَماءُ، كَادوا أَنْ يَكُونوا منَ الْحكْمَة أَنْبياءً، فَإنْ كُنْتُمْ صَادقين فَلا تَبْنوا ما لا تَسْكُنونَ، وَلا تَجْمَعوا مَا لا تَأْكُلونَ، واتَّقوا اللهَ الَّذي إلَيْه تُرْجَعونَ**»[(٣)].

وعَنْ أَبي بَصير، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام، قالَ: «**اسْتَقْبَلَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله حارِثَةَ بْنَ مالك بْنَ النُّعْمان الأَنْصاريَّ، فَقالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَة بْنَ مالك؟ فَقالَ: يا رَسولَ الله، مُؤْمنٌ حَقّاً، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: لكُلِّ شَيْءٍ حَقيقَةٌ، فَما حَقيقَةُ قَوْلكَ؟ فَقَالَ: يا رَسولَ الله، عَزَفَتْ نَفْسي عَن الدُّنْيا، فَأَسْهرَتْ لَيْلي، وَأَظْمَأَتْ هَواجري، وكَأَنّي أَنْظُرُ إلى عَرْش رَبّي، وَقَدْ وُضعَ**

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء: ١/١٥١-١٥٢.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/١٣٥-١٣٦، ح/١٥٥١.

لِلْحساب، وكَأَنّي أَنْظُرُ إلى أَهْلِ الْجَنَّة يَتَزاوَرونَ في الْجَنَّة، وكَأَنّي أَسْمَعُ عُواءَ أَهْلِ النّار في النّار، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله ﷺ: عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَه. أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ، فَقَالَ: يا رَسولَ الله، ادْعُ اللهَ لي أَنْ يَرْزُقَني الشَّهادَةَ مَعَكَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ، ارْزُقْ حارِثَةَ الشَّهادَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إلا أَيّاماً حَتّى بَعَثَ رَسولُ الله ﷺ سَرِيَّةً، فَبَعَثَهُ فيها، فَقاتَلَ، فَقَتَلَ تِسْعَةً أَوْ ثَمانِيَةً، ثُمَّ قُتِلَ»[1].

فالإيمان الحقيقيّ إذن هو التَّسليم المطلقَ لله تعالى فيما أمر، وفيما نهى بدرجة يصل بها المؤمن إلى اطمئنان النَّفس وسكونها إلى الله تعالى، ورضاها بما قدّر وقضى حتّى يرى نفسه عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شرّ، أو نفع أو ضرّ، أو موت أو حياة أو نشور إلا بما شاء الله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[3].

فالنّفس المؤمنة تعدّ الدُّنيا دار مجاز، وما تستقبله من غنى، أو فقر، أو نفع أو ضرّ، أو ابتلاء وامتحان إلهيّ ما هو إلا مرحلة للعبور إلى مرحلة أعلى، فلا يدعوها تواتر النّعم عليها إلى الطُّغيان، والفساد، والعلوّ، والاستكبار، ولا يوقعها الفقر والفقدان في الكفر وترك الشّكر، بل هي مستقرّة في العبوديّة لله، لا تنحرف

---

(١) الكافي: ٣/١٣٨-١٣٩، ح/١٥٥٣.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

(٣) يونس: ٤٩.

عن صراطه المستقيم بإفراط أو تفريط، وللإيمان أوصاف كثيرة نكتفي بذكر ما تقدّم.

وليس المقصود بالإيمان هو التَّصديق بالجنان، والإقرار باللّسان وحسب، بل لا بدّ أن يبرز قوّة فاعلة مؤثّرة في نفس المؤمن، وفي الواقع الَّذي يعيش فيه، وهذا هو الجهاد بشقّيه الأصغر والأكبر؛ ولهذا جاءت بضاعة التّجارة الرّابحة: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

والدَّلالة على هذه التّجارة جاء بصيغة الاستفهام الَّتي تدلّ على معنى الأمر، فقد قيل إنَّ ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ تعطي «معنى الأمر عند الفرّاء، يقال: هل أنت ساكت؟ أي: اسكت[(١)]، وبيانه: أنَّ (هل) بمعنى الاستفهام، ثمَّ يندرج إلى أن يصير عرضاً وحثّاً، والحثُّ كالإغراء والإغراء أمر»[(٢)]؛ وقد تكون الآية من باب التّرغيب، إذ يأتي الاستفهام للتّشويق والترغيب كذلك[(٣)].

وقد ورد في سبب نزول الآية أنَّ بعض أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «لو نعلم ما هي لبذلنا فيها الأموال، والأنفس، والأولاد»، فقال الله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ...﴾[(٤)].

ثمّ تضيف الآية شرطاً آخر ملحقاً بالشَّرطين السّابقين: الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس، وهو (العلم)، فيقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسان إذا لم يعلم الحقيقة لا يمكن أن ينقاد إلى هذا الخير

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفرّاء: ١٥٤/٣.

(٢) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: ٣١٦/٢٩.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزّركشيّ: ٤٤٤/٢.

(٤) تفسير القمّيّ: ١٠٦٧/٣.

العظيم، وقد قيل: «فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكبر».
وتأتي بعد ذلك النَّتيجة في بيان ثمرة التّجارة الرّابحة المنجية، وهي:

١- غفران الذّنوب والآثام جميعاً ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، والآية مطلقة وموحية بأنَّ جميع ذنوب الإنسان تغفر بتلك المتاجرة مع الله تعالى.

٢- الدّخول إلى الجنّة دار الرّحمة والرّضوان ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾، وهي النَّتيجة المترتّبة على غفران الذّنوب مطلقاً.

٣- الإسكان بمساكن طيّبة في جنّات عدن ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهو إيحاء إلى العوض العظيم الأبديّ على ما بذله الإنسان من نفسه وماله ومساكنه الفانية في الدُّنيا هذا في الآخرة، وهو ما عبّرت عنه الآية بالفوز العظيم.

٤- النّصر الإلهيّ والفتح القريب في الدُّنيا: وهي الثّمرة العاجلة الَّتي تسرع إليها النَّفس الإنسانيّة وتشتاق لها.. إنَّها النصر والفتح القريب... وتلك هي بشارة الفوز الأعظم في الجنان، والفتح والنَّصر على الأعداء، والبشارة العظمى هي: الرّضوان الإلهيّ والرَّحمة منه، والنَّعيم الخالد في دار رحمته الَّتي فيها من النَّعيم «ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطَرَ على قَلْبِ بشَرٍ»[1].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[2].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٨١، ح/٣١٠.

(٢) التّوبة: ٢٠-٢١.

# الْعَدْلُ في الإسلام

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

أمر إلهيّ بثلاث خصال: هي دعائم الحقّ، والخير، والجمال، والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة، بها تبنى الحضارات الإنسانيّة، وعلى أساسها تُسعد المجتمعات الخيِّرة، وعلى هديها تقام الدّول والحكومات السَّليمة العادلة، وهي: **العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى**...

ونهي قاطع عن ثلاث رذائل هي الأساس والمنطلق للفساد، والهدم، والتَّخريب، والبوار والدّمار، فما سادت في مجتمع إلا تمزَّق، ولا في دولة إلا انهارت، ولا في حضارة إلا بادت تلك هي: **الفحشاء، والمنكر، والبغي**.

## مَعْنى الْعَدْلِ:

العدل: هو «خلاف الجور، يقال: عدل عليه في القضية فهو عادل، وبسط الوالي عدله ومعدلته ومعدَلته، وفلان من أهل المعدَلة، أي من أهل العدل»[2].

فهو في اللّغة: «القصد في الأمور، وهو عبارة عن الأمر المتوسّط بين طرفي الإفراط والتَّفريط»[3]، وبين اليمين والشّمال فكلاهما مضلّة[4].

---

(١) النّحل: ٩٠.

(٢) الجوهريّ، الصّحاح: ١٧٦٠/٥، (عدل)

(٣) د.محمود عبد الرّحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة: ٤٨٣/٢.

(٤) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْيَمينُ والشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّريقُ الْوُسْطى هيَ الْجادَّةُ، عَلَيها باقي الْكِتابِ، وآثارُ النُّبوَّةِ، ومِنْها مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْها مَصيرُ الْعاقِبَةِ**»، نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

فالعدل يناقض الظُّلْمُ ويعاكسه؛ قال ابن منظور: «الظُّلم: وَضْع الشّيء في غير موضعه... وأصل الظُّلم الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحدّ... والظُّلْم: المَيْلُ عن القَصد، والعرب تَقُولَ: الْزَمْ هذا الصَّوْبَ، ولا تَظْلِمْ عنه أي لا تَجُرْ عنه»[1].

وهذه الثّلاثة: الجور، والانحراف، والميل ترجع إلى أصل واحد، وبالنَّتيجة تعطي معنى واحداً، وبناءً على أنَّ العدل خلاف الظّلم يكون معنى العدل: وضع الشّيء في موضعه المناسب له، ومن مصاديقه المساواة، ورعاية الحقوق، والاستحقاقات، وعدم التّمييز غير المنصف بين أبناء البشر، هذا هو المعنى اللّغويّ، وأما المعنى العقائديّ للعدل فلنستوحه من حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «**التَّوْحيدُ أَنْ لا تَتوهَّمَهُ، وَالْعَدْلُ أَلا تَتَّهِمَهُ**»[2].

فالعدل هو الأصل الثّاني من أصول الدّين الإسلاميّ، وهو فرع التَّوحيد، ومعناه العقائديّ أنَّ الله عادل في مخلوقاته تكويناً وتشريعاً، فلا يفعل قبيحاً، ولا يخلّ بواجب، ولا يجور في حكم، أو ابتلاء، يثيب المطيعين على طاعتهم، ويعاقب المسيئين على إساءتهم؛ لأنَّه جعلهم مخيَّرين في أعمالهم، فلم يجبرهم على فعل أو ترك[3]، وبهذه المزيّة فضَّلَ اللهُ الإنسان على باقي المخلوقات، وسخّرها له، وأمره بطاعته واجتناب معاصيه رغم أنَّه غير محتاج لطاعته، ولا تضرّه معصيته، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ اللهَ - سُبْحانَهُ وَتَعالى - خَلَقَ الْخَلْقَ حينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً**

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٣٧٣/١٢، (ظلم).

(٢) نهج البلاغة: ٥٦٢، قصار الحكم: ٤٥٨.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أَمَرَ عبادَهُ تَخْييراً، ونَهاهُمْ تَحْذيراً، وكَلَّفَ يَسيراً، ولَمْ يُكَلِّفْ عَسيراً، وأَعْطى عَلَى الْقَليلِ كَثيراً، ولَمْ يُعْصَ مَغْلوباً، ولَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً، ولَمْ يُرْسِلِ الأَنْبياءَ لَعِباً، ولَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ للْعِبادِ عَبَثاً، ولا خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»، نهج البلاغة: ٤٩٧، قصار الحكم: ٧٣.

**عَنْ طاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لأنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصاهُ، وَلا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَطاعَهُ»**[١].

وقال عليه السلام: «**وَلا يَنْقُصُ سُلْطانَكَ مَنْ عَصاكَ، وَلا يَزِيدُ في مُلْكِكَ مَنْ أَطاعَكَ**»[٢]؛ ومع هذا فـ«**إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَضَعَ الثَّوابَ عَلى طاعَتِهِ، وَالْعِقابَ عَلى مَعْصِيَتِهِ ذِيادَةً**[٣] **لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً**[٤] **لَهُمْ إِلى جَنَّتِهِ**»[٥]؛ لأنَّ في الطّاعة نفع الإنسان وسعادته، وفي المعصية ضرره وهلاكه.

وقد أشار بعض المفكّرين إلى أنَّ العدل على أربع معانٍ[٦]:

**الأوّل: التَّناسب والتّوازن:** عند استقراء الحقائق الكونيّة نجد أنَّ الكون قائم على التّوازن والتّناسب بين الأشياء من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، وهذا التّوازن هو التّوازن التّكوينيّ، ومعناه «كون العالم قد روعي في بنائه التّعادل، فاستفيد من كلّ شيء ومن كلّ مادة بقدر ما يلزم، وقد قيست الفواصل بدقّة متناهية»[٧]، فنرى الفواصل بين الشَّمس والأرض متناسبة لبقائها واستمرارها وديمومتها... إي إنَّ كلّ جزئيّ في الكون وضع في المكان المناسب الَّذي لا يحدث خللاً في تكوينه، مثلاً: السّيّارة لمّا صنعت بهدف حركتها للنّقل لا بدَّ أن يُركّب كلّ جزء بالمكان

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة: ١٨٧، خطبة: ١٠٨.

(٣) ذيادة: أي منعاً لهم عن المعاصي الجالبة للنّقم، فـ«الذّياد: الطَّرد» الصّحاح: ٤٧١/٢، (ذود).

(٤) حيا شة: من حاش الصّيد جاءه من حواليه؛ ليصرفه إلى الحبالة، ويسوقه إليها؛ ليصيده أي سوقاً إلى جنّته، فمعنى «حشْتُ الإبلَ: جمعتها وسقتُها» المصدر نفسه: ١٠٠٢/٣، (حوش).

(٥) نهج البلاغة: ٥٤٧، قصار الحكم: ٣٥٨.

(٦) ينظر: العدل الإلهيّ للأستاذ الشّهيد مرتضى المطهّريّ: ٦٨-٧٤.

(٧) العدل الإلهيّ: ٧٠.

المناسب؛ ليتحقّق الهدف منها، والتّعادل الكيمياويّ لا بدّ أن يكون كلّ عنصر من العناصر المكوّنة للمركّب يحلّ في محلّه الَّذي خلق لأجله؛ ليتسنّى للطّبيعة أن توازن وتستقيم[(١)].

وهكذا نجد التّوازن في كلّ جزء من جزئيّات الكون بارزة للعيان، ولعلَّ هذا المعنى هو المقصود من الحديث المرويّ: «**بِالْعَدْلِ قامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ**»[(٢)].

«ومعناه أنَّ حياة البشر المحدودة في الكرة الأرضيّة ليست وحدها الَّتي يكون قوامها العدل، بل أنَّ حياة ووجود الكون بأكمله، والسَّماوات والأرضين كلّها قائمة بالعدل، وفي ظلّ حالة من توازن القوى الفاعلة فيها، ووجود واستقرار كلّ شيء في محلّه منها، بحيث لو أنَّها انحرفت عن هذا التّوازن لحظة واحدة أو بمقدار قيد أنملة لحكمت على نفسها بالفناء والزّوال»[(٣)].

ولعلَّ هذا المعنى يظهر في قوله تعالى: ﴿**وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ**﴾[(٤)].

وأمّا التّناسب والتّوازن الاجتماعيّ، فيعني أن «يكون كلّ شيء فيه موجوداً بالقدر اللازم، وليس بالقدر المساوي»[(٥)]؛ لأنَّ المجتمع يحتاج إلى مختلف الطّاقات والفعاليّات الاقتصاديّة، والسّياسيّة، والقضائيّة، والزّراعيّة، والتّربويّة؛ ومن بديهيّات الأمور أنَّ الناس مختلفون في طاقاتهم الفكريّة، والجسديّة، والابتكار،

---

(١) ينظر: العدل الإلهيّ: ٦٩.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٤٤٩، (عدل).

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥٥٩/٣.

(٤) الرّحمن: ٧.

(٥) العدل الإلهيّ: ٦٩.

والإبداع كما يختلفون في واجباتهم وحقوقهم واحتياجاتهم، ومن هنا لأجل موازنة المجتمع لا بد وأن ننظر بعين القدر اللازم لا بالقدر المتوازن، وقد تقدَّم مثال السّيّارة، فإنَّا لو ساوينا في الوضع المكانيّ لاستحالت الاستفادة منها، واستحالت حركتها.

وخلاصة الكلام: إنَّ «العدل - بمعنى التّناسب والتّوازن - من لوازم كون الله حكيماً وعليماً، فهو سبحانه بمقتضى علمه الشّامل، وحكمته العامّة يعلم أنَّ لبناء أيّ شيء مقادير معيّنة من العناصر، فهو يركّب تلك العناصر لإشادة ذلك البناء»[1].

**الثّاني: العدل بمعنى التَّساوي:** ونفي أيّ لون من ألوان التَّرجيح، ونعني بالتَّساوي أن ننظر إلى الأشياء بنظرة واحدة من دون تمييز مع غضّ النَّظر عن الاستحقاق، والعدل بهذا الشّكل يكون ظلماً؛ لأنَّه بخس لقيمة الأشياء النّادرة، وإلا كيف يمكن أن ننظر إلى الذَّهب والفحم على أنَّه بدرجة واحدة.

ولكن قد يشكل على هذا أنَّ هذا قياس أفراد البشر بالماهيّات الجامدة.. والجواب أنَّ أبناء البشر متفاوتون في القدرات الفعليّة والجسديّة والملكات النّفسيّة، وعندما نريد أن نكلّف الكلّ بالسّواسيّة من دون مراعاة تلك القدرات والملكات، فإنَّ ذلك يؤدّي إلى إيقاف حركة المجتمع؛ لأنَّنا لا يمكن أن نضع الطّيّار مكان الحدّاد والنّجّار، ولا يمكن أن نضع المقنّن القانونيّ مكان بائع الخضراوات؛ لأنَّ المجتمع يحتاج إلى أنواع مختلفة من الأشياء والقدرات والأفعال، ولا يصلح الكلّ للكلّ..

ويصحّ التّساوي إذا صحّ تساوي القدرات والملكات، وهذا غير ممكن

---

(١) العدل الإلهيّ: ٧٠-٧١.

بتكوين البشر، وسبحان القائل في كتابه الكريم: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾(١).

قال الفخر الرّازيّ في تفسير الآية: «إنّا أوقعنا هذا التّفاوت بين العباد في القوّة، والضَّعف، والعلم، والجهل، والحذاقة، والبلاهة، والشّهرة، والخمول، وإنَّما فعلنا ذلك لأنّا لو سوَّينا بينهم في كلّ هذه الأحوال لم يخدم أحد أحداً، ولم يصر أحدٌ منهم مُسخّراً لغيره، وحينئذٍ يفضي ذلك إلى خراب العالم، وفساد نظام الدُّنيا»(٢).

فالتَّساوي المطلق إذن في عالم الاجتماع مستحيل؛ لأنَّ متطلّبات الحياة مختلفة، والقدرات متباينة، والكلّ محتاج إلى الكلّ، ولا يمكن لإنسان أن يكتفي بذاته لذاته، وينقطع عن الآخرين، وإنَّما التَّساوي في الخلق، فعلى كلّ البشر أن يحترموا كلّ البشر، فهم من لحمة واحدة، ولا يجوز لأحد أن يحتقر أحداً للونه أو لغته أو مهنته أو مكانته الاجتماعيّة، فهو إمّا نظير له في الخلق، أو أخ له في الدّين، كما أكّد ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بوصيّته لمالك الأشتر لمّا ولاه مصر:

**«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعِيَّة، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بهِمْ، وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفان: إِمّا أَخٌ لَكَ في الدِّين، وَإِمّا نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْق»**(٣).

**الثّالث: رعاية الحقوق بين الأفراد:** أي إعطاء كلّ فرد ما يستحقّه، ويقوم على دعامتين:

---

(١) الزّخرف: ٣٢.

(٢) الفخر الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ٢٧/٢١٠-٢١١.

(٣) نهج البلاغة: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

أ- الحقوق والأولويّات، فصاحب الابتكار والإبداع في عمل ما هو أولى به من غيره، ولا يمكن أن يتساوى مع غيره في ذلك الابتكار.

ب- الخاصيّة الذّاتية للإنسان: وهي أيضاً تقوم على مراعاة الخصوصيّات الَّتي يتّصف بها كلّ فرد من أبناء المجتمع ومراعاة الأولويّات فيها، ومن الظُّلم أن يتجاوز على أولويّة الآخرين، والتّصرّف في حقوقهم، وهذا ممنوع محرّم في شرعة الله تعالى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**قيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِنُهُ**»(١).

ولئلا يزهد النّاس بالإحسان لا ينبغي أن نساوي بين المحسن والمسيء، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لمالك الأشتر: «**وَلا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَواءٍ؛ فَإنَّ في ذلكَ تَزْهيداً لأَهْلِ الإِحْسانِ في الإِحْسانِ، وَتَدْريباً لأَهْلِ الإِساءَةِ عَلى الإِساءَةِ**»(٢).

**الرّابع: رعاية الاستحقاق في إفاضة الوجود:** وعدم الامتناع عن الإفاضة والرَّحمة حيث يتوفّر الإمكان والوجود، «فالعدل الإلهيّ حسب هذه النّظريّة يعني أنَّ أيَّ موجودٍ يأخذ من الوجود، ومن كمال الوجود المقدار الّذي يستحقّه، وبإمكانه أن يستوفيه»(٣).

فالعدل إذن هو «عبارة الفيض العامّ، والعطاء العريض لكلّ الموجودات الَّتي لها إمكانيّة الوجود أو إمكانيّة نوع من الكمال من دون إمساك أو ترجيح»(٤).

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٨، قصار الحكم: ٨١

(٢) المصدر نفسه: ٤٥٢-٤٥٣، كتاب: ٥٣.

(٣) العدل الإلهيّ: ٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٧٧.

## مُلْحَقٌ:

١- إنَّ الفاعليّة الإلهيّة والتّدبير الإلهيّ قائم على أساس العدل، يقول تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾(١).

٢- إنَّ العدل هو المعيار لله سبحانه وتعالى في موضوع الخلقة، يقول تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾(٢)، ورُوِيَ: «بِالْعَدْلِ قامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ»(٣).

٣- اهتمَّ القرآن الكريم بالعدل التّشريعيّ، أي مراعاة أهل العدل دائماً في النّظام الاعتياديّ والتّشريع القانونيّ، وإنَّ الهدف من إرسال الأنبياء وبعثة الرّسل إنَّما هو قيام النّظام البشريّ وإرساء الحياة الإنسانيّة على أساس العدل.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾(٤).

٤- يعدّ القرآن الكريم الإمامة والقيادة عهداً إلهيّاً ينبعث عنه النّضال ضدّ الظّلم، ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٥).

٥- العدل هو الأساس في المرافعة والمحاكمة، يقول تعالى:

---

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) الرّحمن: ٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ٤٤٩، (عدل).

(٤) الحديد: ٢٥.

(٥) البقرة: ١٢٤.

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾[١].

﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾[٢].

وكما أنَّ العدل أصلٌ من أصول الدّين، فهو صفةٌ من صفات الله الثبوتية منها «تنبثق بقيّة الأصول الاعتقاديّة، أعني النّبوّة والإمامة واليوم الآخر...»[٣]، فالاعتقاد بالعدل، والالتزام به له دور مهمٌّ في حياة الإنسان، فعندما «يشعر الإنسان أنَّ كلّ شيء يقوم على عدالة الله سبحانه، سواء في خلقه للكون، أو في وضعه للتّشريع، فإنَّه يشعر بالانسجام التّامّ بين فطرته الدّاخليّة الّتي تدعوه إلى العدل، وبين الكون والتَّشريع القائمين على العدل، فتتوجّه أعماله إلى إشاعة العدل في كلّ شؤونه الفرديّة والاجتماعيّة، وبذلك ينتفي الظّلم والجور في المجتمع»[٤].

فالعدل إذن دعامة من دعائم الإسلام المهمّة، وأقوى أساس من أسس الكون والحياة، فهو «**رَأْسُ الإيمان، وَجَماعُ الإحْسان، وَنظامُ الْبَرِيَّة وأَفْضَلُ سَجِيَّة، وَقِوامُ الْعالَمِ، وَميزانُ اللهِ، وقِوامُ الرَّعِيَّةِ، وَجُنَّةُ الدُّوَلِ، وَحَياةُ الْحُكّامِ**»[٥].

وقد جعل الإسلام العدل أسمى المواهب الأخلاقيّة، وأقوى حصن يحرس الأسرة والمجتمع والدّولة؛ بل هو العمود الفقريّ الّذي تقوم عليه الحضارات،

---

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) الطّلاق: ٢.

(٣) لبيب بيضون، تصنيف نهج البلاغة: ١٥١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) هذه نصوص حديثيّة وردت في وصف العدل على لسان أمير العادلين عليّ عليه السلام، راجع تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم للآمديّ: ٩٩، و٣٤٠، و٤٤٦.

وتسعد المجتمعات، وتنجو به من شقاء الدُّنيا والآخرة، كما ورد في الحديث الشَّريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الْعَدْلَ ميزانُ الله سُبْحانَهُ الَّذي وَضَعَهُ في الْخَلْقِ، ونَصَبَهُ لإقامَةِ الْحَقِّ، فلا تُخالِفْهُ في ميزانِهِ، ولا تُعارِضْهُ في سُلْطانِهِ**»(١).

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**ما خَلَقَ اللهُ أَجَلَّ مِنَ الْعَدْلِ، والْعَدْلُ ميزانُ الله في الأَرْضِ، فَمَنْ أَخَذَهُ قادَهُ إلى الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَهُ ساقَهُ إلى النّارِ**»(٢).

ثمّ إنَّ العدل يدخل في كلّ جانب من جوانب حياة الإنسان سواء كان في العقيدة أو النّظام... فالعدل في الاعتقاد أن يعتنق الإنسان العقيدة السَّليمة الحقّة الَّتي تحدّد له وجهته في الكون والحياة، ولعلَّ هذا معنى ما ورد في الحديث: «**الْعَدْلُ شَهادَةُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسولُ الله صلى الله عليه وآله**»(٣).

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «العدل شهادة الإخلاص، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله»(٤).

وعن ابن عبّاس في بعض الرّوايات: «**الْعَدْلُ شَهادَةُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ**»، وفي رواية أخرى: «**الْعَدْلُ خَلْعُ الأَنْداد**»(٥).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٩٩، ح/١٦٩٦.

(٢) قطب الدّين الرّاونديّ، لبّ اللّباب: ٤٩/٢.

(٣) تفسير القمّيّ: ٥٥٦/٢.

(٤) الدّيلميّ، غرر الأخبار ودرر الآثار: ١٥٢.

(٥) التّفسير الكبير: ١٠٣/٢٠.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعَدْلُ أَلا تَتَّهِمَه**»(١).

قال الشَّهيد مرتضى مطهّري قدس سره: «ومن الأمور المسلّمة، وغير القابلة للتّردّد أنَّ معرفة الله بعنوان أنَّه «الآمر بالعدل» أو «القائم بالعدل» أمر أساسيٌّ أقامت عليه الأديان السّماويّة رابطة البشر مع الله»(٢).

فالاعتقاد بكون الله عادل يعني: «هو أنّه لا يخلّ بواجب في حكمته، ولا يفعل قبيحاً، وإذا ثبت بالبرهان كونه تعالى عالماً لا يجهل شيئاً، وغنيّاً لا يحتاج إلى شيء ثبت كونه عادلاً من حيث كان وقوع القبيح لا يصحّ إلا لجهل به، أو لسهو عنه، أو حاجة إليه، وكلّ ذلك مستحيل فيه تعالى، فيجب القطع على كونه عادلاً، والحكم بجميع أفعاله، وما يتعلّق بها بالحسن»(٣).

والعدل بمفهومه الأخلاقي (اعتدال قوى النّفس) ذاتاً وصفاتاً، وعلامة ذلك: توسّط الإنسان في جميع شؤون حياته الخاصّة والعامّة بلا إفراط، ولا تفريط، سالكاً الجادّة الوسطى في قوله وعمله، وفي حبّه وبغضه، وفي رضاه وغضبه كما تقدَّم قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطى هِيَ الْجادَّةُ، عَلَيها باقِي الْكِتابِ، وَآثارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْها مَنْفَذُ السُّنَّة، وَإِلَيْها مَصِيرُ الْعاقِبَة**»(٤).

وأمّا العدل بمفهومة الاجتماعيّ: هو أن يُنصف الإنسان الآخرين فيما يأخذ، وفيما يعطي، وفيما يحب، وفيما يبغض... قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده

---

(١) نهج البلاغة: ٥٦٢، قصار الحكم: ٤٥٨.

(٢) العدل الإلهيّ: ٥٩.

(٣) أبو الصّلاح الحلبيّ، الكافي في الفقه: ٤٥-٤٦.

(٤) نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

الحسن عليه السلام: «**يا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ ميزاناً فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَها، وَلا تَظْلِمْ كَما لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَما تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النّاسِ بِما تَرْضاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ ما تَعْلَمُ، وَلا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أَنْ يُقالَ لَكَ**»(١).

فالعدل هنا هو إقامة المساواة والموازنة في التّعامل الاجتماعيّ بأن يعطي لغيره من الحقّ بمقدار ما يريد أن يأخذه لنفسه، وبعبارة أوضح العدل: «وضع الشّيء في موضعه»، وإيصال الحقّ إلى مستحقّه بحسب قدرته واستطاعته، ويعمّ هذا جميع جوانب الحياة الإنسانيّة: الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، والقضائيّة... فالعدل الاجتماعيّ إذن «يكفل لكلّ فرد، ولكلّ جماعة، ولكلّ قوم قاعدة ثابتة للتّعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثّر بالودّ والبغض، ولا تتبدّل مجاراة للصّهر والنّسب، والغنى والفقر، والقوّة والضّعف، إنّما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع»(٢).

وقال العلامة الطّباطبائيّ قدس سره: «وكيف كان فالعدل، وإن كان منقسماً إلى عدل الإنسان في نفسه، وإلى عدله بالنّسبة إلى غيره، وهما العدل الفرديّ والعدل الاجتماعيّ، واللفظ مطلق، لكن ظاهر السّياق أنَّ المراد به في الآية العدل الاجتماعيّ، وهو أن يعامل كلّ من أفراد المجتمع بما يستحقّه، ويوضع في موضعه الَّذي ينبغي أن يوضع فيه، وهذا أمر بخصلة اجتماعيّة متوجّه إلى أفراد المكلّفين

---

(١) نهج البلاغة: ٤٢٢، كتاب: ٣١.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٢٧٤/٥.

بمعنى أن الله سبحانه يأمر كلّ واحد من أفراد المجتمع أن يأتي بالعدل، ولازمه أن يتعلّق الأمر بالمجموع أيضاً، فيكلّف المجتمع إقامة هذا الحكم، وتتقلّده الحكومة بما أنَّها تتولّى أمر المجتمع وتدبّره»(١).

وهكذا فالعدل إذن يدخل في كلّ مسارب حياة الإنسان: مع نفسه، ومع أهله، ومع أصدقائه، بل يجب أن يعدل المؤمن قولاً وفعلاً حتّى مع أعدائه وشانئيه، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(٢).

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(٣).

## الإِحْسانُ:

ولمّا كان قانون العدل قاطعاً وحادّاً لا يقبل المهادنة، ولا المجاملة مع أيّ إنسان، بل يعطي كلّ ذي حقّ حقَّه، ويأخذ من الظّالم، ويعطي للمظلوم حقّه... أمر تعالى بالإحسان، وعطفه عليه، فكما أمر الله تعالى بالعدل، أمر بالإحسان، وقد فُسِّر الإحسان بالتَّفضل على الغير، «وهو إيصال خير، أو نفع إلى غير، لا على سبيل

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٢/٣٣١-٣٣٢.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) الأنعام: ١٥٢.

المجازاة والمقابلة كأن يقابل الخير بأكثر منه، ويقابل الشَّرَّ بأقلّ منه... ويوصل الخير إلى غير متبرّعاً به ابتداءً»[١].

ويؤيّد هذا التَّفسير ما ورد في الحديث: «**إنَّما الإحْسانُ أَنْ تُحْسِنَ إلى مَنْ أَساءَ إِلَيْكَ، لَيْسَ الإحْسانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ**»[٢].

والإحسان معنى جامع لجميع معالم الخير، فلا يُحصر في جانب واحد من العطاء المادّيّ أو المعنويّ، وإنّما كلّ ما يدخل السّرور إلى القلب، فهو إحسان، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كُلُّ مَعْرُوف إِحْسانٌ**»[٣]، كلمة طيّبة، أو ابتسامة هادئة صادقة، أو معونة كريمة، أو عاطفة ناضجة حانية على مسكين أضناه الدَّهر، أو إرشاد ونصيحة شفيقة... كلّ ذلك إحسان لا يستهان به، وهو طريق الإنسان إلى القلوب... فالإسلام أراد لأتباعه أن يكونوا محسنين في القول والفعل، ولا يحقّ لمسلم أن يتجاوز هذا المَعلَم حتّى في الهجران الّذي يوحي بالقطيعة، فحتّى المقاطعة للآخرين وهجرانهم ينبغي أن يكون جميلاً: ﴿**وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾[٤].

والإحسان الاجتماعيّ فرع الإحسان مع الله تبارك وتعالى، فمن حَسَّنَ علاقته مع الله، وأصلحها، حَسَّنَ الله علاقته مع النّاس، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَمَنْ أَحْسَنَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الله كَفاهُ اللهُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ النّاسِ**»[٥].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٢/١٢.

(٢) ابن أبي حاتم الرّازيّ، تفسير القرآن العظيم: ٣٠٨٥/٩، ح/١٧٤٥٦.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٣، ح/٨٧١٨.

(٤) المزمّل: ١٠.

(٥) نهج البلاغة: ٥٥٦، قصار الحكم: ٤١١.

ثمّ إنَّ الإحسان سبيل عظيمٌ من سبل الإصلاح الاجتماعيّ في جميع مجالاته مع الموافق والمخالف، ومع الصّديق والعدوّ، فعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إنّي لأتسارعُ إلى قضاءِ حوائجِ أعدائي مَخافةَ أنْ أردَّهُمْ فيَستَغْنوا عنّي**»[1].

وبالتّالي: الإحسان أفضل السُّبل للإمارة والقيادة من دون قوّة مادّيّة، وإجبار سلطويّ، قال سيّد المحسنين عليّ عليه السلام: «**أَحْسِنْ إلى مَنْ شئْتَ وكُنْ أميرَهُ**»[2].

والأمر الثّالث هو إيتاء ذي القربى، وهو فرع من فروع الإحسان، وإنّما خصّ ذا القربى؛ لمزيد عناية في تكوين الخليّة الاجتماعيّة المتّصلة رحماً وقرابة، ولعلَّ هذا إشارة إلى التَّأكيد على التّرابط الرّحميّ؛ ليكون امتداداً للتّرابط الاجتماعيّ الأوسع، وحالة تدرّج من المحيط الأسريّ إلى المحيط الاجتماعيّ الأرحب، فمن كان ديدنه الإحسان والتّعاون في دائرة عائلته، وتربّى عليها حتّى صارت طبعا وعادة وسلوكاً، فسوف ينقل ذلك إلى خارجها.

## التّفاضُلُ بَيْنَ الإِحْسانِ وَالْعَدْلِ:

وهنا قد يثار تساؤل: أيّهما أفضل العدل أم الإحسان؟

وللجواب على ذلك نرجع إلى سؤال وُجّهَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أيّهما أفضل، العدل أم الجود؟ فقال عليه السلام: «**الْعَدْلُ يَضَعُ الأُمورَ مَواضِعَها، والْجودُ يُخْرِجُها عَنْ جِهَتِها**»[3].

قال الشّهيد مرتضى مطهّري قدس سره: «فالعدل هو أن ينال كلّ ذي حقّ حقَّه،

---

(١) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ١٧٥/٢.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٥، ح/٨٧٧٧.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٨، قصار الحكم: ٤٢٥.

والجود هو أن يتنازل المرء من حقّه، ويجود به على من لا حقَّ له فيه، وعليه فالجود يخرج الأشياء من مواضعها. «**وَالْعَدْلُ سائِسٌ عامٌّ، وَالْجودُ عارِضٌ خاصٌّ**»(١)، فالعدل هو أساس إدارة الشّؤون العامّة، والّذي تبنى عليه قواعد الحياة الاجتماعيّة، أمّا الجود فحالة استثنائيّة خاصّة بمن يُؤْثر غيره على نفسه. [فـ]ـلا يمكن اعتبار الجود والإيثار أساسين من الأسس الَّتي تبنى عليها الحياة الاجتماعيّة العامّة بحيث يمكن إقرارهما ووضع القوانين بموجبهما لإجرائهما»(٢).

ثمَّ عقّب الشّهيد مطهّري قُدِّسَ سِرُّهُ: «العدل في المجتمع بمنزلة العُمد الّتي يقوم عليها البناء، والإحسان في المجتمع بمنزلة تزيين ذلك البناء بالأصباغ والألوان، فينبغي العناية بسلامة العمد أوّلاً، ومن ثمّ يأتي دور الصّبغ والتّجميل. فإذا كانت البناية خاوية في أسسها، فما فائدة الأصباغ والنّقوش؟ أمّا إذا كانت أسس البناية متينة، فيمكن السّكن فيها حتّى إذا لم يجرِ عليها شيء من التَّجميل والتَّلوين، وقد تكون بناية قد أسرف في تجميلها وزخرفتها وتزيين ظاهرها، ولكنّها تكون واهية الأسس، عندئذٍ ربّما تكفي زخّة مطر واحدة لتنهار على ساكنيها»(٣).

## عَوْدٌ إِلى الآيَةِ الْمُبارَكَةِ:

وبعد أن تعرض الآية الكريمة الأسس الثّلاثة في البناء الإنسانيّ: نفسيّاً واجتماعيّاً بصيغة الوجوب يأتي النَّهي عن مبادئ التّخريب، والتّدمير، والهدم، هذه العوامل هي:

---

(١) نهج البلاغة: ٥٥٨، قصار الحكم: ٤٢٥.

(٢) الشّهيد مرتضى مطهّري، محمّد وعليّ النّبيّ والإمام: ٣٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣٩١-٣٩٢.

**الفحشاء**: وهي «ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[١] والمواقف، والفحش هو الخروج عن حدود الشّرع والعقل حتّى يوقع الإنسان في الإفراط، أو التَّفريط، ويخرجه عن الجادّة الوسطى.

وقد حذَّر الإسلامُ من هذه السّمة القبيحة، قال رسول الله ﷺ: «**إيّاكُمْ وَالْفُحْشَ؛ فَإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يُحبُّ الْفاحشَ الْمُتَفَحِّشَ**»[٢].

وقال ﷺ: «**الْجَنَّةُ حَرامٌ عَلَى كُلِّ فَاحش أَنْ يَدْخُلَها**»[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ لَيسا منَ الإِسْلام**»[٤].

**والمنكر**: وهو «ما لا يعرفه النّاس في مجتمعهم من الأعمال الَّتي تكون متروكة عندهم لقبحها أو إثمها»[٥].

**والبغي**: وهو الظّلم والاستعلاء على الآخرين، والتّعدّي على حقوق المسلمين بغير حقّ.

وهذه الثّلاثة ما سادت في قوم أو حضارة أو مجتمع إلا مزَّقته وأسقطته في قعر الهاوية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَاللهَ اللهَ في عاجِلِ الْبَغْيِ، وآجِلِ وَخامَةِ الظُّلْمِ، وَسوءِ عاقبَةِ الْكِبْرِ؛ فَإنَّها مَصْيَدَةُ إبْليسَ الْعُظْمى، ومَكيدَتُه الْكُبْرى الَّتي تُساوِرُ قُلوبَ الرِّجَالِ مُساوَرَةَ السُّمومِ الْقاتلَة، فَما تُكْدي**[٦] **أَبَداً، ولا**

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٥١٦، (فحش).

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١٧٦/١.

(٣) ابن أبي الدّنيا، كتاب الصّمت وآداب اللّسان: ١٨٤، ح/٣٢٢؛ وكنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٥٩٨/٣، ح/٨٠٨٥.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢٣، ح/٤٤٨٨.

(٥) الميزان في تفسير الميزان: ٣٣٣/١٢.

(٦) أكدى الحافر: إذا عجز عن التّأثير في الأرض.

**تُشْوي(١) أَحَداً، لا عالماً لعلْمه، وَلا مُقلاً في طمْره»(٢).**

وقال العلامة الطَّباطَبائيّ قدس سره: «وهذه الثَّلاثَة، أعني الفحشاء والمنكر والبغي، وإن كانت متّحدة المصاديق غالباً، فكلّ فحشاء منكر، وغالب البغي فحشاء ومنكر، لكنَّ النّهي إنَّما تعلّق بها بما لها من العناوين لما أنَّ وقوع الأعمال بهذه العناوين في مجتمع من المجتمعات يوجب ظهور الفصل الفاحش بين الأعمال المجتمعة فيه، الصّادرة من أهله فينقطع بعضها من بعض، ويبطل الالتيام بينها، ويفسد بذلك النَّظم، وينحلّ المجتمع في الحقيقة، وان كان على ساقه صورة، وفي ذلك هلاك سعادة الأفراد»(٣).

والبغي يقود أصحابه إلى النّار، ولا يموت صاحبه حتّى يرى وباله، وهو من الذّنوب الَّتي تغيّر النّعم، وأسرع الشَّرّ عقوبة، إذ يقود سائقه إلى الهلاك والشّره، وهو آفة الشّجاعة، ومن بغى كثرت غوائله وعلاته، ومن سلَّ سيف البغي قُتلَ به(٤).

---

(١) الإشـواء: خطأ المقتل، يقال: رمى فأشـوى، أي لم يصـب المقتل، كأنَّه يصـيب الشّـوى وهي الأطراف كاليد والرّجل.

(٢) نهج البلاغة: ٣٢٣، خطبة: ١٩٢؛ والطّمر: الثّوب الخلق.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/٣٣٣.

(٤) هذا ملخّص ما جاء في الأحاديث الشَّريفة في بيان عواقب البغي.

## الْفِهْرَسْتُ:


**أهداف معركة بدر........................................................................٧**

أسباب القتال.....................................................................................٧

يوم الفرقان.......................................................................................١٥

أسباب انتصار المسلمين.....................................................................١٧

نتائج معركة بدر................................................................................٢٥

**الجهاد في الله.............................................................................٢٧**

**محمّد رسول الله...........................................................................٣٥**

موقفهم في مواجهة الكافرين.............................................................٣٦

حالاتهم فيما بينهم............................................................................٤٠

حالاتهم مع الله تعالى.......................................................................٤٣

**علائم الرّبّانيّين.............................................................................٤٧**

**خطوات في طريق الكدح إلى الله تعالى.........................................٦١**

**المؤمنون حقّاً........................................................................ ٨٥**

الصّفات الخمسة........................................................................ ٨٦

هل الإيمان يزيد وينقص........................................................................ ٩١

**عباد الرّحمن........................................................................ ١٠١**

**سمات العقلاء........................................................................ ١١٣**

العهود والمواثيق في سيرة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله........................................ ١١٩

العاقبة

الحسنة........................................................................ ١٢٩

**وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم........................................................................ ١٣١**

معاني المفردات........................................................................ ١٣١

صفات المتّقين في هذه الآيات........................................................................ ١٤٥

**الأخوّة في الله........................................................................ ١٥١**

أسس نظريّة الأخوّة الإيمانيّة في الإسلام........................................................................ ١٥٥

حقوق الأخوّة........................................................................ ١٥٧

الخلاف لا يفسد العلاقة........................................................................ ١٦٨

**الإنفاق..........................................................................١٦٩**
الثّروة في الإسلام..........................................................................١٧١
الحثّ على الإنفاق..........................................................................١٧٥
مصطلحات أربع..........................................................................١٧٨
حكمة الإنفاق..........................................................................١٨٥

**ليلة القدر..........................................................................١٩١**
الفرق بين الإنزال والتّنزيل..........................................................................١٩٢
لماذا سمّيت بليلة القدر..........................................................................١٩٣
معنى كونها خيراً من ألف شهر..........................................................................١٩٦
لماذا أخفى الله هذه اللّيلة..........................................................................٢٠٠
أمّا وقتها..........................................................................٢٠١

**الاستقبال..........................................................................٢٠٣**

**الانحراف..........................................................................٢٢١**
العوامل المؤثّرة في انحراف الإنسان..........................................................................٢٢٦
أوّلاً: عدم وضوح الهدف..........................................................................٢٢٧
ثانياً: الخضوع لفكرة مخطوءة..........................................................................٢٢٩
ثالثاً: التّلقّي الفكريّ غير السّليم..........................................................................٢٣٤

رابعاً: التّبرير........................................................ ٢٣٨
العوامل الخارجيّة في انحراف الإنسان........................................ ٢٤٠
وسائل الحصانة من الانحراف........................................ ٢٥٠

**آيات الله في البحار........................................................ ٢٥٧**
الظّواهر الطَّبيعيّة في البحار........................................................ ٢٦٠
لماذا صار البحرُ مالحاً........................................................ ٢٦١
فوائد البحر........................................................ ٢٦٤
مظاهر عجيبة وغريبة في البحر........................................................ ٢٧٦
كيف يقاس عمق البحر........................................................ ٢٧٩
أعمق النّقاط البحريّة........................................................ ٢٨٠

**المسؤوليّة في الإسلام........................................................ ٢٨٣**
المسؤوليّات الاجتماعيّة........................................................ ٢٩٨

**الأمل وذكر الموت........................................................ ٣٠٥**
الأمل في الإسلام........................................................ ٣٠٨
قصر الأمل الدّافع للعمل........................................................ ٣١١
تذكّر الموت........................................................ ٣١٢

**عقبات المسير في طريق دار رحمة الله.........................................٣١٧**

عقبات الوصول.................................................................................٣٢١

عقبة الموت.....................................................................................٣٢١

عقبة القبر.......................................................................................٣٣١

عقبة البرزخ.....................................................................................٣٣٥

العلم الحديث وعالم الأرواح..............................................................٣٣٧

عقبة المحشر....................................................................................٣٤٠

عقبة الصّراط....................................................................................٣٤٣

بحث مفصّل آخر في الصّراط..............................................................٣٤٦

ما هو الصّراط...................................................................................٣٤٨

العلاقة بين صراط الدّنيا وصراط الآخرة.................................................٣٥٠

كيف يتجاوز الإنسان تلك العقبات........................................................٣٦٥

**التّجارة المنجية................................................................................٣٦٩**

**العدل.............................................................................................٣٧٥**

معنى العدل.......................................................................................٣٧٥

ملحق..............................................................................................٣٨٢

الإحسان..........................................................................................٣٨٧

التّفاضل بين الإحسان والعدل...............................................................٣٨٩

عود إلى الآية المباركة......................................................................... ٣٩٠

**الفهرست.......................................................................................... ٣٩٢**